

مجلة شهرية تعنى بالدراسات الاسلامية وبشؤون الثقافة والفكر
تصدرها وزارة عموم الأوقاف والشؤون الاسلامية بالمملكة المغربية



العدد الثالث
السنة الثالثة عشرة
ذو القعدة، وذو الحجة
1380 1389 هـ
فبراير، ومارس
1970
ثمن العدد : درهم واحد

دعوة الحق

مجلة تصدرها وزارة
عموم الأوقاف والشؤون
الإسلامية بالمملكة المغربية

مجلة شهرية تعنى بالدراسات الإسلامية وبشؤون الثقافة والفكر

بيانات إدارية

تبعث المقالات بالعنوان التالـي :
مجلة « دعوة الحق » ـ قسم التحرير ـ وزارة عموم الاوقاف
الرباط ـ المغرب . الهاتف 10 ـ 308

الاشتراك العادي عن سنـة ، والشرفي 30 درهما فـأكثـر .

السنة عشرة اعداد . لا يقبل الاشتراك الا عن سنة كاملة .

تدفع قيمة الاشتراك في حسـاب :
مجلة « دعوة الحق » رقم الحساب البريدي 55 ـ 485 ـ الرباط

Daowat El Hak compte chèque postal 485 - 55 à Rabat

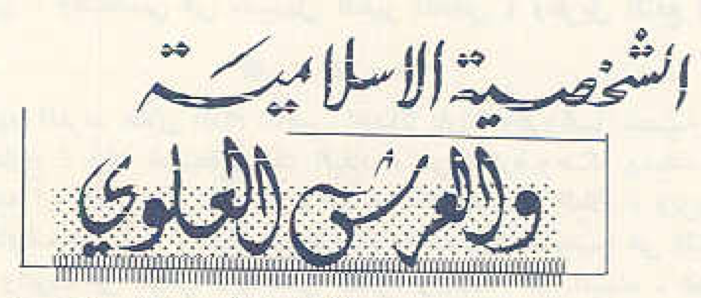
او تبعث رأسا في حوالة بالعنوان التالي :
مجلة « دعوة الحق » ـ قسم التوزيع ـ وزارة عموم الاوقاف ـ
الرباط ـ المغـرب .

ترسل المجلة مجانا للمكتبات العامة، والنوادي والهيئات الوطنية والثقافية والاجتماعية، وذلك بناء على طلب خاص .

لا تلتزم المجلة برد المقالات التي لم تنشر

المجلة مستعدة لنشر الاعلانات الثقافية .
في كل ما يتعلق بالاعلان يكتب الى :
« دعوة الحق » ـ قسم التوزيع ـ وزارة عموم الاوقاف ـ الرباط
تليفـون 10-308 ـ 03-327 ـ الرباط

كلمة العدد



لمعالي وزير عموم الاوقاف والشؤون الاسلامية
الأستاذ أحمد بركاش

بحلول شهر مارس ، وفى بداية فصل الربيع ، فصل الصفاء والبهاء والدفء ، والتفتح والبهجة والانطلاق ، حيث تأخذ الارض زخرفها ، وتزدان الرياض بالوانها ، وتنتشي الفياض بعبير خمائلها ، وتمرح الطيور بين أفنان الادواح ، وناضر الشجر ، وتبتهج النفوس بالجمال ، ويفتر البشر على الشفاه ، وتشرق البيوت بالانس ، تستقبل الامة المغربية الوفية عيدها الوطني الخالد الذى تعتبره من أجل أعيادها خطرا ، وارفعها ذكرا ، وأبلجها أثرا ، فتجدد العهد وتؤكده لسيد البلاد بمناسبة جلوسه على أريكة أسلافه الامجاد ، وتحاسب نفسها بميزان القسطاس المستقيم ، وتزن خطواتها وما قطعته من أشواط ومراحل فى حاضرها الواعي اليقظ ، ومسيرتها وتقدمها فى ظلال العرش العلوي المجيد ..

ففى يوم 3 مارس من كل سنة ، يوم ذكرى تربع صاحب الجلالة على عرش اسلافه المقدسين يحل الموعد الذى يحاسب فيه الانسان المغربي نفسه على ما أنجز من أعمال خلال سنة ماضية ، وما قام به من أعباء وتكاليف لصالح الوطن ولفائدة المواطنين فى شتى الميادين ، كما يلزم فيه لكل القوى الشعبية فى بلادنا الفتية الناهضة أن تتحمل مسؤولياتها أمام راعي الامة ، حفظه الله ، فتتجمع وتتساند لمقاومة التخلف ، وتحقيق الاماني العذاب ، والآمال الغالية ..

ونحن اذ نحتفل فى يوم 3 مارس من كل سنة بهذه الذكرى الوطنية ، فاننا نبلغ ذروة العسر فى محاسبة النفس ، وموازنة الاعمال ، ومراقبة الضمير كما نبلغ ذروة الخشية والخوف من الاهمال والتقصير فى الاحساس بالمسؤولية ، فاما أن تبتسم فى طريقنا مضاحك الفوز، ويسفر الأمل عن وجه الرضى ، ونكون ، اذ ذاك قد حققنا مكاسب ضامنة ، وخطونا خطوات ثابتة مطمئنة ، واما أن نضاعف القوى ، ونغذ السير ، لندرأ ما يعترضنا من اذى ويقينا شر العثرات ، ويجنبنا المزالق ، ويحفظ الكرامة ، ويعين على النهوض ..

ومن بوادر اليمــن والاقبــال ، ودلائل التوفيق والرضى ، ودواعي الفخر والاعزاز ، ان السنة الماضية كانت من احفل السنــوات خيرا وبركة ، واغــزر الاعوام نماء وعطاء ، فقد استقبلنا بها أيام الصحة والعافية ، اذ حقق المغرب فى تاريخه الازلي، وتراثه الخالد ، مكاسب جديدة ، ونهض باعباء خطيرة سجلهــا التاريخ الصادق الامين في ثبت الخلــود فى فصــول وضاءة لامعة من الوطنية والعبقرية والبطولة لجلالة الحسن الثاني الذى يعتمد ، حفظــه الله ، فى تاثيــل ملكه ، وانهاض شعبه على الاخلاص العامل ، والجد النزيه ، والجهاد المخلص ، والايمان المتين ، والتفانــي فى سبيــل الخير المحض ، وطريق النفع العام ..

* * *

لقد شهد المغرب خلال العام الماضي احداثا بارزة وظروفــا عصيبة سواء فى الداخل والخارج !! وقد استطاع ملك البلاد ، فى مهارة وحنكه وثبات وتعــاون وثيق مع شعبه أن يكفل ، فى الداخل ، ما يدرأ الاخطار عن البلاد ، ويزيح ما ران عليها من مخاوف مهددة ، واخطار محدقــة ، فبعث الطمانينــة فى النفــوس ، وجدد الالفة والمودة فى الوطن ، وافاض المسرة والبهجة على البيت ، فجاد حفظه الله براحته وعافيته ، وانفق من أريحيته وسخائــه على من مستهــم البأســاء والضــراء ، وارهقهم الفيضان الطــامي بالبــؤس والفقــر والحرمان !! كما أهاب بالمواطنين لمؤازرة اخوانهم ضاربا فى ذلك أروع المثل فى التضحية والفداء ، حتى عادت النفوس الى جوهرها الخالــص ، وطبيعتــها السمحة فسخت بما تمتلك ، وبذلت الرخيص والثمين فى سبيل من كادوا يذوقون لباس الجوع والخوف ..

* * *

وتوالت فى السنــوات الاخيــرة على الاسلام ضربــات عنيفــة ، وصدمات مروعة ، ومباغتات مفاجئة تلفت لها الدهر ، وتفزعت الافلاك ، واهتزت لها اركان الدنيا ، كان سببها دويلة نبتت فى الحقل العربي الاسلامي ، نباتا ساما ميكروبيــا فتاكا ، تتالف من شذاذ الشعوب ، وذؤبان الامم ، كما كان ، وبالاسف ، ضعف الاخلاق وتفتح الاطماع عند المسلمين أساسا لما وصلوا اليه من قوى متفرقــة ، واهواء متشعبة ، وآراء متضاربة مما أتاح للصوصية الدولية السيطرة والسيادة والاستغلال !! ولو أنهم ـ سامحهم الله وهداهم وأصلح بالهم ـ قالوا ربنا الله ثم استقاموا ، واخلصوا دينهم لله ، وتكتلوا صفا واحدا ، ورسموا سياسة الوجه الواحد ، ونفضوا عنهم قيود الذل والقهر والاستعباد لقهروا خصومهم ، ودمروا اعداءهم ، وامدهم الله بنصره ، وكانت لهم فى العالم الكلمة العليا ..

لكن .. لا باس بالالم الممض يجمع شتى القلوب على الاحساس المتحد !!

ولا باس بالاحداث المروعة تؤلف نافر النفوس ، وتوحد شتيت الصفوف ، فتذيب الغش ، وتفضح الزيف ، وتطرح الغثاء ، وتلفظ القشر ، وتحفز الهمم الوانية ، وتوقظ الضمائر الغافية فتدفع بها نحو التالق والصفاء ..

وقد كانت احداث السنة الماضية سببا فى رفعة الاسلام ، وتوحيد كلمة المسلمين ،وتجميع قادة شعوبهم فى وطننا العزيز حيث انعقــد فى هــذا البلــد الآمن بدعوة من امير المومنين جلالة الحسن الثاني حفظه الله ، مؤتمران عظيمــان ، مؤتمر القمة الاسلامي ومؤتمر القمة العربي ابرزا الشخصية الدولية الخطيــرة للامة الاسلامية والعربية فى المعترك الدولي ، والفا منها قوة مهيبــة الجــانب ، قوية الدعائم، متضامنة فى الدفــاع عن عزتها وكرامتهــا ، عاملــة على الــدوام

لتحقيق امجاد الاسلام ، وذكريات ايامه الاولى حيث منازل السيادة والشهامة والبطولة ...

وكان لجلالة الحسن الثاني بطل الاسلام حفظه الله وأيده مواقف حاسمة في المؤتمرين خضدت كل الصعاب ، وذللت كل العقاب ، كانت تعترض السبيل، فكان يعالجها بمهارة ولباقة وحكمة وكياسة ، تركت ألسنة الوفود تلهج بالثناء والتقدير ..

ولعل سر نجاحه وتوفيقه ، حفظه الله ، يعود الى ايمانه بربه ، ويقينه بان لا سعادة للامة الا بالتمسك بحبل الاسلام ، والرجوع الى أسس القيم الروحية . فقد جاء في الخطاب الاول لجلالته حفظه الله بمناسبة جلوسه على عرش اسلافه الغر الميامين :

« يجب ان تكون شخصيتنا الاسلامية بارزة في جميع مظاهر النهضة ... وان تاريخ المغرب نفسه ليشهد بان أزهى عصورنا هي العصور التي كان التمسك بالاسلام فيها من أبرز المميزات ، وان كل حركة تحريرية اصلاحية انما قامت على أسس القيم الروحية ، ففي اطار ديننا الاسلامي السمح سنصوغ كل عمل وكل اصلاح ، لان المكاسب الدنيوية ليست غاية في حد ذاتها ، لانها مكاسب محدودة، أما المكاسب الروحية فليست لها حدود ، لانها هي الوجود ، ولانها هي التي تمكن الفرد من حسن التصرف في مكاسبه الدنيوية ، وتكييف تصرفه بالخصال الحميدة ، حتى لا تكون في المجتمع شحناء ولا بغضاء ولا تفرقة »

كما دعا في ترحيبه بشاه ايران بمناسبة زيارته الرسمية للمغرب عام 1966 الى التعاون والتآزر بين شعوب الارض كافة حيث قال حفظه الله وأيده في نطقه الملكي :

« ان الاسلام الحنيف الذى انبثق من جزيرة العرب ، واينع غرسه في مشارق الارض ومغاربها ، وترعرعت الحضارة في ظله الوارف ، دين يعتبر المومنين اخوانا ، ويدعو الى التعارف والتعاطف بين شعوب الارض كافة ، ومن آكد الواجبات الملقاة على عاتق أولي الامر من المسلمين ، وان بعدت بهم الديار ، وشط بهم المزار ، أن يوجهوا أكبر اهتمامهم الى شؤون اخوانهم في العقيدة ، ويعملوا على اصلاح أحوالهم ، ورعاية مصالحهم ... »

وقد كان والد مولانا محمد الخامس برد الله ثراه في قدس الخلود بالرحمة والرضوان لا يومن بأي عمل الا في ظلال الاسلام الذى كان غذاءه الروحي ايام كفاحه ضد الاستعمار ، ومن كلماته الخالدة ما صرح به للسيد كامل الشريف نائب امين عام المؤتمر الاسلامي بالقدس الشريف :

« .. لقد كان الاسلام هو غذاءنا الروحي في سنوات الكفاح الطويلة ، ولولاه ما صمدنا في وجه الاستعمار ، وهذا الدرس قد تلقيناه عملا لا قولا ، فلا حياة ولا مستقبل لنا الا بالاسلام ، وان انتصارنا على الاستعمار كان انتصارا للقرءان على خصومه ، ولولا هذا الكتاب الذى جمع قلوب مواطنينا على اختلاف عناصرهم وقومياتهم لانتهت امة المغرب والشمال الافريقي من زمن طويل !! ولاصبحت هذه الديار قطعة اوربية حقيقة لا مجازا ، حقا لقد كان القرءان رائدنا في معركة التحرير ، وسيظل كذلك بالنسبة لنا في معركة الوحدة والبناء ... »

فتمسك هذه الدولة العلوية الشريفة بالاسلام ، ودفاعها عن أسسه وقيمه ، واعتمادها على التربية المتينة الصالحة ، مع الاخذ بوسائل العلم الحديث ، ومؤازرتها للشعوب المغلوبة المكروبة المظلومة ، هيأها بأن تجمع المجد من أطرافه ، وتأخذ الحياة بأكرم عناصرها ، كما جعل الشعوب الاسلامية فى مختلف العصور تخطب ودها ، وتعترف لها بالجميل ، وتضمر لها كل تقدير واجلال ، وتحمل الملوك والرؤساء على الثناء عليها ، والاشادة بذكرها .

فالتاريخ يحدثنا عن السلطان المولى سليمان العلوي رحمه الله انه كان قد وجه رسالة لامير ليبيا يوسف باشا يقول فيها :

« .. وهيهات أن ندع اعانتكم ، او نبدي فى ذلك عذرا ، ولاسيما وقد قطعتم من المهامه الفيح نجدا وغورا ، ومن البحار الطافية لجاجا خضرا ، اذ الحر للحر معوان ، والمومن للمومن كالبنيان ، لا زالت اعلامكم منشورة ، وسيوفكم على أعدائكم مقصورة ، ولا برحتم فى هناء وسرور ، مطمئنين فى حاضرتكم الشاهقة القصور ، آمنين فى ظل راحتكم من الاكدار والشرور .. »

وقد اورد أحمد بن عبد الحي الحلبي فى الدر النفيس ذكر السلطان العلوي المولى اسماعيل ومما قال عنه :

« .. وارسله الملك العثماني من قسطنطينية العظمى بتبجيل وتعظيم ، اذ راى ذلك حقا عليه حتما ، وعقد له صحبة ، بل وفضله عليه تفضيلا ، ووقره توقيرا ، حتى تلاقي مخاطبته اياه فى كتابه : « انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ، ويطهركم تطهيرا » » .

.. ومؤلف الدر النفيس يشير الى كتاب عثماني اورد نصه المرحوم ابن زيدان فى كتابه المنزع اللطيف فى التاميح لمفاخر مولاي اسماعيل ، وقد جاء فى هذه الرسالة ايضا خطاب من السلطان العثماني الى السلطان ابي الفداء المولى اسماعيل :

« .. والقيت عليك محبة مني عن طيب خاطر ، وخبر متواتر ، لانك صاحب الكرسي الشريف ، وشرفكم أصيل من جد الى جد الى النبي صلى الله عليه وسلم ، وشرف ومجد ، وقد جعل الله بينكم مودة ورحمة، وانتم أصحاب الفضل والمجد والكرامة السرمدية ، وأهل الشريعة المحمدية ، يجب علينا معرفة قدركم ، والتنويه بمجدكم وفخركم ، كيف تخفانا طهارتكم وكرامتكم ، والله تعالى يقول :

«انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ، ويطهركم تطهيرا» ، وانتم أهل الفضل والسلطنة العلية .. »

ويحدثنا صاحب الاستقصاء فى ترجمة السلطان العالم المولى محمد بن عبد الله رضي الله عنه بقوله :

« .. وكان السلطان سيدي محمد بن عبد الله رحمه الله عالي الهمة ، يحب الفخر ، ويركب سنامه ، ويخاطب ملوك الترك مخاطبة الاكفاء ، ويخاطبونه مخاطبة السادة ، ويمدهم بالاموال والهدايا ، حتى علا صيته عندهم ، وحسبوه اكثر منهم مالا ورجالا .. واما ما انفقه من الاموال فى فكاك أسرى المسلمين فاكثر من ذلك كله حتى لم يبق ببلاد الكفر اسير لا من المغرب ولا من المشرق ، ولقد عددهم فى سنة مائتين والف ، ثمانية وارعين الف أسير وزيادة .. »

هذه هي السمات الغالبة على دولتنا العلوية الشريفة وتلك هـي الملامـح البارزة التى طبعت ملوكها واقيالها بطابع الفخر والاعزاز :

دفاع عن الحق والعدل والاحسان ...

وتفان غالب فى حب الخير واسعاد المواطنين ..

وتنظيم جهود العمل لما فيه خير الشعب ...

وتوطيد دعائم حريته وكرامته ومجده ..

واستماته في الذياذ عن المقدسات الاسلامية ...

وعمل دائب فى نصرة الحق ، وايمان صادق لا تزعزعه الشدائد ...

وصبر جميل على المكاره ، وهيام بمعالي الامور ، وترفع عن سفسافها ...

عبـــاد صالحـــون ...

وملـــوك مجاهـــدون ...

واقيال يسوسون الرعية ، بما انزل الله ، بالعدل والتقوى والاحسان ..

وصدق الله العظيم :

« ولقد كتبنا فى الزبـور من بعـد الذكـر ان الارض يرثهـا عبـادي الصالحـــون .. »

أحمد بركاش

كيف أمتحن ملك المستقبل ؟

للأستاذ عبد الله كنون

خرج الشخص الذى حظي بمقابلة جلالة الملك من القصر العامر ، وهو يحدث نفسه متسائلا : كيف امتحن ملك المستقبل ؟ انها مهمة صعبة ، واصعب منها عدم القيام بها . ذلك انها تكليف من الجناب العالي لا يمكن التخلي عنه . فما العمل اذن ؟

والقصة باختصار ان هذا الشخص بعد ان طال اتصاله بجلالة الملك من بعيد عن طريق الحاشية والمقربين ، لمنع السلطة له من السفر الى العاصمة ، بل من مغادرة البلد الذى يقيم فيه ، عدة سنين ، امكنته الفرصة ، على اثر انفراج الازمة الوطنية شيئا ما ، من الحصول على جواز السفر ، فبادر بالرحلة ليشفي الغليل من لقاء اخوانه الذين عادوا من المنفى ، وليتشرف بالمثول بين يدي سيد البلاد وملكها العظيم .

وكان جلالته اذ ذاك فى مدينة غير العاصمة ، حيث تمت المقابلة على ما يرام ، وقد تحدث فيها الشخص الى العاهل الكريم عن مدينته وما يجري فيها من تصرفات شاذة ، ومن استغلال للسلطة ، وامتياز للاجانب ، وحرمان للمواطنين ، تحت نظام الحكم الغريب الذى كانت المدينة تخضع له ، واجاب عن اسئلة جلالته المتعلقة ببعض التقنينات الصادرة عن السلطة التشريعية فى المدينة ، وعن الحريات العامة ، والتعليم ، وغير ذلك من الامور المهمة التى تمس حياة الشعب وحقوقه من قريب او بعيد .

وبعدها افاض جلالته فى الحديث عن سياسته الوطنية ، ومواقفه الجليلة من مشاريع الادماج ، ورفضه للقوانين التى تتجاهل مصالح الشعب وتنتقص من حقوقه ، ومقاومة المسيطرين له ، والمناورات التى يحيكونها ضده ، واستعانتهم ببعض العملاء والخونة للتصدي لكل حركة تهدف الى تطور البلاد واسترجاع مجدها السالف . وكان جلالته يتحدث بايمان راسخ ، ويقين ثابت ، وعزم صادق على مواصلة النضال ، فى سبيل نهضة شعبه ، وتحقيق امله فى الحرية والاستقلال ، مركزا كلامه على أن اقرب الوسائل الى بلوغ الغاية المنشودة ، هي وسيلة نشر التعليم والوعي القومي بين ابناء الشعب والجيل الصاعد .

ومن ثم تخلص للكلام على الامراء ابناء جلالته، وخاصة سمو ولي العهد ، وعنايته بتربيتهم وتعليمهم وتثقيفهم ، واشار الى ما يبديه سموه من اجتهاد ومثابرة فى دروسه العربية والفرنسية ، وشهادة اساتذته له بالتفوق والنبوغ على صغر سنه ، واستغراق اوقاته فى مهام اخرى ، بالنظر لكونه ولي عهد المملكة .

وقال جلالته للشخص الذى كان كله ءاذانا مصغية : وانا احب ان تراه وتمتحنه ، خاصة فى العلوم العربية والاسلامية ، وتنظر تحصيله ومبلغ اجتهاده ، ولا تجامله او تحابيه نظرا لكونه ولي

العهد ، بل عامله كطالب ليس الا . ثم ضرب له موعدا من صباح الغد ، يحضر فيه الى القصر الملكي بصدد هذه المهمة .

وبقدر ما كانت المقابلة الملكية باعثا على البهجة والسرور ، لما لاقى فيه الشخص من عناية كريمة وثقة غالية ، فانها صارت مبعث حيرة وارتباك لصاحبنا الذى شغل باله هذا التكليف المتعلق بامتحان الامير الذي سيصير ملكا فيما بعد ، لاسيما والرغبة السامية الصادرة له بذلك ، تطلب منه عدم التساهل فى الامر واخذه بجد ، وهو لا يعرف الهوادة فى الطاعة لولي الامر ، عملا بقول الرسول (ص) : « اسمع واطع » خصوصا من كان مثل هذا الولي ؛ قدم صدق وجهادا فى سبيل الله .

وتمر بقية اليوم والليلة ، فى اجتماعات الاصدقاء ، واحتفالاتهم ، وان كان الشخص لا ينسى ماموريته ، ولا يفتأ يفكر فيها وكيف يتاتى لها ؛ حتى لا يحرج او يحرج .

ويصبح الصباح ويحين الموعد ، فيقصد الشخص القصر ، وهناك يجد الحاجب الملكي الذى وكل به ، فياخذه الى مكان مرتفع كالعلية او المنزه ؛ ويقول له : ها هو ذا ولي العهد .. ويأمرك سيدنا ان تمتحنه ، وتشدد عليه فى ذلك ، ثم تخبره بالنتيجة فيما بعد . وانتما فى هذا المكان ليس معكما احد . فاذا انتهيت فانقر الباب لاحضر اليكما ؛ فانا هنا قريب من هذا المكان . ثم خرج واغلق الباب من ورائه . قال الشخص : ولا اخفي ان هذا الكلام كان حريا ان يزيد فى ارتباكي ، الا ان الصورة البالغة الجد التى القاه بها الحاجب ، وتهلل وجه الامير وهو يسمع ويرى ، وخلو المكان من اي مراقب او شاهد ، كل ذلك جعلني ابتسم ابتسامة طبيعية ذات مغزى ، قابلها سموه بابتسامة اخرى مثلها . فتقدمت وسلمت عليه — يقول الشخص صاحب القصة — فقابلني بمزيد الحفاوة . وجلسنا . فاعاد علي الكلام نفسه وقال : انه امتثالا للامر المولوي مستعد للامتحان كما ذكر الحاجب .

قال الشخص : فقلت لسموه : ان الامتحان فى كثير من رجال التربية ليس احسن وسيلة لمعرفة مدى نجاح الطالب فى تعليمه ، وتقدمه فى دراسته، فقد ينجح فيه المهمل ويرسب المحصل . ولذلك يقول علماؤنا : حفظ سطرين خير من حمل وقرين ومذاكرة اثنين ، خير من هاتين . وعليه فالاحسن ان نتجاذب اطراف المذاكرة ونخوض فى مسائل العلم ، مما يتصل بما تتعاطونه من معارف وفنون . وهكذا وبموافقة سموه انحلت العقدة ، وجرت المذاكرة اولا فى برامج الدروس التى يتلقاها سموه فى مختلف العلوم ، وتشعب الحديث الى موضوعات تتعلق بالثقافة الاسلامية ومكانتها من الثقافة العامة ، والى موضوعات ادبية وتاريخية وانشادات شعرية ؛ مع ملاحظة التصرف فى قواعد اللغة العربية واستعمال الالفاظ فى معانيها الحقيقية والمجازية ، وكل ذلك من طرف خفي ، وطريق غير مكشوف . وقد جارى الامير محدثه فى كل ميدان ، وبرهن على تحصيله واستذكاره وحسن استعماله لمعلوماته ، بحيث كان المجلس عبارة عن محاورة علمية او ندوة ادبية اقل ما توصف به التنوع والطرافة والذكاء .

وسر الشخص بنجاح الاسلوب الذى اتبعه فى هذا الاختبار ، وحمد الله على انه لم يتورط فى طريقة الامتحانات العادية ، وطرح الاسئلة وطلب الاجوبة ، ورأى بعد ذلك ان يسلس عنان الحديث لولي العهد فى الكلام على مستقبله الدراسي وما ينوي التخصص فيه بعد حصوله على شهادة البكالوريا فقال سموه : ان والده المعظم يريد منه دراسة الحقوق ، وهو يميل الى دراسة الجغرافية والتاريخ . وسيعمل على تحقيق رغبة والده ورغبته هو بدراسته للتخصص معا. فاكبر الشخص هذه الهمة العالية ودعا لصاحبها بالتوفيق والنجاح .

وكان قد مر وقت طويل فآذن الشخص الحاجب الملكي بانتهاء الجلسة ، وودع سمو الامير. فاخذه الحاجب الى جلالة الملك الذى قابله من جديد، وساله عن نتيجة الامتحان ، فاخبره الشخص انها رائعة ، وان سموه فوق كل تقدير ، وابدى له اعجابه بما يعتزمه فى دراسة الحقوق وفقا لرغبة جلالته ودراسة الجغرافية والتاريخ ارضاء لهوايته . فقال جلالته اني أريد من ولي العهد ان يدرس القانون حتى لا يمر بالتجربة العسيرة التى امر بها حينما



منظر يمثل ساحة محمد الخامس مع صومعة المسجد بمدينة الدار البيضاء

يعرض علي مشروع ظهير مدخول ، فلا ازال اقلبه ظهرا لبطن ، واعرضه على اللجان المختصة لاستبريء منه . قال الشخص : اننا نؤمل ان تنكشف هذه الغمة في عهد جلالتكم ، فلا يأتي دور ولي العهد بعد عمر طويل حتى يكون علم الاستقلال والحرية مرفرفا على البلاد . قال جلالته : نعم ولكن لا بد من الاخذ بالاحوط ! ..

وكان اليوم يوم جمعة، ووقت الصلاة قد قرب، فاستأذن الشخص من جلالته ، فأذن له ، ودعاه للغذاء مع ولي العهد عند قاضي المدينة بعد الصلاة . فشكر جلالته على هذا التشريف وانصرف .

وكان الاجتماع بولي العهد على مائدة القاضي، من لون ءاخر . ساد فيه جو من الانبساط والانس ، ودار الحديث كثيرا على القضية الوطنية ، ولم يخل من المطارحات الادبية والتاريخية . وتبادل الشخص مع سموه الراي في معركة بواتييه التي يقال انها اوقفت الزحف العربي على اوربا ، فأبدى سموه اطلاعا كبيرا في الموضوع وتوافق رأيه مع راي الشخص المتحدث . وتعرض احد رفقاء سموه الى الكلام على حفلة خطب فيها الامير خطبة رائعة ، نالت اعجاب جميع الناس ، وقال : انه قد ءان الاوان لان يتعود سموه على الخطابة الارتجالية . فأجاب الامير قائلا : انه من الصعب على الذين يتخيرون الكلام ويحرصون على اسلوب عال من القول ان يرتجلوا ويتحدثوا كيفما اتفق . وقبلنا جميعا هذه الفكرة .. ولكن ها هو سموه (بل جلالته) يخطب اليوم ارتجالا في المحافل الدولية فما دونها ، ويجيد ويمتلك عنان البيان بما لا يقل عن الخطب التى تهيأ وتعد من قبل !..

انه لا حد للكمال كما يقال في المثل ، ذلك هو شعار هذا الامير الذى كان وما يزال ولي عهد وملكا، يتوقل في مدارج السمو والعظمة، فيحقق المعجزات، ولا يصل الى منزلة مهما عات ، الا تاقت نفسه لما هو ارفع منها . حفظه الله ورعاه !..

* * *

وغني عن البيان ان الملك المتحدث عنه هو المغفور له محمد الخامس ، وأن ولي العهد هذا هو جلالة الملك المعظم الحسن الثاني نصره الله . اما الحاجب فهو الفقيه المرحوم السيد محمد الحسن ابن يعيش ، واما القاضي فهو العلامة السيد احمد الزموري ، واما المدينة التى جرت فيها المقابلة فهي الدار البيضاء. واما الشخص المتحدث فهو كاتبه .

طنجة ــ عبد الله كنون

مؤتمر القمة العربي والإسلامي

يبشران بمستقبل حاسم وبعث إسلامي

للعميد كرمالى الفاروقى

جاء عن نبي المسلمين صلى الله عليه وسلم انه قال : « يوشك ان تتداعى عليكم الامم كما تتداعى الاكلة الى قصعتها » فقال قائل: ومن قلة نحن يومئذ يا رسول الله ؟ .. قال : بل انتم كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم . وليقذفن الله الوهن فى قلوبكم . فقال قائل : وما الوهن يا رسول الله ؟.. قال : حب الدنيا وكراهية الموت .

هذا الحديث الشريف يعبر بدقة وصراحة عن حياة المسلمين فى هذا العصر الطاغى المترامي. ويشعها بالتاخر والضعف والتراخي . وكانما عبر عن مشاهدة الوقائع والماجريات . ومشافهة للاطوار والاحداث — كيف لا وقد اخبر ان امم الكفر وهي ملة واحدة ودولة واحدة — ستتداعى على المسلمين بالقوة والعداوة لتكسير شوكتهم . وتمزيق وحدتهم . وتوزيع ثروتهم . كما تتداعى الاكلة فى حرص وشره الى قصعتها لتناول ما بها من طعام وادام .

وفعلا فان الامم الاجنبية قد تمالات وتالبت باشكال مختلفة على اقتسام النفوذ واكتساب المصالح فى بلدان المسلمين من قريب ومن بعيد حتى انهم باتوا رعية لغيرهم . يتحكمون فى سياستهم وتخطيطاتهم ويتصرفون فى مصيرهم ومقدراتهم ويستدرجونهم بما خف من العلم . ويستذلونهم بما قل من المال ولما اخبر النبي صلى الله عليه وسلم اصحابه بذلك قال قائل منهم . ومن قلة نحن يومئذ يا رسول الله ؟ . قال : بل انتم كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل . وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم فان المسلمين فى المشارق والمغارب يتجاوزون اليوم سبعمائة مليون . ولكنهم لا يحركون ساكنا . ولا يدفعون غاصبا . ولا يعترضون مغيرا . ولا يجتمعون على امر — والغثاء عبارة عما يحمله السيل عند اندفاعه من الاوساخ والاقذار التى لا بال لها ولا شان . والمراد ان الامم المتداعية عليهم . تزدريهم وتحتقرهم فى قرارة نفسها ، ولا تقيم لهم وزنا عند وضع سياستها — لجهلهم وفقرهم وسوء تصرفهم — ومن هنا عقب صلى الله عليه وسلم ذلك بقوله ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم .

ولا ادل على صدق هذا القول الشريف ، من ان دويلة الغرباء واللفيف ، اصبحت تقيم فوق اراضيهم . وتعتدي على معالم دينهم ، وتفرض وجودها بالعنف عليهم : بمغامرة الصهيونية الكافرة. ومغامرة الراسمالية الفاجرة ولا تحسب اي حساب لوجودهم . ولا تعير ادنى اهتمام بحقوقهم ، وما ذلك — الا لتنازعهم واختلافهم . واتخاذ الشعارات المخالفة لشريعتهم وطبيعتهم — والا لكراهيتهم الجهاد والانفاق فى سبيل الله — ومن اجل ذلك قال صلى الله عليه وسلم وليقذفن الله الوهن فى قلوبكم . فقال قائل وما الوهن يا رسول الله قال حب الدنيا وكراهية الموت »

وترجمة الحديث ان النبي صلى الله عليه وسلم حذر المسلمين بوحي من الله منذ اربعة عشر قرنا — من الوقوع فيما ءالوا اليه من التخلف المخزي والهوان المزري وذلك بسبب — الركون الى الدعة والراحة وحب الحياة والبقاء — والهروب من الجهاد ومواجهة الاعداء .

واخبرهم ان الشعوب ستنتهز فرصة ضعفكم، وفساد اخلاقكم ، فتتعاون على المزيد من اضعافكم وافسادكم . ثم تتداعى الى اخضاعكم واحتلال اراضيكم . وفرض انظمتها وقوانينها عليكم بواسطة اسماء مزورة . والقاب مفتعلة — وانه لا عبرة يومئذ بكثرتكم لاختياركم الحياة على الموت . ولتفضيلكم الامساك على الانفاق .

ثم ان الحديث الكريم يحمل مع هذا الاخبار بالغيب ، اثارة مشاعر المسلمين وبعث حماسهم ونشاطهم ، وضرورة تغيير احوالهم ومراجعة تاريخهم ، فان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم ، وان من حذرك من تعاطى اسباب الحقارة والمهانة ، فقد طلب اليك ان تاخذ بوسائل القوة والمتانة ، وان تعلم ان العزة والرفعة تكمن فى الجهاد والنضال ، واعداد العدة لميادين القتال ، وفى اقامة العدل واصلاح الاحوال ، وفى تصعيد الانتاج وتحريك الاموال .

واذا كانت الامم قد تداعت كما اخبر النبي صلى الله عليه وسلم الى الهجوم الظالم الممنوع، فالمسلمون مأمورون بالتداعي الى حرب الدفاع المشروع ، امتثالا لقوله تعالى : « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ، ان الله لا يحب المعتدين » ، « وانفقوا فى سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة واحسنوا ، ان الله يحب المحسنين » .

وذلك ان الانفاق فى سبيل الدفاع عن كرامة الدين والدنيا ، والتضحية فى اعادة الحق وتخليصه من يد العدوى ، هو طريق اكتساب المجد والسؤدد — وان امساك المال وحبسه عن مشاريع الخير ومواطن النزال ، والتصرف فيه بأنواع الباطل والهوى ، وحب البقاء فى زينة الارض وشهوات الدنيا — دلالة على انكساف نور العقل وانطماس البصيرة ، ومدعاة الى الاستكانة وذهاب العز والمال ، فاجتهدوا فى سبيل الله وفى سبيل الحق ، وتعاونوا على البر والتقوى ، ولا تعاونوا على الاثم والعدوان ، ودعموا من كان منكم فى ضرورة وحاجة الى المال والعتاد ، ولا تبخلوا ولا تامروا بالبخل ، « ومن يبخل فانما يبخل عن نفسه ، والله الغني ، وانتم الفقراء » .

وان فلسطين الشهيدة جزء لا يتجزا من حكم الوطن العربي الاصيل ، وان كفاح العرب يشمل سائر الاجزاء المغتصبة من طرف اسرائيل ، والقائمين بجانب اسرائيل ، فشجعوا ثورة فلسطين العربية ، وانصروا رجال المقاومة الشرعية ، واضمنوا استمرارها ودوامها ، وافسحوا المجال امامها — لتحرير البلاد من طواغيت الكفر ، وجراثيم الفساد ، ومكنوها من الفوز والظفر ، على قوة الشر والبطر ، وبذلك ان شاء الله تكسبون صوتا مسموعا ، وشأنا مرفوعا ، وتنتصرون وتتناصرون .

وان اعتبار المسلمين كشيء واحد فى الدفاع عن تراثهم وديارهم لهو دين منصوص، وان الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا كانهم بنيان مرصوص ، وسبيل الله فى القرءان هو الجهاد ، لانه ذروة الدين وسنامه ، ورأس الامر المعروف والنهي عن المنكر — اما اذا صرفتم نفوسكم عن مشاق الجهاد ، وامسكتم عن دعم اخوانكم بأموالكم واسلحتكم فان المصاب يعم، والخطر يعظم ، وتكون النتيجة كما قال صلى الله عليه وسلم هي الانهزام والاحتقار ، ولا تظنون انكم بمنجاة من العذاب المباشر وغير المباشر ، فان طبيعة الاسلام واحدة ، وان طبيعة الاستعمار واحدة ، وان مايصيب البعض يصيب الكل فالذنب واحد والسبب واحد .

وكأن المسلمين وقد مرت بهم هذه المرحلة المريعة والمفزعة ، ونكبوا نكبة فظيعة وشنيعة وذاقوا ويلها وشرها ، وما زالوا يجترون مرارتها — قد القى فى روعهم ما سجله الحديث الشريف فتسارعوا مستجيبين للاجتماعات وتداعوا متنادين للمؤتمرات — لما احاط بهم من مكر الماكرين وسوء المستعمرين وفساد الصهيونيين ، وعسى الله ان يبدلنا خيرا من هذه المرحلة انا الى ربنا راغبون ، ونحمد الله العلي العظيم الذى اراد اعلاء كلمة الاسلام بتجاوب اهاليه وابنائه وتواصل ملوكه ورؤسائه رغم بعد الشقة وطول المسافة .

فقد رأينا بالامس القريب الاخوة الاسلامية تتحرك بقوة فى صعيد المغرب الاقصى لدعم سياسة العروبة والاسلام ، وحبك قوتهما ودرء كل خطر عن ساحتهما ، وها نحن نرى اليوم وغدا ان شاء الله الاخوة العربية تعيد نفس الحركة على صعيد المغرب. وتؤكد ما تم بساحة المشرق ، وكل هذه المظاهر تدل دلالة واضحة على الرغبة فى التواطؤ والتضامن ، وفى تنفيذ قرار الوحدة الشامل ، والدعوة الى الوفاء بالعهد اللازم — واذا بات صف العرب والمسلمين مستويا ومجتمعا على القيام بأمر الله ، فلا جرم ان صف الآخرين سيكون حائرا ومحموما باذن الله ، الا انه يجب ان نحرص مع ذلك على اصلاح نفوسنا وتاليف قلوبنا ، واقامة العدل بيننا ، واعتماد القوة الادبية اولا ، والقوة الحربية ثانيا حتى نستطيع ان نكون اقوياء مع انفسنا — واقوياء مع اعدائنا .

وقد يكون هذا التداعي الذى اوحت به ضرورة الشرق الاوسط وفاجعة القدس الشريف وسيلة الى ايجاد نظام اسلامي على اساس جديد ، يربط اتباعه برباط الايمان والتوحيد ، ويرفع راية العدل ويومن بحياة التجديد ، فلقد كان من معجزة الاسلام انه يواكب كل عصر ويلاقي كل زمان ، بمبادئه الحية الخالدة ، وبانظمته القائمة الناهضة ، وما كان ذلك

الا لانه يقبل تجديد النظام ، ويحمد السير الى الامام، فتوخذ من منبعه الصافي ، ومورده الكافي ، اسس الحياة الاجتماعية ، وقواعد النهضة الاقتصادية ، وحدود الانظمة والمرافق الضرورية بواسطة اجتهاد جماعي يحترم طبيعة الاسلام ، وينفذ ما اوحى به من وصايا واحكام ، ويومن بتوجيهاتـه وتشريعاتـه المستمدة من كلياته وعموماته .

والواقع انه لم يبق للمسلميـن وهم قـوة فى العالم ولهم امكانيات هائلة وثروة فائضة ــ بعد ان خذلهم العدو مرات بالتجزئة والتقسيـم ، وانـواع التخدير والتنويم ــ وبعد ان ظهر لهم بوجه العدوان، ومساندة الشر والطغيان ، الا ان تحفزهم الغيرة الى الاجتماع السليم ، والتصرف المستقيم ، والى معالجة الحياة من جديد عن طريق الاسلام الصحيح والتزام مذهبه ، والسير فى ركابه ، فانه الكفيل بتحقيـق الاهداف ، وتحليل المشاكـل ، والقـادر على ارساء سفينة الامن والسـلام ، وملاقـاة الانظمـة وموازنـة الاحكام .

ويشهد الله ان عزة المسلمين ونهضتهم لا تقوم سويا على محاكاة الغرب ولا على محاكاة الشرق ، وانما تقوم بطبيعة الاسلام وسياسته بشرط اجتماع اهاليه ، والتحلي بمعانيه ــ فعزة الشعوب لا تدرك الا بالجهاد الصادق الذى لا تـــوق اليــه اغراض معينة، ولا تدفع اليه سيـاسـة مبيتة ، وان خير ما يساعد الامم على احياء نهضتها ، وابراز ثروتها ، لهو استطـلاع الحقائـق بادلـة العلم الصحيـح ، واستكشافها بأشعة العقل الصريح ، والى ذلك فقد علمنا الاسلام ان الله تعالى لايغير عوائده على عباده حتى يغيروا ، ولا يمل من اسباغ النعم عليهم حتى يملوا ، ولا يمنحهم سبحانه نصره حتى ينصروا .

وبعد ــ فاننا نتفاءل بهذه المؤتمـرات العربيـة والاسلامية التى انعقدت بهذا الوطن العربي المسلم ــ والتى اتخذت قرارات جهرية وسرية ــ توحد الصف فى المعركة ، وتحشد القوى فى خط المجابهة على اختلاف نسبتها واستطاعتها، ضد قوة البغي والشر المتجلية فى تحالف الراسمالية والصهيونية ــ ونعتقد ان هذه المؤتمرات قد نجحت فى توحيد خططها وتنسيـق مراميها ، وفى تعزيز الثورة الفلسطينية التى تسير فى طريق النصر ، ولا نسيـر مع الذيـن يريـدون التنقيص من قيمتها ، فان من شان المؤتمرات كلهـا ان تتعرض لاختلافات الراي ووجوه النظر ، ولاسيما اذا تخالفت الانظمة الاجتماعية ، وتفاوتت المستويات المادية ــ ونعتبر ذلك اجتماعا تاريخيا خطيرا ، قد لا تغيب عنه الرقباء ولا تنام عنه العيون ، الا انه اجتماع يباركه الله ورسوله، ويصافحه الحق والواقع ــ ثم تباركه الامة الاسلاميـة التى تنتشـر فى اقطـار الدنيـا ــ والتى ترقب من وراء هـذه الاجتمـاعات قرارات حاسمة تستجيب لله ولرسوله ، وتتلاقى مع مستوى القيادات الحكيمة ، والمسؤوليات الجسيمة، والاحداث القائمة ــ فان مقدسـاتنا مهددة ، وديارنا مغتصبة ، وكرامتنا مهدرة .

وان من اكبر الظلـم السعـي فى خـراب المساجد والمعابد وخاصة المسجد الاقصـى المبـارك الذي امتدت اليه يد السوء بالتغييـر والتحريـق ، وان نبي المسلمين صلى الله عليه وسلم كـان يقـول: انصر اخاك ظالما او مظلوما . ونصر الظالم نهيه عن ظلمه ، ونصر المظلوم الوقـوف بجانبه ــ وان الله قد وعد المومنين النصر اذا نصروا الحـق واجتمعـوا عليه وجاهدوا فى سبيله ــ ولقد حصحص الحـق وصرح الشر فاعملوا جنبا لجنب لتكونوا فرسانـا وابطالا واقوياء تهابكم الامم ، وتخطب ودكم ، وتطلب ولاءكم ، وسيرى الله عملكم ورسوله والمومنون .

وان هذا الاجتماع الواعي الوحيد ، والبعـث الاسلامي المطل الجديد ، الذى هياه ملك المغـرب الهمام الحسن الثـاني ايده الله بما له مـن حكمـة وبصيرة ، وسخر له مجهوده ومعقوله وكل وسائل النجاح ،، واسهم فيه بأقوى قصد وترغيب ، وبأوفى حظ وتصيب ، شأن العظماء من ملوك الدولة العلوية عندما يشعـرون بخطـر يهـدد مستقبل الحضـارة الاسلامية ويغير معالمها ، ويعـوق مسلـك النمو فى الحياة الاجتماعية ويؤخر تقدمها. هذا الاجتماع كان منتظرا ومتوقعا لتوافر الدواعي والاسباب ، ولتزاحم الطواريء والاحداث ، الا انه قد اسرعت به قضيـة الاعتداء على مسجد الاسراء ، فجاء بهذا الاسلـوب البديع ، والاجماع السريع .

وكان المغرب الاقصـى سباقـا بطبيعتـه الى المكرمات ، وظاهرا على الحق فى الشدائد والازمات، ومن ثم قال صلى الله عليه وسلم كمـا رواه الامـام مسلم عن سعد بن ابي وقاص رضي الله عنه لا يزال اهل المغرب ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة ، والله الموفق الهادي الى سواء السبيل .

مراكش ــ الرحالي الفاروق



لا مبالغة اذا قلنا ان الدولة العلوية الشريفة فريدة من نوعها بين الاسر المالكة التي تعاقبت على عرش المغرب ، فلا توجد اسرة اخرى تمكنت من قيادة سفينة المغرب لعدة قرون بحكمة ونجاح ، كما تمكنت اسرة الاشراف العلويين ، واذا كان الذين في قلوبهم مرض يظنون ان هذا الامر محض صدفة ، او من قبيل الحظ والبخت المجرد فهم مخطئون خطأ كبيرا . ذلك ان مجال الحكم والقيادة الشعبية لا يخضع للصدفة والحظ زمنا طويلا ، فهو بطبيعته مجال علمي يتحكم فيه الواقع اكثر مما يتحكم فيه الخيال ، وتتحكم فيه موازين المصلحة ، اكثر مما تتحكم فيه المشاعر والعواطف او العوامل الغامضة . وفي نظري ان المغرب مدين للاسرة العلوية الشريفة اكثر مما تدين له هذه الاسرة الكريمة .

لقد برزت الاسرة العلوية في الميدان ، والمغرب مشتت الشمل من الوجهة الداخلية بين زعماء محليين اقتسموا السلطة فيما بينهم ، وتقاتلوا عليها ، حتى لم يعد للدولة المغربية وجود ، فما كان منها الا ان رتقت الفتق ، وجمعت الشمل ، واعادت وحدة الشعب المغربي والدولة المغربية الى سابق عهدهما . وبرزت الاسرة العلوية في الميدان ، والمغرب محتل الشواطىء وما حولها من الاقاليم ، مهدد بالفتح الاستعماري والغزو الصليبي بصورة نهائية ، فما كان منها الا ان كرست جهودها ـ وهي لا تزال في مطلع فجرها ـ لتحرير الثغور المغربية من سيطرة البرتغال واسبانيا وبريطانيا العظمى ، واقتنع العالم المسيحي بانه لا سبيل الى محو الدولة المغربية من خريطة العالم ، ورغما عن ان سبتة ومليلية بقيتا بيد الاسبان بعد حرب التحرير فقد عاشت كل منهما في حصار مستمر، احيانا في حصار عسكري ، ودائما في حصار اقتصادي، ولم تستطع اسبانيا ان تتقدم خارج اسوارهما خطوة واحدة الى الامام ، بفضل اليقظة والحزم اللذين اتصف بهما ملوك الدولة العلوية ، وبذلك تم الحفاظ على وحدة التراب المغربي . ولما تعرض المغرب للحماية والتقسيم في مطلع هذا القرن العشرين الميلادي ، اظهرت الدولة العلوية الشريفة من المرونة والحكمة وانتهاز الفرص ، ومن الصمود والمقاومة : ما جعل الشعب المغربي يسترد حريته ووحدته ، في ظرف يسير من الزمن ، لم يتح في مثله لغيره من الشعوب ان يحقق امانيه الوطنية ، ووحدته القومية .

وواجهت الدولة العلوية الشريفة عدة حروب استعمارية . وحروب عالمية ، الا انها خرجت منها كما تخرج الشعرة من العجين : حرب ايسلي مع فرنسا، وحرب تطوان مع اسبانيا ، ثم الحرب العالمية الاولى والحرب العالمية الثانية ، فقد اظهر ملوكها من الحنكة والثبات وضبط الاعصاب ما قلل أهمية الحرب الفرنسية والحرب الاسبانية ، وحال بين الذين اوقدوها وبين جني ثمارها ، وتحقيق اهدافها ، وما ابقى

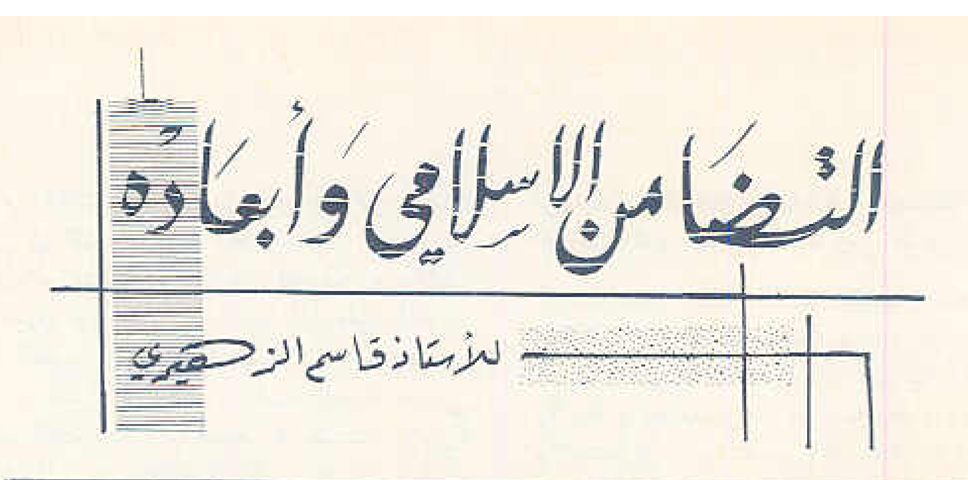
التراب المغربي والشعب المغربي بعيدين عن ميدان المعركة الفعلي في كلتا الحربين العالميتين . وعندما كانت تقوم حروب ثنائية بين الدول الغربية ، وكانت تحاول هذه الدول جر المغرب اليها كان ملوك المغرب من الاشراف العلويين يتمسكون بسياسة الحياد في اغلب الاحيان ، حتى اصبحت سياسة الحياد هي سياسة المغرب التقليدية ، واحتفظ « نظام الادارة الدولية » الذي اقيم في منطقة طنجة ببقية من سياسة الحياد المغربية بالنسبة للبوغاز .

وها هو مغرب الحسن الثاني يبذل صادق الجهود للحفاظ على السلام وابقاء المغرب العربي خارجا عن نطاق التكتلات العسكرية المتنافسة ، بعيدا عن تيارات المبادىء الهدامة ، محتفظا بطابعه الاساسي الخاص الذي تميز به منذ زمن طويل .

واسرة مالكة تقاسم شعبها آماله وآلامه ، وتقود خطواته الى الامام بحكمة وحزم فتعيد له وحدته الترابية ، وتحفظ له وحدته القومية ووحدته الروحية ، ولا تطوح به مغامرات غير مجدية ، وتضمن له السلام والاستقرار ، والتقدم والازدهار ، لا يعقل ان يبغي بها شعبها بديلا ، بل انه ليضرع الى الله ليل نهار ان يجعل عمرها طويلا ، ويبقى عرشها ظلا ظليلا . قال تعالى : (ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا) .

الرباط : محمد المكي الناصري





« ينبغي ان نذكر ان الاخوة الاسلامية تظهر اقوى ما تظهر عندما يهدد العالم الاسلامي او اي قسم من أقسامه مصدر غير اسلامي ، وأنها تجنح ان تنسى حين لا يهدد الجماعة خطر وشيك من الخارج ، ومع ذلك فان هذه الرابطة قوة حقيقية ، وفى الامكان ان تصبح عامل تقوية فى العالم الاسلامي كله » .

هذه الحقيقة التى قررها احد كبار المستشرقين الامريكيين (1) ظلت قائمة على مدى العصور ، منذ اخذت الغارات تتوالى على البلاد التى تستظل براية الاسلام طمعا فى اذلالها والقضاء على التراث الاسلامي بها . وسواء فى عهد التتار او ابان الحروب الصليبية او اثناء التسلط الاستعماري ، لم تتخلف هذه الحقيقة فهب العالم الاسلامي بما لديه من وسائل لنجدة اطرافه المهددة بالغزو الخارجي . واليوم ، اذ يعاني الاسلام محنة شديدة وتتحمل بعض الاقطار العربية غزوا شنيعا على يد الصهيونية التى كشفت عن نواياها باستباحة المقدسات الاسلامية نشهد بوادر تضامن اسلامي يبعث على الامل .

لقد كان لحريق المسجد الاقصى فى اغسطس 1969 اثر بعيد فى نفوس المسلمين بمشارق الارض ومغاربها ، كما كان له صدى عميق فى ضمائر قادته على اختلاف نزعاتهم واجناسهم . وتفتحت الابصار الى الخطر الكامن فى الروح الصهيونية ، فخرج النزاع العربي ، الاسرائيلي من المجال الضيق الذى كانت اسرائيل تحرص على ابقائه فيه الى مجال اوسع ، اذ ادرك قادة العالم الاسلامي لاول مرة ان مقدساتهم اصبحت هدفا للانتهاك ، واستجابوا الى الدعوة الموجهة اليهم بعقد مؤتمر اسلامي للقمة واتخذوا مقررات على جانب كبير من الاهمية فاتفقوا على انشاء امانة عامة دائمة وتعقب الخطر الصهيوني. ولاول مرة فى تاريخ الاسلام ، اجتمع رؤساء الدول والحكومات الاسلامية للتشاور والتقرير فى امر يهم مصير مقدساتهم وبالتالي مصير اوطانهم التى توحدها العقيدة والتاريخ المشترك (2) وهي بداية الطريق نحو مسيرة طويلة ستنتهي — ان هي استمرت — بمزيد التقدم والعزة والكرامة لاصحابها .

---

(1) هو السيد هارولد سميث Harold Smith رئيس قسم الديانات بكلية ووستر بولاية أوهايو فى امريكا . وكان قبل رئيس قسم الفلسفة والاخلاق بالجامعة الامريكية فى القاهرة .

(2) ورد فى « مقاصد الشريعة الاسلامية ومكارمها » للاستاذ علال الفاسي فصل يتعلق بالامة والدولة فى الاسلام جاء فيه صفحة 217 ما يأتي :
« الامة الاسلامية امة واحدة ، حدودها هي دار الاسلام وشعارها توحيد الله واقامة العدل بين الناس (وان هذه امتكم امة واحدة ، وانا ربكم فاعبدون) وصفة الوحدة هذه تقضي على كل فارق مبني على الجنس او اللغة او اللون ... وتكون الامة الاسلامية وحدة سياسية دون اعتبار للحدود الجغرافية ... والامة الاسلامية متضامنة الحقوق متكافئة الذمم ، وقد وصف ما بين افرادها من التضامن النبي صلى الله عليه وسلم فى قوله — مثل المومنين فى توادهم وتراحمهم كالجسد الواحد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى ، وفى حديث آخر — المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » .

ان هذا الحدث العظيم الذى شهده جيلنا كان حلما يراود نفوس قادة الرأي والسياسة فى العالم الاسلامي منذ اواسط القرن السابع الهجري حين دالت دولة العباسيين تحت ضربات الحركات الشعوبية وجحافل التتار بعد ان مرت بأدوار مختلفة من ناحية القوة والضعف ولم يبق لاواخر خلفائها من الحكم والنفوذ الا الاسم . لقد اعترى الدولة الاسلامية الموحدة فى عهد الخلفاء الراشدين ما اعترى غيرها من هزات داخلية بدأت بالخلاف بين الامام علي ومعاوية والصراع بين الامويين والعباسيين ، انقسمت الدولة اثره الى واحدة فى الشرق واخرى في الغرب ، ثم اخذت القوى الخارجية تعمل عملها فى تفكيك هذه الدولة الشاسعة الاطراف التى كانت تمد ظلها على أجناس وشعوب كثيرة .

ولقد عاصر الامام احمد بن تيمية نهاية الدولة العباسية على يد التتار وابلى هو نفسه البلاء الحسن فى الدفاع عنها وفى صيانة العقيدة من خطر الجمود والتحجر ومات ضحية افكاره . ولما لاحظ الاخطار التى كانت تحيق بالعالم الاسلامي من كل جانب ، دعا منذ ستة قرون الى التضامن الاسلامي فى كتابه « السياسة الشرعية فى اصلاح الراعي والرعية » مناديا بتنظيم الجماعة الاسلامية على اساس توزيع السلطة فى شكل اشبه ما يكون بالنظام الاتحادي او « الكونفيدرالي » فى مفهوم القانون الدولي الحديث وبالرغم عن هزيمة التتار على يد ظهير الدين بابر ، فان الوحدة الاسلامية لم تستعد متانتها لما كان يعانيه العالم الاسلامي من اسباب التمزق والانحدار .

ومما ضاعف متاعبه الحملات الصليبية التى وجهتها ضده دول اوربا المسيحية مجتمعة تحت قيادة الكنيسة . هاجمته فى عقر داره واستولت زمنا طويلا على بعض الاقطار الاسلامية وسيطرت على اماكنه المقدسة الى ان ردها ابطال نذكر منهم الاتابك زنكي وعماد الدين ونور الدين محمود واخيرا صلاح الدين الايوبي بعدما استنفروا المسلمين وعبأوهم لهذه الغاية وما كاد هذا الخطر ينجلي حتى مني العالم الاسلامي بخطر جديد مصدره اوربا التى اصابت حظا وافرا من التقدم اثر النهضة العلمية التى فسحت لها اسباب التطور منذ القرن الخامس عشر فأخذت الغزوات الاستعمارية تتوالى على الاقطار الاسلامية من انجلترا وفرنسا واسبانيا وهولندا والبرتغال ، ودخلت الخلافة الاسلامية التى كانت تتركز فى استامبول فى حرب ضروس انتهت بسقوطها فنصت معاهدة سيفر سنة 1924 على نهايتها ، وهكذا تمت السيطرة الاوربية على الاقطار الاسلامية بدون استثناء .

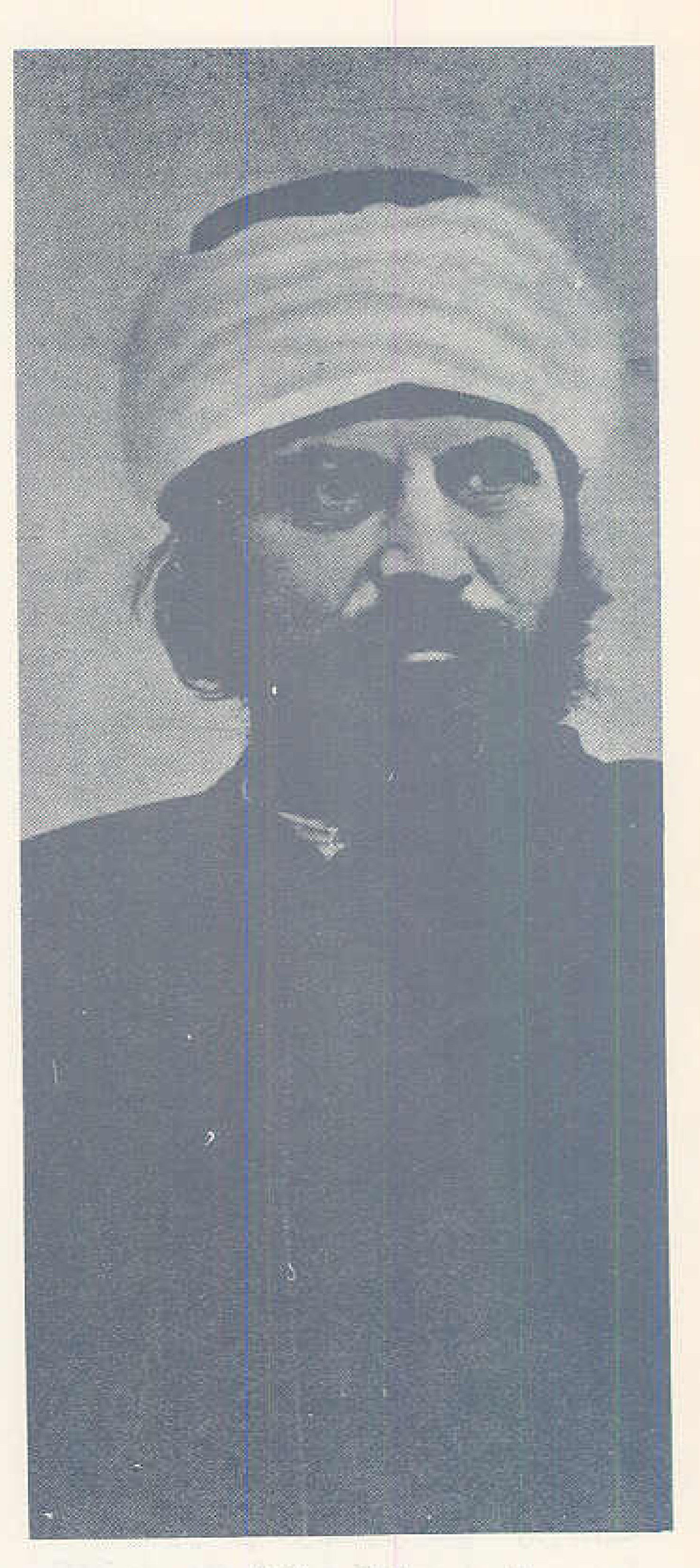
ولم تخمد جذوة التضامن الاسلامي فى نفوس المسلمين بالرغم عن ضعفهم ووقوعهم فى يد الاستعمار الغربي ، ولا نغلو فى شيء ، اذا ذكرنا ان فكرة التضامن الاسلامي اكثر اصالة من اي فكرة اخرى فى ضمير الشعوب الاسلامية كما لا نجفو الحقيقة اذا اكدنا انه لم يتفق لفكرة ان لقيت حربا عوانا مثلما لقيته فكرة التضامن الاسلامي . وقد تعدد خصومها بقدر الاشكال التى برزت فيها عبر العصور . ذلك «ان فى العرف الاسلامي تصورا يتعلق بالفرد فى الجماعة ويمنح الناس وسيلة للترابط واحساسا بالاتحاد لا يوجد احيانا فى التصورات الغربية الحديثة للانسان . هذه الشخصية المتحدة يعمل فى تكوينها التصور الخاص « بدار الاسلام » أي تآخي المسلمين . وليس هذا التصور مجرد تفكير نظري ، انه واقع غير محسوس يضفي على كل مسلم شعورا بالترابط الوجداني مع كل مسلم ءاخر كما يهبه احساسا بالامن . فهو ينتمي الى كل من يعلو عن فروق اللون والطبقة والجنسية ونظم الدولة ، انه يستطيع ان يحس بانه فى داره فى ارض شاسعة متناثرة من الساحل الاطلنطي لافريقيا الى قلب المحيط الهاديء حيثما كان الاسلام هو الدين السائد والثقافة الغالبة (3) »

هذا الشعور هو الذى انقذ الديار الاسلامية من المحن والهجمات التى تعرضت لها خلال التاريخ ، لقد كان من اهم العوامل فى استرجاع حرية الاقطار الاسلامية وافاد ما لم تفد المباديء التى دعت اليها المذاهب الاجتماعية التحررية منذ القرن الثامن عشر الى اليوم ، ويكفي ان نستعرض الحركات التى قامت هنا وهناك فى العالم الاسلامي لندرك ان اكبر الفضل فى الحقيقة يرجع الى الطابع الديني الذى اضفاه قادة الرأي والسياسة المسلمون على كفاحهم لتخليص اوطانهم من ربقة المستعمر . لم تتحرك الشعوب الاسلامية لوتر مثل تحركها لوتر الدين . ومن الامثلة الدالة على ذلك الثورة العربية فى مصر وثورة المهدي فى السودان والثورة الوهابية بالحجاز والثورة

(3) مأخوذ عن هارولد سميث الآنف الذكر فى بحثه عن « مذهب الاسلام فى الانسان »



الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده ايام اقامته في بيروت



السيد جمال الدين الافغاني



الشيخ رشيد رضا في سنة 1327 هـ

السنوسية بليبيا ، والثورة الجزائرية التى قامت على اساس الدعوة الاسلامية التى بشرت بها جمعية العلماء والحركة الوطنية بالمغرب التى سبقتها الحركة السلفية .

كان لدعوة التضامن الاسلامي ماهدون أشداء على الاستعمار ، تعد فى طليعتهم جمال الدين الافغاني وتلميذه ورفيقه فى العمل الشيخ محمد عبده، ويعتبران بحق أكبر من ببهوا الشعور فى الشرق الاسلامي قاطبة ، كان جمال الدين اكبر داعية للجامعة الاسلامية بشر بها فى مختلف البلاد الاسلامية وشرح حقيقتها كذلك فى البلاد الغربية التى حل بها ، واقام لها دروسا وحلقات اينما ارتحل فترك اتباعا عديدين . كانت مقالاته فى « العروة الوثقى » و « ضياء الخافقين » وغيرهما من الصحف العربية والانجليزية النبراس الذى هدى الناس للسبيل الاقوم . ما فتىء جمال الدين الافغاني يردد « ان للمسلمين شدة فى دينهم وقوة فى ايمانهم وثباتا فى يقينهم يباهون بها من عداهم من الملل ، وان فى عقيدتهم اوثق الاسباب لارتباط بعضهم ببعض » (4) حتى نفخ العزة فى نفوسهم ودفعهم الى الثورة ضد الاستعمار وخاصة الاستعمار البريطاني الذى كان اكبر عائق فى طريق تقدم البلاد الاسلامية. ونفس هذه الدعوة كان يرددها الشيخ محمد عبده ، لكن بأسلوب اقل ثورية واقرب الى المنطق والاقناع (5) . وقد تناقلت الالسنة اخبار الرجلين ، فكان لهما صدى بعيد .

صادف قيام هذه الدعوة حلول عصر النهضة فى الشرق وبروز طائفة من رجال الفكر الذين رحلوا الى اوربا واطلعوا على نهضتها وتشبعوا بالافكار الجديدة واخذوا يروجونها بعد عودتهم ، نذكر من بينهم رفاعة الطهطاوي ومصطفى كامل وقاسم امين وعلي عبد الرازق . كل كان يدعو الى فكرة تحررية اما فى الدين او السياسة او الاجتماع ، ولكن جميع الاتجاهات كانت فى الواقع من البذور التى القاها جمال الدين الافغاني ومحمد عبده . انكب الجميع على دراسة اسباب انحطاط العالم الاسلامي مبشرين بالعلاج ، وصدرت فى ذلك الوقت رواية تحمل عنوان : « السبب اليقين المانع لاتحاد المسلمين » لاحد الكتاب المغمورين واسمه محمد كاظم تلتها مقالات ومساجلات تناول اصحابها بالبحث اسباب التفكك الموجود بين المسلمين والوسائل المجدية فى التئام شملهم . وبعد قليل صدر كتاب « ام القرى » لعبد الرحمن الكواكبي يحمل دعوة صريحة للجامعة الاسلامية ، فقد « تخيل مؤتمرا فى مكة يجمع ممثلين من مختلف الاقطار الاسلامية يبحثون فيه حالة الامة ويرسمون سبل الاصلاح ويهزون هذا العالم الاسلامي لتسري فيه رعشة الحياة ، وبدات مناقشة المؤتمر حول حالة الفتور العام التى تعتري المسلمين كافة .. واحتدمت المناقشة حول الاسباب الدينية والسياسية ، ولم يرض المؤتمر بالاكتفاء بالبحث فى الامراض وعلاجها بل اقترح انشاء جمعية دائمة تعنى باصلاح المسلمين وتشرف على تنفيذ برامجها فى الاصلاح» (6) .

ونشأت تبعا لهذه الافكار التى صادفت كثيرا من الرواج مدارس عدة فى الاصلاح السياسي والاصلاح الديني والحكم الديمقراطي . وتبين بوضوح الخط الفاصل بين من كانوا يرون الثورة وسيلة للاصلاح السياسي وبين الذين كانوا يرون الحكم الديمقراطي سبيلا للاصلاح السياسي. وعملت الافكار الجديدة عملها فى النفوس فدفعتها الى الكفاح فى سبيل حياة اكرم ، وكانت بمثابة الشرارة التى الهبت حمية الشعوب ونزلت بها الى ميادين النضال ضد السيطرة الاستعمارية التى كانت تقبض على بعضها بيد من حديد وتستعد للاخرى .

كان الاستعمار الغربي اذ ذاك فى اوج قوته يتسابق على الفتوحات وتأمين الاسواق لتجارته والاستئثار بموارد افريقيا وآسيا ، ولم يكن يرعى الا ولا ذمة فى الشعوب المستضعفة مستعملا جميع

(4) العروة الوثقى العدد الصادر فى 10 – 4 – 1884 .
(5) فى هذا الصدد كتب الدكتور محمد البهي استاذ الفلسفة بالازهر فى بحثه عن اتجاهات الفلسفة الاسلامية ، « عندما حدد الشيخ محمد عبده الاسلام الذى يجب ان يتمسك به المسلمون رأى ان اتخاذ الثورة – قبل اعداد العدة لها – وسيلة فى اخراج المستعمر من بلاد الشعوب الاسلامية يتصل بالعاطفة والحماسة الوقتية اكثر مما يتصل بواقع الامر ، ولذا رأى ان يتخذ المسلمون وقادتهم اسلوبا آخر هو ما اتخذه المسلمون الاولون فى تكوين جماعتهم ».
(6) الدكتور ماهر حسن فهمي فى كتابه قاسم امين ص 7

الوسائل لاذلالها . كان من جملة مخططاته القضاء على الخلافة الاسلامية من الداخل والخارج تمهيدا لاستعباد الاقطار المنضوية تحت لوائها ، ومن اهم برامج بريطانيا العظمى اذ ذاك الاستيلاء على الشرق الاوسط لتأمين طريق الهند « درة التاج البريطاني » كما كانت تدعي ، بينما كانت فرنسا تشره لمد سيطرتها على سوريا ولبنان . وما كادت الحرب العالمية الاولى تقوم حتى كانت جميع المخططات جاهزة للتنفيذ ، ففى الوقت الذى كانت المحافل الرسمية فى لندن تتعهد فيه للعرب باستقلالهم لقاء انتفاضهم على الحكم العثماني ، كانت تبرم مع فرنسا الاتفاق المعروف باتفاق سايس بيكو (7) لاقتسام اقطار الشرق العربي ، وتلتزم للصهيونية العالمية فى وعد بلفور سنة1917 بانشاء وطن قومي لها فى فلسطين، انتهت الحرب العالمية الاولى بانهيار الخلافة الاسلامية من جهة ، وبوقوع الدول العربية كافة فريسة فى يد الاستعمار من جهة ثانية .

انها اكبر نكسة تعرض لها الشرق العربي وهو فى بدء نهضته يسعى بمفكريه ومصلحيه فى شتى الميادين لشق طريقه الى التطور ومجاراة قافلة الدول المتقدمة. اخلفت الدول الغربية ــ وفى طليعتها بريطانيا العظمى وعودها للعالم الاسلامي والعربي فانتهجت خلال الحربين العالميتين سياسة مبنية على الدس والتآمر وشجعت قيام اسرائيل فى المنطقة العربية لعرقلة تقدمها والهاء شعوبها ، كل ذلك لاستغلال ما تزخر به المنطقة من موارد طبيعية هائلة، وقد دلت الاحداث التى تمت بعد ذلك على ما كان الغرب يبيته من النوايا .

ولا يفوتنا ونحن نستعرض بسرعة الاحداث التى مرت بالعالم الاسلامي ان نشير الى ما قام به الاتحاد السوفياتي من جهته حيال الاقطار الاسلامية الواقعة فى آسيا الوسطى اثر الحرب العالمية الاولى . فبعد قيام الثورة الشيوعية فى اكتوبر 1917 وانسحاب روسيا من الحرب ، وجهت موسكو اهتمامها لتلك الاقطار . وبالرغم عن اعلان حكومة الثورة لحق الشعوب فى تقرير مصيرها بما فيهاالشعوب المشمولة بالنفوذ الروسي ، فقد واصلت السير على سياسة النظام العنصري فجعلت من اوزبيكستان وكازاغستان وتادجيكستان وتركمينستان جمهوريات متحدة فى دائرة الاتحاد السوفياتي ، بينما الحقت عددا كثيرا من الاقطار الاسلامية بجوارها وخولتها انظمة مختلفة ، ويبلغ ما بالاتحاد السوفياتي الآن من المسلمين نحو خمسة وثلاثين مليون شخص ، وكانت هناك حركات اصلاحية يقودها زعماء مسلمون امثال اسماعيل بك غابراتسكي والمصلح الكبير عبد الرؤوف فطرت والبطل شامل الملقب بعبد القادر القوقازي تشبيها له بالامير عبد القادر الجزائري . تناولت الحركة الاصلاحية ميادين شتى ولقيت محنا كثيرة ، ولكنها تشجعت عند قيام الثورة الشيوعية وصدور اعلانها المتضمن لمبادىء تحررية فراح زعماؤها يحثون الخطى لتنظيم اقطارهم على اساس اسلامي وانظمة عصرية . ومما يذكر فى هذا الصدد ان السيد اسماعيل بك غابر انسكي دعا لعقد مؤتمر اسلامي عالمي سنة 1926 عقب انهيار الخلافة الاسلامية فاجتمع المؤتمر واصدر عدة قرارات فى توحيد العالم الاسلامي وادخال اصلاحات على النظم السياسية والاجتماعية . ودخلت الحركة فى خلافات ايديولوجية مع الاعوان الروسيين ثم فى اشتباكات مسلحة وتصفية العناصر القومية على يد ستالين وبيريا ، وتشرد من استطاع ان ينجو بنفسه فى افغانستان وايران . وهكذا قضي على الحركة الاصلاحية فى المهد واصبح العالم الاسلامي كله اسيرا فى قبضة الغرب من جهة والاتحاد السوفياتي من جهة ثانية .

بالرغم عن هذه النكبات لم يستكن العالم العربي والاسلامي للحظ العاثر ولم يقبل الضيم ، وكانت له قوة دافعة من ذاته هي قوة الاسلام التى تأبى الذل والخنوع ، وقوة من الخارج تتمثل فى الافكار

(7) هذا الاتفاق يحمل اسم ديبلوماسيين احدهما انجليزي سيرمارك سايكس والآخر فرنسي وهو جورج بيكو وقد ابرم بينهما بلندن فى شكل تبادل رسائل ما بين 9 و 16 ماي 1916 بعد اطلاع روسيا على ذلك ، ونص على اقتسام الاراضي العربية بين انجلترا وفرنسا اما بالحاقها او بوضع حمايتها او نفوذها عليها ، وتم الاتفاق فى تكتم تام لانه كان متناقضا مع الاتفاق الذى ابرمته انجلترا مع الملك حسين امير مكة وتعهدت فيه باقامة دولة عربية مستقلة ، فكان السبب فى الثورة العربية ضد السيطرة العثمانية وقد نشرت حكومة الاتحاد السوفياتي نص اتفاق سايكس ــ بيكو بمجرد ما انسحبت من الحرب . فكان لذلك خيبة امل فى وسط الشعوب العربية .

التحررية التى هبت على العالم فتحت العيون وايقظت الهمم . وحملت الشعلة جماعة من قادة الراي والسياسة فى المشرق والمغرب نذكر من جماتهم سعد زغلول وشكيب ارسلان والسنوسي وابن باديس والحركة السلفية التى انقلبت الى حركة وطنية فى بلادنا دون ان نغفل عن ثورة الريف التى كان لها الصدى البعيد فى المشرق من ادناه الى اقصاه . ولم تهادن هذه الحركة على قلة وسائلها القوى الاستعمارية خلال الفترة الواقعة بين الحربين العالميتين . ولم يخمد اوراها فى اي بقعة من بقاع العالم الاسلامي . بل كان يسند بعضها بعضا فى معركة التحرير ومعركة المصير ، ناهيك بالاعمال البطولية التى قامت بها ضد المحتل فى الشرق العربي على اتساع رقعته وفى غير ما مكان من المغرب العربي . وعانت الشعوب فيها ما عانته من المحن والتضحيات . وقد تجلى التضامن الاسلامي اروع ما تجلى فى هذه التظاهرات التى كانت تجري باقصى المشرق احتجاجا على ما كان يقع من تعسفات فى الاقطار المغربية ، والعكس بالعكس. وازداد التضامن الاسلامي حين استفحل الخطر الصهيوني ف فلسطين وبدات انجلترا تحت قناع الانتداب تمهد لقيام الوطن القومي الاسرائيلي . فقد ساندت الامة الاسلامية من اقصاها الى اقصاها القضية الفلسطينية ولم تتردد فى اداء واجبها بما كانت تستطيع بالرغم عن وقوعها تحت السيطرة الاستعمارية .

واذا كانت بعض الاقطار الاسلامية كمصر وايران وافغانستان والمملكة السعودية قد استطاعت ان تتحرر من ربقة الاستعمار ، ولو انها لم تستكمل كل صفات السيادة – قبل نشوب الحرب العالمية الثانية – فان هذه الحرب بما حملته من تيارات تحررية جديدة وبما ترتب عنها بالاخص من انهاك الدول الاستعمارية قد زادت من ايمان الشعوب المستضعفة بعدالة كفاحها ودفعتها قدما لاسترجاع سيادتها ، وكانت الاقطار العربية والاسلامية فى مقدمة المعركة فبذلت الكثير من الجهود حتى استطاعت ان تتخلص فى فترات متلاحقة من الاستعمار الغربي وباستثناء بعض الجيوب الاستعمارية التى ظلت اسيرة لحد الساعة والتى لا محيد من انعتاقها فالنقطة السوداء فى العالم الاسلامي الآن هي فلسطين المغتصبة التى منيت باحتلال من ابشع اصناف الاحتلالات التى عرفها شعب فى تاريخه . تآمرت على الشعب الفلسطيني الصهيونية العالمية مع الدول الكبرى ولا تزال بعض هذه الدول تضمن بصورة او باخرى الكيان الصهيوني وتدعمه بالقوة والمال ، فتزداد جبروتا وتحديا وتشكل اكبر خطر على الدول العربية

لقد كان لقيام اسرائيل فى العالم العربي اثر بعيد فى قلب اوضاع الشرق الاوسط ، خاصة بعد الهزيمة التى منيت بها الجيوش العربية سنة 1948 والهجوم الثلاثي على مصر سنة 1956 ، وبعد الثورة المصرية سنة 1951 وما تلاها من مضاعفات وانعكاسات على الشرق العربي عموما وبعد الدعم المستمر الذى كانت تلقاه اسرائيل من لدن الغرب اضطرت انظمة الحكم القائمة فى الشرق – وخاصة منها الانظمة الثورية – ان تبحث عن حلفاء يمدونها بالعون المادي والمعنوي . وتبلورت القومية العربية فاصبحت بالنسبة للانظمة الثورية على الخصوص الدرع الواقي ضد الاطماع الاستعمارية والتوسع الصهيوني وهبت على المنطقة تيارات فكرية ومذاهب جديدة تمت باوثق الصلات الى الاشتراكية العالمية ، فوجدها الاتحاد السوفياتي مناسبة للتسرب الفكري والمادي الى هذه المنطقة واتخاذ موطىء قدم بها : وهو حلم طالما كان يراود افكار ساسة روسيا القيصرية ، فتحقق على يد النظام البولشفيكي . وبفعل التطاحن المذهبي ، اصبحت دول الشرق العربي ممزقة الفؤاد بين المعسكرين المتنافسين على النفوذ فى العالم ، وكل من المعسكرين يسعى لمصالحه الخاصة ولا يمنح « صداقته » او « معونته » الى تلك الدولة الا بالقدر الذى يضمن معها تلك المصالح وما اكثرها ... لما تحتويه ارضها من الذهب الاسود عصب الصناعة الغربية الذى يدر ارباحا باهظة على الدول الغربية ، زيادة على الاهمية الستراتيجية التى يكتسيها الشرق العربي فى الرقعة العالمية . لقد شاهدنا فى العقدين الاخيرين احتدام النزاع بين الدول العربية الثورية والاخرى ذات الانظمة التطورية ، وما ترتب عن ذلك من انقلابات فى انظمة الحكم ونزاع مسلح على ارض الوطن العربي بين الاشقاء . ولم تنفع جامعة الدول العربية التى ينص ميثاقها على منع كل التحام بين الاعضاء فى حسم هذه النزاعات فكان فشلها واضحا بينما كانت اسرائيل تقف موقف الشامت وتستفيد من هذا الوضع وقد تجلى مدى ما استفادته فى حرب يونيو 1967 ..

قبيل هذه الحرب بثلاث سنوات ظهرت على مسرح الاحداث فى العالم العربي الدعوة من جديد الى التضامن الاسلامي لمواجهة القضايا والمشاكل التى كانت تجابه هذا العالم وما تزال . وما انفكت هذه الدعوة ان انقلبت الى دعوة « لمؤتمر قمة اسلامي » فأحدثت عديدا من ردود الفعل داخل العالم العربي وخارجه بحسب انظمة الحكم الموجودة فى البلاد العربية والاسلامية وبحسب التيارات الايديولوجية التى كانت تهب على الاقطار العربية .

كيف عادت فكرة التضامن الاسلامي الى الوجود؟ وما هي الاسباب التى دعت اليها ؟ ان فكرة الدعوة الى عقد مؤتمر اسلامي للقمة ترجع فى الاصل الى رئيس جمهورية الصومال الاسبق ، فقد صدرت عنه فى مؤتمر اسلامي انعقد بموقاديشيو سنة 1964 ، فتبنتها «رابطة العالم الاسلامي» فى المؤتمر المنعقد سنة 1965 والرابطة – كما هو معلوم – منظمة تأسست بالمملكة السعودية سنة 1961 وجعلت مكة المكرمة مقرا لها . ومن جملة الاهداف التى رسمتها لنفسها : « قيام جامعة للدول الاسلامية بغية توحيد طاقتها وتنسيق جهودها فى حماية العقيدة الاسلامية والذود عن اوطان الاسلام » وقد سبق للمجلس التأسيسي للرابطة ان ارسل مذكرة فى هذا المعنى الى رؤساء الدول الاسلامية مقترحا خطوات ايجابية للوصول الى هذا الهدف . وكان المؤتمر الاسلامي الموسع الذى انعقد بمكة سنة 1965 اهم مؤتمر اسلامي نظمته الرابطة وشارك فيه 300 مندوب من مختلف البلاد الاسلامية ما بين وفود حكومية وشعبية والقى فيه الملك فيصل – باعتباره الرئيس الشرفي للمؤتمر – خطاب الافتتاح فأعلن : « اننا نؤيد الدعوة الى مؤتمر قمة اسلامي ليكون فى مقدور اعلى قمة اسلامية ان تبحث فى قضايا المسلمين وتقرر مصيرهم » . وتداول مؤتمر الرابطة فى الفكرة ثم اصدر قرارا خاصا بتأييد الدعوة الى عقد مؤتمر اسلامي للقمة والتمس من الملك فيصل ان « يواصل السعي لتحقيق هذا الهدف الاساسي الكبير » . كما كلف المؤتمر الزعيم النايجري الشهيد احمد بيلو بدراسة الموضوع وتقديم تقرير عنه ، فأنجز العمل قبل الانقلاب الذى اطاح بالنظام السابق وذهب هو نفسه ضحيته .

اما الاسباب التى اوحت بالدعوة لانعقاد مؤتمر اسلامي للقمة فكثيرة ترجع فى جملتها الى الحالة التى كان يتخبط فيها العالم العربي بالاخص . فلا يخفى ان حرب اليمن كانت مستمرة ولم ينفع فى اخمادها اللقاءات الثنائية التى تمت بين المملكة السعودية والجمهورية العربية المتحدة وما ترتب عنها من اتفاق مرض ولا مؤتمرات القمة العربية التى كثيرا ما اوصت بحسم الخصومات بين الدول الاعضاء فى الجامعة العربية . ومع ذلك فلم تفتر حدة الحملات الاذاعية والصحفية والمناوشات على الحدود والمؤامرات لقلب انظمة الحكم فى بعض اقطار الشرق العربي وكانت الخلافات العقائدية على اشدها بسبب تسرب ايديولوجيات دخيلة فى المنطقة كما سبق ذكره ، مما ادى الى انقسام الدول العربية والاسلامية على نفسها وشغلها على الاخطار الحقيقية التى كانت تحيط بها من كل جانب .

لوحظ ان القرار بعقد مؤتمر اسلامي للقمة لم يثر اي رد فعل فى العواصم العربية لاول وهلة لصدوره عن منظمة لم تكن تعيرها هذه العواصم اهتماما كبيرا ولم تأبه له الا بعد ما اخذ الملك فيصل عصا الترحال وقام بجولة فى كثير من العواصم الاسلامية فزار كلا من ايران والسودان وتركيا والاردن ومالي والمغرب وتونس ، داعيا الى تحقيق المشروع . ولما لاحت فى الافق حظوظ نجاح الفكرة ، شنت بعض العواصم العربية حملة لاحباط المشروع وصورته فى شكل حلف شبيه بحلف بغداد ، كما جردت وسائل الاعلام السوفياتية ما لديها من دعاية لمحاربة انعقاد المؤتمر . ففى تصريح ادلى به الرئيس جمال عبد الناصر لصحيفة « ايزفيستيك » السوفياتية اثناء زيارته لموسكو فى خريف 1965 ورد ما يلي : « ان ثمة شعارات يجري الترويج لها مثلا فكرة اقامة حلف اسلامي ، وليست هذه الفكرة بجديدة ، فقد سبق ان شاهدنا محاولات مشابهة مثل حلف بغداد ، ولا اعتقد ان مصير هذا الحلف اذا خرج الى الوجود – يمكن ان يختلف عن سابقيه » .

وقد حمل الرئيس المصري حملة شعواء على الداعين للمؤتمر الاسلامي فى خطاب القاه بعد ذلك بمدينة السويس ، ثم ترددت اصداء معارضة الفكرة فى العواصم العربية التقدمية بالشرق .

لم تثن تلك الحملات الملك فيصل عن مواصلة العمل الذى كلفته رابطة العالم الاسلامي بتحقيقه وشرحته فى البيان الذى اصدرته ذاكرة « انه اداء فريضة الله علينا فى تبليغ دعوة الاسلام وشرح مبادئها وتعاليمها ودحض الشبهات عنها ومجاهدة



مولانا محمد الخامس طيب الله ثراه يمثل عزة الاسلام ...
وهو متوجه الى المسجد لاداء الصلاة

المؤامرات الخطيرة التي يريد بها اعداء الاسلام فتنة المسلمين عن دينهم وتمزيق وحدتهم واخوتهم والنظر في القضايا الاسلامية بما يحقق مصالح المسلمين وآمالهم » . وقد قام الملك فيصل خطيبا في البرلمان الايراني فذكر ان العالم الاسلامي في حاجة الى التضامن لحماية الدين والنهوض بالامة الاسلامية ومقاومة موجة الانحرافات والمبادىء الملحدة . وفي خطابه بالخرطوم ذكر ان المؤتمر يهدف لدعوة المسلمين والتعاون والتعارف فيما بينهم لما فيه صلاح دينهم ودنياهم » ولا علاقة له بالاحلاف المعروفة ولا ببث العداوة والبغضاء بين المسلمين وغيرهم ولا بخدمة اغراض سياسية ، وانما هو « يدعو الى الله ويدعو المسلمين الى المحافظة على دينهم والتعاون فيما يصلح دنياهم » . وكان الملك فيصل يردد ان ثلاث قوى تناهض تحقيق هذا المؤتمر : الاستعمار والصهيونية والشيوعية .

كان المؤتمر اذن يهدف – بحسب تصريحات القائمين به – الى الدفاع عن الفكرة الاسلامية ودفع الشبهات عنها وتصحيح الانحرافات التي شغلت العالم العربي والاسلامي واشاعت الفتنة والشقاق في اجزائه ، وقد وجدت هذه الدعوة معارضة شديدة من لدن بعض الجهات التي كانت تخشى على نفوذها من نجاح فكرة التضامن الاسلامي . لقد صادف قيام الدعوة الى مؤتمر قمة اسلامي دعوة الفاتكان هو كذلك الى توحيد صفوف المسيحيين والنتائج التي ترتبت عن ذلك . وعبر المطران اللبناني المعوشي عما لقيته هذه الدعوة وربطها بالدعوة الى المؤتمر الاسلامي فقال : « قامت ضجة من الملاحدة ودعاة الهدم عندما دعت الفاتكان الى مؤتمر لتوحيد كلمة المسيحيين حول عقيدتهم ولكن المؤتمر المسكوني اجتمع وكان من نتائجه ما هو معروف وسيكون الامر كذلك في حق هذا التجمع الاسلامي (8)

ظلت الدعوة الى المؤتمر الاسلامي للقمة بين مد وجزر ، بين مؤيدين ومنكرين ، وظل العالم العربي والاسلامي يعاني كثيرا من اسباب الخلاف والتناحر ، الى ان اكفهر الجو من جديد في الشرق الاوسط ونشبت الحرب بين الدول العربية واسرائيل .. وكانت النكبة ، فكان للاهتمام بمحو عار الهزيمة ومواجهة عواقبها اثره في تأخير تحقيق الفكرة .

بذلت الدول العربية قصارى جهدها على الصعيدين السياسي والدبلوماسي لمحو آثار العدوان. ولحد الساعة ، ورغم مضي سنتين ونصف ، تصر اسرائيل على احتلال اجزاء من الاراضي العربية فضلا عن فلسطين ، مواصلة عدوانها المسلح في تحد وعناد محتمية بالدول الاستعمارية ، مشجعة من لدن الصهيونية العالمية التي تستحوذ على مصادر القوة والنفوذ في الغرب وظهر جليا ان اسرائيل لا تبغي بديلا من استسلام العرب لارادتها وانها ترغب في الاعتراف بوجودها وضمان كيانها كخطوة في سبيل تحقيق مطامعها التوسعية على حساب الوطن العربي. ولقد تجاوزت الحد ، فاخذت تسعى لمحو التراث الاسلامي في البلاد التي تحتلها : هودت عشرات المساجد ، واحلت شريعتها محل الشريعة الاسلامية واللغة والبرامج العربية في المدارس العربية وتوجت كل هذه الانتهاكات بالحريق الذى التهم المسجد الاقصى في شهر اغسطس الماضي .

كان لهذا الحدث المفجع دوي مرعب لا في الراي العام العربي وحسب بل وفي الراي العام الاسلامي كذلك ، فظهرت على اثره الدعوة من جديد الى عقد مؤتمر اسلامي للقمة . ووجدت آذانا صاغية وعقولا متفهمة . انعقد اجتماع وزراء الدول الخارجية في الاسبوع الاخير من اغسطس 69 بالقاهرة ، وقرر من جملة ما قرر « تأكيد اهمية عقد مؤتمر قمة اسلامي وان يعهد الى المملكة المغربية والمملكة العربية

(8) كتب الاستاذ احمد زكي رئيس تحرير « العربي » في هذا الصدد (ع 132 نوفمبر 1969)
« ومن الناس من يخشى ان ينعقد مؤتمر اسلامي .
وهؤلاء لم يخشوا أن ينعقد مؤتمر عربي .
وهؤلاء لم يخشوا ان ينعقد مؤتمر افريقي اكثر اممه لها باسرائيل اتصال وثيق
وهؤلاء لم يخشوا ان ينعقد مؤتمر للدول غير الملتزمة ، وهم بواقعهم ، لا في نياتهم الحسنة ملتزمون الى حد غير صغير .
وتجتمع في العالم مؤتمرات قمة للاحزاب الشيوعية
وتجتمع في العالم مؤتمرات مسيحية ومنها ما تناول شؤونا سياسية حتى اذا نودي باجتماع مؤتمر اسلامي ، ظهرت الخشية وظهر الحذر القديم من ان يقول العالم ان روح التعصب الديني قد عادت » .

السعودية باجراء الاتصالات اللازمة من اجل عقد هذا المؤتمر » . وتجدر الاشارة الى ان جلالة ملك المغرب سبق ان حث على عقد هذا المؤتمر بمناسبة عيد المولد (شهر ماي) حين ظهر بما لا مزيد عليه من اليقين ان اسرائيل مصرة على عدوانها ومتربصة بالتراث والقيم الروحية الاسلامية .

وفي 5 شتنبر اجتمعت اللجنة التحضيرية للمؤتمر في مدينة الرباط واتفقت على ايام 22 الى 24 شتنبر موعدا لانعقاده في نفس العاصمة . انعقد المؤتمر – كما هو معلوم – على مستوى رؤساء الدول والحكومات الاسلامية وحضرته وفود 25 دولة ، وشارك في أعماله ممثلو منظمة التحرير الفلسطينية بوصفهم مراقبين .

صدر عن المؤتمر اعلان مهم تضمنت ديباجته هذا الالتزام : « ستتشاور حكوماتهم بغية التعاون الوثيق والمساعدة المتبادلة في الميادين الاقتصادية والعلمية والثقافية والروحية وحيا من تعاليم الاسلام الخالدة ، وتعلن التزامها بتسوية المشكلات التي قد تنشأ فيما بينها بالوسائل السلمية بما يؤكد مساهمتها في تدعيم السلام والامن الدوليين وفقا لاهداف ومبادىء الامم المتحدة » . وتضمنت المقررات التي تعهد بها رؤساء الدول والحكومات الاسلامية النقط الاساسية التالية :

1 – ادانة اسرائيل لما ترتكبه في البقاع المقدسة ورفض كل حل للقضية الفلسطينية لا يكفل لمدينة القدس وضعها السابق لعدوان 1967 .

2 – مساندة الشعب الفلسطيني مساندة تامة لاسترجاع حقوقه المغتصبة ومواصلة نضاله من اجل تحرير وطنه .

3 – اقامة امانة دائمة للمؤتمر الاسلامي للقمة تكون من جملة مهامها الاتصال مع الحكومات الممثلة في المؤتمر والتنسيق بين اعمالها وتقرر انعقاد اجتماع لوزراء خارجية الدول المشاركة بجدة في شهر مارس 1970 لبحث نتائج مقررات المؤتمر وموضوع تاسيس الامانة الدائمة .

تستخلص من هذه المقررات نتيجتان على جانب كبير من الاهمية :

اولا – بروز التضامن الاسلامي وخروجه من الاطار العاطفي الى مجال الواقع بتجليته في مظاهر التعاون بين مختلف البلاد الاسلامية في شتى المجالات وطرحه على المستوى الدولي.

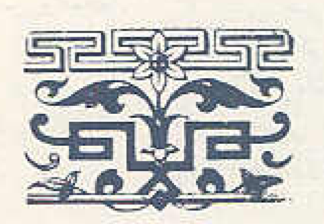
ثانيا – اضعاف الطابع الاسلامي على القضية الفلسطينية باخراجها من اطار العروبة الضيق وتقويتها بالصبغة الاسلامية ثم عرضها دوليا على هذا الاساس بالاضافة الى صبغتها الاقليمية ، وبذلك يضمن دعم اكبر لحق الشعب الفلسطيني المغتصب .

ان الاتفاق الذى تم بين رؤساء الدول الاسلامية في الرباط قد انعش الآمال . وتتطلع الانظار الآن الى مشاهدة ما سيعقبه من نتائج علمية واول خطوة هي قيام الامانة الدائمة للسهر على تطبيق الاتفاق حتى لا يبقى حبرا على ورق كما حصل بالنسبة لمؤتمرات اخرى نذكر منها مؤتمر باندونغ الذى اصبح ذكرى من الذكريات فقط ، وكان المؤمل ان يستمر الى ان تتخلص جميع اقطار العالم الثالث من الاستعباد والاستغلال (9) .

(9) تجدر الاشارة بهذه المناسبة الى المقررات التى اصدرها المجلس التاسيسي لرابطة العالم الاسلامي في دورته الحادية عشرة التى عقدت بين فاتح و14 شعبان 1389 ، و 12 – 25 اكتوبر 1969 بمكة المكرمة والتي جاء فيها : « ان انعقاد مؤتمر القمة قد وضع الامة الاسلامية على بداية الطريق الواضحة .. لتحقيق الامل الكبير الذى عمل له المفكرون والرواد المسلمون خلال الاجيال المتعاقبة في قيام عالم اسلامي متضامن موحد يرتكز على اساس ثابت من العقيدة الاسلامية الغراء التي تستطيع وحدها ان تعطي للمسلمين اسباب القوة المادية والمعنوية وتمنحهم القدرة على الدفاع عن كيانهم وعقيدتهم امام كل المعتدين » . والنتيجة الهامة التى يراها المجلس هي ان يكون هذا المؤتمر ، منطلقا لمراحل جديدة واساسالتنظيم ثابت ومستمر تكون مهمته توسيع آفاق التعاون بين الدول الاسلامية في كل المجالات الممكنة وجمع مواردها وطاقاتها في خطة عملية وجهد منسق لتدعيم القضايا الاسلامية ، ولاسيما القضية الاولى في المرحلة الراهنة ، قضية فلسطين » .

لقد تعرض العالم العربي ـ وفلسطين بالذات ـ خلال تاريخه الطويل الى هجمات وغزوات ومخططات رهيبة اختلفت صورها بحسب الدول التى كانت تنجذب الى المنطقة وتسعى للسيطرة عليها ، وها هو ذا اليوم يعاني من الصهيونية غزوا بلغ درجة قصوى من الضراوة . وقد جربت الحكومات العربية صده بكل ما لديها من الوسائل ومرت ازيد من عشرين سنة على قيام اسرائيل ، سلك القادة العرب خلالها عدة طرق لوضع حد لمأساة وطنهم دون ان يجدوا مخرجا . وها هم اليوم قد اهتدوا الى سبيل التضامن الاسلامي فلعل فيه الامل والنجاة ، لقد جرب فى عهد صلاح الدين الايوبي ، وبالامس القريب حين كانت الشعوب الاسلامية واقعة تحت السيطرة الاستعمارية ، فأتى ثمرته . وما افاد بالامس حقيق بأن يفيد فى المستقبل ، مع المحافظة على كل أساليب الكفاح والدعوة ، وعدم التفكير فى التخلي عن اقناع اي من الاجزاء التى يتكون منها الراي العام العالمي بعدالة قضية فلسطين والقضايا الاسلامية الاخرى التى اصبحت محط العدوان الصهيوني .

الرباط ـ قاسم الزهيري





لم يكد القصر الملكي تشرق رحابه يوم الثلاثاء 9 يوليوز 1929 بمولد صاحب السمو الملكي الامير مولاي الحسن ولي العهد حتى بدأ والده جلالة الملك المرحوم محمد الخامس يفكر مليا فى مسألة تنشئته، وصار شغله الشاغل فى السنوات التى كان فيها شبله الحبيب ينمو ويترعرع ان يعد بنفسه برنامجا محكما لتربيته بدنيا وفكريا ، وتعليمه تعليما يتناسب مع مقتضيات العصر وعظمة المسؤولية التى ستناط به يوم يستد ساعده ويصلب عوده .

وحتى ذلك الحين لم يكن تعليم الامراء يختلف عن تعليم من اسعده الحظ من ابناء الشعب بالدخول الى المسيد فالجامع ، يبدأ بتعليم الكتابة والقراءة تقليدا من غير اتقان لقواعدهما وحفظ ما تيسر من القرءان الكريم محاكاة دون فهم لمعانيه ولا معرفة بما يتضمنه من احكام واخلاق وقصص ومواعظ ، فاذا حذق (المحضري) القرءان وكان مراد اهله ان يوجهوه توجيها علميا انقلب الى (طالب) يقرا العلوم ويحفظ متونها ، كالاجرومية فى النحو ، والمرشد المعين فى الفقه ، والمقدمة الصغرى فى التوحيد ، والحساب بالحمارة ، وكلما حفظ متنا وفهم ما فيه من قواعد انتقل الى متن فى نفس الموضوع اوسع من الاول كلما واشمل موضوعا ، فالاجرومية تتلوها الالفية ، والمرشد المعين تتبعه الرسالة ، والمقدمة الصغرى تعقبها الوسطى فالكبرى او اضاءة الدجنة ، واتقان علم من العلوم يفضي حتما الى قراءة علم يرتبط معه بسبب، فبعد النحو يدرس الصرف لمعرفة الاشتقاق ، والعروض لوزن الشعر ، والبلاغة لتجويد الانشاء وتمييز ما فى الكلام من محسنات ، ومن الضروري حفظ بعض الخطب النثرية والقصائد الشعرية الشهيرة كخطب الامام علي والمعلقات السبع او العشر للاستشهاد بما فيها من حوشي اللفظ وشذوذ نحوي وصرفي ناشيء عما اثر عن القبائل العربية من لهجات ، وما طرا على تلك اللهجات من مولد ودخيل ، ومثل ذلك يقال فى حق التوحيد الذى يدرس بعده المنطق لتعلم الجدل فى الذات والصفات والافعال الالهية بأسلوب المنطق اليوناني ، وفى حق الفقه الذى ينتهي بدارسه الى علم الاصول لاستنباط الاحكام ، وعلم الحساب لقسمة الارث ، وعلم الفلك والهياة لتحديد سمت القبلة وضبط مواقيت الصلاة ، ولابد من التبرك بقراءة السيرة النبوية والشمائل والمغازي واستظهار بعض النصوص المديحية والدعائية كالبردة والهمزية والصلاة المشيشية والحزب الاكبر للامام الشاذلي .

ومع ان جميع هذه العلوم والمعارف لا تخرج عن مادتي الدين واللغة فان دراسة بعضها بأسلوب عصري شيء لا بد منه لشعب مسلم العقيدة عربي اللسان كالشعب المغربي ، ولكن دراستها جميعا وبالطرق البدائية العقيمة التى كانت تدرس بها منذ اكثر من الف عام لا تؤدي الى تكوين الرجل المثالي والمواطن

الصالح الذى ينشده سيدي محمد بن يوسف ، سواء كان هذا المواطن المثالي مولاي الحسن فلذة كبده ، او مجرد واحد من ابناء الشعب الذى وضع مقاليده بين يديه ، وعلق كل آماله عليه .

كان لزاما اذا على السلطان أن يسهر بنفسه على تربية الامير وتنشئته تنشئة كاملة تجعله قوي الجسم ، نير الفكر ، صحيح العزم ، حلو الشمائل طيب المعشر .

وبدا جلالته ببناء منزل لسكنى الامير بحديقة القصر المجاورة للجناح الذى تقيم به الاسرة الملكية، واختار له مربية عصرية هي الآنسة ايسباني التي استبدلت بها بعد حين الآنسة ميير ، وقد اقامت هذه المربية الاخيرة مع الامير الصبي ومع شقيقته الاميرة للا عائشة فى المنزل الذى اصبح يدعى (دار الشرفاء) الى ان بدا سموه يزاول التعليم الثانوي ، وكان دورها قاصرا فى النهار على العناية باكل الامير ولباسه وترويضه بالحديقة وتدريبه على ممارسة بعض الالعاب الرياضية المناسبة لجسمه الفتي ، اما التربية الدينية والخلقية فقد عهد بها الى مرضعته وداداته المسلمات اللاتي كن يتمن معه ، وقد كان لتصرفات هؤلاء المراضع والدادات ، وما يصدر عنهن من اقوال وافعال مستمدة فى الغالب من اقوال الاسلام المأثورة ، وما يقمن به على مراى منه ومسمع من اداء للواجبات الدينية واقامة لحفلات ذات عوائد مخصوصة فى اوقات معلومة اكبر اثر فى نفس الامير الناشيء، بل كان كل ذلك اول ما علق بذهن مولاي الحسن من ذكريات طفولته بل حياته .

قال لي جلالته :

« انني تعلمت كثيرا من عقائد الاسلام وتمرست باداء شعائره على يد اهل بيتنا وخادماته قبل ان يلقنني اياه استاذ ، عندما فتحت عيني على الحياة وبدات اعقل كنت ارى نساء دارنا يذهبن عقب كل اذان ــ وقد وضعن التخاميل على اذرعهن ــ الى مكان الوضوء استعدادا لاداء الصلاة ، وكان بداخل دارنا امامان ، يؤم احدهما بالسيدات ومن حضر معهن من الخادمات فى مصلى خاص ، ويؤم الثاني بالخادمات فى مصلى ثاني يوجد قرب مكان عملهن ، وكانت المراة من اهل دارنا اذا ابدت رغبتها فى حفظ القرءان وتعلم قواعد الدين اجيبت الى رغبتها فورا : يعطى لها لوح خاص يكتب فيه الفقيه سور القرءان واحكام الدين ، فاذا حفظت ما فيه ، محي وكتب فيه مرة اخرى شيء جديد ، وهكذا دواليك ، اما المراضع والدادات اللاتي كن يخدمنني ويتمن معي فقد تعلمت منهن فى صباي الباكر الشيء الكثير ، فهن اللائي علمنني رد التحية وتشميت العاطس والتسبيح عند سماع الرعد ورؤية البرق ، والتلفظ بكلمة الشهادة عند الدخول الى الفراش للنوم ، وما زلت اتذكر قيامهن للتسحر فى ليالي رمضان ، كنت اراقب اعمالهن عن كثب ، وكثيرا ما كنت ارغبهن فى اعطائي شيئا من سحورهن فكنت آكله بشهية واتذوقه بلذة واشعر انني اساهم بذلك فى صيام رمضان ، وقد ابصرتهن فى ليلة من الليالي يقمن بحركات غير عادية ويحضرن مواد غير مالوف احضارها الا فى المناسبات ، وكانت الليلة ليلة السابع والعشرين من رمضان ، فسالت الدادة عن معنى ذلك ، فقالت عندنا الليلة سيدي قدر ! فقلت : ومن سيدي قدر ؟ فقالت عند طلوع الفجر تتفتح أبواب السماء ، ويتجلى سيدي قدر ، فمن ساله شيئا فى ذلك الوقت اعطاه ما يريد » .

على ان سيدي محمد بن يوسف لم يكن ليكتفي بالمراضع والدادات فى بث العقيدة الاسلامية بذهن ابنه الحبيب وتدريبه على اداء الشعائر الدينية ، وانما كان يتربص به ريثما يكبر قليلا ليلحقه بمسيد داخل القصر يتلقى فيه من هم فى سنه من ابناء الشرفاء والعبيد على يد استاذ ماهر قواعد الكتابة والقراءة ويحفظ سور القرءان الصغيرة واحزابه التحتية حفظا جيدا .

وفى سنة 1934 لما بلغ مولاي الحسن سن الخامسة اقيمت بالقصر حفلات دينية حشد لها العلماء والفقهاء والقراء والمسمعون من كل جهات المغرب ، فاستمروا طيلة النهار يتلون القرءان وينشدون القصائد والموشحات فى تمجيد الخالق ومدح النبي صلى الله عليه وسلم ويدعون الله ان يحفظ جلالة السلطان امير المؤمنين ، ويؤيد به الدين ويعز المسلمين ، ويوفق سعيه لخير رعيته ويصلح له ذريته ويحقق رجاءه فى ولي عهده حتى يراه صالحا مصلحا يسير على اثر جده المصطفى صلوات الله وسلامه عليه ، وآثار سلفه الذين علا كعبهم فى السياسة والحكم كما عظمت مرتبتهم فى الولاية والصلاح ، وفى نهاية العشي دفع السلطان الامير مولاي الحسن الى الفقيه السيد محمد اقصبي الذى اختير ليعلمه القرءان ويفقهه فى الدين واوصاه ــ ق



بابـــه اقـتـدى ...

كلمة مأثورة تقال فى تلك المناسبة ـ ان يسلـك فى تعليمه طريق الجد والحزم، وان لا يخاف لومة لائـم فى عمل ما يرضي ضميره وتستوجبه رعاية الامانـة الغالية التى ائتمنه عليها ، ثم افاض عليه من سجال اكرامه والبسه حلل جوده وانعامه .

ولم تمض الا بضعة اسابيع على دخول الامير الى المسيد حتى ظهرت نجابته وتفوقه على اقرانـه وقريناته فى حفظ السور وحذق القواعد التى كان يلقنهم اياها الفقيه ، بل كانت ثقته بنفسه تأبى عليه وهو فى ذلك السن المبكر ان يتصور احدا ممن يقرأ معه يحفظ اكثر منه ولو سبقه الى المسيـد بعـدة سنين .

قال لي جلالته :

« عندما دخلنا الى المسيد دخلت معنا الحسنية بنت معلمنا الفقيه افصبي وكانت فتاة تكبرنـا سنـا وعرفت المسيد قبل ان نعرفه ببضعة اعوام ، ويوم ختمت الحسنية القرءان بكيت ، لانني لم ارض ان تختم ـ وهي بنت ـ جميع القرءان بينما انا الرجل لا أزال فى حزب عم » !

الرباط : عبد الوهاب بنمنصور

الزبد ... وما ينفع الناس

للعميد السيد التهامي الوزاني

عبر الشرق فقال « فاما الزبد فيذهب جفاء . واما ما ينفع الناس فيمكث فى الارض » هكذا قال رب المشرقين ورب المغربين . وقالت حكمة العرب : « البقاء للاصلاح » وانما كانت حكمة لانها تعبير عن الواقع وتصوير لما يعيشه الناس ويسبحون فى تياره ، وان من الكلام كلاما يحقق بعض اراء رجال اللغة حينما يتحدث بعضهم عن الاسم فيجعله عين المسمى ، ويجعله بعضهم اشارة الى المسمى ، وقد يجوز الاخذ بالقولين كليهما فى موطنين متغايرين : فاما الاسم الذى يشير الى المسمى فكقسم المدح عند الشعراء المسترزقين ، يتحدثون عن المحسنين اليهم فيقول اكثرهم تطرفا :

ما شئت لا ما شاءت الاقدار

ويقول الآخر :

ما نوال السحاب يوم ربيع
كنوال الامير وقت سخاء

فنوال الامير بدرة عين
ونوال السحاب قطرة ماء

قاصدين بذلك تسمية المحسن اليهم من الناس بما لا يستحقه اي مخلوق ، ولكنه يتناوله نية وقصدا، فالاسم غير المسمى. اما الالفاظ المحددة الدالة بالمطابقة ، فانما هي الالفاظ الممتلئة بمعانيها لا تحتمل غيرها ، وتسبق معانيها الى الذهن قبل الانتهاء من النطق بها ، ومن ذلك قولهم « البقاء للاصلح » وكل محاولة للحيلولة بين الالفاظ ومعانيها وتحميل الكلمات غير ما تحمله قلب للاوضاع واحلال للزور محل البرهان ، وللكذب محل الصدق ، وانما هي جولة حتى يزهق الباطل ويحق الحق . اما أن يتصارع كذبان فشرهما اقربهما الى الاضمحلال . وان من الدلائل على عظمة الدين الاسلامي انه استطاع ان يصارع الاحداث الكبرى اربعة عشر قرنا . ولا زالت قواته كامنة ، وكلما جاءت الزوابع بما ينهار منه الضعيف ، زادت من رسوخ الاسلام وتثبيت قدمه ؛ لان الطاعنين فيه يروجون اراجيف ليست منه فى شيء ، وتوضع مبادئه على مشرحة النقد . وكلما اشتد الحط والنقد ازدادت مباديء الاسلام اشراقا ونورا . وبمقدار ما يجتهد البطالون فى اخفاء عجزهم يتلالا الحق الاسلامي ويأتلق ائتلاق الالماس فى وضح النهار ، وكلما تجلت السحب عن وجه ذكاء الحقيقة ازدادت تقاسيم تعاليم القرءان اوجة وجمالا ولمسا للحقائق . وكلما تقدمت المعرفة الانسانية تمكنت من الاطلاع على اسرار كلام الله، لانه قول لا ياتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . والحق حلقة واحدة مفرغة ، اما الباطل فطرائق قدد تزيغ ذات اليمين وذات الشمال ثم لا تنتهي الا الى الضلالات ووجوه العطب والهلاك ، ومثل ما قيل فى القرءان يقال فى السلطان . ولعل الذين يستعملون دعاء « احفظه بما حفظت به الذكر الحكيم » يلهمون التوحيد بين القرءان والسلطان . فالسلطة التشريعية القوية لا تدرك محاسنها الا بأن تقوم بتنفيذها سلطة

قوية حكيمة تنسق قواعدها ، وتتخذ لوائح داخلية، لطريقة تطبيق هذا القانون الاساسي لجمعية قوامها سبعمائة مليون من العقلاء ، بحيث تسد حاجاتهم الاجتماعية والخلقية والاقتصادية والصحية والتطورية على خير الوجوه وافضلها . وكانت طبقة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم خير مثال للادارة الحكيمة التى تعرف طريقة تطبيق هذا النص الالهي الماثل فى القرءان الكريم ، ثم تكسرت الدول دولة تلو اخرى ، وانما يجلى فى هذا المضمار السابقون الى الخيرات ، العارفون بطريقة تطبيق هذه الشريعة الرائعة ، وكان تفاوتهم فى النجاح هو تفاوتهم فى الاخلاص لها ، ونكران ذاتهم امام اوامرها ونواهيها . وقامت فى جهات العالم الاسلامي حكومات كانت موفقة بمقدار انقيادها لهذا الدين المتين ، فاذا تحكم الهوى ، وعطلت احكام الشرع صاحب ذلك الوضع انهيار اتى على تلك الدول فذهبت لها عملها ولنا عملنا لا نسال عما عملوه ولا يسالون عما عملنا ، ، ووقف الاسلام جلدا قويا بمبادئه المثلى، كلما هاجمه المهاجمون من ثغرة وجدوا وجه الطعن ليس تاتيا عن طريق الاسلام الحقيقي ، وانما ءات عن طريق التاويلات التى تخضع للازمنة والامكنة والاشخاص ، فهي شؤون ذاتية لصاحب الراي لا لمتن الموضوع بتاويل ءاخر . وعلى عكس ما يفهم البعض من ان التقدميين من ابناء الاسلام يهدمون بعض قواعده ، ويخربون بيوتهم بايديهم ، فان الحركة الاسلامية العامة قد استفادت من هذه الجراة ، التى اظهرها الشبان المتعلمون تعلما عصريا فى الالتجاء الى مقاييس الحضارة العصرية ، حتى ولو خالفت ظواهر نصوص الشريعة ، فان هؤلاء الشبان وقفوا موقف الفدائية ، فحالوا بين امم الارض ومجابهة العالم الاسلامي بما يكره من استياء الزمنيين من تصرفات تناقض الاسس الحضارية والانسانية ، كما تحملوا استياء بعض المسلمين المتاثرين بتاويلات اجتهادية ، كان لها اعتبارها فى وقت ، ثم لم يعد امرها مناسبا للوقت الحاضر . ولنضرب مثلا لذلك بمسألة الرق ، الذى اصبح من اكبر الكبائر فى مذهب الحضارة الجديدة. مع تعبد المسلمين بآيات من كتاب الله تذكر الرق وشأنه فى الصورة التى كان عليها من لدن اكثر من الف سنة . مع ان القواعد الشرعية لا ترى مانعا من فداء رقبة مومنه برقبة غير مسلمة ، سيما اذا فرضنا قيام حرب بين غير مكافئين ، كالمسلمين بعزلتهم عن الاعتدة العصرية ، وتمتع غير المسلمين

باسلحة مدمرة ، الى جنب تكوين الجندي الامريكي او الروسي . فقد علمتنا المصائب التى حلت بالعرب ان الكثرة غير المدربة ، لا تستطيع الوقوف فى وجه اقلية محكمة التدريب ، كما هي الحال فى حرب الشرق الاوسط ، التى اطاحت بالجند العربي فى حرب الايام الستة . فلو كان نظام الرقية لا يزال قائما لكان المسلم يباع اليوم بثمن بخس ، لكن تحريم الاستعباد والرق بسائر وجوهه افاد منه الضعاف اكثر مما استفاده الاقوياء . على ان الاسلام دائم التشوف الى الحرية فانه باقل سبب يجيز شانها ، ولو مبعضا ، ومدبرا ، ومكاتبا ، وام ولد ، فاذا جاء هذا التبادل فى الاسرى عفوا وتلقائيا . فان الاسلام المشرئب الى الحرية دائما يحبذه ويحرص عليه .

ان الحكومات الاسلامية تتقبل الضغط من جانب المسلمين ومن جانب غير المسلمين ، فتتصرف تصرفا انسانيا مغمضة العينين عن بعض اقوال الفقهاء أيام الحروب الصليبية ، لان التأويل يساير الزمان . اما قواعد الشرع الصريحة غير المؤلة فانها قليلة ، ثم لا تمس جوهر الحضارة القائمة ، او ان الحضارة متعصبة نظرا لقوتها ، بحيث لو ضغطت عليها ظروف عنيفة لتمكنت من موافقة مسالة الربا مثلا للنظم المالية ، فان سلفا يجر نفعا ماديا ليس بضروري ، حينما يجر نفعا روحيا ، حيث ان القرض الحسن فى الاسلام يجر نفعا اخرويا لما ثبت شرعا من ان اجر درهم الصدقة بعشر حسنات ، اما اجر القرض الحسن فسبعون حسنة ، وهذا يعني ان سلفا جر نفعا أخرويا لا بأس به ، وانما الشر فى اجر مادي . ولو كان القرض على شرط استعماله فيما يفيد المجتمع العام كبناء للسكنى ليجد الناس اين يستقرون ، وليلا يفقدوا ما فيه يستقرون ويسكنون، ويروج فى التجارة قصد تبادل المنافع . لكان هذا السلف الجار لهذا النفع محمودا مرغبا فيه شرعا . لكن الامم المسيطرة يرون اليوم راي مشركي قريش حينما قالوا «انما البيع مثل الربا» واتخذوا قياسا خاطئا ، حيث شبهوا بين الوضعين فى حصول كل منهما كل قبض اكثر من دفع ، وجهلوا او تجاهلوا وجه المغايرة بين البيع والربى ، حيث ان ربح البيع فى مقابلة المجهود الفكري والبدني الذى يبذله البائع فى بحثه عن البضائع ، وفى نقلها ، وفى تحمل المضاربات التى يتعرض لها ، بخلاف المرابي الذى لا يتكلف شيئا اكثر من ان يقدم مالا ثم ينام الى ان

يكدح المدين ويقدم له المال الحرام المكتسب بعرق الجبين دون ان يتكلف هو اي عمل ؟ فأين قولهم ان البيع مثل الربى ؟ على ان بعض المسلمين يحملون قول الله سبحانه « لا تاكلوا الربا اضعافا مضاعفة » على ما اذا كان الربا يصل الى مساواة راس المال ، اما ان قل على ذلك فلا باس به ، وهذا هو المعمول به قانونيا في البلاد المتحضرة ، فان الربا لا يمكن ان يستهلك راس المال كله . في حين ان ربى الجاهلية كان يتناول حتى رقبة المدين ، بحيث يملك الدائن رقبته عوضا عن واجب الربى. فالاسلام نظام عظيم لفائدة الناس كافة ، ولكننا هنا نتذكر كلمة رئيس المجاهدين بجبال الشمال مولاي احمد الريسوني ، فقد حدثني عنه ابن عمنا سيدي محمد بن احمد ساكن مدشر بني معدان من قبيلة انجرة حرسها الله وكفاها ما أهمها، فذكر انه في السنين الاولى من الحماية ودخول الجيش الاسباني الى تطوان ، ثارت ثائرة المغاربة ، وتزعمهم الشريف الريسوني ، وكان قائدا موهوبا بطلا صلبا لا يرضى الضيم ، ففر بنفسه واهله من مدينة اصيلا ، التي كان عاملا عليها وعلى ما وليها من القبائل ، واعتصم بترزوت والضريح العبسمي المشيشي ، ودعا الناس الى الدفاع عن دينهم ووطنهم ، فاستجابت له قبائل الجبل كلها. قصدته الوفود من سائر جهاتها ، فاخذ يدبر امرها بحكمة وفهم وذكاء ودهاء، ومن غير حاجة الى المال والرجال . تمكن من تنظيم المقاومة بصورة رائعة ، ومن اول ما بدا به انه اخذ يولي ولاته على القبائل ، وشيوخه على الارباع والدوائر . قال سيدي محمد الوزاني المعداني : قصدت مولاي احمد الريسوني في جماعة من شبان القبيلة واعيانها ، وعرف اننا جئنا لندخل فيما دخل الناس فيه من شأن الجهاد والدفاع عن الاسلام في داره بقطرنا ، فلم تمض الا ايام قلائل حتى استدعاني في ثلة من رفاقه ، ودون كثير كلام ، ابرز ورقة مكتوبة ، وقال لي : ايها الشريف ؟.. ما هو هذا الذي بيدي ؟.. فقلت له : نعم سيدي انه كاغد . فقال : ماذا يكون شأنه لو وقع في الماء ؟ .. — يقول سيدي محمد — فقلت له : انه يتمزق ويتحلل !.. فناولني اياه ، وقال : حاول ان لا توقعه في الماء ... فكان فيه تعييني رئيسا على قومي . قال سيدي محمد : وكان الريسوني كثيرا ما يضرب الامثال في حديثه ، ويكره ان لا يفهمه من يضربها لهم ، لكنني وفقت بحمد الله ففهمت قصده ، وهو ان اتحمل ما في الوثيقة من مسؤوليات والتزامات بصورة جدية قويمة قوية حكيمة ، فان الوظائف لا يعمل بنفسها ، ولا يقوم الجن بالاستماتة في سبيل تحقيقها ، حتى اذا ما وقعت في يد مقتدرة طبق ما فيها من قواعد بصورة رائعة حكيمة . ذكرت هذه النكتة هنا ، ليعلم القاريء الكريم ان الموضوع لا يستقل بنفسه ، وانه عرض محتاج الى ذات تتكيف به وتستعمل مواهبها الانسانية في تطبيق نظرياته على احسن الوجوه التي يفيد المجتمع والناس كافة .

ان الشريعة الاسلامية عظيمة كفيلة بسعادة البشرية جمعاء، اذا طبقت بتفهم وحكمة وفهم . وقد عرف عن الاسلام ان الفهم من قواعد الحكم ، فمن لم يتذكر نصا من ءاية محكمة ، او سنة قائمة، فالفهم الفهم . وقد توفق الخلفاء الاربعة ابو بكر وعمر وعثمان وعلي ، وكذلك عمر بن عبد العزيز رضي الله عن جميعهم ، فطبقوها بمثالية وانسانية ؛ ثم بعدهم دخلها التحريف ، وليس التحريم اللفظي ؛ فان القرءان متواتر والسنة لها قواعدها التي تدب عنها ، ولكن التحريم انحراف في نفوس الذين عهد اليهم بتنفيذها في مختلف ادوار حياة الاسلام ، فبدلا من ان يسيروا بها في هداها ، جعلوها حبالة للاستبداد وجمع حطام الدنيا . ولا شك ان الدول الاسلامية كانت مخلصة للاسلام ، لكن حلاوة الملك والسلطة الدنيوية هونت عليهم بعض المخالفات : فانهم كانوا يجاهدون ، وينصبون القضاة تاركين لهم كامل الحرية في تطبيق النصوص الفقهية كما دونها الائمة . وثارت ثائرتهم لظهور البدع والاهواء، ومع ذلك فان النصيب اليسير الذين تغاضوا عن تطبيقه على الصورة التي يرتضيها الاسلام في نظر كبار الفقهاء والمحدثين والصوفية ، واختلسوا منه حاجات توسلوا بها للوصول الى ارائك الحكم . وحسبوا ان الغاية تبرر الوسيلة ، واستخدموا مذهب النفعية بصورة تلقائية ، ونسوا ان الله طيب لا يقبل الا طيبا . وان الوسائل لا تختلف في شيء عن الغايات ، وحتى اذا وجدت اتفاقية ترتبت عن مخالفة لقاعدة اسلامية ، فان ما تجره من الفوائد لا يساوي شيئا بالنسبة لفتح باب التساهل في تطبيق نصوص الشريعة وقواعدها ، مع ان القانون الاساسي لكل مجتمع انساني يلزم ان يتبوا المكانة العليا من الاحترام والطاعة والانقياد ، واذا تبدلت ظروف الحياة لاعتبار من الاعتبارات التاريخية والاجتماعية والاقتصادية والنفسية والفكرية والحضارية

وغيرها . فان تناول الجوانب للشريعة ببعض التعديل الذي لا يمس الاصول المجمع عليها اتفاقا من جانب جميع المسلمين ، ربما يعفى عنه وربما يتعين في بعض الظروف .

ولا خلاف في ان الدول الاسلامية التي كانت مؤتمنة على الدين الاسلامي لم تقم منها واحدة بواجب الامانة كاملا بنفس الصورة التي اداها بها الخلفاء الاربعة وعمر بن عبد العزيز رضي الله عنهم . ومع ذلك فان جميع الدول بخير ، لانها خلطت عملا صالحا وءاخر سيئا عسى الله ان يتوب عليهم . ولولا اخلاصهم بنسب متفاوتة لما كان عدد المسلمين في مستواه العددي بهذه الارقام الهائلة ، وهذه المكاسب التي تفوق حد التصور ، فان العالم الاسلامي لا يقل عن خمس الانسانية في كامل وجودها ، وقد ملكت افضل بقاع الارض واثراها واعدلها واجملها. فانا نصل في تقدير قادة العالم الاسلامي في مختلف عهوده ، وفي شتى مراحله ، الى المستوى الذي تبواه الخلفاء الاربعة مع عمر بن عبد العزيز وهو خامسهم ، فان لهم من الفضل نسبة صالحة في جدول الاعمال الخالدة ، ويتبوأ صدر اللائحة الثانية صلاح الدين الايوبي وسلاطين آل عثمان ، والغزنوية، والمرابطون ، والموحدون ، والسعديون ، والعلويون . وكذلك الامويون في الشرق والغرب والعباسيون ؛ فكل اولئك كانت لهم مواقف مشرقة ، الى جنب هنات نرجو من الله ان يتجاوز عنها وان الحسنات يذهبن السيئات .

وفي هذا الاطار العام من الوجود الاسلامي بما له من معطيات وقيم ، وما اتصف به القادة الاسلاميون من انحرافات ، يحتل كياننا الحالي مكانته على الصورة التي هو عليها ؛ يقف بنا كر الليالي ومر العشي على ذكريات يفتح فيها التاريخ معرضه المتراخي الاطراف ، وتضاء احدى مجده ؛ للاعتبار بذخائرها ومختلف صورها ، وشتيت انواعها. ولم نتعرض لذكر المرينيين والوطاسيين ، كراهية الوصول الى الفصل الاخير من قصة مثلوها ، وكانت ماساة انتهت بالفتاة الاندلسية الى ما قاله ابو البقاء الرندي :

وطفلة مثل حسن الشمس اذ طلعت
كانما هي ياقوت ومرجان

ثم يقول :

لمثل هذا يذوب القلب من كمد
ان كان في القلب اسلام وايمان

كرهت في هذا الصباح ان اشهد هذا المشهد المزعج كانها موبقة كابوس ثقيل ، في نوم قلق ، لكننا ما دمنا مع التاريخ نحاسبه ليحاسبنا ، ويقدم لنا لوائح الخسائر الى جنب قوائم الارباح ، فواجبنا ان نسمع بالاذنين ، وان نتقلب بين بؤس ورخاء ، وسعادة وشقاء، لئلا نفقد نصف الصورة المثير ، ونعرض صورة خاطئة فيها تدليس لا خير فيه وان كان صدقا ، وانما يتمكن الطبيب من حسن وصف الدواء ، اذا علم بسائر العوارض المؤذية، واطلع على ما يصح وما لا يصح ان يقال . يصح عرض تقريبي وفيه بتر اوسع من الحلقة المفقودة في نظرية « داروين » واذا اعتذر « داروين » عن فجوته بفقدان حلقتها ، فان التاريخ المغربي — الذي يشكو من فقدان عدة حلقات — لا يحتمل ان يغفل من حلقاته حتى ما هو موجود ، وفي قطاعاته روائع ماثلة في المدينة البيضاء بفاس ، وفي المدرسة العنانية وفي مدافن شالة ، وعلى اقواس وابراج سلا ، وفي وقعة « الارك » وفي « الكتبية » و « حسان » و « الخير الارضي » ؛ وفي تطاون وآثارها وقيمتها وماموريتها التاريخية والانسانية في نطاق المغرب الخالد العظيم ، سيما وللمرينيين صفة خاصة في كونهم مع اسلافهم كانوا يسكنون شمال المغرب : فهم نتاج الشمال الذي انتج كذلك ايضا دولة الادارسة . واذا كان الوطاسيون — اخوان بني مرين — القوا الحبل على الغارب في اخريات ايامهم ، فانهم هم الذين شجعوا الصوفية حتى ازدهرت وكان من رجالها الناصريون والزيدانيون ، والدلائيون ، هؤلاء الذين مهدوا الطريق امام الاخوين مولاي عبد الملك ، ومولاي احمد المنصور الذهبي ، وهم الذين فتحوا ابواب المغرب على مصاريعها في وجه المهاجرين الاندلسيين ، فكانوا عظماء في انتصاراتهم وايام اقبال الدنيا عليهم ، كانوا عظماء بحمايتهم للمعارف وبنائهم للمدارس ، وتعظيمهم للعلماء والصلحاء وبادخالهم الهلاليين الى بسائط المغرب ، وكانوا عظماء في هزيمتهم ، وحينما اختاروا لاعمالهم رجالا من طراز الشرفاء العلميين من بني راشد ، الذين ساعدوا على بناء تطاون ، وءاووا المنظري ورجاله من اهل الجهاد والغيرة . وانما استطاع ابن بطوطة

ان يقوم برحلاته في ايام بني مرين ، ولولا امرهم بكتابة قصته لضاعت هذه الثروة الطائلة العالمية . لكنهم اختاروا احسن الكتاب لاحسن قصص عصرهم، ولولا ثقافتهم الواسعة لاعتبروا الرحلة البطوطية اسطورة تموت بعد بضعة اعوام من تلفيقها . اننا نعترف بأن المغرب الجديد يبدأ عمله من لدن عهد المرينيين والوطاسيين : وهل دخل المغرب السادة الفهريون بنو الجد الا في عهد بني وطاس ، فكانوا رسل المعرفة المنظمة ، واساتذة النقل والسند ، وخير رجالات التصوف .

لقد كانت الصليبية فاتحة على العالم الاسلامي حملتين اثنتين : احداهما في المشرق ، لمهاجمة بيت المقدس وجعله عاصمة لدولة مسيحية قد ينتقل اليها مركز البابوية نفسه ، لان قيامه بروما كان لاجل وجود القديس بطرس فيها وقبره بترابها . اما وقد وجدت بقاع الانجيل وموطن معجزات عيسى ابن مريم عليهما السلام ، فانه اولى بأن توجد فيه ام كنائس النصرانية واعظم معبد انجيلي على وجه الارض . اما الجبهة الثانية فكانت مقامة محمل من ليس بنصراني على ان يترك البر الكبير — اوربا — للمسيحيين وحدهم ، ولن يضير في شيء القضاء على اغلى ثقافات العصور الوسطى ان تطرد من منبتها بقرطبة ، واشبيلية ، وسرقسطة ، وبرغس ، ومالقة وجهات اخرى كانت كواكب لامعة في نحر المعرفة البشرية في عصر استفحال شأن محاكم التفتيش وارتكاب فظائع لا يمكن التعبير عنها . ولقد وقف المغرب العربي المسلم في وجه هذا الزحف الذي كان يحلم بتصفية الشمال الافريقي الى جنب الجنوب الايبري . وقدم حرم البابوات انتقال الفرسان الصليبيين من جبهة المغرب الى جبهة المشرق حتى ولو كان ثمن ذلك ترك القسطنطينية عورة في وجه الحصار العثماني المسلم ، وتكشفت الحال عن ان العالمين الاسلامي والمسيحي لم يكسبا ولم يمترا شيئا من الاراضي ، وانما هو مبادلة حغرافية بين بلاد الاندلس وآسيا الصغرى ، على حساب خسارات انسانية وبشرية ونفسية لا تقوم بتقويمها خزائن من النضار والابريز . واستطاعت المسيحية ان تتكتل بسائر عناصرها ومذاهبها ، في حين ان المسلمين هاجت عليهم المصائب ، فكادت لا تجتمع كلمة بين الف من الناس ، وحتى الغرناطيون الذين كانوا بقية وآخر من يدافع عن الوجود الاسلامي في قطر قال عنه

الذين قدروه حق قدره ، حينما بلغهم ان بعض الجغرافيين الاقدمين مثلوا الدنيا بطائر ذنبه الاندلس، قالوا : ان هذا الطائر كان طاوسا جماله في ذنبه . وقد عمل الوطاسيون ما في وسعهم مما يساعد على المقاومة في الاندلس ، ولا ننسى نظام الطائفة الذي كان قاعدة للمتألهين من المغاربة حيث كانوا يذهبون الى الاندلس بقصد الرباط والوقوف في وجه الزحف المسيحي، ولا ننسى الولي الصالح العالم الجليل مولانا عليا الشريف الذي كان يحج سنة ويجاهد سنة ، ولم يكن يشارك في الثورات الداخلية بالمغرب ، فلم يكن ذلك جهادا عنده ، كما انه ليس بجهاد في الشرع الاسلامي ، وانما هو تطاحن من اجل حطام الدنيا ، لكنه كان يجاهد ويرابط في بلاد الاندلس ، وكان ابطال المسلمين يعرفون مواقفه وشدة شكيمته وثبات عزمه ، فكان المجاهدون الاندلسيون يجدون متنفسا بحضوره ومشاركته . وكان ملوك المغرب لا يألون جهدا في تسهيل مأمورية المرابطين . وكان المغرب يفتح واجهتين لتفتيت قوات الصليبيين ، ففريق يقصد الاندلس من مليلية ، وفريق يقصدها من قصر المجاز او قصر مصمودة ، الذي يقع في موقع كأنه طبعته يد انسان ليكون متجمعا لجنود الله ، ففي انحائه من المياه والمراعي والغابات والمرتفعات والسهول ما يتسع بسهولة لثلاثمائة الف محارب بأعتدتها وأدواتها ، فكانوا يقيمون في هذا المجمع اياما واسابيع وشهورا حتى تمكنهم الفرصة من قضاء مآربهم في الصراع بالاندلس وهم آمنون مطمئنون ، وحتى اذا حز بهم امر وداهمهم العدو وجدوا جندا من حزب الله جاء من المغرب لمؤازرة النضال ، غير ان الجانب الصليبي كان يفعل نفس الشيء فكانت الامدادات المسيحية تأتي من كل حدب وصوب لتدعيم الجانب الصليبي. ونرى ان صلابة الموقف الاسلامي كانت السبب الرئيسي في وقف تيار الزحف الصليبي حيث استفرغ كل مجهوده في الوصول الى شواطىء المغرب . بحيث لولا النضال الاندلسي لتم مخطط الكنيسة في ادخال الشمال الافريقي تحت الكرسي الرسولي في رومة . وعندما دب دبيب الهرم الى دولة بني مرين وابناء عمهم الوطاسيين ، تنخر جسمهما سريعا ، فانحطت في اقل من قرن من علياء أبي عنان الى حضيض محمد البرتغالي ، لكنها كانت حكيمة في اطلاق يد امراء الجهات ليتصرفوا حسب ما يمليه عليهم الموقف ، وهذا جانب سلبي نافع وخير من الضرب على يد القادرين ، ليبقى

الميدان صاحب الاديم امام المغيرين . ولهذا كانت مالقة وقلعية في جهة الشرق ، والجزيرة الخضراء وقصر صنهاجة في الشمال الغربي ، في حركة صاخبة : حيث يجتمع المرابطون للدفاع عن بيضة الاسلام فيما بقي من بلاد الاندلس على امل ان لا يقتحم العدو الضفة الجنوبية للبحر الابيض المتوسط . وتمكن النصريون الجذاميون من ان يتخلصوا من الوطاسيين ، وبقيت لهم غرناطة كافحوص القطاة يصلها بمالقة طريق كطريق النمل . وخف بعض الاندلسيين وانتقلوا الى البلاد الاسلامية ـ فارين غير كارين ـ نعم كانوا فارين مكرهين ، لانهم لا يطيقون البقاء ، اذ لا يؤويهم صديق ولا عدو: اما الاصدقاء وهم المسلمون فكانوا يتنازعون على الملك؟!!واي ملك بقي؟!!ولكنها الاطماع القتالة ، وقد التجأ بعض ضعاف الايمان الى الصليبيين عسى ان يجدوا الامن الدنيوي ، لكن محاكم التفتيش قست حتى هؤلاء المرتدين الذين فروا من الزحف ، وبلغ الخور في شعباتهم ان بدلوا ايمانهم كفرا ، حاسبين ان الردة تخفف عنهم البلاء ، فكانوا كالمستجير من الرمضاء بالنار : وعاملتهم التفتيشيات بكل ريبة واحتقار ، فمنهم من فتح الله بصيرته ورجع الى المسلمين ، وردد في الوقت المناسب ـ كلمة المعتمد ابن عباد « رعي الابل خير من رعي الخنازير » ومنهم من اقام على الكفر والهوان ، وملأ اليأس من رحمة الله عقله وجوارحه، فقبل النير على عاتقه والسخرية في جسده ، والاحتقار اينما حل وارتحل ، وسكن في احياء « المتنصرين » الحقيرة ، التي كان يسمح الطيبيون ومحاكم التفتيش المرتدين من العرب ان يعمروها دون ان يختلطوا بالنصارى . كل هذا يجري دون ان يتنازل اكثر الزعماء عن انانيتهم ، بل ظلوا حريصين على ارائك الحكم ، وهم يعلمون ان الحاكم هو السيد الغالب الفاتح . ومن العادات الفطرية ان الوقت الذي تنهار فيه احدى الامم ، وتقتص من نفسها بنبذها لنائر قيمها ، اذ ذاك تظهر نخبة من ذوي المضاء والعزائم لا عهد للناس بمثل ايمانها واستماتتها في سبيل تمجيد مثلها العليا ، ءايسة من الحياة الدنيا ، لكنها طامحة ببصيرتها الى الشهادة وما اعده الله للشهداء من الفضل والخير . وقد عذر الله المجاهدين في بعض مواقفهم ، ووضع لهم مقياسا لصلابة ايمانهم : حتى اذا لم يكن بد من التقهقر ، كان تقهقرا منظما . وتحيزا الى فئة او تحرفا الى قتال، في وضع يمكنه من تأدية رسالته ، واظهار سريرته ، في وقت تنعدم فيه التقديرات ، وتعوز المكافئات ، الا شيئا واحدا هو رجاء ما عند الله من مثوبة واجر . وخلال هذه العواصف الهوجاء ، التي كانت تعصف لاقتلاع جذور الاسلام من الاندلس بعد ان ظلت موطنا للاسلام ثمانية قرون ، انتج فيه المسلمون من افضل نتاج حضارة القرون الوسطى ان لم تكن افضلها على الاطلاق ، والتجأت الدولة الوطاسية الى استنفاذ كل ما بقي في العدوتين من معنوية وحيوية وشمم ، قصد المطاولة ، وايقاف تيار العدوان ـ ولو نسبيا ـ فعهدت الى بني راشد العلميين بحماية شواطيء البحر الابيض المتوسط ، ومناطق الجبال المغربية الشمالية الساحلية ، وكان القائد مولاي علي ابن راشد السيد المطاع في القبائل الجبلية غير مدافع ، وكان متصلا بالمسلمين الاندلسيين كامل الاتصال ، وكان له الاشراف على توجيه حملات المؤازرة ، الى ان اتضح ان بقاء المسلمين بالاندلس اصبح امرا غير ميسور ، فان حلولهم بها لاول مرة كان يحمل صبغة حماية ضعاف النصارى من عدوان طغاتهم ، وكان الاسبان السكان الاصليون لشبه الجزيرة الايبرية، راغبين في الانفلات من نير البرابرة الشماليين من القوط ، فما شعروا بدنو العرب حتى وضعوا يدهم في يدهم ضد ظلم القوط ، ووجد العرب مؤازرة من الداخل ، لولاها لما تمكن العرب من مد رواق سيادتهم على الاندلس ، اما بعد ذيوع فكرة استرجاع الاندلس الى احضان الكنيسة ، فان الموقف لم يبق مقارعة لظلم بعدالة ، بل اصبح استماتة الصليبية في صد الهجوم الاسلامي عن اوربا وبابها الاكبر الذي هو الاندلس. وربما تساهلت محاكم التفتيش من قدماء النصارى ، بمقدار ما تشددت مع الداخلين في الاسلام واعقابهم من الاسبانيين ، الذين كانوا يشكلون الكتلة الكبرى من المجتمع الاسلامي في الاندلس ، بحيث كان العرب والمغاربة اقلية الى جنب المسلمين الآخرين الذين اصلهم من سلالات اسبانية . وكان اخلاص المسلمين الاسبانيين كاخلاص المسلمين العرب والبربر للاسلام والقرءان ، لانهم لم يبقوا تبعية للفاتحين ، بل صار الامر بيدهم يعرفون شؤون البلاد على اساس القومية الاسبانية الاندلسية والدين الاسلامي ، وشريعة القرءان . واحتفظ المسلمون الايبريون بالقابهم الاوربية دون غضاضة ولا شعور بمعرة ، بل كانوا يمجدون القابهم وانسابهم بنفس التمجيد العربي البربري . وهؤلاء لم

يخوضوا معارك العنصريات ، ولكنهم ساروا فى ركاب المعصوصبين ، وحاربوا من اجل الارتباط بالمصاهرات والقرابات واحتكام المصالح ، وما كان الاندلسيون عربا وبربرا ، وايبيرين ، يرون جميعا انهم مسلمون اندلسيون ، لا فرق بين عصبة وعصبة ، بل ان اليهود الاندلسيين كانوا يحسبون انهم يعيشون فى ظل الاسلام وان كانوا ليسوا بمسلمين ، فان الذمة كانت قوية منظمة ، اخذت مفهومها البين الواضح، وكان المسلمون مخلصين لمبدا الحاق الذمي بصفهم ، يحمون دمه وماله وعرضه ، ويمتعونه بكامل الحريات الانسانية ، زيادة على اسقاط تكاليف الجندية عنهم ، فكان الذميون اليهود يناضلون عن الوجود الاسلامي من قلبهم وقالبهم ، لان الصليبية ومحاكم التفتيش لا تعاملهم الا بافظع ما اضطهد به انسان انسانا . اما الذميون النصارى فانهم فضلوا الصليبيين ، لان الاندماج فيهم لا يغير شيئا من أساليب حياتهم ، ما عدا انهم لن يتمتعوا بالحكم والسيادة ، اذ هما من حق الغالبين الاغراب عن الاندلس ، ولكن ذلك لن يضرهم ، فلن يكونوا فى التبعية غير ما هم عليه مع المسلمين واليهود ، الذين تغير عليهم الوضع فى المغرب ، المغرب الذى ساوى بين يهود الاندلس ويهود المغرب ، مثل ما ساوى بين مسلمي الاندلس ومسلمي المغرب ، وليس من التقاليد المغربية ان يدرس العلوم اللاهوتية وغيرها اليهود الى جانب المسلمين ،وهذا ما ادهش يهود الاندلس، حيث ايقنوا انه ليس فى وسعهم ان يدرسوا على اساتذة من المسلمين ، داخل جدران المساجد ولاسيما مسجد القرويين ، ولم يكن من تقاليد المغرب ان يتخذ العلماء لتفسهم مدارس خارج المساجد ، يتعلم فيها المسلمون واليهود على السواء ، ولكن يهود الاندلس المهاجرين الى المغرب اتخذوا لنفسهم مدارسهم ، ليتعلموا فيها بكامل الحرية ، ما ارادوه من شؤون الدين والدنيا . وفى هذه الفترة العصيبة التى كان يجتازها المسلمون فى العدوتين : الاندلس والمغرب ، تكونت تقاليد من شانها ان تقوي جانب الدفاع ، وذلك بنقل نظام الربط والمرابطين والمرابطة من التراب الاندلسي الذى تغلب عليه الزحف الصليبي ، الى التراب المغربي والبحر المغربي . وامتد خط الرباط على طول الساحل المغربي فى الابيض المتوسط وفى الاطلسي . ومن عادة الثغور المغربية المقامة لحماية الداخل أن تشكل خطين الخط الاول والخط الثاني ، ويسمى الخط الاول فى المدن بالسور ، ويسمى الخط الثاني بالدور ، ولذلك كانت اسوار المدن من تحصينين سور ودور . وفكرة السور والدور فى المدن ، كانت تطبق حتى فى الدفاع عن الوطن كله ، ولكن التاريخ فيما نقرؤه فيه ، يحدثنا عن الرباط ، ويحدثنا عن بلاد الاسلام ؛ ففى تطاون مثلا كا يوجد بين سبتة وبر الاندلس ما يسمى بالرباط ، ويمتد هذا الخط فى الداخل، حتى يصل الى شفشاون والقصر الكبير ؛ فنجد المؤرخين المغاربة يقولون عن قصر كتامة وهو القصر الكبير . انه كان اول البلاد الاسلامية ، واول ثغر مقرر ادماجه فى المغرب الرسمي ؛ واليه تنتهي الجيوش السلطانية ، والنظام المخزني . اما تطاون فتقع داخل الرباط ، ونظام الحكم فى منطقتها من باديس الى تخوم الفحص بيد المرابطين ، الذين يتصرفون تصرف الطوع والمقاومة ؛ لا يعرفهم السلطان الا بالاعتراف بتصرفاتهم ، وفض بعض خصوماتهم ، واعتبارهم رعايا مغاربة لهم وضعية خاصة غير مستقرة ، لانهم يعيشون فى ارض مهددة بالغزو الاجنبي فى كل حين وءان . واول ما عرفت تطاون سيادة السلطان الكاملة المطلقة فى ايام مولاي اسماعيل الكبير رضي الله عنه فانه ادخل هذه المنطقة المكافحة التى كانت ميدانا للصراع بين الاسلام والنصرانية . ومن اهم النقط الدفاعية ادخالها فى عداد جهات الوطن ، واخرجها من النظام العسكري الى النظام المدني ؛ فتولت الدولة والحكومة الرسمية شان هذه الميادين المطيبة بدماء الشهداء ، وعهدت الى الجيش بالدفاع عنها ، وجعلت من المرابطين قوة مساعدة ، ولم يبق حاكم تطاون يسمى بالمقدم ؛ وتسمى باسم القائد والعامل والباشا ؛ كبقية مدن ومناطق المغرب .

على ان قصة تطاون وما والاها من اروع القصص ، وهو مصدر خالد للالهام والتغني بالبطولات المغربية . وقد اعادت هذه الفترة بناء هذه المنطقة المناضلة ، وقابته رأسا على عقب ، بحيث يصح القول بانه اعادة تنظيم وتعمير هذه الجهة الهامة من القطر المغربي العزيز ؛ الجهة التى تحتك باوربا فى مسافة ثلاثمائة كيلومتر ، طول منطقة بحر الزقاق او مضيق جبل طارق ، وبها تقطن سلالات من سلالات البحر الابيض المتوسط . وكان حظها كبيرا فى الشمال الافريقي ، فكان لها عاصمتان

اداريتان فرعيتان تفرعتا عن وليلي وفاس تارة ، وعن مراكش ومكناس تارات اخرى . كانت عاصمتاها طنجة وسبتة من عهد مؤسسيها من الفنيقيين والقرطاجنيين ، ومنها كان يليان الغماري يدير هذه الاقاليم نيابة عن ملوك القوط الاندلسيين، حتى كان منهما دخول الاسلام الى أوربا ، بعد ان استعصت عليهم من المشرق عن طريق القسطنطينية ، لكن السيف العربي يعم هذا الخط ،فيقره بالقيروان ، وتمكن ، ولكن من الجزر ، دون الوصول الى البر الكبير ، الذي كان يعتقد انه فى منعة لا تقتحم ، واذا فشل انيبال فى خلق سيادة سامية فى عالم الشماليين والاوربيين ، والمسيحيين ، فغيره لن يستطيع ذلك بحال من الاحوال ؟ ، ومن ذا الذى فى وسعه ان يجاب مآت الافيال ، حتى يقف بها على اسوار رومة بعد القائد انيبال العظيم . وكانت اوربا تحسب ان طبيعتها تحميها من كل غارة تأتي من الخارج ، وحتى مغامرات وفتوحات الاسكندر الكبير توجهت الى الشرقين المتوسط والاقصى ، ولم تجرؤ على التغلغل فى اوربا التى تحميها الحصون الطبيعية ، ويحميها السكان بحماستهم وقوتهم وعصبيتهم . حتى جاء طارق ويليان وموسى بن نصير ففسخوا هذه العقدة بقطعها ، ودخلوا عدوة الاندلس ، واقاموا فيها دولا ، وحضارة لم يسبق لها مثيل ، فى فترة دامت ثمانية قرون ، وظلت سبتة وطنجة المدينتين اللتين تعنيان سيادة العدوتين ، وتقتبلان المسافرين والمهاجرين والسائحين والطلبة والعلماء والتجار طيلة هذه الاحقاب ، وكان الفوز والسبق لسبتة ، لغلبة من كان يقصد الاندلس عن طريق سبتة على من يقصدها من طنجة .

والحق ، ان طرق طنجة ، وقصر مصمودة ، وسبتة ، وبادس ومليلية ، كل تلك الطرق كانت دائمة الحركة والذهاب والاياب ، والشان الذى امتازت به سبتة ، انها لم تكن تمتلىء بالجنود والمرتزقة ، مثل المرافق الاخرى ، ولم تكن لنقل الجيوش منها الى الاندلس ، لوعورتها وعدم توفر ما يتطلبه الجند الكثير من مراعي الدواب والابل والخيول ، فان ذلك كان كفيلا به قصر مصمودة ، الذى قلما كان يختاره المسافرون للتجارة وطالب العلم ، لكن العلماء والوجهاء وكبار التجار ، كانوا يتعمدون أن يجعلوا طريقهم عن طريق سبتة ، فتكون هذه المدينة المغربية تعتبر كآخر بلد مغربي وكأول بلد اندلسي . ومن لم يأخذ العلم والمعرفة والطب عن علمائها فاته خير كثير . فكانت ميناء حضريا مدنيا بخلاف المواقف الاخرى فانها كانت للخليط من الناس . وعرف البرتغاليون قيمة هذه المدينة ناحتلوها قبل احتلال الملكين الكاثوليكيين لغرناطة ، وكذلك كان عملهم فى القصر الصغير وطنجة ومليلية، حتى اضطر الاسبانيون الى ان يغصبوا على هذا التصرف ، وتقوم بين الاسبان والبرتغال مشاغبات حادة ، تذكرنا فيها شؤون الاستعمار فى القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين كوقعة فاشوذة فى مصر ، وكالعرائش والقصر الكبير بين الإسبان والفرنسيين ، فلم يكن الاستعمار متفقا الا على الفكرة الاستعمارية ، حتى اذا تورط التجا الى تعديل الخطة .

واحتلال سبتة وطنجة يوضح درجة الوعي فى مختلف جهات المغرب ، فلم يكن الوعي متماثلا فى جميع القطاعات، ولاسيما ما يرجع الى تقدير شراسة الاستعمار ، اما جيران البحر الابيض المتوسط من المغاربة فانهم كانوا يلمسون حقيقته ، ويعانون مرارته ، وقد وفقهم الله فما وهنوا وما ضعفوا وما استكانوا ، وبينما كان سلاطين الوطاسيين يحسبون استحالة المقاومة كان الصوفية والعلماء موقنين برحمة الله، واثقين بحقيقة « ان الله يدافع عن الذين ءامنوا » وكانوا يعتقدون اعتقادا جازما ان كلب العدو ليس الا احدى ثمرات الغفلة عن الله بمخالفة الشريعة الاسلامية السمحاء ، فامروا اتباعهم بالالتجاء الى الله ، والعودة الى متابعة احكام الشرع قدر المستطاع . وقد لقوا ثمرة مجهودهم ، فقويت نفوسهم ، وصقلت عقولهم ، ورحمهم الله فخفف عنهم العذاب بسبب مختلفة ، ووقف الزحف الاستعماري حينا ، وتباطا حينا ، وظهرت على المغرب بركة الانابة الى الله والرجوع اليه .

وبينما كان الوطاسيون مرضى بمركب الشعور بالنقص ، قابعين فى وسط المغرب ، كان الله سبحانه قيض فى الاطراف رجالا « صدقوا ما عاهدوا الله عليه » فجال وصال فى اقاصي الجنوب الاشراف الزيدانيون السعديون ، وقام فى الشمال الاشراف العلميون ، ونبع فى جبال الريف الشريف « مولاى علي بن راشد العلمي » . وكما كان الاشراف السعديون يتمتعون بعطف وتأييد الوطاسيين ، كان كذلك ابن راشد يحظى بثقتهم الكاملة ، وله التفويض الكامل فى ان يسوق

الجيل بما يؤديه اليه اجتهاده ، لان السواحل – فى نظر الوطاسيين – قضية خاسرة تسعة وتسعون فى المائة . وكان ابن راشد رضي الله عنه قائدا ماهرا ، ووطنيا صادقا ، ويظهر من سلوكه انه كان كثير الشبه فى سياسته وزعامته بالقائد المجاهد مولاي احمد الريسوني ايام نصب الحماية على المغرب . وليس من المعقول فى شيء ان يرحل القائد سيدي علي المنظري رضي الله عنه فى جماعته المختارة المكونة من اربعمائة رجل من الاندلس الى المغرب ، قصد قطع الطريق على الاستعمار ومقاومته فى خطته التى كانت تهدف الى اكتساح المغرب . وما كان احتلال سبتة وقصر مصمودة وطنجة الا رؤوس قناطر للعمل فى الداخل ، بعد تأهيل العمل فى البحر ، فقام بهذه المامورية المنظري بمؤازرة وتأييد مولاي علي ابن راشد العلمي . ونظن ان الحركة الالتفافية التى قام بها المنظري تجعلنا نفترض انه لم يكن مهاجرا بالمعنى السطحي للهجرة ، فانه لم يركن الى الراحة ، ولم يعكف فى المساجد ، ولم يلجأ الى الابراج العاجية ، ويحق ان يسمى بالمرابط ، وان يعتبر « كومندوس » الاسلام فى المغرب ، فانه فتح جبهة ثانية على العدو ، وشغل قسما من مجهوده ولعل طول محاصرة غرناطة كان من أسبابه خلق جبهة ثانية في جوار سبتة وطنجة، واذ فقد المسلمون مرافقهم الثلاثة سبتة وقصر مصمودة وطنجة فقدعوضها المنظري بمرتيل وترغة وبادس ، كما عوض المدينة الجديدة تطاون ، التى اقامها على انقاض تطاون القديمة عن العاصمتين الشماليتين سبتة وطنجة ، وتلافى بأعجوبة ان تنهار معنوية القبائل الجبلية ،ونظم جيوشه للرباط دفاعا عن المغرب ، وتخفيفا عن الاندلس ، جاعلا من نفسه مجرد قائد بسيط ، تابع للشريف العلمي ، مولاي علي بن راشد . واخذ اعيان بني مرين وبني وطاس يفدون على المدينة الجديدة ، تطاون المنظري ، وسمع المهاجرون السبتيون والطنجيون باحداث مدينة جديدة ، تتمتع بحامية نزيهة مقتدرة ، جديرة ،فعاد كثير منهم الى السكنى بتطاون القريبة من ديارهم المغتصبة . ونقل المنظري طرائق الحكم بالاندلس ، بعد ان القاه على مصفاة التجارب ، وبعد ان حوره وجعل قيادته قيادة ديمقراطية ، وخول الاندلسيين حق احداث مجلس الشورى ، وقدموا على انفسهم من اختاروا لذلك ، فاول ما بدأ به رئيس الشورى ان يربط علاقاته مع قبيلة انجرة بالمصاهرة ، واستغلها المنظري خير استغلال لصالح القضية الاسلامية .

وعندما شرع فى بناء قلعته اخذ اهل القبائل المجاورة يهدمون ليلا ما يبنيه المنظري نهارا ، لان احداث مدينة فى قلب القبائل ، من شأنه ان يضيق عليهم نوعا ما ، فما كان من المنظري الا ان دعاهم الى دعوة الحق ، واكد لهم انه لم يأت هو واصحابه ليكسب المال ، ولا يتملك الاراضي ، وانما هو مجاهد فى سبيل الله ، جاء لحماية القبائل من الكفر وتعنته وضلالته ، وتقدم القبليون فانضموا الى المؤسسة الجهادية التى يقودها المنظري نيابة عن ابن راشد النائب عن السلطان ، فرضيت القبائل ، وتزايد اخلاصها بتزايد امارات الصدق فى سلوك المنظرى ، وارتفع بعامله التنزيه القويم فى اعين الخلق من رتبة قائد بسيط الى رتبة ولي من اولياء الله الكبار ، رضي الله عنه وارضاه ، وجعل الجنة مثواه . وعرف المنظري لانجرة وغمارة حقهما ، فوسع نفوذهما ، ووجههما ، وكلما وردت جماعة من المهاجرين الاندلسيين مهد لها ليسكن الحضريون او اغلبهم فى المدن ، ومنها تطاون او فاس او غيرهما بعد اخذ رأي السلطان بواسطة عامله العلمي . وكما توارد الاندلسيون مهاجرين من المدن ، توارد المهاجرون من بادية الاندلس ، فتوفق الى اسكانهم فى قبائل انجرة وبني سعيد ، وغمارة ، واحدثوا مجتمعاتهم على طريقتهم الاندلسية بما كان فيها من مظاهر وعادات ترجع الى مصادر اسلامية وتطبيقات تحضيرية فى مستوى دائم رائع . واتسعت منطقة تطاون من حدود قبيلة فحص طنجة الى بادس ، وتكونت وحدات على غرار وحدات المنظري فى الرباط ونصرة الدين ونشر الحضارة ، وقام مجتمع جديد توحد فيه المهاجرون الاندلسيون مع المغاربة ، مجتمع لا يتحدث عن الحقوق والواجبات الضيقة ، وانما حديثه كله حول الرباط ومقابلة العدو الكافر . فلم ينكب المجتمع الجديد بنكبة العنصرية ، لان الرابطة ليست هي المنافسة على المحقرات والتواجه ، بل كانت رابطة المصير المحتوم ، الذى يهدد بنقل البلاد من وضع الى وضع : فيحول الاسلام نصرانية، ويستبدل المغاربة باغراب من شمال أوربا ووسطها . لا تجمعهم جامعة بالمغاربة ما عدا التقائهم حينما ينظرون الى مياه البحر المتوسط .

ان الوطاسيين حين اقدموا على السماح للمنظري بالانتفاع من ضرائب تطوان ، قالوا لسالمهم القن حين اخذه السيل : اذهب يا سالم ، فأنت حر . فلقد احتل البرتغاليون سبتة حوالي سنة 1413 م

(815 هـ) ، وطنجة حوالي سنة 1470 م (874 هـ) . وما كان يردهم شيء حينما كانوا يشنون الغارات ، حتى ذكر مؤرخوهم انهم كانوا يصلون الى (بوجراح)، ثم يعودون ءامنين مطمئنين لا يلقون كيدا ، وانما ردهم عن احتلال هذه الجهات فقرها ، وقلة عدد البرتغاليين بالنسبة لما فتحوه من المستعمرات فى المشرق والمغرب . وبقي الامر على ذلك حتى جاء المنظري ، وشكل دفاعا منظما قويا من جهة ، ومن جهة اخرى فان الحامية المسيحية كانت رمزية بهذه الجهات . وكان فى هذه الوضعية خير كثير استفاد منه المنظري وابن راشد حتى تمكنا من جعل حالة البلاد فى شبه استقرار ، بالنسبة لقطاع يشغل الرباط الاول فى سلسلة الجهاد الطويل العريض . واذا اختفت الوطاسية القوية ذات الصول والسطوة ، فقد تجلت الآلام وتكشفت عن عقيدة راسخة وندم على مافات ، وبدلا من ان يتبرموا من هؤلاء الضيوف الذين اظهروا براعة فائقة فى سياسة البلاد ، واعادوا غرس الروح الاسلامية الكريمة ، بدلا من ذلك صاهروهم ، وتزوج الامراء الوطاسيون بالشريفات العلميات ، والتاريخ يذكر بكل اجلال واكبار اسم الحرة ، التي كانت حاكمة لتطاون ، واسم للا عيشة مكشوفة الراس بالقصر الكبير ، وامهما — على الراجح — اسبانية شراها سيدي على ابن راشد ، وربت بناتها مكشوفات الراس — على الطريقة الاسبانية — فكانت للا عيشة الاميرة الفاضلة ذات الفعل الجميل والسيدة الحسنة بالقصر الكبير، من جملة الاولياء الصالحات اللائي حفظ لهم التاريخ المغربي اجمل الذكريات .

لقد قامت قبيلة انجرة بعنصريها المغربي والاندلسي بواجبها كاملا تاما غير منقوص ، وتولت — فى الدرجة الاولى — المرابطة بين الفحص الذي كان تابعا لطنجة البرتغالية ثم الانجليزية ، وقاموا بحماية الشاطيء كله من طنجة الى سبتة ، وما بينهما من القصر الصغير والسواحل ، واعتبرت قبيلة انجرة كلها رباطا لحماية الاسلام ، وكلما تولى الامر ملك من ملوك المغرب زادهم اكراما . وبالغ المغاربة فى خدمة المرابطين وتسهيل مهامهم ، ومشاركتهم فى نضالهم ، وتخلقوا بحميد اخلاقهم ، واتصفوا بجميل عوائدهم ، وصبغ الاندلسيون البقاع المغربية التى احتلوها بصبغتهم ،واخذت فاس — وهي العاصمة الادارية والتجارية والفكرية للمغرب — باعراف الاندلس ، واستعاضت بعمل الاندلس عن عمل القيروان . وحتى طريقة قراءة القرءان رواية ودراية صارت اندلسية ممغربة .

كنا في سياحاتنا بقبيلة انجرة ننام بالمساجد ، وكان الامام (الفقيه) هو الذى يقوم بالآذان زيادة على الامامة وتعليم الاطفال ، ومن العادات الاندلسية المغربية ان يقضي المؤذن قبل طلوع الفجر بنحو نصف ساعة هذه الحصة فى التذكير والانذار والتكبير فوق رؤوس المآذن . وفى اعالي الربى اذا لم تكن هناك مأذنة، ويأخذ فى عرض كلام حسن بليغ مفيد ، يهد به هدا ولا يتغنى به ولا يرتله ، وكنت اصيخ بسمعي لهذا الكلام الجميل الذى لم اره فى كتاب من الكتب المطبوعة، فيأخذني الفكر من اتى هؤلاء الطلبة الذين يحفظون القرءان — دون زيادة على ذلك فى الغالب ، وان كان فى بعض القرى يوجد طلبة الدين قائمين بالشرط — مع انهم يحفظون هذه المقالات البليغة الجميلة، ولكنني اعود الى الفكرة الاساسية ، وهي ان العالم الاسلامي، ومنه المغرب حواضره وبواديه ، مرت عليه ادوار من العلم والمعرفة ، بقيت بقايا منها فى بعض الجهات ، فضلا عما انقرض وضاع ، الى ان طبع كتاب «المعجب» فوقفت فيه وفى ترجمة الحكم الاموي على ان العلماء صنعوا كلاما حسنا ووزعوه على الائمة والمؤذنين ليرفعوا به اصواتهم فى الاسحار ، وهو كلام مشعر بالاشياء ، وفيه تعريض بالظلمة والظالمين ، وحث للمسلمين على ان يعملوا على تغيير المنكرات بجد ونزاهة . وهو كلام فى غضونه روح العصر الذى قيل فيه ، عصر الحكم الاموي الذى اجرته العادة على سنن الثلاثيات الماثلة فى داود وسليمان ورحبعام : فداود الملك العادل المؤمن : وسليمان الملك النبيء الجاني ثمرة جهاد ابيه ، ورحبعام الذى نشأ فى الترف والبذخ وفقد حسن القيادة، لانه وجد كل شيء على ما يرام ، فحسب ان ذلك يرجع الى طبيعة الدولة ، ولا يتعلق بحسن تدبير الملكين الكبيرين ، وما عاناه من تذليل صعاب نفسية واجتماعية واقتصادية: فأخذته الاحداث على غرة،واثلمت ثلمة بعسر رتقها فكان الحكم الاموي ممثلا لدور رحبعام،فلم يطق انتقاد العلماء ، وحسب تصلبهم فى موقفهم جراة عليه، فى حين ان والده الكبير جمع اقسى القول من قاضيه وهو يخطب ، وكان طال تغيبه عن حضور صلاة الجمعة فى مسجد قرطبة الاعظم ، اشتغاله ببناء منتزه «الزاهرة» ، فلما حضر بعد ذلك ابتدا الخطيب موعظته بقول الله سبحانه « اتبنون بكل ريع (حيل) ءاية تعبثون وتتخذون مصانع لعلكم

تخلدون واذا بطشتم بطشتم جبارين » فابدا فيها واعاد ولم يفته الا انه لم يصرح باسم الخليفة الذي ينتقده . فخرج الخليفة مكتئبا ودخل قصره مغاضبا، وحدث ولي عهده بقوة كلام الخطيب ؛ فقال له ولي عهده : هلا عزلته عن وظيفته؟.. فقال الخليفة : وهل جمال هذا الملك الا خطيب كابن عبد البر في جلاله وصدقه واستقامته ؟ .. لكن الحكم اسرها في نفسه وقرر في ذلك اليوم قراره على انه لن يحتمل مثل هذه الجراة من احد . فلما آل اليه الامر عاد كبار العلماء ، وجماعتهم تؤازرهم ، الى نقد اعمال السلطان ونهاهم فلم ينتهوا ، فبطش بهم وشردهم، وغرب مؤازريهم من ربض قرطبة ، فانتقلوا الى فاس ، والى مصر ، واحدثوا في جزيرة كريت دولة حديثة دامت عشرات السنين . فطفق علماء قرطبة من الدرجة الثانية ، والذين ابقى عليهم الحكم احتفاظا بالتوازن ــ فيما ارتآه ــ فالتجاوا الى ما يلتجيء اليه المضطهد من اقامة جمعيات سرية ، ونشر مقالات من شانهم ان تنقض بناء السلاطين حجرة حجرة ، وتفسخ حلقاته عروة عروة . وتناقل الناس تلك المقالات ، كما تهرب الجرائد الثائرة ، واحتفظ الزمان ببقية منها ، لا تزال بقبيلة انجرة ، ولا يزال الشعارون بالاسماء يرددونها ، ولكنها تحمل روح العصر الذى قيلت فيه ، وتتناول مشاكله الاجتماعية . فاصبحت وثائق تاريخية صادقة حية يرى المتبصر بالادب والتاريخ والاجتماع فيها بدا انهيار شان الخلافة الاموية بالاندلس .

ولقبيلة انجرة وضع على جانب كبير من الخطورة ، ولكن الدول المسلمة في المغرب ، قدرت هذا الخطر قدره ، واسبغت على هذه القبيلة من الكرامة واعطاء الحرية ما لا مزيد عليه . ووجد تصرف السلاطين تجاوبا في اهل القبيلة ، فعرفوا كيف يبينون عن شدة تمسكهم بعقيدتهم وايمانهم وكرامتهم، وعرفوا كيف يسلكون المسلك الجميل ، فتوادوا الى البحارين ، وبعد اكتشاف امريكا كانوا حكماء في تصرفاتهم . فكانوا لا يتعرضون للمراكب الغادية الرائحة ليلا ونهارا ، واعدوا مراسيهم لاستقبال القراصنة ، فكانوا يقايضونهم في البضائع بما يحتاجونه من اقوات ولحوم ، ونجوا ــ في الجملة ــ من مشاكل قبيلة بطوية التى كانت تناويء ــ نوعا ما ــ الغادين الرائحين . وكانت انجرة من جملة قبائل هدنية ومصمودة ، وما اكتسبت اسم « انجرة » الا بعد ما اصبحت تشتمل على ثلاث مراسي كبرى : طنجة ، وقصر المجاز ، وسبتة ، زيادة على الشواطيء الرملية الموجودة فيها في وادي اليان ، والدالية ، ووادي المرسى ، وبليونش ، وكثر رسو السفن فيها في اماكن متعددة آمنة ، ولكثرة رسو السفن فيها ، وما كان بها من مضارب صيد البحر ، كانت شطآنها الرملية ممتلئة بالانجرة جمع انجر وهو المخطف الذى ترسو به السفينة . ومنها ابحر طارق بن زياد ونزل بسفح جبل طارق ، ومنها ابحر موسى بن نصير ، ولا يزال الجبل الكبير المطل على بليوش يحمل اسم موسى بن نصير ، ولا يزال بقمته مسجد قديم بناه الفاتحون المسلمون الاولون ، لصلاة العيون الذين كانوا يرقبون البحر من مسافات بعيدة . وكان اهل هذه القبيلة من مغاربة واندلسيين مزودين بتوعية كاملة فيما يرجع لحالتهم النفسية والتربية الاساسية ، والغيرة الوطنية . وكان المستعمرون البرتغاليون والاسبانيون يشترون بعض الذمم الخربة وكانت اقلية ضئيلة وفكرة مجهولة ، احتفظ التاريخ باسم « الكلاطى » الذى كان يخدم مصلحة الاجنبي ، فيما يظهر ، والا فلا نعرف خائنا انجريا ، لان القبيلة في مستوى رفيع من الوعي والايمان والذكاء ، فربما كانوا يتخذون في جملة ما يتخذونه من اسباب المقاومة والاحتياط انهم كانوا يستعملون البعض منهم في الاتصال بالاسبانيين ليطلعوا على نواياهم واسرارهم حتى يتخذون ما يحمون به قبيلتهم ومن ورائهم الشمال المغربي للقطر المغربي كله . ونظن ان «الكلاطى» اسم مخترع ، اختلقه صاحبه بسبتة ، لما سالوه عن هويته فلم ينتسب الا الى «الكلاطة» (البندقية) وكانه بهذا يهدد ويوري عن كونه مجاهدا ، ويرجح ذلك انهم لم يكونوا منه على ثقة ، فان رسالة الملك الاسباني في شانه الى حاكم قادس الذى كان عاملا لسبتة ، يولي عليها نائبا عنه .

لقد قامت انجرة بحماية نفسها ، فلم تخضع لمحتلي طنجة ولا قصر المجاز ولا سبتة ، فلما جاء المنظري جاء يحمل فكرة حسنة عن انجرة ، واحكمت العلاقات بين المجاهدين الغرناطيين والمجاهدين الاندلسيين ، وتصاهر رئيس مجلس شورى الاندلسيين في تطاون مع اعيان انجرة ، ووحدت بينهم المصاهرة ، مثل ما وحد بينهم الجهاد والنفور من الاستعمار .

اننا لا نجد ذكرا للكلاطي ــ فيما نعلم ــ ولا توجد اسرة انجرية يقال لها « الكلاطى » وتوجد اسرة

كبيرة جليلة القدر بقرى بليوتش وواد المرسى ، والبيوت ، ودشيشة ، وغيرها تسمى « المجاهد » لا يزال عليهم اثر الجهاد باديا بارزا. وما عرفه التاريخ في جوار عاسفي يوم كان يرزح تحت نير البرتغاليين من وجود «الحناشين» الذين كانوا يبيعون ابناء المسلمين للنصارى عن طريق اختطافهم ، لا يوجد ولا يعرف في اربطة انجرة وغمارة وبلاد الريف ، وتوجد كلمة « تحنوش » و « تيحنوش » بمعنى يحتال ويمكر وينافق . ولم تعرف بالشمال كلمة « حناش » لانه لم يوجد ، ولم يشعر المجتمع الشمالي بحاجة الى خلق هذه الكلمة لانها لا معنى لها ؛ بل كانت انجرة تعرف كلمة « علج » لان بعض المسجونين بسبتة ممن سجنهم الاسبانيون في المنفى كانوا يفرون الى انجرة وقبائل الجبل ثم يعتنقون الاسلام، ويندمجون في الحياة الاسلامية ، ويزوجهم المغاربة فتكون ابناؤهم وبناتهم انكى على العدو ، واقسى على الاستعمار من بعض ضعاف المغاربة .

وعندما جدد مولاي اسماعيل الكبير رحمه الله ورضي عنه شأن الحصار على سبتة ، وبسط حكم المغرب المستقر على الشمال كله ؛ واماتت كلمة « مغرب المغامرة » وابقى مغربا واحدا في بعض اطرافه نكت سوداء يجب تطهيرها، حسب الشماليون ذلك فتحا مبينا ، حيث وجدوا ملكا عظيما يحسبهم مثل اخوانهم في سائر جهات المغرب . واكد لهم العاهل الكبير ثقته بهم حين اتخذ منهم جند الريف. واسند اليهم العمل العظيم في تطهير المغرب من الاستعمار كله او بعضه، وكان من سياسته ان يقاوم المحارب بدوره، والمدني بمهنته . واحدث تغييرا في سياسة تطاون التقليدية ، وهي سياسة المطاولة والدفاع ، وقرر خطة التنجيز والهجوم ، وكان من ثمرات هذه الخطة تضييق الحصار على سبتة ، بعدما كان امرها على وقوف كل طرف عند حده ، او هي كانت سياسة هدنة طويلة ، وحجة مولاي اسماعيل انه لا معنى للمهادنة في قضية اعتداء على جزء لا يتجزأ من التراب المغربي ، لكن سبتة كانت محصنة تحصينا برتغاليا معقدا . ولو كان تحصينها تحصينا اسبانيا لسهل الامر فيها، ورغم ذلك فان حامية سبتة من الاسبانيين كانت لم تستطع ان تطل براسها من خلال شرفات الاسوار . ونظرا لتغيير خطة الحرب في واجهة سبتة ، فان مولاي اسماعيل عمد الى استبدال الرجال ايضا ، فلم يبق الامر في يد القدمين والمرابطين ، بل اصبح في يد الجند المجهز بالمدافع وادوات خرق الاسوار . وابقى مولاي اسماعيل اهل قبيلة انجرة والتطاونيين في اربطتهم الساحلية ، ولم يتخذ جندا من الانجريين . لانهم اطار البوغاز ، فلا يصح أن ينتقلوا عنه ، لان شغل امكنتهم بجند لا يعرف الا الهجوم والمناجزة يؤدي الى ان يعمد جند الريف الى مهاجمة السفن البحرية التي تجتاز الى امريكا من اوربا ، ومنها سفن بريطانية وفرنسية ومن كل دولة ، وانما يحارب مولاي اسماعيل حربا محدودة هي تصفية الاستعمار وقضيته داخل التراب المغربي . اما الدول التي لا تحتل اجزاء من المغرب كفرنسا فانها دول مسالمة ان لم تكن صديقة . وخشي مولاي اسماعيل ان يصطدم الجند الملكي الرسمي بالمرابطين المتطوعين ، وكان فرسان تطاون كلهم من المرابطين الذين ياتمرون بأمر المقدمين المستقلين في اعمالهم التي يأتونها تحت مسؤولياتهم . وقد خدموا المغرب خدمات تاريخية جلى ، وصمدوا في وجه الاستعمار بأتم الوانه واصنافه ، ولكن بعد عمليات المقاومة والتحرير ، يأتي طور التنظيم والاستقرار . واتخاذ اجراءات لابد منها وان كانت قاسية وللضرورة احكام . فكان من عمل مولاي اسماعيل انه استجلب فلول النقسيسيين من سبتة وقتلهم ليقضي على كل سبب للمؤامرات في ثغرة من اهم الثغور المغربية . وطبق نظامه الذي اجراه في المغرب كله من تجريد المدنيين من السلاح والافراس . وكان اغلب رجالات المغرب يقتنون خيولا للجهاد في سبيل الله يربطونها داخل بيوتهم ، وقد اخضعوا الهندسة المعمارية لعملهم الاجتماعي في الجهاد . فاتخذوا من مدخل الدار شبه بيت كبير ، يحدث فيه باب الدار ، والباقي منه مربط للفرس وادواته ، واما الاسلحة فتصف على مساطر جميلة داخل بيوت الزينة والاقامة ، لان افضل ما تحلى به المنزل التطاوني : مكحلة رفيعة ، وسيف صارم ، وادوات الجلاد والمقاومة . وكان اعز شيء على الشاب الناشي ان يتسمى باسم الفارس ، وظل اسم الفارس مستعملا بتطاون ، وظلت ابواب الدور الخارجية مزينة بصفيحة فرس كبيرة مزخرفة دلالة على ان هذه الدار دار فرسان . لكن مولاي اسماعيل ترك للتطاونيين اسلحة البارود ، والسيوف ، ونزع منهم اسلحة البندق والرصاص والخرطوش ، وانزلهم عن ظهر الخيول التي امهما واصبحت من حق الدولة وحدها ، وربط التطاونيون البغال في مرابط

الافراس ، ليسمدوا من فضلاتها حدائقهم ، ويركبوها ركوب المدنيين ويستعملونها استعمالهم . ولم يؤلف جندا تطاونيا لان لهم تقاليد في الجندية لن يتنازلوا عنها، وهي ارث كريم عظيم . وقياما بتنفيذ التخطيط الاسماعيلي ، فان العاهل الكبير طبق ءاراءه السديدة دون التواء ولا مراوغة . وعرف مولاي اسماعيل لاهل تطاون حقهم ، وبالغ في اكرامهم وولى عليهم كاتبه ابن زاكور ، الذي كان واليا ورئيس شرطة في ءان واحد . وعرف العاهل سلامة طوية التطاونيين ، فانما هم مجاهدون بررة ، لكن سياسة الدولة تتطلب اجراءات ربما كان البعض منها غامضا ، والمجاملة والتكريم شأن ، ووقاية الوطن من الآفات شأن ءاخر يعلمه من يرى البلاد في مجموعها ، وينسق مصالحها على الطريقة التي يثق بها ، ويعتمدها . فقد ابقى مولاي اسماعيل قبيلة انجرة على ما كانت عليه ، لان طريقتها طريقة صالحة نافعة ، تنسجم وتسير على نفس نهجه وخطته . رغم ان تصرفه هذا لاقى بعض الاعتراض ، اعتراضا تبلور في نصيحة العالم العلامة سيدي الحسن اليوسي رضي الله عنه والتي قدمها لمولاي اسماعيل ، فتقبلها بالحلم والاناة ، رغم انه لم يعمل بها : فقد ذكر اليوسي انه عند زيارته لتطاون حدث ذات مرة ان صريخا من حراسة البحر ورد على المدينة يذكر ان بعض سفن النصارى انزلت ركابها في ساحل مرتيل ، قال اليوسي : فخرج اهل تطاون مندفعين الى الشاطيء البحري الذي يبعد عن تطاون نحو عشرة كيلومترات ، وكانت الاسلحة التي تسلحوا بها سيوفا وهراوات ، فلما سألهم عن سلاح النار والخيول ذكروا ان السلطان جردهم منها . وقال اليوسي : لقد كنت قبل هذه المرة في زيارة تطاون وحدثت هيعة كهذه ، فخرج الناس في عدة حسنة . وعند المقارنة بين الوضعين خرج مستاء استياء حمله على ابلاغ نصيحته للسلطان، ثم سكت المؤرخون عند هذا الحد . لكن الاحداث تكلمت وسلوك مولاي اسماعيل في مجموعه برر موقفه الذي اتخذه ، حيث ان ردود فعل تجريد اهل تطاون من الاسلحة لم تصل الى الحد الذي تخوف منه اليوسي . اما مولاي اسماعيل فانه بسكوته عن اليوسي — حسب ما يدل عليه سكوت المؤرخين — يدل على انه سلك احدى طريقتين : اما انه استدعى اليوسي واطلعه على رأيه واستكتمه الامر فكتمه، واما انه بعد ان علم حسن نية اليوسي ، رءاها من جملة الاسرار السياسية ، التي تفرض على السلطان في بعض الاوقات ان يلتجيء الى الصمت ، لان تبريره لموقفه يكشف عن « تكتيك » قوته ان يبقى سرا من الاسرار ، فان مولاي اسماعيل اخذ بقاعدة ان يتأكد من سيطرته على القوى في البلاد التي يحكمها ، بحيث لا يضطر الى ان يخضع لما تقرره الزعامات وهو يرى ان المصلحة غير ذلك . وكان مولاي اسماعيل يريد ان تكون الامور في تطاون — كما هي في جميع اطراف المملكة — في قبضة يده ، يطبق فيها خطته في تسيير الدولة بالنظر الى مجموعها لا الى كل جزئية على حدة .

وكان مولاي اسماعيل يعلم ان القوة الحقيقية لا ترجع الى جماعة من المتطوعين المجاهدين في تطاون ، وانما ترجع لهيبة الدولة فيما تصنعه وتحدثه من المنشئات الدفاعية العتيدة عملا بقول الله سبحانه « واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل، ترهبون به عدو الله وعدوكم » فدافع مولاي اسماعيل عن تطاون دفاعا مباشرا وغير مباشر : بما احدثه من جند الريف ، وهي قوة بشرية واعدادية هائلة ، يكفي العدو منها ان يطلع على ان اقليما شماليا باكمله اصبح جندا مطيعا للسلطان ، يزداد دربة وعتادا يوما بعد يوم . والقوة المنظمة ذات الطواعية والاعداد والاستعداد افيد من جند المتطوعين المختارين الذين لا يتحاكمون الا الى ضمائرهم الحية، وارثهم التاريخي في الجهاد . وقد صدقت الاحداث بعد نظر مولاي اسماعيل، فلم يحدث بالشمال ما يوجب التخوف من كارثة ، بل ان مولاي اسماعيل اتخذ موقف الهجوم وتمكن من تطهير مدن الشمال : المهدية، والعرائش ، واصيلا ، وطنجة ، وحاصر سبتة ومليلية حصارا ناجحا ، ان لم يكن في الاستيلاء عليهما ، فانه في تجميدهما وقطعه رجاءهما ان يمتد منهما الاستعمار الى داخلية البلاد .

وبعد ان مرت الايام كان جيش البخاري في حراسة تطاون زيادة على الجيوش الاخرى ، وتفرغ اهل تطاون لصنع الاسلحة ، ونسج المنسوجات ، وصنع الاحذية ، والقيام بالتشييد والتعمير ، وصفا الجو بين اهل تطاون ومولاي اسماعيل ، فأمدها بعناصر طيبة من الموظفين والاشراف ، وسكانا تواردوا عليها موظفين وتجارا ومحترفين ، وخرجت المدينة عن عزلتها ، وعاشت عيشة طمأنينة واستقرار ، لم يكن يحلم بها مجددو بنائها ، الذين بنوها حين بنوها وبنوا معقلا لتقبل المهاجرين منها اذا

دهمهم العدو ، ذلك المعقل هو مدينـــة شفشاون ، التى بنيت لحماية ظهر تطاون .

وسار الملوك العلويون فى تطاون سيرة الامام اسماعيل . وكانت عناية سيـــدي محمد بن عبــد الله بها عظيمة ، وهو الذى احدث بها عــادة ضــرب المدافع ايام الجمع والاعياد وكثير من المناسبات،ليسمع المتحصنون خلف أسوار سبتة هذا الهزيم المدفعــي ، فيعلموا ان المغرب قوي فى داخليته قوته فى ثغــوره ، وان لا سبيل الى خرق حماه .

وعند حركة مولاي اليزيد بن مولاي محـــمد بن عبد الله بن اسماعيل ، وتمكنه من تطاون ــ بعــض التمكن ــ كان اول عمل قام به تجديده لتطويق مدينة سبتة ، الا ان الامر لم يستقر فى يده ، ومهما يكــن من امر فانه افهم الاستعماريين ان المغرب اليوم هو مغرب الامس والغد ، مغرب مناضل مبتهج بالحياة ، فخور بوجوده وحرياته ، واسلامه وعروبتــه . والله يقول الحق وهو يهدي السبيل .

تطوان ــ التهامي الوزاني



الأقصى .. وفتح .. والقمة

للشاعر الأستاذ عمر بهاء الدين الأميري

في غمرات التشتت والغفلة والتخلف عن مستوى الاعباء والاعداء ، وقعت نكبة جوان 1967 ، وتوالت بعدها المظالم والويلات فى فلسطين الصامدة وشعبها المؤمن المجاهد .

كانت شعوب الامة الاسلامية دائمة التطلع الى اجتماع حطامها على صعيد واحد ، لمواجهة الهول الدائم براي متفق ، وصف مرصوص .

وكانت ثمة محاولات ، ونداءات قبل النكبة وبعدها ، لاجتماع قمة اسلامية ، ولكنها لم تستطع تحقيق اللقاء الكبير المنشود .

حتى كان حريق المسجد الاقصى ، فالهبت نيرانه حمية العقول والقلوب ، وتولى عاهل المغرب المقدام الدعوة الى مؤتمر القمة الاسلامي الاول . وتم عقده فعلا فى الرباط عاصمة المغرب العريق فى العروبة والاسلام ، وبرئاسة مليكه الهمام ، فكان ذلك حدثا اسلاميا فذا ، سيكون له ما بعده بعون الله.

ويسعد مجلة « دعوة الحق » ان تنشر فى هذا العدد الخاص قصيدة من ملاحم الشاعر الاسلامي الكبير الاستاذ عمر بهاء الدين الاميري : « الاقصى .. وفتح .. والقمة .. » يعالج فيها بصراحة مؤمنة ، واقع امتنا الصعب ، مشيدا بالقمة الاسلامية ، واثقا مستبشرا بمستقبل مشرق مجيد

ــ كان حريق المسجد الاقصى ، وكأنه شب في قلبي . على أنني كنت ألمح في خلدي ، من خلال لهيب الحريق ، لوامع من نور الله الذي « يأبى الا أن يتمه ، ولو كره الكافرون » !

— ◆ —

ــ و « فتح » منطلق الفتح الجديد المنشود ، ملء الامل والعمل ، تخفق لجهادها المقدس قلوب ملايين المؤمنين ، ناظرة الى ما يحيط بها ، ويقتحم عليها نظرة الاشفاق والقلق !

ــ اما مؤتمر القمة الاسلامي ، فما هو فى اصالته وحقيقته ، الا حصيلة جهد طويل ، واهابات وتضحيات ، بذلها دعاة الاسلام الابرار ، بصبر ومضاء ...

— ◆ —

قد تتضارب فيه الآراء وتعترض غده العوائر ، ويبقى فى نظر ذوي الالباب والبصائر بداية خير كبير ، وامر خطير وكأنما تقول عنه الاقدار للجاحدين : « لتعلمن نبأه بعد حين » !



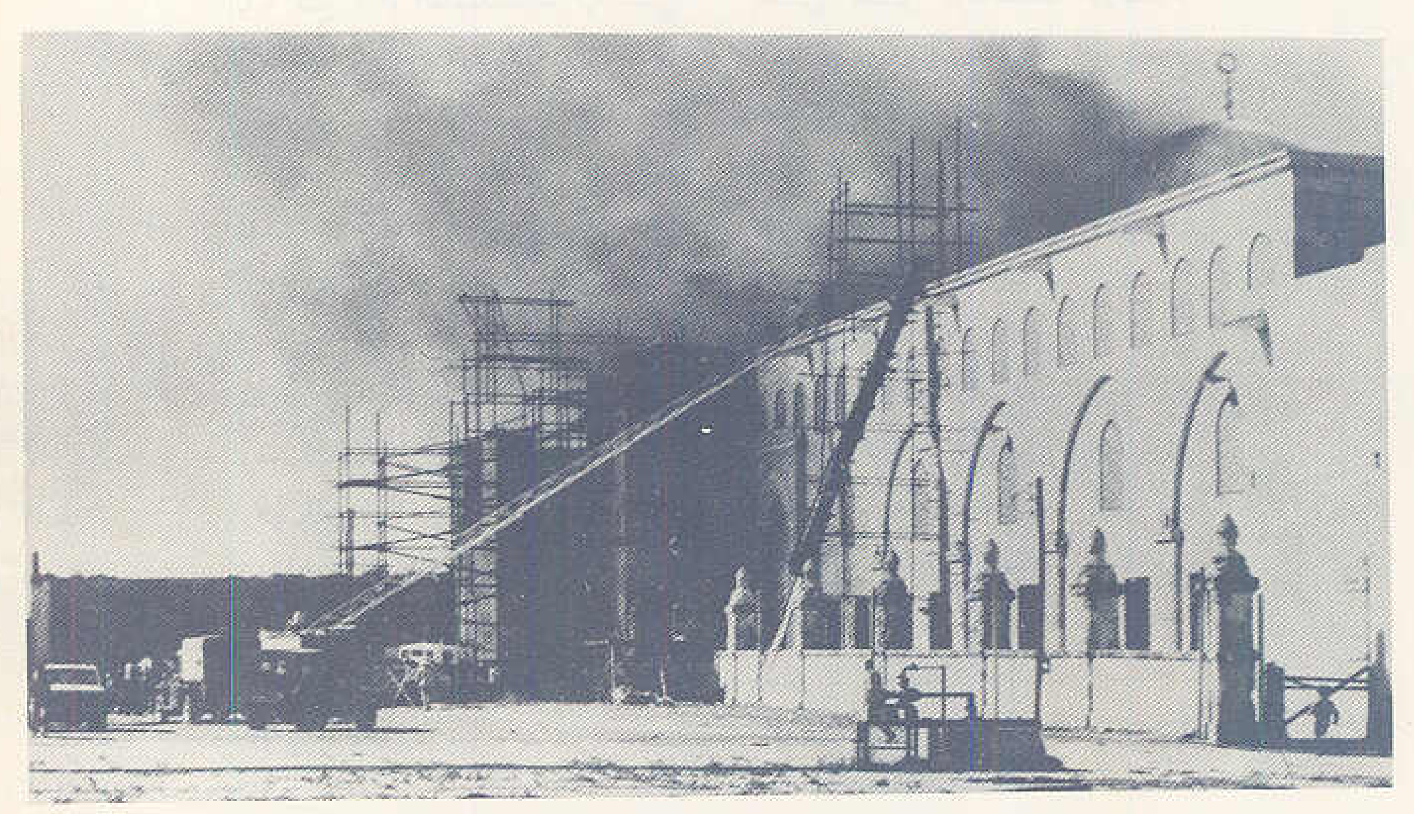
قبة الصخرة فى بيت المقدس . انشاها الخليفة الاموي عبد الملك بن مروان ، وتم بناؤها فى سنة 72 هـ (691 م) . وهي مثمنة الشكل وتزخرف جدرانها لوحات من الفسيفساء برسوم بديعة . ويحيط هذا المبنى بالصخرة المقدسة ، التي صعد النبي عليها ليلة المعراج . هذا البناء تعرض لجريمة اسرائيل البشعة

« فى الذكرى الاولى للاسراء والمعراج ، بعد حريق الاقصى ، ومؤتمر القمة الاسلامي » :

ملأ الملائك لهفة وهيام ... ترنو القلوب هوى ، وتحنى الهام
اسرى ، وسبحان الذى اسرى به ... فذرى السماء ينيرها الالهام
حدث تفرد فى الوجود جلاله ... وجماله وجداه والانعام
يا يوم معراج الرسول وانت فى ... كر الدهور ، هداية وسلام
للمجد حجم عطائه ومضائه ... والمجد مجدك حجمه احجام
عذرا اذا خنق البكاء تحيتي ... لك ، والابي على البكاء يلام
لكنه الاقصى وفى نكباته ... وحريقه ، حبس الدموع حرام
دمع الابي الحر بعض جهاده ... وزفيره عند الوغى اقدام
ولرب يوم فى الدنى تعنو الدنى ... لفخاره ، وتمجد الاعوام
وتمر فى خنق الزمان مريرة ... ذكراه ، وهو على الزمان امام
ولرب حر فى صميم فؤاده ... نعمى السكينة ، والفؤاد ضرام
يا رب ، مجروح الصلاة ، تشت بي ... عن بيت مكة ، قبلتي ، آلام
فالقدس نار محاجري ومشاعري ... هول وويل ، فتنة وحمام
هل تطمئن بي الصلاة . وقبلتي ... الاولى يدنسها خنى وأثام
فى عين ايماني قذى واذى ، وفى ... قلب السكينة للهموم عرام ،
المسلمون جدارة مسفوحة ، ... وكرامة مجروحة ، وخصام
امم ! يشتت شملهم زعماؤهم ... وعدوهم متكاثف غشام
والحكم ، لا ما انزل الله : الهدى ... لكنه الاهواء والحكام !
والدين فى قشر الحياة عواطف ... وهواتف ، ومظاهر ، وكلام
رهط من الصلحاء يؤثر عزلة ... رغدى على وهم العبادة ناموا !
ومنابر لموظفين تفتحت ... اشداقها ، ولقد يقال كرام
لغة القرون السالفات ، وما دروا ... تتغير الأزمان والافهام
والجيل فى تيه التناقض شارد ... يعتام منه « المذهب الهدام »
اصل اصيل فى الحضارة والهدى ... لمعات برق ، فى الظلام تشام »
اما السلوك فنشأة غربية ... وتمرد ، وتبدد ، وقتام
وذوو الجدارة والقيارى عصبة ... عزلاء حيرى ، والخطوب جسام :



- المسجد الاقصى هو أول القبلتين وثالث الحرمين
- يقع في الجهة الجنوبية من رقعة الحرم الشريف
- يتكون المسجد من مستطيل تبلغ مساحته 80 متر طولا في (55) متر عرضا ، وهو مقسم الى خمسة عشر رواقا .
- يقوم المسجد على ثلاثة وخمسين عمودا من الرخام وتسع وأربعين دعامة مربعة الشكل
- في القرن الحادي عشر الميلادي عبثت أيدي الصليبيين بالمسجد ولكن صلاح الدين الايوبي رمم وجدد ما خرب منه واحضر له منبرا يعتبر تحفة فنية رائعة ، وهو المنبر الذي حرقه اليهود يوم 21 / 8 / 1969 .
- توالت يد التجديد والترميم على المسجد حتى أقدمت السلطات الاسرائيلية المجرمة على حرقه يوم 21 / 8 / 1969 .



ألسنة اللهب التي التهمت الجزء الجنوبي من المسجد الاقصى ، وترتفع مئات الاقدام في سماء القدس نتيجة الحريق المتعمد الذي شب صباح 21 / 8 / 1969 .

الكون تطحنه رحى مدنية … هوجاء ، جل عطائها اوهام
ومعسكرين لسامري واحد … وكلاهما هاكت به الاقوام
مكر اليهود وبغيهم وضلالهم … بعثت به الانصاب والازلام
السم فى الدسم الشهي ، وعالم … فى الجاهلية ، كالسوام ، يسام
ورسالة الاسلام ، ناموس الهدى … للعالمين ، رعاتها اقزام !
اوطاننا نهب وأمر رؤوسنا … شتى ، وبغي الظالمين لهام
والشعب فى زيف «التحرر» ضائع … باسم « التقدم » زلت الاقدام
يا امة المجد العريق اجابة … هل يستقيم لمسلم اسلام
والمسجد الاقصى يحرق عنوة … وذوو البلاء ، عن البلاء نيام
متجبرون ، وانه استئثارهم ، … وهوانهم ، والبغي والاحجام
اغرى اليهود بنا ، وامكن كيدهم … منا ، فعدنا والبلاد حطام
حتام تصبر ، والنوائب جمة … تترى ، اليس لجرحنا ايلام ؟!
يا امة المجد العريق ، توثبي … فالنصر حقك ، والجهاد لزام
تدعوك للجلى ، استغاثة كاعب … عذراء ، تسبى ، والصلاة تقام !
واهابة ، ام الشهيد شدت بها … زغرودة دمه لها انغام
جرح الهزيمة ظالم متفاقم … اما الجهاد ، فجرحه بسام
يا « فتح » ام العاصفات تيقظي … يخشى على عزماتك الارغام
ويخاف ان يطغى عليك من العدا … بعد الهدى ، الافساد والاقحام
ليفت فى عضد الفداء مراوغا … باسم السلام ، و«سلمه» استسلام !!
اما الغرور ، وانت منه معاذة … فهو التردي ، ليس منه قيام
ما انت الا « الفتح » من سلف مضوا … لهمو علينا موثق ، وذمام
بالله قمت ، وباسمه وبحقه … لك من رقاب المؤمنين زمام
ما بين « بدر » و « الكرامة » عروة … قدسية ، وملائك ارحام
فتيقني ان لا نجاة بغيره … « الاسلام » فهو : شريعة ونظام
وهو السلام لمن اراد سلامه … حقا ، وللباغي وغى وحسام
وهو الحياة ابية ، موصولة … بالله ، لم تشرك به اصنام
ليست « فلسطين » المجيدة قبلة … فى ذاتها ، بل ربها العلام !
يا « فتح » شكوى مخلص متشبث … بالحق ، ليس يشوبه ابهام :
اني لاسمع من صداك ـ وللصدى … اصل ـ شعارا بعضه ايهام !
القول حكمة من تغابي عالما … متحالما ، أم زاغت الاحلام ؟!

فئة الضلال الملعنون عنادهم لله ، رهط خاسرون لئام
لا ترتجي للحق منهم نجدة فهم السراب ، ولم يخال عظام
بالله ، بالارواح في مرضاته بذلت ، اليك توجه الاقسام
يا «فتح»، في درب الهدى صعدا الى الجنات ، حتى تشرع الاعلام
لله من ناموسه قدر ، وفي آجاله ورجاله احكام
دين سيظهره ، فكوني جنده امر الاله النقض والابرام
عين البصيرة قد ترى ما لا يرى وغدا يماط عن القلوب لثام

* * *

يا قمة الحكام بورك سعيهم ما اخلصوا ، ومضى به الاحكام
جهد الدعاة ، بكم سيثمر غرسه فلقاؤكم درع له وحزام
هدى طليعة مسلك منشودة ، اهدافه ، تخذيله اجرام
عملت له شم النفوس ، وما ونت واستشهدت ، ولها اليه أوام
جمع على قربى العقيدة والنهى دفع لخطب ردى ، اذاه ركام
امل يشق غيوبه ودروبه الايمان ، والاقدام ، والاعلام
ولقد تشق غيوبه ودروبه ويخونه الاخوال والاعمام
ويفت بعض بناته في صرحه ويشد منه على خطاه لجام
ولقد يعاب بانه « رجعية » نكراء ، يعدى داؤها ، وجذام
وتقوم في دنيا « التحرر ثورة » للملحدين ، لها عليه زحام
ويصم قصف رعودهم سمع الورى حتى تضيق بأسدها الآجام
لكنه ، والله في تأييده وهو المراد الضخم ، ليس يضام
العصبة الابرار ذود عداته والمؤمنون بقفهم قوام

* * *

ما كان خلق الله عن عبث ، ولا لا بد ان تتداول الايام
تاريخنا سيعيد سيرة مجده الاولى ، وللاسلام تحنى الهام
قدر سيمضي في البرية امره طوي الكتاب ، وجفت الاقلام

الرباط ــ عمر بهاء الدين الاميري

مواقف المغرب ضد الحملات الصليبية

للأستاذ محمد المنوني

والمعني بالامر هنا استعراض جملة من تدخلات المغرب ـ حكومة وشعبا ـ ضد الحروب الصليبية التى كانت تقع فى خارج المغرب ، وتشب بين فترة واخرى فى ناحية من العالم الاسلامي ، وستقدم هذه المواقف حسب التصنيف التالي :

— فى الشام ضد الحروب الصليبية الاولى .
— فى مصر ضد حملة نابليون .
— فى طرابلس ضد امارة جنوى ثم امريكا .
— فى تونس ضد اسبانيا .
— فى الجزائر ضد اسبانيا ثم انجلترا .

وسترجي هذه الدراسة مواقف المغرب فى الاندلس ثم فى الجزائر بعد الاعتداء الفرنسي ، حتى يقع تصنيف كل منهما فى دراسة على حدة .

* * *

فـي الشـام :

من المعروف ان هذه المنطقة تعرضت كثير من جهاتها الى حروب صليبية طويلة المدى ، ونحاول هنا ان نبرز صورا من مساهمة المغرب فى مقاومة هذا العدوان خلال المائة السادسة للهجرة ، ونذكر ـ اولا ـ ما يسجله ابن جبير (1) فى هذا الصدد ، بمناسبة حديثه عن الحدود القائمة وراء مدينة عكة فى فلسطين عند مدخل المنطقة الصليبية . وهو يذكر ان المغاربة الذين هبوا ـ من بلادهم ـ للدفاع عن الاراضي المقدسة ، الزمهم الصليبيون ـ عند الحدود ـ ضريبة مكسية دون سواهم ، وما لذلك من سبب سوى البطولات التى قاموا بها فى احدى المعارك الظافرة تحت قيادة نور الدين « زنكي » امير سورية ، وضدا على المسيحيين الغاصبين ، وفى هذا يقول ابن جبير :

« واكثر المعترضين فى هذا المكس المغاربة ، ولا اعتراض على غيرهم من جميع بلاد المسلمين ، وذلك لمقدمة منهم احفظت الافرنج عليهم ، سببها ان طائفة من انجادهم غزت مع نور الدين ـ رحمه الله ـ احد الحصون ، فكان لهم فى اخذه غنى ظهر واشتهر ، فجازاهم الافرنج بهذه الضريبة المكسية ، الزموها رؤوسهم ، فكل مغربي يزن على رأسه الدينار المذكور فى اختلافه على بلادهم ، وقال الافرنج : ان هؤلاء المغاربة كانوا يختلفون على بلادنا ونسالمهم ولا نرزؤهم شيئا ، فلما تعرضوا لحربنا وتالبوا مع اخوانهم المسلمين علينا ، وجب ان نضع هذه الضريبة عليهم ، فالمغاربة فى اداء هذا المكس سبب من الذكر الجميل فى نكايتهم العدو ، ويسهله عليهم ويخفف عنته عنهم » .

ويتحدث ابن جبير (2) ـ بعد هذا ـ عن لون اخر لهذه المساهمة المغربية ضد الحروب الصليبية ، ويتجلى هذه المرة فى العطف الذى يتمتع به اسرى المغاربة فى هذه الحروب ، وما يلاقونه من اهتمام بمصيرهم من طرف الامة الشامية حكومة وشعبا ، وهو يقول فى هذا :

« ومن جميل صنع الله تعالى لاسرى المغاربة بهذه البلاد الشامية الافرنجية ، ان كل من يخرج من ماله وصية من المسلمين بهذه الجهات الشامية وسواها ، انما يعينها فى افتكاك المغاربة خاصة ، لبعدهم عن بلادهم وانهم لا مخلص لهم سوى ذلك بعد الله عز وجل ، فهم الغرباء المنقطعون عن بلادهم ،

---

(1) « الرحلة » مطبعة السعادة بمصر ص 283 ـ 284
(2) نفس المصدر ص 290

فملوك اهل هذه الجهات من المسلمين والخواتين : « الاميرات » من النساء واهل الثراء ، انما ينفقون اموالهم في هذا السبيل ، وقد كان نور الدين ـ رحمه الله ـ نذر في مرضة اصابته تفريق اثني عشر الف دينار في فداء اسرى من المغاربة ، فلما استبل من مرضه ارسل في فدائهم ؛ فسيق فيهم نفر ليسوا من المغاربة وكانوا من حماة من جملة عمالته ، فأمر بصرفهم واخراج عوض منهم من المغاربة ، وقال : هؤلاء يفتكهم اهلوهم وجيرانهم . والمغاربة غرباء لا اهل لهم .. »

ومن الواضح ان مدلول المغاربة في نص ابن جبير يتسع لما يشمل سائر المغرب العربي والاندلس، ونجد في طليعة المغاربة الاقصويين الذين جاهدوا ضد هذه الحروب الصليبية ، اماما مغربيا من قلعة فندلاوة التي كانت قائمة بمقربة من مدينة فاس قبل ان يهدمها المرابطون .

وقد تحدث عن موقفه البطولي طائفة من المؤرخين المشارقة ، وهذا سياق ياقوت في « معجم البلدان » (3) حيث قال عند مادة فندلاو :

« ينسب اليه يوسف بن دوناس الفندلاوي المغربي ، ابو الحجاج الفقيه المالكي ، قدم الشام حاجا فسكن بانياس مدة وكان خطيبا بها ، ثم انتقل الى دمشق فاستوطنها ، ودرس بها على مذهب مالك رضي الله عنه .. وكان الافرنج قد نزلوا على دمشق يوم الاربعاء ثاني ربيع الاول سنة 543 هـ .. وكان خرج اليهم اهل دمشق يحاربونهم فخرج الفندلاوي فيمن خرج ، فلقيه الامير المتولي لقتالهم ذلك اليوم قبل ان يتلاقوا وقد لحقته مشقة من المشي ، فقال له ايها الشيخ الامام ارجع فانت معذور للشيوخية، فقال لا ارجع، نحن بعنا واشترى منا ، يريد قوله تعالى: «ان الله اشترى من المومنين انفسهم واموالهم بأن لهم الجنة ، يقاتلون في سبيل الله » ، فما انسلخ النهار حتى حصل له ما تمنى من الشهادة ».

ويضغط ابو يعلى في « ذيل تاريخ دمشق » (4) على الثبات الذي تحلى به هذا المغربي عند المعركة التي يقول في صدد الحديث عنها :

واستشهد في هذا اليوم الفقيه الامام يوسف الفندلاوي المالكي رحمه الله ، لوقوفه في وجوههم ، وترك الرجوع عنهم . ويضيف ابن ابي شامة (5) الى قصة الفندلاوي تعيين مشهده بدمشق ويقول عنه :

« وقبره ـ الآن ـ يزار بمقابر الباب الصغير من ناحية حائط المصلى ، وعليه بلاطة كبيرة منقورة فيها شرح حاله »

وقد ورد ذكر هذا المغربي ـ ايضا ـ اثناء قصيدة ابي الحكم الاندلسي في شرح الوقعة التي استشهد فيها ، وهو يورده ضمن الذين ابلوا في المعركة ، ويخصصه بالبيت التالي :

وشيخنا فندلاويا
فقيها يعضد الدينا (6)

ولزيادة التعريف بالفندلاوي نذكر انه صار شيخ المالكية بدمشق (7) ، وهو مؤلف كتاب « تهذيب المسالك في نصرة مذهب مالك»، وضعه في الفقه المقارن، ووازن فيه بين المذهب المالكي ومذهبي ابي حنيفة والشافعي « ض » وهو يذكر ما للمالكية وما عليهم، ويؤيد الآراء بالحجج الواضحة في اسلوب مختصر، ومن حسن الحظ ان تحتفظ مكتبة الزاوية الحمزية باقليم تافيلالت بنسخة فريدة من هذا الكتاب في سفر متوسط يشتمل على 259 ص ، ويحمل رقم وقد تصحف في هذه النسخة اسم والد المؤلف ، فسمي بدقناس بدلا من دوناس (8) .

وبعد الفندلاوي نذكر مغربيا من فاس ساهم ـ بدوره ـ في مقاومة الصليبيين اواخر هذه المائة السادسة ، وهو يسمى بالعباس بن احمد ، وقد جاء في ترجمته : « وترك بفاس امرأة واولادا تركهم لله

---

(3) مطبعة السعادة بمصر ـ ج 6 ص 401
(4) مطبعة الاباء اليسوعيين في بيروت ـ ص 298
(5) « كتاب الروضتين » ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ الجزء الاول ، القسم الاول ـ ص 139 .
(6) المصدر الاخير في نفس الجزء والقسم ـ ص 140 .
(7) نفس المصدر والجزء والقسم ـ ص 137 .
(8) انظر : محمد المنوني ، « مكتبة الزاوية الحمزية » مجلة «تطوان» ـ العدد 8 ص 123 .

صورة طبق الاصل لكتاب « تهذيب المسالك ، في نصرة مذهب مالك » للفندلاوي

وخرج الى الجهاد بالشام ، فتوفي في الغزو عام خمسة وتسعين وخمسمائة (9) » .

* * *

وعن اصداء هذه الحروب الصليبية في داخل المغرب ، نسجل تطلع المغاربة لتحرير بيت المقدس بالخصوص ، ويبلغ بالبعض الاهتمام بهذا الفتح الى ان يحاول استخراج تاريخه من بعض الآيات القرءانية الكريمة ، وقد قام بهذه العملية ابو زكرياء يحيى بن ابي الحجاج اللبلي الاصل ، ثم المراكشي النشاة ، والمتوفى حدود 590 هـ ، او بعدها . قال ابن الزبير في ترجمته (10) : « وهو الذي استخرج من تفسير ابي الحكم بن برجان – من كلامه على سورة « الم غلبت الروم » – فتح بيت المقدس في الوقت الذي فتح فيه على المسلمين ، وحقق وعين ما كان اغمض فيه ابن برجان وابهم ، ووقف عليه المنصور فبقي مرتقبا له ومعتنيا في نفسه به حتى كان ذلك على حسب ما قاله ، فامر ان يحضر مجلسه ويرتسم في جملة طلبته » .

ولنقف – قليلا – عند الفقرة الاخيرة من كلام ابن الزبير ، لنرى مدى اهتمام يعقوب المنصور بهذا الفتح ، حتى نظم مستنبط تاريخه بين اهل مجلسه العلمي ، فلتضف هذه الملاحظة الى ملف العلاقات بين المنصور الموحدي وصلاح الدين الايوبي .

في مصر :

تعرضت مصر لحملة نابليون الاول عام 1213 هـ ، وقد اهتز الشعب المغربي لهذا الحادث. وكان لحجاج المغاربة اثر فعال في مساهمة بلدهم في الدفاع عن ارض الكنانة ، وتالف لهذه الغاية اكثر من كتيبة من المجاهدين ، وقاد الكتيبة الاولى علامة مراكش الشيخ محمد الجيلاني السباعي : وحسب الجبرتي (11) فقد كان الشيخ المغربي حين الحادثة مجاورا بمكة المكرمة ، ولما وردت اخبار الحملة للحجاز ضج الناس بالحرم الشريف ، وصار هذا الشيخ يعظ الناس ويدعوهم الى الجهاد ، وقرأ بالحرم كتابا مؤلفا في معنى ذلك ، فاتعظ جملة من الناس وبذلوا اموالهم وانفسهم ، وقد وصلوا – فعلا – الى مصر في جموع كثيرة ، وحاربوا الفرنسيين ، وثبت الشيخ السباعي في جماعة الى ان توفي بارض مصر .

اما الكتيبة الثانية فقد كانت بقيادة زعيم يدعى ابن الاحرش من عرب المغرب الاقصى ، وقد وفد منه للحج ، وهناك نظم جيشا جمعه من اعراب المغرب العربي ، وانضم الى الجيش المصري وابلى بلاء حسنا (12) .

* * *

وسوى هذا فقد تجلى الحماس للقضية المصرية بصورة اكثر في داخل المغرب ، وظهر على السنة بعض الخطباء وشعراء الفصيح والملحون ، ونذكر من بين شعراء الفصيح ابا الربيع سليمان الحوات ، ومن شعراء الزجل عميدهم في هذه الفترة الحاج محمد النجار في قصيدة تعرف بالمصرية ، واخرى مثلها لمحمد بن علي العمراني، ويوجد بين خطب الفقيه الرهوني المعروفة، واحدة وضعها بمناسبة حملة بونابارت ضد مصر ، يقول اثناءها :

« فلهذا تسلط اهل الكفر على اهل الاسلام ، واستولوا على اعظم البلاد بلا ضرب بالسيوف ولا رمي بالسهام ، فما اعظمها من مصيبة اصابت الخاصة من المسلمين والعامة ، فليس في الحياة بعد هذا من خير ، ولا يزداد الحال الا لعظيم الضير » (13) .

---

(9) « جذوة الاقتباس » ط . ف – ص 278 .
(10) « صلة الصلة » المطبعة الاقتصادية بالرباط – رقم 370 .
(11) « عجائب الآثار » المطبعة الاميرية – ج 3 ص 44 و 57 ، وانظر – ايضا – ص 55 ، وعن ترجمة السباعي يرجع الى « الاعلام فيمن حل بمراكش واغمات من الاعلام » ج 5 ص 144 – 152 ، مع تحلية الآذان والمسامع بنصرة الشيخ ابن زكري العلامة الجامع » ، تاليف احمد بن عبد السلام بن محمد ابن احمد بناني ، اخر الجزء الثاني مخطوط المكتبة الملكية رقم 345 .
(12) « تحفة الزائر في مآثر الامير عبد القادر واخبار الجزائر » ، المطبعة التجارية بالاسكندرية – ج 1 ص 77 .
(13) « الخطب المنبرية .. » لمحمد بن محمد الرهوني ، مطبعة حجازي بالقاهرة – ص 11 .

وفى خطبة اخرى للفقيه الرهوني ايضا :

« .. وانفروا لجهاد خفافا وثقالا ، وابذلوا فى نصرة اخوانكم المسلمين انفسا واموالا ، فقد اباهم النصارى دمرهم الله افواجا ، واذاقوهم من سوء صنيعهم ملحا اجاجا ، افيطيب عيشكم يا معشر المسلمين واخوانكم قد ضاقت عليهم الارض بما رحبت .. » (14) .

وجاء فى خطبة لابي الربيع سليمان الحوات :

« وهل سيتم ما كان فى هذا العصر ، من دخول الكفار اهل مصر ، وعتوهم فيها وافسادهم نهبا وقتلا .. » (15) .

فى طرابلس :

تعرضت مدينة طرابلس ــ اواسط المائة الثامنة للهجرة ــ لاعتداء من طرف امارة جنوى بايطاليه ، وكان ملك المغرب ــ اذ ذاك ــ هو السلطان ابو عنان المريني ، وما ان سمع بالنبأ المفجع حتى فكر فى تحرير المدينة الاسيرة ، ثم كاتب نوابه ليخابروا المحتلين فى فدائها ، وكان المبلغ الذى صار اليه الاتفاق يقدر بخمسين الف دينار ذهبية ، ولما ان علم بهذه النتيجة استبشر وقال : الحمد لله الذى استرجعها من ايدي الكفار بهذا النزر اليسير ، وامر للحين ببعث ذلك العدد (16) ، وعادت المدينة الى حظيرة الاسلام بفضل مسعى السلطان المغربي .

وقد تعرضت نفس المدينة لحصار امريكي اوائل المائة الثالثة عشر للهجرة ، فعاد المغرب لنجدة طرابلس وفك الحصار عنها ايام السلطان العلوي المولى سليمان ، ففى عام 1217 هـ / 1803 م وجهت امريكا اسطولها الحربي لحصار طرابلس ، لما كانت سفنها تضر ــ ءانذاك ــ بالسفن الامريكية ، فهب المغرب لنصرة القطر الشقيق، وسار الاسطول المغربي يسابق الرياح ، حيث كانت سفنه خفيفة جامعة بين الشراع والمجاذف ، وبهذا كانت قوة سيره مضاعفة. وما كاد الاسطول الامريكي يصل الى طرابلس حتى اعترضه الاسطول المغربي فقطعه عنها ، ولم تمض الا مدة يسيرة حتى صيره على وجه الماء ، ولما بلغ هذا مسامع امريكا بعثت بعمارة اخرى الى طرابلس ، ولكن لقيها الاسطول المغربي مرة ثانية فبدد العمارة الامريكية (17) ، وهناك رسالة صادرة عن السلطان المولى سليمان الى امير ليبية يوسف باشا ، وقد جاء فيها فى هذا الصدد :

« .. لا نالوا جهدا فى صلة نصركم ، واعزاز امركم ، واتساق سعدكم ، واسعاف قصدكم » . وتبرز الرسالة الغاية من قطع هذا الوعد وتقول : « وقصدنا بهذا ان يعلم اعتناؤنا بأمركم، وعملنا على نصركم ، واهتمامنا بشانكم ، ليقصر شأو عدوانها ، ويتضاءل طائر طغيانها (18) » وفى هذا تلميح لمحاصرة الاسطول الامريكي لمدينة طرابلس .

---

(14) المصدر الاخير ــ ص 6

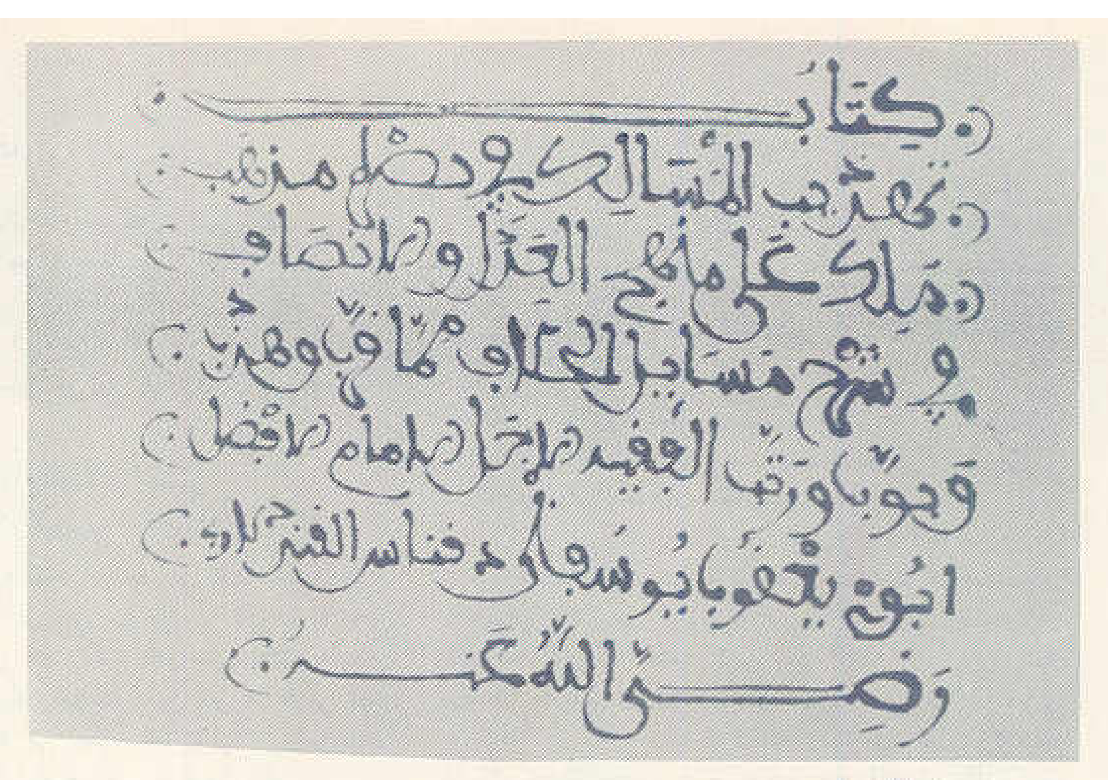
(15) لا تزال هذه الخطبة مخطوطة بالمكتبة الملكية بالرباط رقم 4269 ، حيث توجد معها خطبة اخرى للحوات ايضا .

(16) « تحفة النظار » لابن بطوطة بترتيب ابن جزى ، المكتبة التجارية الكبرى بمصر ــ ج 2 ص 185 ، وفى « تاريخ الدولتين » للزركشي ، الطبعة الاولى ص 80 : اورد قصة فداء طرابلس هكذا :

« واسر النصارى جميع البلاد ومكثوا فيها نحوا من اربعة اشهر .. الى ان داخلهم ابن مكي صاحب قابس فى فدائها ، فاشترطوا عليه خمسين الفا من الذهب العين ، فبعث فيها للملك المغرب السلطان ابي عنان يطرفه بمثوبتها ثم تعجلوا عليه فجمع ما عنده واستوهب ما بقي من اهل قابس والحامة وبلاد الجريد فوهبوها له رغبة فى الخير ، ومكنه النصارى من طرابلس فملكها، وبعث السلطان ابو عنان بالمال اليه صحبة الخطيب ابي عبد الله بن مرزوق وابي عبد الله محمد حفيد المولى ابي علي عمر ابن سيد الناس ، وان يرد على الناس ما اعطوه ويتفرد بمثوبتها ، فامتنعوا ووضع المال عند ابن مكي لذلك » .

(17) من مقال للمؤرخ المغربي المرحوم محمد بن علي الدكالي ، نشره فى جريدة «المغرب» : العدد الممتاز رقم 346 .

(18) انظر : محمد المنوني : « ثلاث رسائل من المغرب الى ليبيا » مجلة دعوة الحق ، العدد الرابع، السنة الثانية عشرة ــ ص 46 .


كتاب
تهذيب المسالك في نصرة مذهب
مالك على منهج العدل والانصاف
في شرح مسائل الخلاف مما فيه
وجوه وترتيب الفقيه الأجل الإمام الأفضل
ابو يعقوب يوسف بن دوناس الفندلاوي
رضي الله عنه

عنوان الكتاب . .



المنبر الذي حرقته السلطات الاسرائيلية تعمر الوف السنين ، وقد ركب بعضه مع كان مصنوعا من أقوى أصناف الخشب التي بعض دون استعمال اي مسمار فيه ، وزين بالآيات القرآنية ، وقد نصب على يمين المحراب المغشى بأنواع الرخام المختلفة الالوان والمركبة في غاية من الذوق الفني الرائع وهو تحت قبة ترتفع 16 مترا عن سطح الارض ، وقد زينت بالفسيفساء المفصصة بفصوص الذهب والفضة ، وتظهر فيها الاوراق والاغصان والاماليد الرائعة ; أي انها بلغت منتهى صنعة الفن البيزنطي في الفسيفساء مع العلم بأنها تخلو من الصور . وتعتبر سجلا حيا ارقى أنواع الفسيفساء .

في تونس :

بعد طرابلس نذكر ان مدينة تونس استهدفت هي الاخرى لاعتداء اجنبي على كيانها ، حيث تعرضت للحملة الاسبانية عام 941 هـ ، وقد كان لهذه الحادثة صداها في البلاد المغربية ، وممن تفجع لها امام فاس ابو الحسن علي بن هارون ، في قصيدة يقول في مطلعها :

شاقك الغيث اذا الغيث انهمر
حضرة الانس البديع المؤنس (19)

وفي هذه الفترة قام السلطان ابو العباس الوطاسي بفداء علامة تونسي من الاسر ، وهو الامام محمد بن ابي الفضل خروف التونسي (20) عام 947 هـ ، حيث استوطن مدينة فاس الى ان توفي بها وقد ذكر هذه القصة في فهرسته (21) ، وبعدما تحدث عن الحملة الاسبانية واسره فيها قال :

« وكانت مدة اسري ستة اعوام غير قليل ، محفوظا فيها في ديني وبدني فضلا من الله له الشكر على ذلك ، الى ان خلصني الله تعالى خلاصا جميلا على يد مولانا السلطان المؤيد ابي العباس احمد الوطاسي ، اجمل الله تعالى خلاصه ، فبذل في فدائي مالا كثيرا يقرب من الف دينار ، وبعد محاولة عظيمة يطول ذكرها ، وعاملني بعد الخروج بما لا احصي عده ، جعله الله تعالى له عدة ، واول يوم قابلته به — وذلك في اول رجب الفرد عام سبعة واربعين وتسعمائة ، وقد خلع علي من احاسين ملابسه — انشدته من نظمي بحضرة خواص اصحابه وبعض التونسيين حاضر :

قلدت جيد الدهر در مفاخر
فثنت عليك بفضلك الايام

وكسوت ابناء الزمان ملابسا
فتخلقت لجمالها الاعوام

لا زلت يا ركن السعادة خالدا
تخشاك الضرغام

وعليك — يا تاج الملوك — تحية
ما غردت فوق الغصون حمام

وقال في ايام وردت علي كتب من بلادي يسالون عن حالي :

فان تسالوا عني فاني بجنة
اتيه بها بين الضحى والاصائل
بحضرة سلطان تحلت بعدله
فلا زال غوث الدين جيد العواطل »

وقد استمرت تونس تحت الاحتلال الاسباني اكثر من اربعة عقود من الزمن ، ثم تحررت على يد الاتراك العثمانيين عام 982 هـ ، ويؤكد مصدر مغربي (22) مساهمة المغرب في هذا التحرير بواسطة ابي مروان عبد الملك السعدي قبل ولايته للملك حيث حضر فتح تونس مع الجيش التركي الذي بعث به السلطان مراد العثماني ، ويزيد نفس المصدر ان والدة الامير السعدي هي اول من ابلغ خبر هذا الفتح للسلطان العثماني ، في رسالة كتبها ولدها للسلطان مراد يبشره بانتصار الاسلام على الصليب .

في الجزائر

غزا الاسبان مدينة وهران من عام 915 هـ ، ثم اعتدوا — بعد هذا — على مدينة تلمسان ، وقد تدخل المغرب لفائدة تحرير هذه المدينة الاخيرة ايام السلطان ابي العباس الوطاسي ، حيث استنصره امير تلمسان ابو زيان احمد الثاني، وقد امده السلطان الوطاسي بالمال والسلاح والرجال ، وقال لامير تلمسان : بلدي بلدك ، وانا لك بمنزلة الوالد، وابني بمنزلة اخيك (23) ، وبفضل هذه المساعدة تمكن سلطان تلمسان ، من طرد الاسبان من العاصمة الجزائرية .

---

(19) وردت هذه القصيدة في « فهرسة المنجور الصغرى» مخطوطة خاصة ، وفي «جذوة الاقتباس» ص 302 — 303 ، ثم في «نزهة الحادي» لليفرني ط. ف — ص 50 .

(20) فهرسة المنجور المخطوطة الآنفة الذكر ، وانظر عن ترجمة خروف التونسي ومراجعها سلوة الانفاس ج 3 ص 281 — 282 .

(21) حسب نقل البعض عنها ، وقد وقع بياض في احد الاشطار الشعرية فاثبته كما وجد .

(22) « نزهة الحادي » — ص 51 ، وانظر « الاستقصا » طبع دار الكتاب ج 5 ص 61 — 63 .

(23) « عروسة المسائل فيما لبني وطاس من الفضائل » ، ارجوزة لمحمد الكراسي ، المطبعة الملكية — ص 38 — 39 .

اما وهران فقد استمر الاحتلال الاسباني بها اكثر من قرنين من الزمن : من عام 915 هـ الى حدود عام 1120 هـ ، وخلال هذه المدة تبنى ثلاثة من المغاربة المطالبة بتحرير هذه القاعدة : واولهم : ابن ابي محلي السجلماسي ، وقد نظم اكثر من قصيدة يستنهض بها العالم الاسلامي عامة ، والسعديين والاتراك خاصة ، للعمل على تخليص وهران من قبضة الاسبان ، ومن صرخاته في هذا الصدد قوله من قصيدة :

ويامعشر الاسلام فى كل موطن
وفى كل ناد سالف ومعاصر
ويا سادة العربان من ءال هاشم
وغيرهم ، بالله ما صبر صابر ؟
ويامعشر الاتراك يا كل عالم
وكل ولي حافظ للاوامر
اناشدكم بالله ما عذر جمعكم
لدى الله فى وهران أم الخنازر(24)

وبعد ابن ابي محلي يبرز الى الميدان عبد الرحمن الجامعي الفاسي (25)، ليستصرخ السلطان العلوي المولى اسماعيل فى شأن فتح وهران ، وهو يقول فى هذا: « ان الكثير من اهل زمانه يرى ان هذا الفتح انما يكون على يد هذا العاهل المغربي ، لما عاينوه من حرصه اول دولته على اخلاء الثغور من الكافرين ، وتعميرها بالمسلمين .. »

ولما فتح نفس السلطان مدينة العرائش ، كان من بين المهنئين بهذه المناسبة العالم المغربي عبد الواحد البوعناني الفاسي وقد ضمن تهنئته الشعرية التذكير بتحرير وهران فى اربعة ابيات يقول فيها :

ووهران تنادي كل يوم
متى ياتي الامام متى يزور
متى ياتي ويفتحها سريعا
ويلحق اهلها منه ثبور (26)

وقد استفادت القاعدة الجزائرية من هذا الالحاح المغربي ، وكان هذا دون شك ــ احد العوامل التى حفزت الاتراك للمبادرة الى تخليص وهران من احتلال الاسبان حدود عام 1120 هـ ، مسابقين بهذا عملا مغربيا متوقعا فى هذا الصدد ، حيث كان السلطان ابو الفداء قام بمحاولة لفتح هذه المدينة ، قال السليماني فى « اللسان المعرب » (27) :

« وفى سنة اثنتي عشرة ومائة والف جمع المولى اسماعيل الجيوش واعد المعدات ، وقصد مدينة وهران لحرب الاسبان بها .. فنزل بسيط سيف من مرج سيرات ، فالتفت عليه قبائل الحشم وبني عامر من زغبة وقبيلة هبرة وسويد ، وتيامنوا بطلعته .. فجعل يشن الغارات على وهران بجيوشه وبمن انضاف اليه من هؤلاء القبائل ، ولما اعياه امرها وطال تردد الجيوش عليها وقف عليها فتعجب من حصانتها، وقال هذه افعى تحت صخرة تضر غيرها ولا يقدر عليها احد .. ثم اقلع عنها وبنى رباطا قرب سيف يعرف بحرش مولاي اسماعيل ، وترك بها طائفة من العبيد لا زال عقبهم بتلك الناحية الى الآن يعرفون بالعبيد القرابة ، وترك طائفة اخرى من الجيش ببسيط اغبال قرب وهران يعرفون ــ الآن ــ بالبحابتية .. فكثر فيهم الدخيل من سائر القبائل لاجل احترام الدولة التركية لهم لقربتهم ومقامهم بذلك الرباط ، فانتشرت منهم قبيلة عظيمة تعرف بالدوائر والزمالة » .

* * *

ومرة اخرى يتجلى موقف المغرب الاخوي نحو جارته ، ويبرز بمناسبة غارة الاسطول الانجليزي على الجزائر عام 1229 هـ ، وقد كان لهذا الحادث صداه فى دوائر المغرب الرسمي ، وبعث الامير ابراهيم بن السلطان المولى سليمان رسالة مواساة كتبها ــ عن امر والده ــ الى باشا القطر الشقيق ابي حفص عمر ، من انشاء الكاتب الشهير ابي حامد العربي الدمناتي، (28) وهي خالية من التاريخ، وسيرد نص الرسالة فى الملحق الاول لهذه الدراسة .

---

(24) شرح ارجوزة فتح وهران لعبد الرحمن الجامعي الفاسي مخطوطة خاصة ، حيث وردت هذه القصيدة مع قصيدة اخرى فى الموضوع ذاته ولنفس الشاعر .

(25) المصدر الاخير .

(26) القصيدة بطولها واردة فى نزهة الحادي ــ ص 262 ، ثم فى الاستقصا ج 7 ص 74 ــ 76 .

(27) مخطوط المكتبة الملكية رقم 297 ، السفر الاول .

(28) اثبت هذه الرسالة بخطه فى كناشته بالمكتبة الملكية بالرباط رقم 3718 .

ولما انتصرت الجزائر ضد الاسطول الانجليزي بعث نفس الباشا لسلطان المغرب بكتاب في الموضوع (29)، حيث اجاب عنه المولى سليمان بقصيدة من نظم الشاعر المغربي الشيخ حمدون ابن الحاج السلمي الفاسي، مع تذييلها بتهنئة نثرية يظهر انها من وضع السلطان نفسه، وقد اشتملت القصيدة على تمجيد جهاد الجزائريين، وشرحت مظاهر اهتمام المغاربة - وعلى راسهم مليكهم - بحادث الاعتداء على الامة الجزائرية (30)، اقرا القصيدة مع ذيلها في الملحق الثاني.

ويلاحظ ان ما وقفت عليه من المصادر التاريخية المغربية والجزائرية اغفلت تسجيل كل من الرسالة والقصيدة.

ومن مظاهر الاهتمام الشعبي بهذه القضية، انه كان شاع ان الانجليز استولوا على الجزائر، فأنشأ - في هذا - اديب من تطوان - لم يعرف اسمه - قطعة شعرية اجابه عنها الاديب الجزائري احمد بن سعيد بن ابراهيم بقصيدة (31) سترد مع القطعة في الملحق الثالث.

وقد تحدث عن هذه الوقعة مؤلف الابتسام (32) وارخها في شوال عام 1229 هـ ويظهر انه الوحيد الذي كتب عنها من بين المؤرخين المغاربة.

* * *

وبعد: فهذه نصوص الملاحق الثلاثة:

1 - الرسالة المغربية الى باشا الجزائر

وقد علمنا - سلفا - ان الذي بعث بها هو الامير ابراهيم عن امر والده السلطان المولى سليمان، من انشاء الكاتب العربي الدمناتي، ونصها:

الحمد لله لما غرر الانجليز بأهل الجزائر، وموه عليهم بعلاقة السلم حتى دخل مرساهم ورماهم بالصواعق، وكان من امر الله ما كان، ورد سفير منهم لاستصراخ مولانا السلطان، فأمر ولده المرحوم مولانا ابراهيم بانزاله والبرور به وقضاء مآربه، وامره ان يتصدى لجوابهم، فاجبتهم - عنه - من املائي بما نصه:

« الاخ الذى تأسس على مرضاة الله اصيل فخره، واتسم بالمرابط المجاهد على اقتبال سنه وجدة عمره، وبدا بفضل الجهاد صحيفة امره وافتتح بالرباط والصلاح ديوان نهيه وامره، والمحب الذى نسر بتجديد وده وتاكيد عهده، ونبتهج باتساق امره واستيناف سعده، ونصل الثناء على اجتهاده في الجهاد وجده، حتى نظم من عقود الايالة الجزيرية ما انتثر، وأقال الله به ملكها فما عثر. فأحيا السنن واوضح الاثر الباشا ابو حفص السيد عمر، عمر الله به الايالة الجزائرية ورفع به من شأنها، وحرس به جوانب سلطانها، ووالى الدفاع عن اوطانها، سلام كريم يتم في جو الخلوص منه نسيم، ويتجلى في مظهر الود له محيا وسيم، ورحمة الله وبركاته، ورضوانه وتحياته.

اما بعد: فانا كتبناه اليكم كتب الله لكم سعادة كريمة السمات، وعناية تتكفل بفتح الانوار المهمات، من حضرة مولانا الوالد ايده الله، وصنع الله بادي لطفه - جل وعلا - متماد، والتشيع لمقامكم لا يحتاج مسلمه الى استشهاد، ولا يفتقر حاصله الى اعادة وترداد، وتداؤكم ملبى متى احتيج الى اعانة وجهاد، او التماس ارفاد.

وموجب الحب في الله، والسؤال عن احوال المجاهدين اعانهم الله، والدعاء لهم بالظفر والنصر سيما من كان مثلكم قوى (33) في عين الكفر،

---

(29) لا يزال هذا الكتاب غير معروف.

(30) القصيدة مع ذيلها في ديوان ابي الفيض حمدون ابن الحاج، مخطوط المكتبة الملكية رقم 225.

(31) ورد نص كل من القطعة والقصيدة في «الحلل البهية في ذكر ملوك الدولة العلوية» لمحمد مصطفى المشرفي، مخطوط المكتبة الملكية رقم 1019 - ص 225 - 227.

(32) اسمه الكامل: « الابتسام. عن دولة مولانا عبد الرحمن بن هشام » تاليف ابي العلاء ادريس الجعيدي، وقد قام بتلخيصه محمد بن الحسن الحجوي، حيث يوجد ضمن مجموع خ. ع. ص 113.

(33) هكذا في الاصل المنقول منه.



جلالة الملك المعظم الحسن الثاني أيده الله يتحدث الى شعبه الوفي عن قضية فلسطين

أعانكم الله وايدكم ، وبنصره امدكم ، وحفظكم وكفاكم ، وشرح صدوركم وشفاكم .

هذا وان الدين النصيحة ، عملا بمقتضى الاحاديث الصحيحة ، والنصوص الصريحة فانا قوم اعزنا الله بالاسلام ، فلا نطلب الظهور الا من بابه ، ولا نعتمد الا على احبابه ، ولا نتعلق الا بالله فيما اهمنا ودهمنا ، ولا حول ولا قوة الا بالله ونصره ، والله غالب على امره ولو كره الكافرون ، قال تعالى لنبيه : قل لا املك لنفسي نفعا ولا ضرا الا ما شاء الله ، وقد ابتلي المومنون وزلزلوا زلزالا شديدا ، فكافاهم الله نصرا وتأييدا ، لقد كان لكم فى رسول الله اسوة حسنة ، وان وقع تمحيص او ادب من الحق فبعدله ، او ظهور فبفضله ، ولنرجع على انفسنا باللوم ، ونتوب الى الحي الذي لا تأخذه سنة ولا نوم ، فهو الذى يمحص ليثيب ، ويامر بالاستغاثة ليجيب .

ثم مما يقوي اسباب المحبة ويؤكدها، ويديمها ويؤيدها ، اطلاع الحب على افعال حبيبه ، فنعرفكم ان والدنا ــ ايده الله ــ كان يضن بنا ان يدخلنا فى امر من امور الدنيا ، ولما كان امركم ليس من الامور الدنيائية ، وانما هو مما يقرب الى الله زلفى ومن الامور الاخروية، ندبنا اليه وحضنا عليه ، فعندما ورد وفدكم الذى هو اعز الوفود ، وسفيركم الحب العلامة ابو عبد الله ابن محمود . امرنا ــ اعزه الله ــ بتلقيهم بفاس وانزالهم والترحيب بهم على العين والراس ، والوقوف على شئونهم ، كل ذلك اعتناء بكم ، حتى تحصل لهم الاستراحة، ويستبدلون شعث السفر برونق الراحة ، وحينئذ نقدم بهم لحضرته ، ففعلنا وقدمنا بهم على مولانا الوالد ابقاه الله وحياه ، لتشرف بمشاهدة محياه كل ذلك فرحا بهم وسرورا ، فبواهم من حضرته ما يستحقون واستغفر فى حقهم جميع ما يفعل بهم تجلة وبرورا ، وتلقاهم بما يذكرونه، واناالهم ما ــ ان شاء الله ــ يشكرونه ، وامرني ــ ايده الله ــ ان كتب لكم وقال : انه اخى بيني وبينكم ، فوجب التعريف بهذا الاخاء والحب ، قال رجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : انـي احب فلانا ، فقال له ــ عليه السلام ــ عرفه بذلك والله تعالى يسلك بنا وبكم احسن المسالك »

2 ــ القصيدة المغربية الى الجزائريين والباشا

وهي التى تولى نظمها ابو الفيض حمدون ابن الحاج ، مع تذيلها بتهنئة نثرية ، ونص ذلك :

حمدا لمن نصر الاسلام فانتصرا
وبدد الكفر والضلال فانتشرا
ثغر الجزائر ضحى اليوم مبتسما
بالنصر والفتح مسرورا ومزدهرا
يبدو له شنب ناهيك من شنب
على الثغور ازدهى بالحسن وازدهرا
يوم عبوس على العدو وجمعهم
مكسر ووجوههم قرت دبرا
بؤس شديد لقوه فى تقدمهم
فلا مقدم الا طالب لورا
قمتم اهيل جزائر قيام على
اصبحتم به في عصر لكم غررا
لا زال سهمكم فى ثغرة لعدى
يعلو الثغور به على الذى كفرا
لا زلتم تاج اسلام ولا انثرت
ايدي الزمان لتاج عزكم دررا
لا زلتم روضة الايمان لا لفحت
اعصار اعدائكم من روضكم زهرا
وواجب شكر نعمة عليكم من
رب غني كريم قال : « من شكرا »
به وبالله قد كان القيام لكم
وقمت فينا بأمر الله يا «عمرا»
وليس يلقاك سلطان العدى ابدا
الا وولى على الاعقاب منكسرا
وقبلكم عمر وهو السمي لكم
لم يلق اعداءه الا وفد بهر
ان لم اكن معكم بالذات مجتهدا
فانني معكم بالروح منتصرا
ادعو لكم وظلام الليل معتكر
يا رب شتت ظلام كفر اعتكرا
ولا مؤذن قام فى المنار له
الا وقال الاهي انصرهم سحرا
ولا امام بمحراب اقام به
يدعوه الا وقال كن لهم وزرا
ولا خطيب علا بعود منبره
الا ونشر دعائه لكم نشرا
وقد قرانا بخاريا لنصركم
وهو البخاري لما القاري قراه قرا

بذاك قد صدر الامر المطاع لنا
في اهل دولتنا ونعم ما صدرا

وما قدرنا على شيء سواه لما
علمتم وكفى بالله مقتدرا

* * *

بعد اهداء سلام الله عليكم ، احمد اليكم الله الذي لا اله الا هو ، واشكره لما اسدى اليكم ، واصلي واسلم على نبيه وعبده محمد الذي لا نصر الا بمدده في سائر المدد ،

ومن تكن برسول الله نصرته
ان تلقاه الاسد في اجامها تجم

ووالله لقد كنت مهتما ومما دهمكم مغتما ، انما المومنون كالجسد ، ونحن اخوة نصركم نصرنا ، وامركم امرنا ، وما يضركم يضرنا ، وما يسركم يسرنا ، لله الحمد على ما اسدى ، لله الحمد على ما أهدى ، اللهم اتم نصرك لاخواننا المومنين ، ويأبى الله الا ان يتم نوره ولو كره الكافرون .

3 ـ القطعة التطوانية والقصيدة الجزائرية

نص الاولى لبعض ادباء تطوان :

احقا ما اشيع عن الجزائر
من ارهاب البواطن والظواهر

لئن نزل الهوان بها وذلت
فقد شمل البوادي والحواضر

وكيف يلذ في بلد مقام
اذا هان الهوان على الاكابر

ايأبى البائعون نفوس عز
بأفضل ما يرام من الذخائر

واين صواعق جعلت رجوما
فأحرقت الكفور خلال زاخر

فقد لمعت بوارقها برعد
به صعق المناضل والمناظر

لئن ثبت المقال كما سمعنا
فقد طاب الرحيل الى المقابر

ونص القصيدة الجزائرية :

هي الاقلام تنطقها المحابر
لتسمعك اليقين عن الجزائر

اتاها ما اراد الله حينا
فكادت تنشق لها المرائر

الى ان جاءها والامر امر
مليك لا يجاري في المئاثر

فبدل صينها ذهبا نضارا
واصلح ذلك الاكسير جابر

والبسها ثياب العز فخرا
فاصبح وجهها كالبدر زاهر

وانفق في سبيل الله مالا
وجهز جيشه للقا الكوافر

فجادلنا وجادلهم بمال
وطعن في الصدور وفي الحناجر

وباءوا مثل ما جاءوا خزايا
واعطوا ما اكنوا في الضماير

ورد الله بأسهم عليهم
ودارت في هلاكهم الدوائر

اشاعوا ما سمعت من البلايا
ليرهب مومن ويسر كافر

فان نزل الهوان بها قليلا
فكم سلت لرفعتها بواتر

وكم بذل الكرام بها نفوسا
ليبتاعوا من الله الذخائر

وكم رمت الحصون عليهم من
صواعق لا تعد خلال زاخر

فقل للعالم النحرير نفسي
فداك لا تخف فالله ناصر

ولا تحزن فان الله معنا
اذا التقت العساكر بالعساكر

الرباط ـ محمد المنوني

المغرب الأقصى والشرق العربي

للأستاذ محمد بن تاويت

اذا ذكر المغرب الاقصى بجانب الشرق العربي فانما يذكر مقابلا له لشيء واحد، هو البقعةالجغرافية التي من اطرافها ما هو غرب وما هو شرق ، أما فيما عدا هذا فالمغرب عربي كالشرق العربي ، ومن هذه الناحية لا ينفصل عن الشرق حتى يعد شيئا مغايرا له، فذكره بجانبه ذكر الاخ الشقيق بجانب اخيه كلاهما ينضم الى الاخر في نسب العروبة وكلاهما ينضوي تحت لوائها الخفاق . الاسلام جمعهما في عروبته كما جمعهما في مبادئه وسوى بينهما حتى صار المغربي يعرف بانه شرقي في الشرق نفسه ، ولا شيء يميزه عن العراقي أو المصري أو الشامي الا تلك الخريطة الصامتة التى تتحكم فيها الاطوال والعروض ولا تصيخ الى تلك الالسن التي تتلو في المشارق والمغارب بصوت واحد « ولله المشرق والمغرب يهدي من يشاء الى صراط مستقيم » .

هذا هو الوضع الذي عليه المغرب بازاء المشرق وقد زاده الاسلام احكام صلة وتوثيق عروة ، اذ لم يكن في الحقيقة وليد التاريخ الذي انبثق منه نور الاسلام ، وانما كانت له أسس ارتكزت على اغوار التاريخ القديم الذي اجتازت بمراحله قوافل الآلاف والمئات من السنين ، ثم طمس تلك الاسس العتيقة غبار كثيف انبعث من تلك الاضطرابات الداخلية ، والمطاحنات الخارجية التي كان يجد المغرب نفسه فيها وقد دفع اليها دفعا لا يتمالك معه الصمود . فما كان أشبهه في موقفه ذلك بنفسه في هذا الموقف الذي أدركناه عليه ، وقد تكالبت عليه شعوب الاستعمار الضارية فطوحت به الى حيث أرادت والى حيث لم يرد . ولكنه ما لبث أن صارع الاعداء حتى وجد نفسه، وقد دفع دفعا حثيثا بعوامل تلك التيارات القوية والجوارفالعنيفة، حراطليقا فاعاد التاريخنفسه وكانت القضية نفس القضية، فحطم اصناف الاستعمار واساطينه واعاد ذلك البنيان الى ما اراده له الاسلام « يشد بعضه بعضا » . ورفرفت على شرفاته الشاهقة اعلام الاخوة التي خفقت لها قلوب العرب فرحا ، وخفقت لها قلوب أعدائها فرقا : « وجوه يومئذ مسفرة ضاحكة مستبشرة ووجوه يومئذ عليها غبرة ترهقها قترة اولئك هم الكفرة الفجرة » .

قال النسابون ما قالوه في هذه العلاقة العتيدة بين المغرب والمشرق مثل ابن حزم وابن خلدون والكلبي والطبري وغيرهم ولنا اعتماد على هؤلاء في قضاياهم العامة ، وان كنا لا نلتزم ان ناخذ بجزئيات اقوالهم . فالقضية الكبرى التي لا يمكن الا ان تكون صادقة في الواقع وفي الاعتقاد ويؤيدها شواهد التاريخ ومبادىء المنطق ، هي أن المغرب ارتبط بالمشرق منذ آلاف السنين ، ارتبط به ارتباطا قويا ، حمل قومه ، في همة وعزم ، حضارتهم اليه . فكانت الشام تمد المغرب بمعلومات حضارية ، كما كانت مصر حجر الزاوية بين الشرق والغرب تمد المغرب بنفس هذه المعلومات وغيرها . ثم جاء دور الفكر والخيال فكان بين المغرب والمشرق تجاوب في عقائده الوثنية وخيالاته الخرافية.

واذا كان العرب قبائل رحلا يملكون من وسائلهم ما يطوي الفيافي والقفار ولا تقف فى سبيلهم الا البحار، وقفة قصيرة ، فلا شك انهم كانت لهم رحلات متعددة الى هذا المغرب الذى كان متصلا بهم بـرا الى عهـد قريب جدا . فالجمل هو الذي دفع بالقوم في قديمهم كما دفع بهم فى حديثهم الى جوف الاقطار ، دفع بهم بدوافع متعدد الى ذلك واذا اختلفت بها الظـروف والازمان ، فقد كانت دوافع وراء الكسب والتوسع ، ثم كانت دوافع وراء نشـر المبـدا ، ثم السلطـان ، فالكسب والتوسع فيما بعد . شأن العرب فى ذلك شأن اولئك الذين يملكون فى تجوالهم وترحالهم تلك الوسائل التي يطوون بها المسافات طيـا ، كالاتـراك الذين قفزت افراسهم من أواسط أسيا فضربـوا فى طول الارض وعرضها ، بدوافع متعددة كذلك ، تبعـا للظروف والاحوال ، فكان الكسب والتوسع والسلطان ونشر المبدأ وتعزيز العقيدة .

ننتقل من هذا التاريخ الضارب اطنابه فى بيداء القدم ولنصل الى التاريخ الذي ما زالت علائمه ماثلة فى زواياه المضيئة . فهذا التاريـخ يحدثنـا باتصـال المغرب بالشرق العربي على عهـد الفنيقييـن الذيـن اسسوا عاصمتهم فى شمال افريقيا ، والذيـن امتـد سلطانهم الى نهاية الضفاف الغربية منها . فبسطوا فى هذه الربوع حضاراتهم الفتية ، كما اقاموا على طـول هذه المسافة الشاسعة مدنـا وقـرى تتحدث عنهـا الحفريات آونة ، والمدن القائمة آونة اخرى ، واشاعوا فى كل ذلك عقائدهم وأساطيرهم ، مما دفعوا بـه الى الامام ، العقلية المغربية وكيفوا به الخيالات وغذوا به الوجدان . واذا كانت الشعوب العربية قـد شاركت فى النضال الذي كان بين الفرس واليونان ، فان المغرب لم يكن بمنأى من هذه المشاركة التي ظهرت فى الاساطير ولمحت لها التواريخ . وبذلك كان المغـرب الاقصـى والشرق العربي يجتمعان ليقوما بتمثيل تلك المسرحية التي خلدها التاريخ فى كتبها والاساطير فى اشعارها . ثم تاتي ادوار الاديان السماويـة واذا بالمشرق يمـد المغرب برسالة موسى ، ثم برسالة عيسى ، وذلك عن طريق مصر التي ما اكتفت بذلك حتى كانت المذاهـب التي تسودها فى المسيحية تسود المغرب كذلك . وحتى كان أصحاب تلك المذاهب اذا تعرضـوا الى اضطهـاد خصومهم ، لجأوا الى المغرب الذي كانوا يجدون بـه شيعا وأتباعا ورجالا على شاكلتهم وبنفـس المركـز الذى كانوا يتمتعون به فى اوساطهم المذهبية .

واخيرا ياتي الاسلام الحنيف فلا يلبث نوره ان يشع على هذا المغرب متوهجا ساطعا فتختفي فيه بقية تلك الاضواء التي كانت قد اوشكت ان تنطفىء لعوامل شتى . ويتردد عليه حماة هذا الدين فيجتازون مصر فى طريقهم ، واذا بالمغرب يحل به الصحابة فالتابعون وغيرهم من الجزيرة العربية وتخومها من شام ومصر وعراق وغيرها . وكثيرا ما كان عامل مصر هو الذي يتكفل بمهمة هذه البعوث التى حملت مشاعل الهداية الاسلامية الى هذا المغرب . فاقيمت بالمغرب معاهـد لتعليم شؤون هذا الدين وكانت من غير شك تتجلى فى تلك المساجد، بيوت الله ، التى « يجتمع فيها قوم يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم » كما يقول عليـه الصلاة والسلام .

ويابى الله الا ان يتم نوره فيكون المغرب نفسـه هو الذى يحمل هذا المشعل من القارة الافريقية الى القارة الاوربية واذا بالمغرب الاقصى والشرق العربي يجتمعان ايضا فى صعيد واحد باسبانيا ثم فى فرنسـا وايطاليا ، كما اجتمعـا فى ذلـك الصعيـد بالشمـال الافريقي . ومن ثم تظهر للشرق العربي اهمية المغرب الاقصى اذ صار معبرا للاندلس واصبح القاعدة الحربية الكبرى، فيما وراء الزقاق يمد الفاتحين بما يحتاجون اليه ، ويحمي ظهرهم وهم فى تلك الاصقاع النائية .

والآن ها هو المغرب ينصت الى المشرق وها هو يسمع بانتباه الى تلك الضجة القائمة به بين المذاهب والاحزاب ، وها هي تلك الاحزاب وتلك المذاهب تتلفت حولها فتجد المغرب يفسح صدره لايوائها . فلم يكـن منها الا ان هرعـت اليه تتسابـق نحـوه برجالهـا وتعاليمها . فهذه من الخوارج صفرية واباضية وهذه من المعتزلة واصلية وهذه من الشيعة زيدية . كل هذه وجدت بالمغرب ما كانت تجده بالمشرق وكلها انجبت رجالا اقاموا بالمغرب عروشهـم واسسـوا به دولهـم فجذبوا الشرق نحوهم . فظهرت للمغـرب الاقصـى بذلك مرة اخرى شخصية فذة قلما كانت توازيها على ذلك العهد شخصية اخرى فى تلك البيئى العديدة التي كانت تصطخب بهذه الفرق وتلك النحل .

اجل: لقد انتصرت بها تلك الفرق وكان انتصارها هذا سببا فى اعتدالها ، فالتحمس للمبادىء يشتـد أواره عند الصراع ويزداد تارثا عند الحرمان . فـاذا انتصر انتصارا نهائيا فانه بذلك يخف حمله ويهـدا روعه هدوءا ربما يفضي به الى النسيان ... وكذلك

كان يلجأ الى المغرب من الشرق من استطاع ، بالمغرب ورجاله ، أن يؤسسوا له دولة خارجة مثل الامويين بالاندلس ، او داخلة مثل الادارسة الذين وحدوا البلاد وهيأوا لها حكومة مستقرة ، ودولة لها شأن الدول الكبرى ، فتوجهت اليهم الانظار من الشرق العربي .

اما الفاطميون فقد عادوا الى الشرق العربي واتخذوا به عاصمة ملكهم وسيروا فى معظم البلاد من هذا الشرق مآثر المغرب وبثوا فى جنباته رجالا له . فكانت هذه أول موجة فى التاريخ تمتد من الغرب الى الشرق ، وتستمر طامية فيه زهاء القرنيين من الزمان، طبعته فيهما بطوابع شتى . وما زالت حتى الان فى القاهرة التي ساهم المغرب فى تأسيسها بحظ وافر ابواب تسمى بأسماء اولئك المغاربة النازحين ، ولا نقول الفاتحين . كما انها ما زالت فيها بعض الحارات تسمى بأسماء مغربية . وهكذا نقول فى الازهر الذي بني ببناء القاهرة ، فكان للمغرب فيه نصيب وافر لا يمكن ان ينكر . فهذه الهجرة من المغرب الى المشرق عرفت باديء ذي بدء فى الاسلام . وربما لم تكن فى الحقيقة اول الهجرات اليه وانها كانت هناك هجرات عديدة اليه ، الا يذكرها التاريخ فهي ـ لا محالة ـ واقعة وقوع الهجرات العكسية ، من المشرق الى المغرب . على ان الغالب ما تكون الهجرات من الشرق الى الغرب، كما يحدثنا بذلك التاريخ القديم والوسيط . فهذه الهجرات معروفة من العرب ومن غيرهم ، ولا يهمنا الان الا العربية منها .

وسنرى فيما بعد انها ستكرر فى القرن الخامس بواسطة الهلاليين وغيرهم . فحوادث التاريخ ليست بنات الوقت وانما هناك عوامل راسبات تفعل فعلها دوما وبدون انقطاع ، نعم . ان هذه العوامل قد تختلف فى مظاهرها ، ولكنها على كل حال عوامل لها أثرها من غير شك . فتلك الامارات التي تأسست بالمغرب او عن طريق المغرب أو من المغرب لم تكن صامتة قابعة وانما كانت من غير شك متحركة داعية الى المبدا الذي تقوم بنصرته . وبذلك كانت الهجرة الفردية او الجماعية لا تنقطع من المغرب الى المشرق وبالعكس .

يضاف الى ذلك اولئك الذين كانوا يؤمون من المغاربة الشرق فى طلب العلم او لاداء فريضة الحج فالعلم والحج كان لهما من الآثار الحميدة فى هذا الاتصال ما يفخر به الاسلام ولا تقف فى طريقه عوائق السياسة . وكذلك من ناحية الشرق فقد اتي منه على فجر الاسلام جماعة من المعتزلة الواصلية ، كما أشرنا اليه ، وقد عدهم التاريخ بثلاثين الفا ، ووصفهم صفوان الانصاري وهو محدث عن زعيمهم واصل يقول : « له خلف شعب الصين فى كل ثغرة الى سوسها الاقصى وخلف البرابر » « رجال دعاة لا يفل عزيمهم تهكم جبار ولا كيد ما كر » وقد اختص هؤلاء بامارات فى المغرب الاقصى كما كان لهؤلاء الصفرية دولتهم بسجلماسة ، والكل قائم على فكرة او عقيدة حملها الى المغرب العربي رجال من الشرق العربي .

ومهما يكن ، فان قيام العبيديين بالمغرب ، واتجاهيم الى المشرق برجالهم المغاربة ، كان لكل ذلك أثره القوي فى احكام العلاقة بين المغرب والمشرق ، فوجدنا على هذا العهد بالذات الرحلات تشتد بينهما، كما سنرى .

ولم يكن العباسيون يختلفون عن الفاطميين بالاهتمام بالشمال الافريقي عامة والاندلس ، بعد خروجهما من حظيرة الخلافة بل انهم كانوا يعملون فى الخفاء تارة والعلن اخرى على بث دعوتهم فى هذه الجهات وكسب أنصار لهم أو اقامة امارات وتعضيد اخرى تارة على خصومهم ، ففى الاندلس نجد من اوائل من دعا الى العباسيين اولئك الذين ثاروا على عبد الرحمان الداخل ، من مثل العلاء بن مغيث اليحصبي وعبد الرحمن بن حبيب الفهري ومن أواخرهم محمد بن يوسف ابن هود الثائر على المامون الموحدي . اما الشمال الافريقي فانهم بعد ما يئسوا من الجهات التي تأسست بها دولة الرستميين والادارسة ، وأقاموا دولة الاغالبة كدولة حاجزة بينهم وبين هؤلاء ، توجهوا بنشاطهم الى سجلماسة ، حيث دولة بني مدرار ، التي اعترف جل امرائها بخلافتهم ، بالرغم من كونهم خوارج كما راينا ، وعلى حين لم يجدوا لهم فى الشمال الافريقي جميعه والاندلس ، ميدانا يظهرون فيه ، بتمكن العبيديين والامويين ، لجأوا الى العمل فى الخفاء فأبو القاسم محمد ابن حوقل ، الذي زار المغرب والاندلس فى القرن الرابع ، لم يكن ـ كما قيل ـ الا داعية لبني العباس أو جاسوسا لهم ، وهذا هو السر فى تحامله على الدولة الاموية بالاندلس واستغلال اقلام العلماء ، كان معروفا للعباسيين بصفة خاصة ، وهو ما كان منهم فى النيل من نسب الخصوم الاخرين العبيديين ،

فلما سنحت لهم الفرصة ، للعمل علانية ، وجدناهم في أوائل القرن الخامس ، يؤيدون المعز بن باديس الثائر على العبيديين بافريقية ، فيدعو هذا اخيرا للقائم العباسي ، الذي بعث اليه بخطابه وكتاب عهده، ونشرت الرايات السود .

في هذه الاثناء التي كان فيها الشمال الافريقي مسرحا يتمثل فيه الصراع العبيدي الاموي ، اشتدت الرحلات العلمية بين المغرب والمشرق ، فقد رحل الى المشرق من المغرب الاقصى كثير من علمائه ، مثل عبد الله بن ابراهيم بن محمد الاصيلي ، وموسى بن يحيى الصديني الفاسي ، وجساس الزاهد السجلماسي ، ودراس بن اسماعيل الفاسي ، وخلف بن علي البلوي السبتي ، وعيسى بن سعادة السجلماسي ، وعلي بن سعيد الهواري الفاسي ، وغيرهم كثير ، حملوا من البغداديين وحتى المصريين ، فقه مالك الى المغرب ، واشاعوه الى جانب الاندلسيين به .

أما المشارقة الذين زاروا المغرب الاقصى على ذلك العهد ، فيكفي أن نذكر منهم الجغرافيين ، ابن حوقل صاحب المسالك والممالك كما تقدم ، والمقدسي صاحب احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم .

كانت هذه الرحلات كلها في القرن الرابع : فاذا انتهينا الى القرن الخامس ، فاننا نجد هذا الصراع العبيدي الاموي يهمد بالشمال الافريقي ، وتشتد الرحلات اكثر من ذي قبل بين المغرب والمشرق ، فيكون من المغاربة الذين توجهوا الى المشرق ، الحافظ مروان بن عبد الملك ابن سمجون اللواتي الطنجي ، وعبد الله بن غالب الهمداني السبتي ، وعبد الله بن ابراهيم بن جماح الكتامي السبتي ، ويوسف بن حماد الصدفي السبتي ، وابو القاسم ابن الفلو السبتي ، وابو عمران الفاسي ، والامير يحيى بن ابراهيم الكدالي.

ويهمنا بصفة خاصة ، هذان الاخيران ، فعلى يديهما قدر للعباسيين أن يعم ذكرهم الاندلس والشمال الافريقي عامة ، اذ كان المرابطون من اول قيام دولتهم الى نهايتها . يدعون مثل بني عمهم اصحاب افريقية ، من بني زيري ، لخفاء بني العباس ، ويخطبون بهم ، وينقشون أسماءهم على سكتهم ، ويتخذون شعارهم السواد ، الى غير ذلك من المظاهر العباسية ، فكان المغرب بذلك على اشد ما يكون اتصالا بالشرق ، الا انه اتصال ببغداد ، وليس بالقاهرة كما كان على عهد تبعيته للعبيديين ، اذ كانت الدولة سنية ، عملت فيها بغداد بثقافة رجالها الذين كان على راسهم أبو عمران الفاسي ، فالقصة لم تكن بتلك البساطة التي يقصها علينا التاريخ ، وانما عملت فيها رواسب ، بدأت تتراكم منذ القرن الرابع ، باولئك العلماء الذين تثقفوا في العراق . على الخصوص ، أو تثقفوا بالمالكية على رجال كان منهم المصريون الى جانب اولئك الاندلسيين، الذين مهدوا الراي العام لذلك ، فكانت النتيجة ، قيام هذه الدولة على تلك الرواسب ، التي تتصل بالدين وعقائده ، اكثر مما تتصل بالاجتماع وعوامله .

وقيام الدول بالمغرب على هذه الاسس الدينية ، شيء معهود فيه ، منذ الفتح الاسلامي الى عهدنا هذا، فتلك الامارات التي سبق ذكرها ، من خارجية ومعتزلية وشيعية وسنية ، ثم الاسماعيلية التي نجحت في المغرب بقيام دولتها فيه، تلتها تلك التي كانت تنتمي اليها أو الى السنية الاندلسية الاموية ، او الشيعة الحمودية كذلك ، ثم الدولة الفاطمية السنية المالكية ، ثم الدولة الموحدية المجددة المجتهدة ثم المرينية المالكية المتزمتة ، ثم الوطاسية المجاهدة ، فالسعدية القائمة على فكرة الاحقية لآل البيت في الخلافة ، ثم هذه الامارات والزعامات الدينية ، في الدلائيين والمحليين وغيرهم ، ثم هذه الدولة العلوية ، التي الى جانب علويتها ، ارتكزت على فكرة الجهاد المقدس والاصلاح ، كل هذا يطلعنا على مدى العوامل الدينية في قيام هذه الدولة ، التي ارتبطت بالشرق العربي أيما ارتباط ، وكان العراق ولم يكن مصر خصوصا وان هذه بدات تشن على الشمال الافريقي غارات مدمرة ، بتلك الهجرات العربية التي سلطتها على مملكة بني زيري ، فاكتسحت البلاد وخربت العواصم بطرابلس وتونس ، فنزح عنها رجال الفكر والعلم والادب ، ولجأوا الى الاندلس او المغرب ، فكان منهم مثل ابن رشيق وابن شرف والحصري الضرير وعبد المنعم بن من الله وغيرهم ، وكانت تلك الغارات مخيفة مرعبة ، تذكرنا بغارات الهون المتوحشة ، مما جعل يوسف بن تاشفين يتقيها بالابقاء على دولة بني حماد أصحاب بجاية ، من بني زيري ، حتى تكون هذه الامارة دولة حاجزة بينه وبين هؤلاء المخربين المدمرين، من بني هلال وجشم ، فلا شك ان هذا كان مما يزيد في كره المرابطين لهؤلاء العبيديين ، لدرجة أنهم كانوا يتنكبون في حجهم المرور بمصر العبيدية وكان اتصالهم بالغزالي له دلالته ، اذ كان هذا موضع الثقة والاعتماد من نظام الدولة خصم الاسماعيلية وعدوهم اللدود ،

والذي كان همزة وصل بين السلجوقيين والعباسيين، كما كان الغزالي نفسه صلة وصل بين يوسف وبينهم ولا شك ان المدارس التي عهد بها نظام الملك الى الغزالي ، كانت تقوم بحملاتها على تعاليم الاسماعيلية، مضادة بذلك ما كانت الازهر تقوم به من تدعيم هذه التعاليم . فاتصال يوسف بالغزالي ، وابتهاج هذا به وعزمه الرحلة اليه ، كل ذلك له مغزاه ، الذي يجب ان يدرس ، كما يجب ان يدرس كذلك تحول هؤلاء عنه ، واحراق كتابه تحت ضغط قرطبة وقاضيها ، وتحوله هو عن زيارتهم بعد ما علم بموت يوسف ، ان صح ذلك . . .

ومهما يكن فقد اتصل المغرب الاقصى بالشرق العربي اتصالا وثيقا على عهد المرابطين ، وكان اتصاله سياسيا كما كان علميا ، برحلة العلماء ، واستفتاء يوسف لعلماء المشرق في معضلاته ، وحسبنا ان نذكر من العلماء الذين توجهوا الى الشرق آنذاك ، علي بن عبد الله بن حمود المكناسي الفاسي ، وعبد الله بن تويت الملثم ، واخاه ينتان المتوفى بزبيد ومحمد اليعمري السبتي ، والقاضي عياض ومحمد ابن تومرت على ان الاندلس الان صار يزاحم الشرق في رحلة المغاربة ، خصوصا وان المرابطين كانوا مقبلين على علمائه اقبالا منقطع النظير فكان يوسف وابنه على يطمئنان الى فقهائه وادبائه اطمئنانا تاما ؛ وكان بلاطهما يطفح بهم ، فكان يشبه قصر الرشيد او بني العباس في صدر دولتهم ، كما يقول المراكشي في معجبه .

وكما كان من اولئك العلماء الذين رحلوا الى الشرق، من قامت على يده هذه الدولة ، كذلك كان منهم من قامت على يده دولة اطاحتها وعملت على مخالفتها في كل شيء . لم تكن هذه مالكية مقلدة . بل كانت متحررة ، في ميل الى التشيع احرقت كتب الفروع ، واحيت كتاب الاحياء لم ترتبط بالخلافة العباسية ، وادعت انها صاحبة الخلافة الاسلامية . ونظرت الى الشرق نظرة الشره الى طعام شهي. فقال شاعرها يخاطب ابا يعقوب يوسف بن عبد المومن :

ستملك ارض مصر والعراقا
وتجري نحوك الدنيا استباقا

ثم قال ابنه يعقوب المنصور ، وقد حدث عن مصر ، « نحن ان شاء الله مطهروها » ، ويحلم بالاسكندرية ، فيبني — كما يقال — الرباط على غرارها، ويمدح الشاعر ابنه محمد الناصر ، بقصيدة يقول فيها :

فكيف بمصر والعراق وعندكم
حديث عن استيلائكم غير مظنون

وهكذا كان الموحدون يفكرون في اقامة خلافة اسلامية موحدة ، ويتجهون في الشرق نحو الاتجاه الذي اتخذه الفاطميون فيما قبل فوصلوا الى برقة ، وهناك وجدوا جيوش صلاح الدين فاشتبكوا معها ، في حروب كانت تؤرثها الدولة العباسية ايضا ، اذ كانت هذه قد استمالت اليها ابن غانية ، فبعث اليها هذا بابنه مع كاتبه عبد البر فرسان ، معلنا الطاعة للخليفة الناصر بن المستضيء ، وطالبا الخلع والاعلام السوداء فمنحه الخليفة العباسي لقب امير المسلمين الذي كان العباسيون يمنحونه اسلافه فيما قبل ، وكتب الى صلاح الدين الذي كان آنذاك يدعو لبني العباس ، بان يناصره على خصومه الموحدين .

لقد امتثل صلاح الدين ، فجرد جيشا تحت قيادة قراقوش ، وبوزبا من اتباع تقي الدين بن اخيه، فاتجه هؤلاء صوب افريقية لخوض المعركة ، الى جانب بني غانية ومن معه من الاعراب . فكان ذلك وانتهى بانتصار الموحدين واستسلام جيش صلاح الدين او ابن اخيه . ثم راى الموحدون بصائب نظرهم ان يستغلوا هؤلاء الغز الذين حاربهم بهم صلاح الدين ، فانخرطوا في جيشهم مع قائدهم قراقوش . كما كان اولئك الاعراب قد انخرطوا في جيشهم النظامي ايضا ، وكانت الخطة ان يقفوا بهم في اتون الحروب ، كما سنرى ، ومن قبل وجدنا عبد المومن . وقد واجه هؤلاء العرب ، عند ما قضى على دولة بني حماد . يستميلهم بشاعره الجراوي . الذي كتب اليهم بقصيدة يقول فيها

احاطت بقايا العلا والمفاخر
على قدم الدنيا هلال بن عامر

فاذا ما انتهوا الى المغرب ، بعث بهم الى الاندلس يحاربون هؤلاء المسيحيين من الاسبان ، كما حصل في موقعة انتصروا فيها ، فقال شاعر الدولة الجراوي يخاطب عبد المومن :

لو راء موسى ما فعلت وطارق
زريا بما لهما من الآثار

اتممت ما قد أملوه ففاتهم
من نصر دين الواحد القهار

بعراب خيل فوقهـن أعـارب
من كل مقتحـم على الاخطـار

اكرم بهـن قبائـلا اقلالهـا
فى الحرب يغشيهـا عن الاكثـار

وانظر اذا اصطفت كتائبها الـى
ما تحمد الكتاب فى الأسطـار

لو انها نصـرت عليـا لم تـرد
خيل ابن حرب ساحـة الانبـار

هم اظهروه مع النبي وواجـب
أن يتبعـوا الاظهـار بالاظهـار

اذن كان عبد المومن محتاطا من هؤلاء العرب ، فاستعمل فيهم ما استعمله رجال الاستعمار، من افناء المتخوفين منهم باستغلالهم فى الحروب ، وهذا مـا وجدنا عليه حفيده يعقوب المنصور ، وقد اسكنهـم شواطيء المغرب الاطلسية ، فانه حينما ادركته الوفاة جمع رجال الدولة ، واوصاهم بوصية ، خطيـرة قال فيها عن هؤلاء ، وهؤلاء العرب ، تداورونهم وتلاطفونهم، وتحسنون اليهم ، ومن وفد عليكم منهـم تعطونـه وتحسنون اليه غاية الاحسان ، وتشغلونهم بالحركات، ولا تتركونهم للعطلة والراحات .

والشاهد عندنا فى قوله ، تشغلونهم بالحركات ، ولا تتركونهم للعطلة والراحات ، وفى الاستقصا وغيره، ما يفسر عن هذا التخوف ، بل يظهر الندم ، على اذنه لهم بسكنى المغرب ، اذ ينقـل عن ابن أبـي زرع أن المنصور قال لما حضرته الوفاة ، ما ندمت على شيء فعلته فى خلافتي الا على ثلاث وددت اني لم افعلها ، الاولى ادخال العرب من افريقية الى المغرب ، مع اني اعلم انهم اهل فساد . . . الخ .

اما اولئك الاغزاز الذين انتظموا فى سلك الجندية فقد قال فى حقهم من تلك الوصية ، وهؤلاء أمرنا لهم بهذه البركة ، باخذونها فاتركوها على ما رتبنا وربطنا، لان الموحدين لهم سهام يرجعون اليها ، وليس للاغزاز سهـــام .

وقد ذكر عبد الواحد المراكشي انه فى سنة 83 او 82 يعني بعد الخمس مائة ورد البلاد الغز من مصر وفيهم مملوك يسمى قراقوش ، كان مملوكا لتقي الدين ابن اخي الملك الناصر ، ورجل يسمى شعبان ، من امراء الغز ، ومن أجناد المصريين رجل يعرف بالقاضي عماد الدين فاحسن يعقوب نزلهم ، وجعل لهم مزيـة ظاهرة على الموحدين، اذ كان هؤلاء ياخذون «الجامكية» ثلاث مرات فى السنة ، ولكن « جامكية » الغز كانت فى كل شهر ، وزيادة على ذلك فقد اقطع اعيانهم اقطاعـا كاقطاع الموحدين او أوسع ، ثم وصف شعبان بانـه لطيف الحس ذكي النفس ، حسن المحاضـرة طيـب العشرة ، على حظ عظيم من الادب ، وقدرة فائقة على نقده ، وكان يقرض شيئا من الشعر ، وربما ندرت له الابيات الجيدة .

اذن لم يكن هؤلاء رجال حرب فقط ، بـل كان منهم العلماء ، مثل القاضي عماد الدين المذكور ، ومثل شعبان ، الذي يصفه المراكشي ، وبذلك يكون هؤلاء من روافد الشرق العربي ، كما كان سفير صـلاح الدين الى المنصور الموحدي ، وهو عبد الرحمن بن منقـذ ، الامير الشامي والاديب الشاعر ، الذي مدح المنصور بقصيدة قدمها بين يديه ، فنالت منه الاعجاب ، واثابه عليها بجائزة سنية ، كما كان تقي الدين بن حمويـه السرخسي الخرساني الاصل الدمشقي المولد وشيخ شيوخ دمشق الذي وفد على المنصور وأقام فى المغرب اربع سنوات سجل فى رحلته عنه كثيرا من المعلومات .

وعلى هذا فان الاتصال بالمشرق ، كان قويا على عهد الموحدين ايضا ، كان اتصالا جغرافيا على الحدود المصرية ، واتصالا كذلك بجلب هؤلاء العـرب الذين توقفوا عند افريقية ، واتصالا بهذه الوفود التي كانت تفد عليهم من الشـرق ، ثم بهذه الدعايـة التى كان رجالهم يبثونها لهم بالمشرق ، الى جانب اولئك العلماء الذين توجهوا اليه ، من مثل الشريف الادريسي ، وعبد الواحد المراكشي ، وأبي موسى الجزولـي ، وعلي بن يقظان السبتي الطبيب ، وابي الخطاب عمر بن دحية السبتي ، واخيه عثمان ابي عمرو ،، وابراهيـم بـن يحيى بن حافظ الكناسي وابي زكريا يحيى ابن معط ، وابن الاثير الصنهاجي ، وعبد الرحيـم بن طلحـة الانصاري السبتي ، وعبد الحق بن سليمان القيسي التلمسـاني ويونس بن يوسف الجذمي ، من قصر عبد الكريم ، ومحمد بن ابراهيم البقار الفاسـي ، ومحمد التميمي الفاسي .

كما ورد على المغرب من المشرق ، سوى من ذكر علماء آخرون ، مثل عمر بن مـودود السلماسـي ، ويحيى بن عبد الرحمن القيسي الدمشقـي المعروف بالاصبهاني ، ومحمد بن يحيى الخزرجي المصري .

واذا كنا نهمل من هذه العلاقات ، تلك التي تتمثل في الحجاج المغاربة ، لعدم انحصارها وكونها غير خاصة ببلد دون بلد من العالم الاسلامي، فاننا لا نهمل شيئا ذا بال في هذا الحج ، ذلك انه قد تاسس في عهد الموحدين ، موكب رسمي كانت له ولا شك رسالة متعددة النواحي في هذا الاتصال المستمر. وقد عرف هذا الوفد بالركب الصالحي ، نسبة الى مؤسسه الشيخ ابي محمد صالح المتوفى سنة احدى وثلاثين وست مائة ، وبنيت لهذه الغايات رباطات ينزلها الحجاج من آسفي الى الحجاز ، فيستقبلهم أصحاب الشيخ المكلفون بذلك حتى في مصر والشام ، وبذلك استقر غير واحد من ولد الشيخ بالشرق قيمين على ما فيه من رباطاته ، منهم ابنه عبد العزيز بمصر الى ان توفي بها ، ثم حفيده ابراهيم بن أحمد بالاسكندرية. ثم ولد هذا أحمد ، وقد بقي رباط الاسكندرية ، الى ان نزل به أبو سالم العياشي عام أربع وسبعين والف.

ولما سقطت دولة الموحدين بقيام دولة المرينيين، كان الاتصال بين المغرب الاقصى والمشرق ، مستمرا بنفس الوسائل التي كان عليها ايام الموحدين ، فالدولة تتجه الى الشرق فتصل الى تونس في امتدادها ، والعلاقات تربط بينها وبين المماليك ، وركب الحجاج يشق طريقه في هيئة رسمية ، وغالبا ما يكون موضوع السفارات بين الدولتين ، ثم رحلات العلماء في نشاطها الدائب .

وهكذا وجدنا سفارة ست وثلاثين وسبع مائة ، تتعلق باعلام أبي الحسن المريني الملك الناصر بن قلاوون ، بحركته الى افريقية ثم كانت سفرة سنة سبع وثلاثين ، تتعلق باعلامه انه فتح تلمسان ، وبعد سفارات اخرى ، كانت سفارة سنة تسع وأربعين تتعلق باعلام الملك الصالح انه دخل تونس دخلته الثانية ، اذ كانت الاولى سنة ثمان وأربعين ، وكانت الاتصالات بين المرينيين والمماليك قد بدأت على عهد أبي سعيد والد أبي الحسن ، كما تشير الى ذلك رسالة من الناصر الى أبي الحسن ، وقد تعددت المراسلات والسفارات بين الدولتين الى أن صار حسن ابن الناصر يتخوف كما في الاستقصا من توسع هذه الدولة ، ففتر ما بينهما من صلات ودية ، الا أن ركب الحاج استمر يقوم بمهمته ، وكان في هذه الحقبة ، يضم الركب الفاسي ، والركب السجلماسي ، ومع هذا الاخير دخل الشريف المولى حسن بن قاسم المغرب ، سنة احدى وستين وستمائة ، آتيا من ينبع الحجاز الى سجلماسة ، وهو جد الاشراف السادة العلويين الميامين ملوك المغرب . ولا شك أن دخوله هذا السعيد عنوان حي ومثال قوي لهذا الاتصال الذي تشبث به المغرب ، وحرص جهده على بقائه متينا بالشرق العربي .

اما رحلات العلماء ، فكانت تتمثل في نحو عثمان ابن سعيد بن تولو التينملي ، الاديب الشاعر ، ومحمد ابن ابراهيم المراكشي الملقب بتاج الدين ، الفقيه النحوي ، ومحمد بن أبي بكر القرشي التلمساني، قاضي الجماعة بفاس ، ومحمد بن احمد بن مرزوق التلمساني ومحمد بن عمر ابن رشيد السبتي ، وابراهيم الساحلي الاديب الشاعر ، وأحمد زروق الفاسي ، ومحمد بن محمد العبدري الفاسي ، المعروف بابن الحاج ، ومحمد بن عبد الله اللواتي الطنجي ، المعروف بابن بطوطة ، ومحمد بن ابراهيم الخزرجي التلمساني السبتي، ومحمد بن عمر بن الفتوح التلمساني المكناسي، مدخل مختصر خليل الى المغرب ، ومحمد بن ابراهيم السبتي ابي الطيب ، ومحمد العبدري التلمساني .

وهنا نقف وقفة عند هذا المختصر الفقهي ، الذي الفه بمصر جندي من جنود المماليك البرجية ، فقدر له ان يسود المغرب ، وأن يركز حوله الفقه المالكي به، ويوجه نحوه نشاط الاجيال من الفقهاء طيلة ستة قرون تقريبا .

كان الموحدون قد دعوا الى الاجتهاد ونبذ التقليد ، واحرقوا كتب الفروع ، واستمر الحال على عهدهم ، سائدا فيه هذا النمط من التحرر الفقهي أو الاخذ بالمذهب الظاهري ، كما يرى بعضهم ، الى ان كانت دولة المرينيين التي قضت على هذه الحركة المباركة ، ورجعت بالناس الى مذهب مالك ، ويظهر أن رجوع هؤلاء الى المذهب المالكي ، كان رجوعا متحررا ايضا ، لم يلتزم فيه الوقوف عند الفروع وحدها، ولا تثبيت النظر في المذهب دون غيره من المذاهب الاخرى ، ويصح أن نلتمس نموذجا من ذلك في كتاب القوانين لابن جزي الكلبي ، الذي كان على اتصال بأبي الحسن المريني ، فانه زاد « في قوانين الاحكام الشرعية ، ومسائل الفروع الفقهية ، على مذهب امام المدينة ... التنبيه على كثير من الاتفاق ، والاختلاف الذي بين الامام المسمى ، وبين الامام ابي عبد الله بن ادريس الشافعي ، والامام أبي حنيفة النعمان بن ثابت والامام ابي عبد الله احمد بن حنبل ... (و) غيرهم من ايمة المسلمين كسفيان الثوري ، والحسن البصري،

وعبد الله بن المبارك ، واسحاق بن راهوية ، وأبي ثور النخعي ، وداوود بن علي امام الظاهرية ... والليث بن سعد وسعيد بن المسيب ، والاوزاعي وغيرهم ... (فقد) جمع الكتاب بين تمهيد المذهب، وذكر الخلاف العالي » .

هكذا كان موقف الدولة ، في الرجوع بالناس الى المذهب المالكي ، موقفا فيه كثير من التحرر والسمو، ولم يكن الاندلس آنذاك يختلف عن المغرب ، لكن بعد الكارثة التي اصيب بها اسطول ابي الحسن بمياه تونس ، وكان فيها كثير من العلماء الاعلام ، تقلص ظل الفقه بالمغرب ، كما صار الاندلس ، كذلك يصاب بكوارث تلو اخرى ، فيصاب في علمائه الذين كان من اوائلهم والد ابي جزى ، ومن أواخرهم والد ابن الخطيب فكانت النتيجة ، ان توجه المغرب بكليته الى كتب الفروع بالشرق ، فصاروا يتقاون منها المختصرات فكان لمختصر خليل الفوز الذي لا نظير له ، كما انكب الناس على كتب الاجاهرة من شراحه ، مهما جعل علماء افريقية يعيبوننا بذلك ، وكتب الشيخ مصطفى الرمامي الى الشيخ علي بركة التطواني ، ينعي عليه وعلى أمثاله من المتكفين على كتب الاجاهرة المصريين .

ومهما يكن فان مختصر خليل ما ظهر بالمغرب في أواخر القرن الثامن او اوائل التاسع حتى وجه نحوه الانظار والهمم ، وشرحه في هذا القرن من رجالنا، أبو عبد الله محمد ابن غازي المكناسي ، والقوري الفاسي ، واعتنى تلميذه أبو الحسن الزقاق بمسائله، وفي القرن العاشر ، شرحه أحمد بابا الصنهاجي السوداني ، ووضع عليه حاشيته ، ابو زكرياء يحيى ابن محمد السراج ، وفي القرن الحادي عشر ، شرحه عبد الواحد ابن عاشر ، وأبو حامد محمد العربي الفاسي ، واختصر أبو عبد الله محمد ميارة شرح الحطاب ، على هذا المختصر ، وفي القرن الحادي عشر ايضا ، شرحه أبو علي بن رحال في ستة عشر مجلدا ، ووضع على شرح الخرشي المصري له حاشية، وفي القرن الثاني عشر ، شرحه احمد بن عبد العزيز الهلالي ، شرحا وافيا ، لكنه لم يكمله ، ووضع أبو عبد الله محمد بن الحسن بناني على شرح الزرقاني ، حاشية قيمة ، كما وضع عليه أبو عبد الله محمد التاودي حاشية أخرى ، كما وضع ابو عبد الله محمد الحايك التطواني ، حاشية على شرح المواق الغرناطي للمختصر المذكور ، والف في اعرابه مؤلفا يقع في اربعة مجلدات، وذلك في اواخر هذا القرن او أوائل القرن

الثالث عشر ، ووضع معاصره محمد الرهوني حاشية عامة على شروح المختصر ، أبان فيها عن تحقيق لمسائلها ، ثم اختصر هذه الحاشية في اواخر هذا القرن ، ابو عبد الله محمد كنون ، ووضع معاصره محمد المهدي ابن الطالب ، حاشية على شرح الخرشي المذكور ، واستمر الاعتناء بمختصر خليل وشروحه المصريين وغيرهم الى عهدنا هذا ، فادركنا ممن شرحوه في القرن الرابع عشر ابا العباس احمد الرهوني التطواني ، كما ادركنا حفظته القائمين على تلاوته بجوامع المساجد ، يتقاضون على تلاوتهم تلك مرتبات اضعاف التي يتقاضاها التالون لكتاب الله بمساجد المغرب ، كما كان اسمه لا يذكر الا مقرونا بالسيادة ، وما زلنا نرى اخوة يسيد بعضهم لا لشيء الا لان اسمه خليل ، تكريما لخليل كما يكرم بها اسم محمد ، من اجل النبي عليه السلام .

نعود الى استعراضنا لهذه العلاقة بين المغرب والمشرق . فنجدها ، وقد دالت دولة ببني مرين فبني وطاس ، تستمر على عهد السعديين ، الذين انفسهم اتوا الى المغرب من المشرق ، اذ كان اهل درعة الوا بجدهم المولى زيدان بن احمد من الحجاز في اواخر القرن السابع او اوائل الثامن ، تبركا به كما يقال ، فتكون دولتهم ثانية الدول العلوية التي تأسست بالمغرب الاقصى .

وبالرغم من كون الاتراك كانوا قد سدوا عليها طريقها نحو الشرق ، مما جعلها تتجه نحو الجنوب ، فانها كانت على علاقة معه ، خصوصا ايام احمد المنصور الذي كانت له صلات بمصر والشام وكان يكاتب السادة البكريين ، فراجت بينه وبينهم بعوث ومكاتبات، كانت الغاية منها قبل كل شيء سياسية ، اذ كان يحاول فيها أن يعترفوا له بالاحقية في الخلافة باعتباره من آل البيت ، دون الخلافة العثمانية القائمة ، وقد كانت له آمال يريد ان يحققها بالشرق ، كما تشير الى ذلك القصائد التي كان يمدح بها ، من رجال بلاطه بالخصوص ، وكما يفهم ايضا من وثائق دبلوماسية .

اما القصائد ، فهذا ابو علي الحسن المسفيوي يقول من قصيدة في المنصور ، بمناسبة افتتاحه السودان :

فما دون درب الشام الا التفاتة —
وما دون بغداد الفراق سوى فتر

ويقول من اخرى :

فكان بمصر اعتاض من بعد المدى
من «جوهر» بحسام باسك «جوذر»

فلسوف يطوي مغربا ومشارقا
ويزور دجلة والفرات بعسكر

ويقول محمد بن علي الفشتالي ، بهذه المناسبة ايضا :

منحتك ابكار الليالي وصالها
حتى تنال بها كبير مؤمل

وتضيف ملك مشارق لمغارب
عفوا كنظم جنوبها والشمال

ويقول محمد الهوزالي ، فيها كذلك :

لئن اسلمت ارض الجنوب مقادها
فعن كثب تلقي مقاليدها مصر

وتزور زوراء العراق فتهتدي
الكم واعناق العدا خضع صعر

وتخفق بالوادي المقدس راية
عليك وتلوي فيه الوية حمر

الى غير ذلك من الاشعار التي نجد معظمها ، في كتاب منهل الصفا ، لعبد العزيز الفشتالي ، وفيها نجدهم يصرحون بالاحقية في الخلافة ، كما نجد العلوية وفكرة المهدي منها واضحة ، مثلا نجد عبد العزيز المذكور يقول من قصيدة :

بني المهدي انتم للبرايا
شموس لا يعارضها افول

واقرب ما لكم في الغيب ملك
الى عيسى ابن مريم لا يزول

ويقول من اخرى :

يروي عن المنصور فيها محمد
ما اسدته الى « الوصي » مناسب

ومن الطقوس التي كانت معروفة عند العلوية ، في المشرق كما عرفت عند بني حمود منهم في المغرب ، مخاطبة الملوك لغيرهم من وراء حجاب ، وقد كان هؤلاء يفعلون ذلك ، وعلى راسهم احمد المنصور . كما يذكر ذلك في قصته مع احمد بابا السوداني .

ومن الوثائق الدبلوماسية ما نجد فيها المنصور يطلب من البزايث ان تحمل سفنها بعض رجاله الى حلب ، وكان افراد هذه السفارة من الحجاج، والتجار الحذاق ، وعلى راسهم بعض كتاب القصر ، وكان السعديون يستغلون هؤلاء الحجاج ، في مهمتهم السياسية والدبلوماسية ، وقد اسسوا لهم ركبا رسميا هو الركب المراكشي ، وكان المنصور بالخصوص يهتم به غاية الاهتمام ، ويوصي به امراء الحرمين ، ومن رسائله في ذلك رسالة كتب بها الى امير مكة ابي المحاسن حسن بن ابي نمي يوصيه بركب من ركابه ، وبأميره الحاج محمد بن عبد القادر ، الذي وصفه في الرسالة بالمرابط الخير ، وطلب من شريف مكة ان يتوجه تجاه البيت الحرام ، بالدعاء الى الله بان يسهل عليه فتح الاندلس .

وعلى عهد هذه الدولة ، زار كثير من علمائنا المشرق ، منهم احمد بن القاضي المكناسي ، وابو محمد سقين العاصمي ، وعبد الواحد بن عاشر ، وابو عبد الله محمد بن احمد اليسيتني ، واحمد ابو محلي القائم ، ومحمد الدلائي المرابط ومحمد الرافعي ، ومنهم من استقر بالمشرق ، مثل ابي العباس احمد المقري ، الذي الف به موسوعته العظيمة ، نفح الطيب، وكتابه ازهار الرياض به .

ولما كانت دولة العلويين الشريفة استمر الاتجاه الى الشرق ، على ما كان عليه ايام السعديين وكانت العائلة نفسها اتت من الشرق كما تقدم ، فتكون بذلك ثالثة الدول الثلاث من العائلات الهاشمية ، التي اسست دولها بالمغرب الاقصى . واذا كان منصور السعديين يحاول ان يتصل بالشرق عن طريق الدبلوماسية والدعاية ، فان اسماعيل هذه الدولة ، حاول ذلك في صراحة وعلانية ، الا انه لم يوفق كذلك..

وقد قلنا ان ركب الحاج الرسمي ، كان يقوم الى جانب اداء فريضته ، بوظيفة دبلوماسية كما رأينا في العهد السعدي ، وكذلك نجد هذه الدولة تهتم بهذا الوفد ايما اهتمام ، ولاول مرة نجد الامراء من ابناء الملوك يذهبون فيه ، فقد ذهب على عهد المولى سليمان، ثلاثة اولاد له ، هم الامراء : ابراهيم وعمر وعلي ، وذهب على عهد المولى عبد الرحمن اولاده الامراء ، الرشيد وسليمان وعلي وابراهيم وعبد الله وجعفر وابن عم لهم ، كما وجدنا من قبلهم المولى اليزيد بن محمد بن عبد الله قد ذهب الى الشرق ، على عهد ابيه ، ويجتمع بوفده في الحجاز ، ولما تخلى المولى عبد الحفيظ ، كان الشرق من البلاد التي زارها ، واخيرا زار الشرق وطاف في ربوعه ، الملك الراحل

محمد الخامس، قدس الله روحه ، كما زاره ملكنا الحسن الثاني نصره الله ، مرارا وهو ولي العهد ثم ملكا ، وتناول العاهلان فيه درس الشؤون الاسلامية والعربية ، بما لا تزال تتحدث عنه المحافل ، وهو مسجل في صفحات المجد والفخار وبمداد الخلود والقرار .

والى جانب هذا الركب وتلك الزيارات الملكية ، نجد هذه الدولة . قد سنت سنة حسنة ببعثت البعوث العلمية الى الشرق ، لقد كان ذلك من المولى محمد بن عبد الرحمن وابنه المولى الحسن ، بالرغم من كون الفرنسيين ، كانوا قد قطعوا السبيل ، بين المغرب والشرق باحتلالهم للجزائر ، الا ان البحر كان قد اتخذ سبيلا الى هذا الاتصال ، بالرغم مما كان اصحابه يتعرضون له من انواع القرصنة .

أما رحلة العلماء فانها كانت على نحو ما سبقها ، ونجد من اولئك الذين زاروا المشرق ، الحسن اليوسي ، وابا سالم العياشي ، ومحمد بن سليمان الروداني ، ومحمد بن الطيب الصميلي ، وأبا عبد الله محمد بن ناصر الدرعي ، وابا العباس احمد بن ناصر، وابن الطيب اللغوي ، وابا عبد الله التاودي ، زيادة على ما كانوا يذهبون في الركب ، مثل المهدي بن سودة واخيه احمد ، او كانوا من البعوث المذكورة كاحمد شهبون ، ومحمد ابن كيران الفاسي من بعثة محمد بن عبد الرحمن الى مصر ، وعبد السلام العلمي ، من بعثة ابنه مولاي الحسن اليها . وقد كانت مراسلات رائجة بين المغرب ومصر ، على عهد محمد بن عبد الرحمن من جهة وسعيد باشا والخديوي اسماعيل من جهة اخرى، كما كان هناك تمثيل دبلوماسي بينهما .

وقد ادركنا من العلماء الاعلام الذين اخذوا العلم عن المشرق ، العلامة الحافظ نادرة العصر ، ابو شعيب الدكالي ، وكان من اساتذته بمصر الشيخ محمد عبده ، المصلح الذي كان له الفضل الاكبر ، في النهضة الفكرية بالمغرب ، والشمال الافريقي عامة ، فما من مفكر متحرر من قيود الجمود والتقليد الاعمى، الا وللشيخ عبده منة عظيمة عليه ، فهو رائد اولئك الرواد الذين ساروا بأمتهم نحو الحرية والاستقلال ، اذ لم تكن تقم الوطنية في رعيلها الاول الا صراعا بين الاسلام والمسيحية ، التي جرت على المسلمين وسلبتهم ديارهم واموالهم وهددتهم في عقيدتهم ، وأرادت ان تفرق شملهم ، فكان الجهاد المقدس اولا بالسلاح ، ثم الجهاد الذي انطلقت شرارته الاولى ، حينما صدر الظهير البربري ، فقاد اولئك المتحررون المتشبعون بافكار عبده ، هذه الامة المغربية قيادة دينية في المساجد بالدعاء ب (يالطيف) والخطب الدينية التي كانت تلقى بتلك المساجد ايضا ، ثم الحملات التي جردها هؤلاء على الاستعمار ، وهي لا تعتمد الا على الدين الاسلامي، الذي ارادت فرنسا أن تسدد نحوه ضرباتها بالمغرب . كان ذلك في النشرات السرية ، والكتابة في الصحف ، الصحف المصرية ، وعلى راسها جريدة الفتح ، التي لا ينسى فضلها وجهادها الاجاحد .

هذا ما كان من حيث الاصلاح الديني ، الذي تركزت فيه كل دعائم النهضة عندنا ، والتحرر من قيود العبودية في بلادنا ، وكان علينا ان نبين وان نكتب، داعين الى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، فما وجدنا مقوما لنا ومسددا في خطواتنا ، ومطلقا لعقدة لساننا ومسيلا لمداد أقلامنا ، الا مصطفى لطفي المنفلوطي في نظراته ورواياته ، هذه حقيقة يدركها القوم ويعترف بها المنصفون ، والى جانب عبده والمنفلوطي ، او بين هذين ، كان يقف الطنطاوي وبيده تفسيره الجواهر يتلوه علينا ، فيستهوينا ويسحرنا ، بل يشجع الضعفاء منا على مطالعة التفاسير في الوقت الذي كانت هناك بقية من العلماء ، الذين ينهون عن قراءة التفسير ، او ينهون عن فهم القرآن الكريم بقولهم « صوابه خطأ وخطأه كفر » .

نعم عرفنا هؤلاء واحببناهم حبا جما قبل أن يعرف الوطنيون منا مصطفى كامل أو سعد زغلول ، أو غيرهما من قادة الوطنية التي لا تكتسي كساء الدين الكثيف ، ولا تتدرع بالدرع الحصين ، لتحارب عدوها المسيحي الغاصب الفاتك ، لقد كان على زعمائنا وقادتنا ان يتحلو بالخلق الديني ، لدرجة أن صاروا يمشون مشية النبي عليه السلام ، فينحطون فيها ، « كأنهم ينحطون من صبب » ، وهاهم الآن يعيشون معنا ، وقد غيروا مشيتهم ، فلم يعودوا ينحطون من صبب، كما غيروا في افكارهم واساليبهم ، بحسب الظروف ، التي نحمد الله عليها ، كما نحمد للشرق عامة ومصر خاصة تلك الايادي البيضاء التي اسديت الينا ، فكانت أيديا سوداء على الاستعمار ورجاله الذين خنقوا بها ، فصاروا جيفا وان كانوا من الاحياء.

والان ما ذا نقول ، في علاقة المغرب الاقصى بالشرق العربي ؟

انه من لغو الكلام أن نتعرض الى هذه العلاقة بذكر ، او نحاول أن نصفها بوصف ، او نحدها بحدود ونحصرها بحصر ، فلقد تعددت الصلات وتشابكت ، واتجهت القلوب واتحدت العقول ، وتشاربت الاذواق، وتزاحمت المناكب ، وعملت الايدي ، وارتفعت الاصوات من كل جانب ، فرجعت الاصداء صدى واحدا ، في كلمة واحدة طيبة ، « أصلها ثابت وفرعها في السماء » فها هي البعوث الى الشرق ومنه الى الغرب لا تنقطع، وها هو نشاط المغرب والمشرق ، يعمل معا في كل ميدان ولغاية واحدة، لا تمليها المصالح ، بقدر ما تمليها العواطف ، فسياستنا مختلفة عن سياسة غيرنا من الاقوياء ، الذين يتوددون للشعوب ، توددا خادعا شرها تمليه المصلحة المجردة ولا شيء بعد ذلك ، فهي الرائد وهي الحادي ، وهي المحور الذي تدور عليه ، سياستهم المصلحية النفعية الاثرية . أما نحن ، فان اهملنا قلوبنا فلن تجدينا عقولنا مهما حاولنا ان نتخلص من تلك القلوب ، فهي التى اتت بالثمرة المباركة، وهي التى لا تزال تأتي بهذه الثمرة ، ما دمنا على ود واخاء، غير مغترين بغيرنا ونحن لسنا كغيرنا ، فنكون بذلك كالبغاث المستنسر .. لا قدر الله ..

ان ثقتنا بالشرق ثقة تلقائية ، وتقليدنا اياه تقليدا لا شعوري ، وما قلدنا الغرب ، الا لان الشرق قلده ، فكان تقليدنا له تقليدا للشرق في واقع الامر ، فلا نخدع انفسنا ، ونكن من المفتونين في امرنا ، فالذمم عامرة باليقين ، والمواثيق غليظة ، والمصير محفوف بالاخطار، وقوى الشر تواطأت علينا ، من اعداء الاسلام والعروبة، فلا نكن من الغافلين ، ولا ننخدع بالاباطيل والاكاذيب، فلا كرامة ما لم تصن كرامة الاسلام في مشارق الارض ومغاربها ، ولا امان لنا ولا ضمان ما لم يكن للعروبة امانها وضمانها .

فالامل ما زال معقودا على ملوك الاسلام ورؤسائه، وعلى قادة العرب وابطال التحرير « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم اعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخوانا ، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها ، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون » صدق الله العظيم .

كان قول الله هذا ، هو الشعار الذي رفع على منصة الخطابة بمؤتمر القمة العربي وقد ضم ملوك العرب ورؤسائهم وانعقد برئاسة ملكنا الهمام ، ايده الله ونصره ، فكان لذلك دلالته وكان له تعبيره الصادق ، عن تشبث المغرب بهذا الدين مضمونا وشكلا بعد ما انعقد على ذلك المستوى وبتلك الرياسة الرشيدة مؤتمر القمة الاسلامي ، وكذلك هذا المغرب بحمد الله لا يفرق بين العقيدة والعروبة ، ولا يرفع باحدي يديه هذه ويلقي بالاخرى راية تلك ، وهي محمدة من محامده ، جعلته دائما متعلقا بهذا الشرق حادبا عليه لدرجة ان وجدنا محمد بن عبد الله ، يبلغ به هذا الحب ان يخطب للخليفة العثماني ، والخلافة في رمقها الاخير ، ويبعث بأساطيله وامواله السخية لتأييدها وتثبيت أقدامها ، كما كان لا يقطع امرا يتصل بالدين الا وهو يشاور فيه علماء الاسلام بالشرق بعد أن يشاور فيه علماءه بالغرب ، فيكتب الى مصر بما هو معروف في حياة هذا الملك العظيم واصلاحه الشامل لجميع مرافق الحياة بالبلاد .

فلا غرو ان يكون ملكنا بهذا الروح الذى يتنفس بالعروبة والاسلام وبهذا العزم الذي عقده على نصرتها ورفع رايتهما عالية خفاقة .

تطوان ـ محمد بن تاويت

من وحي عيد العرش :

في عواصم المجد ...

تحية إلى بلادي العظيمة

للشاعر : المدني الحمراوي

مدخـــل :

يا بلادي اليك الف تحية — تتفشى ربوعك الذهبية
وبد الله يا بلادي توالي — فيك ابداعها وانت رضيه
كل ما فيك يا بلادي جميل — وثمين ؛ فأنت ـ حقا ـ سنيه
فيك من جنة السماء مثال — يتجلى بكل نعمى شهيه
فى الربى ، فى الجبال ، فى كل مرج — فى الصحاري ، وفى السهول السويه
حول غاباتك الحوالم والانـ — ـهار ، فى كل وهدة وثنيه
فى سماء كزرقة البحر ؛ فى الفجـ — ـر ، وفى كل ضحوة وعشيه
فى جمال الغروب ، فى ساحل البحـ — ـر ، وفى كل غادة عربيه
فى نداء من الصوامع يمحو — كل هم من كل نفس زكيه
انت اصفى من بسمة الأم فى وجـ — ـه صبي لها ووجه صبيه
انت بشرى السلام فى هذه الار — ض واحلى من متعة الامنيه
انت من اجلك الطيور تغني — والسواقي بنغمة ازليه
وبك الشمس لم تزل فى غرام — تتناجى به رباك البهيه
وعيون النجوم فى كل ليل — تتملى نقاعك العنبريه
وتدلي على سنابلك الخضـ — ـر خيوطا رقيقة فضيه
وثلوج الجبال فيك شعار — قدسي وحلية ملكيه
وبواحاتك النخيل عذارى — اسكرتها انفاسك المسكيه
وظباء الفلا بحسنك هامت — فى صحاريك والرمال النقيه

واذا نامت العيون واسدى ... حالك البدر حلة لؤلؤيه :
اخذ الاطلس المسامر يملي ... من اقاصيصه عليك بقيه
هو يملي وانت اذن الى ان ... يطفىء الصبح شمعة قمريه
فتعودان من زمان سحيق ... غاب في لجة القرون الخفيه
حيث ارواح من مضوا من جدود ... قد اشارت اليكما بالتحيه

* * *

كل ما فيك يا بلادي يصلي ... لتعيشي ولا تراك بليه
بارك الله فيك يا ارض قومي ... يا ربى السحر في رحاب نديه
يا سفوح الالهام يا واحة الشعـ ... ـر ويا كرمة الحياة السخيه
انت في غمرة الحياة عزائي ... انت ذخري وثروتي الابديه
انت محراب امنياتي ومغنى ... ذكرياتي ، وخلوتي السحريه
انت سر الحياة بين ضلوعي ... كل حين يزيدني حيويه
فاسلمي يا رفيقتي يا ربوعي ... لك حبي ؛ والحب خير هديه

مشرق النور والحضارة (فاس)

مشرق النور والحضارة فاس ... يا لنور زها به النبراس !
مدد من هدى كريم وبشرى ... لبلادي كانها اعراس
مسحت وجهها بكف سلام ... وامان لها به ايناس
المثنى ادريس احيى وابقى ... امة تحتها استقر الأساس
يد ادريس بارك الله فيها ... غرست امة قطاب الغراس
اشعل النور من كتاب مبين ... فاستمدت من نوره اقباس
واضاءت جوانب الارض حتى ... ظهر الحق ليس فيه التباس
ملل الشرك والسفاهة ولت ... ودهاها بعد الغنى افلاس
واستدارت على البلاد سريعا ... ملة طهرت بها الأرجاس
اشرقت في سمائنا كالأماني ... اقبلت بعد ما استبد الايأس
ملة الحق والهدى والتآخي ... سعدت امة بذاك تساس
خطوة بشرت بيمن كريم ... ومعال فخارها مياس
وذرت في ديارنا نفحات ... واريجا زكت به الأنفاس
ومشينا وراءها فبلغنا ... ذروة العز فاقتفتنا اناس
وحملنا امانة الحق صدقا ... شرعة الله ؛ انها القسطاس

فملكنـــا كمـــا نشـــاء وكـنـــا لشعوب الجهاد ــ فضلا ــ نقـــاس
ففتحنا ممالـــك الغــرب حتـــى سكتت من « أذاننا » « أجراس »
وأتتنـــا ملوكهـــا فـــى خضـــوع وعليهـــم من الهـــوان لبـــاس
وبنينـــا حضـــارة قـــد وعاهـــا كـــل رق وضمهـــا قرطـــاس
ونظامـــا يفـــوق كـــل نظـــام له من منبـــع الكتـــاب انبجـــاس

※ ※ ※

يا لفضل به استقلـــت وفاقـــت واستطالـــت وطوقتنـــا فـــاس
سطرهـــا فى كتابنـــا أولـــي به ــ يمنـــا ــ تبركـــت اطـــراس
بـــدأت سيرنـــا فكـــان حميـــدا فى طريـــق يحوطـــه استئنـــاس
قادت الركب فى طريـــق أميـــن وبهيـــــج عبيـــــه ورد وآس
والمنـــارات حولـــه هـــاديـــات موكبا لـــم يـــزغ بـــه الابـــلاس
ورعـــت فـــاس ديننـــا ودنانـــا وحمانـــا فحولهـــا الحـــراس
قارعوا العلـــم فى مبـــاءة فكـــر هـــم بحـــار بصحنهـــا جـــلاس
جامع بـــث فى الربـــوع ضيـــاء نافس الشمس نـــوره الحســـاس
فزهـــت فاس بالحضـــارة حتـــى حكـــم الدهـــر انهـــا المقيـــاس
غرس ادريـــس اخصبتـــه ايـــاد من « مرين » وصانه « وطـــاس »

مهـــب الفيالـــق (مراكـــش)

تلك مراكـــش مهـــب الفيالـــق ودوي الطبول مثـــل الصواعـــق
زحفت كالسحاب نحـــو شمـــال واستدارت على تخوم المشـــارق
غطت البـــر والحـــار وســـارت فى شعاب وفى حلوق المضايـــق
ثم عادت وفى السلاسل اسـرى من ملـــوك وقـــادة وخلائـــق
تحت شمس الفتوح والنصر عادت واللواء العظيـــم بالعـــز خافـــق
دولة المجـــد والجهـــاد تحـــدت من وراء البحار تاج « الجلالـــق »
ثم القتـــه فى التـــراب مهينـــا يوم « زلاقة » وفـــوق المزالـــق
ولـــواء الصليـــب لطـــخ عـــارا وسما فوقـــه هـــلال الخـــوارق
وبنى يوسف العظيـــم صروحـــا من معال بكـــل سهـــل وحالـــق
دولة بالجهـــاد احيـــت شعـــارا احمديا وكافحـــت كـــل مـــارق
ثم القت زمامهـــا بعـــد حيـــن فى يد « الكوميين » أهل الحقائق
واسـود الحروب فى كـــل صقـــع ودعاة الحجـــى سقـــاة الروائـــق

لهم « الأرك » مفخر ليس يبلى ... ومبان مشيدات سوامق
وتواريخ مشرقات طوال ... بهرت كل وامق ومشاقق

* * *

هذه دولة السعود اطلت ... بغتة ثم اخرست كل ناعق
صدت الترك ثم صدت جرادا ... من فرنج اتوا بنقمة ماحق
هب عبد الملك ليثا هصورا ... واخوه المنصور صقر الخوافق
وعلى ضفة « المخازن » صارت ... مهج الحقد طعمة للحرائق
فبكت دولة الصليب طويلا ... وغدا « دون » عبرة للبطارق

* * *

يا لمجد به استبدت قديما ... يد مراكش ـ وثيق الوثائق
دار ملك عروشها قاهرات ... وسيوف الجهاد فيها بوارق
وكنوز الحجى ومجد اثيل ... لم يزل عاطرا اغن الحدائق
ورنين الفخار من كل فج ... وقصور بالمكرمات نواطق
وعقول تنام تحت ثراها ... وابن بنائها المثال المطابق
انت مراكش العظيمة مجدا ... وجلالا ، وانت تاج المفارق
ومع المجد والحضارة حسن ... فى ثراك الحبيب حلو وشائق
فالبساتين يمنها مستفيض ... والسواقي تمتصهن الحدائق
والضواحي ضواحك الثغر سكرى ... والنخيل البهيج فى الجو باسق
والصبايا عيونهن سهام ... فاتكات والسحر بالنطق عالق
لم تر العين مثل حسنك حسنا ... مثلما المجد شامخ فيك شاهق

صولة الانقاذ (مكناس)

حي مكناس حي عرشا ودارا ... بعثت امة واحيت فخارا
عرش اسماعيل العظيم عظيم ... صرع الخطب صولة وانتصارا
جمع الامة الشتيت بعزم ... هاشمي فصار فيها شعارا
شق كالفجر ظلمة ضل فيها ... ركب شعب وهيل خوفا وحارا
واستباحت دياره نكبات ... ولصوص مغامرون نصارى
فاطلت من الصحاري صقور ... واسود يزلزلون القفارا
اسرة « الداخل » الشريف نمتهم ... طاب عرق قد انتج الاحرارا

اخـوة بـرزوا ولا كرشيـد   وابى النصـر همـة واقتـدارا
علويـون نجـدة وعروقـا   شـرف فـاق رفعـة ونجـارا
انقـذوا امـة وكانـت تعانـي   قبـل راياتهـم اسـى ودمـارا
بزغـوا فى سمائهـا امنيـات   بعد ما ملـت النفـوس انتظـارا
فاعـادوا امانـة العـز فيهـا   وازاحـوا تحيفـا وضـرارا
عزمات الرشيد وحـدت الشعـ   ـب ورصت على قرار جـدارا
واتته المعالـي صفـوا سراعـا   واطـالـت لـواءه استبشـارا
ثم وافى فحلـق الصقـر حتـى   قطـع الجـو كلـه فاستـدارا
وطوى الارض تحت عرش مهيـب   شامخ طبـق الزمـان اشتهـارا
عرش اسماعيل الذي عرف الدهـ   ـر له فى ذرى السحاب قـرارا
صولة ارهبـت عـدوا واحيـت   من شعار الجهاد عهـدا تـوارى
فاعادت الى الحمـى كـل ثغـر   كان يحتلـه العـدو اقتسـارا
سطوات بها ابو النصـر احيـى   أملا كـاد يستحيـل اندثـارا
وبها صد زحـف شـرك حقـود   وبهـا انقـذ البـلاد ابتـدارا

* * *

بورك الفتح ، بوركـت معجـزات   ومعـال بهـا تتيـه افتخـارا
جعلتها مكنـاس تاجـا وعقـدا   ووشاحـا وحلـة وسـوارا
لها فى تاريـخ البطولـة كنـز   به ضنـت فامسكتـه ادخـارا
لك منا مكنـاس حـب مكيـن   واعتراف بمـا صنعـت ابتكـارا
وبما فيـك مـن مآثـر تزهـو   انت اغنـى بطولـة وازدهـارا
بد بانيك ابدعـت فيـك حتـى   لم تـدع آيـة تفـوق اعتبـارا
من قصـور ومن مبـان فخـام   وقبـاب تزاحـم الاسـوارا
وجنـان مياهـا دافقـات   وحقول قـد غطـت الاقطـارا
وبزرهون تلـت اسعـد حـظ   طاب ادريـس للمجـاور جـارا

المنطلـق الجديـد (رباط الفتح

حيى عرشـا وقـل الأركانـا   ايهـا العـز والتـزم اذعانـا
ان تكـن للعلـى محبا فخيـم   واتخـذ من ربـاط فتح مكانـا
ها هنا عرشنـا العظيـم مقيـم   يصنع المجـد همـة وافتنانـا
تتعالـى بهمـة الحسـن الثـا   ني له صولـة تـروع الزمانـا
عبقـري مسـدد وامـام   علـوي قـد زلـزل الطغيانـا
واعـاد الحمـى كريمـا امينـا   يوم وافى ابـا وعـاف الهوانـا

اضرم الشعب غضبة وحماسا فتنادى الى الفدى اعلانا
ملحمات لم يعرف الدهر يوما اخوات لها دهت أوطانا
قد فدتنا من غاشم ظل يبغي فى حمانا ويسلب السلطانا
وأعيدت لعرشنا حرمات وبلغنا كما عزمنا منانا
وبناها محمد من جديد دولة حرة تصون الكيانا
ثم ولى فشمر الحسن الشهـ ـم وابدى اصالة ومرانا
واتم البناء شبرا فشبرا ثم أعلى وشيد الاركانا
ومضى يبدع المآثر حتى بلغ الغاية التي لا تدانى
فرأيناه رائدا عربيا واماما يناصر القرآنا
فمنحناه حبنا كل حب ووقفنا وراءه بنيانا
ووهبناه كيف شاء قلوبا خافقات بحبه تتفانى
قد بلغنا بجهده كل قصد وبلغنا من العلاء رضانا
ولبسنا من الفخار برودا زاهيات تداعب الاعيانا
وسمعنا من الزمان ثناء مستفيضا يشنف الآذانا
وفخرنا به الأنام جميعا وسبقنا به فنلنا الرهانا
ببطل قاد شعبه بإباء وبروح تشرف الانسانا
عرفته الرباط قائد جيل واميرا ومالكا فى حمانا
ربط الحاضر الكريم بماض كان مجدا موحد الأزمانا
وتلقى امانة العز ارثا وكفاحا فحاط سرا وصانا

* * *

يا رباط الفتوح منذ قرون فتحك اليوم حير الأذهانا
قد رأيناك للتحرر دارا وفتوح التحرير اعظم شانا
منك هبت سيادة وانطلاق قد بداناه كي نفوت سوانا
حسن فخرك العظيم فردد ذكره وحده ودع « حسانا »
عرشه فى حماك كنز ثمين كعبة العز رصصت بنيانا

طلائع الجيل الجديد (من كل الجهات)

هذه من شباب شعبي طلائع قادت الركب فى غمار المعامع
حملت مشعل الجهاد وسارت نحو فجر على العروبة ساطع
تتحدى مكايد الشر عزما وسموما من اليهود نواقع

وتحث الخطى على جبهة الدهـ — ـر وتبني معاقلا ومصانع
وتناجي العلى وترتادها في — كليات وفي رحاب الجوامع
وحقول ومعمل ومطار — وشطوط ، وفي صحارى بلاقع
في قنان الجبال في كل سهل — واسع ، في معسكرات روائع
حركات الحياة في كل شبر — وضجيج البناء في كل شارع
وصداع مع التخلف شبت — له فينا معارك ووقائع
امة شقت الطريق كفاحا — في سباق زحامه متدافع
مثل موج البحار هبت وكالسيـ — ـل وكالرعد قاصفا والزوابع
اقسمت ان تعيش في كل يوم — حرة ، والحمى عزيز ورائع
وتعيد الزمان صفوا كريما — مثلما كان والثغور الضوائع
وتنادي مفاخر الاطلس الحـ — ـر وتحيي لها عهودا سواطع
يوم كانت سفوحه عتبات — لعروش لها العروش خواضع
ومهب الغزاة فوجا ففوجا — ومصير الفتوح من كل شاسع
انه المجد من تراث قديم — سوف يبقى لشعبنا خير دافع
وسيبقى له شعارا عزيزا — وضياء يضيء كل المطالع
وسيبقى لكل جيل جديد — شرفا يقتني وخير الودائع
هو تاريخنا يمازج دينا — عرفته الحياة خير الشرائع
هو طاقاتنا امدت بروح — حاضرا فانبرى يحوك البدائع
تلك امجادنا توحد شعبا — أعلن الحق في نداء الصوامع
دعوة الحق في كتاب كريم — جمعت شملنا فما له صادع
بارك الله وحدة ورعاها — ليس فيها تنافر وقواطع
باسمه لم تزل تسدد شعبا — رفعت شأنه فما له واضع
منحة الفاتحين من خير قوم — ارسلوا النور في ركاب « ابن نافع »
واتانا ادريس بعده يدعو — فأجبنا دعاءه لم نمانع
بلسان القرآن خاطب شعبا — فوعى وارتوى بأصفى المنابع
وبنى الله وحدة صار فيها — شعبنا رائدا بكل المواضع
عربيا كتابه عربي — كل طب سواه ليس بناجع

ختـــام :

امة وعرش يفرضان وجودهما

يا زمان استمع فهذا نداء — رددته الأزمان والارجاء

نحن شعب القت على الارض نورا ... وجمالا أيامه الغراء
نحن والعرش توامان كلانا ... له من صنو ذاته ما يشاء
نتحدى امجادنا قسوة الدهـ ... ـر ولا نسلم الحمى اذ نساء
شهد الناس اننا امة تحـ ... ـمي حماها واننا اوفياء
انما المجد ظلنا منذ كانت ... ارضنا هذه وهذي السماء
دهرنا في الزمان عطر ونور ... وجلال وهيبة وعلاء
هذه السن التواريخ تحكي ... عن علانا ما يرتضيه الثناء
كل نصر تعجب الدهر منه ... كل فضل كأنه انواء
كل مجد ورفعة واعتزاز ... كل فخر له صدى واعتلاء
شرف هز جانب الارض حتى ... أيقن الدهر انه الدهياء
وتغنت به العصور نشيدا ... اطرب المشرقين منه الغناء
فاسأل « الأرك » و « الزلاقة » عنا ... تـأت بالحق منهما انباء
واسألن وادي « المخازن » لما ... اضرمت غارة به شعواء
ضعضع الارض جيشنا فاذ هـ ... ـب أظلته قبة غبراء
وركضنا على البحار سفينا ... كالرواسي يظلهن اللواء
موكب سارت العدالة فيه ... والمعالي وسار فيه الوفاء
ورعته العقول بالفكر حتى ... أمرعت في جنابه النعماء
وتدلت عليه من دوحة الفـ ... ـن غصون اريجة خضراء
كبرت حوله ملائكة النصـ ... ـر وسرت شريعة بيضاء
ربط الغرب بالمشارق حبا ... وامتدادا فتم ذاك الاخاء
هذه الارض كلها عرفتنا ... يوم ثرنا وشب فينا الفداء
وانتقمنا لعرشنا وحمانا ... من بغاة اطغتهم الكبرياء
فاذقنا مستعمرينا خطوبا ... الهبتها المعارك الحمراء
طار من هولها صواب الأعادي ... ودهتهم مخافة نكراء
اسكرتهم احلامهم فاستفاقوا ... يوم ثرنا فكان منهم جلاء
وتنادوا الى الرحيل وقالوا : ... ان بقينا اتى علينا الفناء
هذه امة لها العز جار ... والمعالي حليفة والبقاء
لا يرى غير حتفه من تعادي ... ولو اشتد بأسه والغناء
رضعت في لبانها عزة النفـ ... ـس فقرت وخالطتها الدماء

الرباط : المدني الحمراوي

ما هي المناسبة الوطنية ؟؟

للأستاذ عبد العلي الوزاني

المناسبات الوطنية بالنسبة للشعوب فرص لتاكيد شخصية الامة ، وابراز ذاتيتها ، على الوجه الذي تراه لائقا بموضعها من التاريخ ، ومكانتها من حضارة الانسان . ولذلك فهي تنتهزها — اي تلك الفرص — لتاكيد تضامنها ووحدتها ، وشيوع روح الاخوة بين ابنائها ، تحديا منها لكل عوامل التباعد والتنافر التي لا تخلو منها حياة اي شعب من الشعوب. فكاني بالاحتفالات الوطنية الكبرى ابدعها العقل الجماعي لمقاومة عوامل الفرقة التي تفرق بين الآحاد والجماعات ، من جراء تضارب المصالح ، واختلاف مناحي التفكير . فعلى راس كل سنة او بضع سنوات، ياتي الاحتفال بمناسبة ما لتهب الامة مزيدا من القدرة على الصمود امام المشاكل التي تقف في مواجهتها ، وتدفع بها دفعا نحو التمسك بالمثل العليا ، التي ترتفع فوق المصالح الخاصة ، والاتجاهات المتعارضة. وعلى هذا فالمهرجانات الوطنية من سنن الاجتماع البشري ، الذي تتجاوز فيه عادة عوامل الالفة والتضامن ، وعوامل الفرقة والتباعد ، بل ان الامر يتعلق بناموس من ادق نواميس الطبيعة . وهو وجود الوحدة والتعدد معا ، بالنسبة لجميع الكائنات الحية والجامدة . كما انها — اي تلك المهرجانات — بمثابة دفاع عن النفس ، ضد عوامل التفسخ السياسية والاجتماعية والطائفية وغيرها . فالجماعة اذ تحتفل بمناسبة ما تكون معنى احتفالها ، كونها تدافع عن ذاتيتها وتمد لها في اسباب البقاء والاستمرار . ومن خصائص العقل الجماعي انه يصهر في بوتقته الاختلافات الفردية والاجتماعية ولو الى حين ، عندما يهب متحمسا لعمل كبير ، اذ يعطي الافراد والجماعات فرصة للاستراحة من عناء الصراع اليومي الذي لا يرحم ، ويزودهم بطاقة روحية عالية ، بواسطتها يتغلبون على ما في نفوسهم من ضعف ، الا ان الحياة لا تلبث ان تعيد سيرتها الاولى بعد حين ، ومع ذلك فالاحتفال الشعبي يترك رواسبه في اعماق نفسية الجماعة ، تكون ضمانة لكي تهب متحدة ، وتقف وقفة رجل واحد متى تعرضت لخطر داخلي او خارجي ، متأثرة بدوافع الاخوة الوطنية الاخرى ، التي تاتي من شتى المصادر، كوحدة اللغة والدين والتاريخ والآمال وما الى هذا .

هذا مع العلم بان المهرجانات الوطنية من وسائل الشعوب في تربية نشئها الصاعد ، على التمسك بالمثل العليا للجماعة ، وتقديس معتقداتها ومبادئها وعاداتها المتوارثة خلفا عن سلف . فهي نوع من التربية غير المباشرة وغير المقصودة ، تاخذ بها الجماعة افرادها ، قصد صياغتهم على نحو يضمن استمرار شخصيتها ، اذ ان شخصية الامة يجب ان تبقى على مر الايام ، ورغم تقلبات الاحداث والظروف . وهي لا تبقى الا اذا كانت الاجيال المتعاقبة تتوارث فيما بينها مبادىء الامة ومعتقداتها ، تصونها وتدافع عنها ، ويسلمها بعضها الى بعض نقية خالصة ، لا تشوبها شائبة من ضعف . الا ان الاجيال لا يمكن ان تفي لمناسباتها التاريخية الكبرى ، الا اذا كانت هذه المناسبات متطورة مستجيبة لعقلية كل جيل ومفاهيمه الاساسية في الحياة ، بحيث يبقى هيكل المناسبة راسخا ثابتا ، ولكن محتوياته ما تفتأ متغيرة على مر العصور ، طالما كانت الامة متطورة في تفكيرها وعلاقاتها الاجتماعية ونظمها الاقتصادية ، الامر الذي يجعل من غير المعقول ان تعطى للمناسبة نفس المعاني التي كانت تعطى لها منذ عشرات السنين ، فلا بد ان يحدث تطور في المفاهيم ، مع الاحتفاظ بالهيكل العام ،والمبادىء الاساسية . وجدير بالذكر ان تغير تلك المفاهيم ، يحتاج فيما يحتاج اليه ، الى عمل رجال الفكر والتربية

على ذلك بجميع الوسائل الممكنة ، وبالاخص وسائل الاعلام ، كالصحافة والاذاعة والتلفزة . ولأضرب على ذلك مثالا من امثلة كثيرة : ان الامة المغربية تحتفل اليوم بعيد العرش ، كما احتفلت به في مناسبات عديدة ماضية ، الا ان احتفالها اليوم ينبغي ان يتضمن من المفاهيم ، ما يساير الوضع الذي اصبحت الامة اليوم تعيش عليه ، وقد مرت على استقلالها عدة سنوات . فالاحتفال به قبل اليوم ، كان في ظل الكفاح من اجل التحرر الوطني ، اما الاحتفال به اليوم ، فهو في ظل التمتع بنعمة الاستقلال بالفعل ، وبناء المغرب الجديد، الذي يستفيد من امكانيات الحياة الاستقلالية. فالمبدأ العام واحد ، ولكن المفاهيم المندرجة تحته تتغير وتتبدل ، بتغير وتبدل حياة الامة وتفكيرها . ولا بد ان يسير عنصرا التغير والثبات جنبا الى جنب.

وتقاس قيمة المناسبات بمدى الاثر الذي تركه الحادث الذي ترمز اليه ، في تاريخ الامة ، سواء من الوجهة الدينية او السياسية او الاجتماعية او العسكرية او من هذه الوجهات جميعا . فهناك في تاريخ كل جماعة احداث لم يكن لها اثر موقت ، وانما استمرت آثارها تؤثر على الامة في تطورها عبر العصور والاجيال ، وهي الاحداث التي يحتفل بذكراها ، وينظر اليها على انها اعياد وطنية كبيرة ، تشارك فيها جميع طبقات الشعب . واحسن المناسبات حظا من تقديس الجماعة واحترامها ، ذلك الحادث الذي صنعته بأيديها ، أو تم ابداعه بتدبير من نخبة ابناء الامة ، وصادف عند المجموع هوى ملائما فنزل منه منزل الرضى والقبول . وهنا نرى ان ما تصنعه الجماعة لا ينفصل عما يصنعه القائد ، او تصنعه النخبة ، فجماعة بدون قائد لا بد ان تضل الطريق ، ولا تحسن استغلال امكانياتها الذاتية ، وقائد بدون جماعة لا يستطيع ان يصنع شيئا، لانه يفتقر حينئذ الى المادة البشرية الصالحة لان يصوغها كما يريد . وقد لا يكون الحادث من صنع الجماعة كلها ، اي بعمل كل فرد من افرادها ، وانما يكون من صنع الطليعة ، فلا يعني ذلك ان الجماعة بقيت بمعزل عن صنع الحادث ، وانما يكون معناه ان تلك الطليعة اذ صنعت الحادث ، عبرت عن ارادة الجماعة ، وبلورت احلامها، وجسمت تطلعاتها . ولا يمكن ان تستجيب اي جماعة لحادث صنعته الطليعة ، الا اذا كان يتفق واهدافها وآمالها وتطلعاتها . فالطليعة بما تهيأ لها من وضوح في الرؤيا ، وقدرة على التصميم ، وحسن تدبير للامور، تستطيع ان تصنع ما تعجز الجماهير عن صناعته تلقائيا ، اذ هي لا تتيسر لها تلك الوسائل الضرورية. فعند ما تصنع الطليعة الحادث ، انما تسترشد بروح الجماعة ، وتستلهم آمالها وتعبر عن عقلها الباطن .

وقيمة كل حادث هام ، يخلد كمناسبة وطنية ، مستمدة من الظروف والمناسبات التي ظهر فيها . بحيث لو انه حدث في ظروف اخرى ، لما كانت له نفس القيمة التي تهيأت له وسط ظروفه وملابساته التاريخية المواتية . وليس هناك حادث يستمد قيمته من نفسه ، مجردا عن عوامل الزمان والمكان . فحتى الاحداث الخارقة للعادة ، التي تتم بتدبير الارادة الالهية وحدها ، تخضع لهذا الاعتبار . ادرس تاريخ ظهور الانبياء والرسل ، تر ان ليس هناك رسول لم يظهر في الوقت المناسب . الا ان الحادث الهام البعيد الاثر في حياة الامة ، لا تزول قيمته بزوال اسباب ظهوره ، وظروفه وملابساته ، وانما تتجدد قيمته على توالي العصور والاجيال ، مع بقاء عنصر الثبات فيه . واذا كان التاريخ يعيد نفسه بتجدد الاسباب التي سبق لها ان ادت الى نتائج معينة ، فان اسباب تقديس الحادث قد تبعث من جديد ، بعد ان كان من المظنون انها ذهبت الى غير رجعة . وحينئذ لا تحتاج الجماعة سوى الى احياء ذلك الحادث القديم ، بتعميم الوعي به ، والسير على هديه ، واخذ العبرة منه ، اذ ترى فيه ما يغنيها عن القيام باحداث حدث مثله ، لانه غني بالدروس والعبر ، يساير تطور الجماعة وتبدل اوضاعها المختلفة . خذ لذلك مثلا (البعث الاسلامي) فان الاسباب التي ادت الى ظهور الاسلام ، وتبليغ دعوته الى كافة البشر ، من فساد في الارض ، وانهيار في القيم ، وانحلال في الضمائر ، وتفشي المنكرات ، وتسلط الخرافة على العقول والنفوس ، وما الى ذلك كلها توجد في عالم اليوم ، مما يتطلب (بعثا اسلاميا) يعيد صفحة مشرقة في الماضي البعيد ، ويجعل المسلمين يدعون الى دينهم بنفس الروح القديمة ، ونفس الاصرار على احلال الاسلام محل الجاهلية التي تعيش عليها البشرية اليوم . والتاريخ يعيد نفسه في صور واشكال متنوعة ، وهو يحتاج دائما الى الوعي به وبتحولاته ، حتى اذا أعاد نفسه ، عرف الناس كيف يستغلونه ، ويستفيدون منه على الوجه المطلوب . وهذه هي فائدة دراسة التاريخ . اخذ للعبرة ، واستفادة من الاخطاء ، وتجنب للمزالق .

وتختلف المناسبات في حظوظها من اهل كل عصر، وكل جيل . فقد تكون مناسبة ماجية في عصر ، ولكنها تصبح هزيلة في عصر آخر ، ثم تعيد سيرتها الاولى .

وهكذا ما تفتأ مختلفة الحظوظ ، على توالي العصور والاجيال . وذلك راجع قبل كل شيء ، الى استعداد كل جيل للانفعال بالمناسبة ، اما لكونها تتفق مصالحه العامة ، او لان العصر صاحبه من الاحداث ما يتفق مع روح تلك المناسبة ومضمونها . وقد تختفي مناسبة ما حتى ليظن انها قد ماتت ، اذا بها تبرز من جديد ، لسبب من الاسباب .

والمناسبات التي تعيد الى ذاكرة الناس احداثا تاريخية هامة ، انواع . فهناك المناسبة الدينية ، والمناسبة السياسية ، والمناسبة العسكرية ، والمناسبة العلمية ، والمناسبة التي تضم بين حناياها شتى هذه المناسبات ، وهذه نادرة . ويصح القول بان المناسبة الوحيدة فى تاريخنا القومي التي تجمع بين كل هذه النواحي ، هي تلك التي نتذكر فيها حادث ظهور الاسلام ، لان هذا الحادث بدل حياة العرب من جميع نواحيها الدينية والسياسية والاجتماعية والعسكرية والثقافية وغيرها .

والامة قد يكون تاريخها حافلا بالمناسبات على اختلاف انواعها ، ولا يخلو تاريخ امة من تنوع فى المناسبات ، ذلك لان تاريخ كل امة هو تاريخها الديني والاقتصادي ، والسياسي والاجتماعي والعسكري ، والثقافي . وكل مجال من هذه المجالات ، لابد ان يتمخض عن حدث له اهميته واعتباره النسبيان . وهي لا تحتفل بكل المناسبات التي تذكرها باحداثها البارزة بدرجة واحدة فى الاهتمام . فهي غالبا ما تفضل مناسبة على أخرى ، متأثرة فى ذلك بظروفها الحاضرة ، واتجاهها الحالي بين امم العصر . فهي اذا كانت ذات طابع ديني تهتم فى الدرجة الاولى بمناسباتها الدينية ، فاذا كانت ذات طابع عسكري حربي أولت اهتمامها الاول لمناسباتها العسكرية ، وكذا قل بالنسبة لمواقفها من باقي المناسبات . وقد تكون الامة ذات اتجاه ما ، فيقع فيها من الاحداث ما يبدل اتجاهها ، ويغير من مناسباتها ومقائيسها فى تقييم الاحداث ، فاذا مناسبات تختفي من حياتها ، لتحل محلها مناسبات جديدة تنسجم واتجاهها الجديد ، حتى اذا كتب لها ان تعود الى وضعها السابق ، عادت اليها مناسباتها القديمة ، وهكذا دواليك . وليس هذا وحده هو الذي يؤثر فى ايثار الامة مناسبة على اخرى ، بل هناك دواعي اخرى تدعوها الى ذلك ، منها نوع المستقبل الذي تريد ان تصنعه ، وتأثرها بأحوال العصر ، وعلاقاتها الدولية وما الى ذلك . وقد تكون الامة مستعمرة من طرف امة اخرى ، فتحول بينها وبين الاحتفال الحر ، بمناسباتها التاريخية ، وانما تحيط الاحتفال بأشد القيود ، كما كان الاستعمار يعمل فى بلادنا ، كلما اتت مناسبة عيد العرش المغربي . ولكن الامة تتحدى حينئذ سلطة المستعمر وارادته ، ولا يزيدها بغضه للمناسبات الوطنية التي تظهر فيها ارادة الامة ، الا تشبثا بها ، وتفانيا فى محبتها . فاذا هي ادركت تحررها الوطني ، زاولت احتفالاتها الوطنية بكامل الحرية ، الا ان ذلك الحماس الذي كان يصاحبها نكاية فى المستعمر ، قد يصيبه شيء من الفتور وهبوط فى درجة الحرارة ، وحينئذ تحتاج الجماهير الى التوعية اللازمة ، والتربية الوطنية ، للاحتفاظ بالحماس الوطني قويا مشعا ضاربا أروع الامثلة فى الغيرة الوطنية والايمان القومي.

الا ان الملاحظ ان الامة التي تدين بالتبعية الحضارية لغيرها من الامم التي تتخذها مثلا اعلى ، وترى حضارتها مثالا يحتذى ، فتنسلخ من شخصيتها، لتستعير شخصية الامة التي هي ظل من ظلالها ، يكون من شأنها ان تهمل احداثها التاريخية الهامة ، ومناسباتها الوطنية البارزة، لتتخذ من مناسبات الاجانب مناسبات لها، ومن احداثهم احداثها، مدفوعة بعقدة النقص الكامنة فى نفسها . وبذلك تكون قد اضاعت مكانتها من التاريخ ، واتخذت وضعا لا يسمح لها بأن تكون ذات نفع للحضارة الانسانية .

على أن هناك الاحداث الانسانية العامة ، ذات الاثر البعيد المدى فى حياة الانسانية كلها ، لا فى حياة شعب دون آخر ، وذلك كتأسيس هيئة الامم المتحدة، واعلان ميثاق حقوق الانسان ، واتخاذ عيد عالمي للشغل ، وغيرها من الاحداث الخالدة . فهذه الاحداث كلما عادت ذكرياتها تشمل البشرية كلها ، ولا تخص قوما دون قوم . وان الحق يقتضيني القول بأن هذه المناسبات العالمية قد اصاب مدلولها كثير من الزيف،ونال مغازيها غير قليل من المسخ والتشويه، ولم تبق لها تلك الاشراقة ، وذلك الصفاء الذي كان لها من قبل . وذلك نتيجة لتغلب الشعوب القوية على الشعوب الضعيفة ، وتحكم سياسة العنف ، في حل المشاكل الدولية ، وخرق ميثاق حقوق الانسان المستمر،من طرف المغامرين من العسكريين والسياسيين، دون ان تستطيع هيئة الامم وضع حد لذلك . ولكن مع هذا فالامل ما زال معقودا على هذه المنظمة ، ان تسترجع هيبتها فى النفوس ، وذلك باحلال العدل محل الظلم ، والسلم محل الحرب ، والتصالح محل التخاصم والمساواة بين الشعوب محل سياسة الغاب .

هذا وان من مصلحة البشرية ان تحافظ على

احياء المناسبات الانسانية العامة ، لكونها تقوم في المجتمع الدولي ، بنفس الدور الذي تقوم به المناسبات الوطنية المحلية داخل وطن من الاوطان ، اذ تبث روح الاخوة ، وتقاوم عوامل الفرقة ، وتذكر الانسانية بوحدتها التاريخية ومصيرها المشترك . والسبيل الى جعل الانسانية كلها تحترم المناسبات العامة وتقدسها ، هو احترام حق الشعوب في تقرير مصيرها ، وتنفيذ القرارات الدولية ، والوقوف على قدم المساواة مع الدول الصغيرة ، داخل الهيئات الدولية . وبغير ذلك ستبقى الشعوب المغلوبة على امرها ، تتشكك كثيرا في قيمة المناسبات الدولية الهامة .

وتعود الى المناسبات الوطنية المحلية ، لننظر اليها من زاوية اخرى . فمن المعلوم ان كل مناسبة وطنية تتكون من حيث صلتها بالمحتفلين بها من عنصرين اساسيين : عنصر عاطفي ، وعنصر فكري عقلي . اى انها ترتكز على شحنة هائلة من العواطف الشعبية الجماهيرية ، تهبها الحرارة اللازمة لبقائها واستمرارها ، وهذه الشحنة يصيبها نوع من الخذر ، الى ان تاتي المناسبة مرة اخرى فتستثار تلك الشحنة من جديد ، تاثرا بالجو النفسي والاجتماعي الذي يحيط بالمناسبة ، ويعطيها اطارها العاطفي الشعبي . كما انها – اى المناسبة – ترتكز على اساس آخر ، هو العنصر الفكري العقلي الذي يعني مجموعة من الافكار والنظريات التي هي فلسفة المناسبة وجوهرها العقلي الواقف الى جانب ذلك الجوهر العاطفي ، والمتعاون معه على جعلها متماسكة قادرة على البقاء . ولئن كان عنصرها العاطفي تلقائيا وتدخل في صنعه عوامل غير ارادية ، اذ انه يتكون تحت تاثير ما يحيط بالمناسبة من قداسة ، وما يصاحبها من ملابسات ، وما ترمز اليه من احداث لها في قلب كل مواطن مكانة محترمة عزيزة ، فان عنصرها العقلي انما يكون من ابداع الطبقة المفكرة من الامة ، فهي التي تتولى بما اوتيت من قدرة على الاستنباط والبحث ، تأمل المناسبة لاستخراج مضامينها ومغازيها ، قصد تجليتها ووضع فلسفة لها ، تكون في مجموعها ما يصح تسميته بثقافة المناسبة . ثم انها – اى تلك الطبقة المفكرة – قد تستطيع تعميم الفائدة في هذا الصدد ، فتبسط ما توصلت اليه من نظريات للمجموع ، ومن ثم لا يبقى العنصر العاطفي للمناسبة لدى الجماهير غامضا ، وانما يصبح معتمدا على ذلك العنصر العقلي الذي يسنده ، ويعطي الدليل على احقية الشعور به بحيث يتجاور التعاطف التلقائي والاقتناع العقلي جنبا الى جنب لدى الجماهير .

ومع اقتناعي بأن العنصرين معا ضروريان لكل مناسبة ، بحيث لا يمكن تصور مناسبة بدون اى واحد منهما ، فاني اعطي الاولوية والمكانة الاولى للعنصر العاطفي التلقائي ، وذلك لسبب واضح ، وهو ان مجال التضليل والانحراف وسوء التوجيه في الناحية العقلية ، اوسع منه في المجال العاطفي ، اذ العاطفة بطيئة التغير ، وتتصف بالنفس الطويل ، اما الافكار والمحاكمات العقلية فهي ما تفتا متبدلة متغيرة . وما من حجة او راي ، الا ويقف في مواجهته ما يناقضه ، وتكاد لا تجد فكرة لا تتصدى لها فكرة اخرى لتهدمها وتقف على انقاضها . لذلك ارى ان العنصر العاطفي هو الاساس الاول ، الذي يجب ان تعتمد عليه المناسبات الوطنية . الا ان هذا لا يعني مطلقا ان من الممكن الاستغناء عن فلسفة المناسبة ، وانما يعني الحذر من اعطاء جانبها العقلي الفلسفي مكانة جانبها العاطفي ، والحذر من جعل المناسبات الوطنية بين يدي النظريات والمغالطات الفكرية الكثيرة المضللة .

هذا مع العلم بان اعمال الفكر في الجانب العقلي الفلسفي للمناسبة عمل فردي ، وليس عملا جماعيا . اى ان الجماعة عندما تكون منغمسة في المناسبة ، ممتلئة بأمجادها ومفاخرها ، غارقة في انفعالاتها من فرع الراس الى اخمص القدم ، لا يتاتى لها حينئذ ان تفكر ذلك التفكير المنطقي الهادىء ، وانما يتاتى ذلك عندما يرجع كل فرد منها الى نفسه او الى بعض صحبه ، ليتامل ويفكر . فالجماعة عندما تتحمس لعمل ما تحكمها العواطف ، ولا يحكمها العقل المنطقي الهادىء . الا ان الاقتناع العقلي من شانه اذا وجد ان يقف وراء العواطف المتأججة ، ليذكي جذوتها ، ويهبها الوقود اللازم ، ويدفع بها نحو التالق ، وان بطريقة عفوية غير مباشرة . والعنصر العاطفي للمناسبة يكون رصيدها الروحي المتنقل عبر العصور والاجيال ، اما عنصرها العقلي الفلسفي فيكون رصيدها الثقافي الذي يدخل ضمن الحضارة الفكرية للامة ويصبح تراثا قوميا له آثاره القوية على مختلف اجيال الامة التي تتلقاه ضمن ما تتلقاه من ثقافة قومية شاملة . ويندرج تحت كلية ذينك العنصرين عناصر اخرى ثانوية تدخل في التركيب النفسي للمناسبة ، وذلك كالعنصر الديني والعنصر السياسي ، والتعصب القومي وما الى ذلك .

والجماهير من طبيعتها ان تاخذ المناسبة ككل ، فهي لا تقف هذه الوقفة التي وقفناها لتحل المناسبة الى العناصر النفسية التي تتكون منها ، وانما تاخذها بمجموعها ، دون تفرقة بين عنصر وآخر من عناصر

وجودها ، مع انفعالها فى الوقت نفسه بمجموع تلك العناصر ، وتجاوبها معها بكيفية تلقائية لا دخل للارادة فيها .

وتختلف المناسبات من حيث تقدم احد عنصريها على الآخر فى الوجود . فهناك المناسبة الوطنية التي ابتكرتها الجماعة ، كانت محدودة فى الرقعة التي تشغلها من الحياة الاجتماعية اول الامر ، ولكنها لم تلبث ان انتشرت هنا وهناك ، الى ان عمت المجتمع كله ، واخيرا فرضت نفسها على رجال الفكر ، فحملوا ادواتهم واخذوا يحللونها ، ويستخلصون منها العبر والدروس . وهناك المناسبة التي كانت من ابداع نخبة من رجال الفكر والسياسة فى الامة ، اقتنعوا بها ، واخذوا ينشرون فكرة عنها بين الناس ، بشتى الوسائل ، مستخدمين اسلوب الدعاية نفسه ، لانه يكون العامل الهام الحاسم لدى الجماهير ، عندما تكون هذه الجماهير ليست على جانب مهم من التكوين الثقافي ، او هي جاهلة بالمرة ، ذلك ان العبرة ها هنا بالنتيجة المتوخاة ، وهي جعل جماهير الشعب كلها تقدس المناسبة ، وتنتبه لها كلما جاءت بوجدانها الاجتماعي . هناك كانت المناسبة وليدة الشعور ، وهنا جاءت وليدة الفكرة . وما مناسبة الاحتفال بعيد العرش المغربي الا من هذا القبيل . فالفكرة كانت من ابتكار بعض رجال الوطنية المغربية ، ولكنها انتشرت بعد ذلك ، واصبحت شعورا جماعيا لدى كل المغاربة بفضل ما قام به اولئك من جهود لتعميم الفكرة ، ونشر الاحساس بها . وكانت مواقف العرش المجيدة الخالدة ، تدعم هذا الاحساس وتعمقه ، وتحصنه .

وهنا يلاحظ ان الاقتناع العقلي اذا كان مسبوقا بالاساس العاطفي يكون سهلا ميسورا ، اذ يصادف عند الناس استعدادا خاصا للخضوع للمنطق ، دون مقاومة من عقولهم او صدور التحدي عنها لما يساق اليها من حجج وادلة عقلية . فرغم ما يصدع به الباحثون رؤوسنا من ان الاقتناع امر عقلي صرف ، لا دخل للعاطفة فيه ، فالحقيقة هي ان العقل متأثر فى احكامه بالعاطفة ما في ذلك شك . ولكن يكون من الصعب توليد العاطفة عن طريق الفكرة ، بعد ان لم تكن موجودة من قبل ، ذلك ان العاطفة تحتاج فى توليدها وترسيخها الى عمل شاق طويل من اجل ذلك . وعندنا الدليل على ذلك من حادث ظهور الاسلام . فالحادث فى بدء امره كان فكرة سماوية دعا اليها الرسول الكريم ، واحتاج الى تضحيات جسيمة ليتولد من الفكرة السماوية شعور عام بقدسية الرسالة ، وسمو الدعوة . ولكن لما عم هذا الشعور ، وانتشر بين مجموعات كبيرة من العرب ، ودعا النبي الى فكرة الجهاد دفاعا عن النفس ، وتمكينا للاسلام من الارض ، جاء الاقتناع بها سريعا ، نظرا لاعتمادها على شعور سابق لها ، ينسجم معها ، ويمهد لها السبيل ، ومن ثم كانت الانطلاقة الكبرى فى حركة الجهاد التي بدات بالغزوات وانتهت بالفتوح الاسلامية فى بلاد فارس وسوريا ومصر وغيرها .

والجماعة اذ تندفع نحو مناسبة ما تتأثر بالعوامل التالية : تتأثر اولا بمدى النجاح الذي خلفه الحادث المحتفل بمناسبته ، بالنسبة لاوضاعها العامة ، وباعتبار ما استطاع الحادث ان يجلب لها من نفع ، ويدفع عنها من ضر ، وان يعطيها من مكاسب ، ويجنبها من مزالق . وهنا تكون المناسبة المحببة الى نفسية الجماهير اكثر من غيرها هي اكثر المناسبات نفعا للجماعة واحفلها بالفائدة ، بينما تكون اقلها شأنا تلك التي لم تحقق لها الا اقل الفوائد واهزلها . وهنا لا بد من دفع شبهة قد تخطر ببال القارىء فتشوش عليه وضوح الفكرة واستقامتها . نعم قد يتساءل القارىء هكذا : واين تركنا المناسبات الوطنية الحزينة، التي لا تصاحبها الزينات والحفلات الضاحكة ، وانما يصاحبها الاسى وحشود الآلام والاحزان ؟ هل هذه هي الاخرى ذات نفع للجماعة ، نظرا لما ترمز اليه من حادث ؟ والجواب ان نعم ، فالاحتفال بذكرى الشهداء مثلا ولو كان مناسبة حزينة ، الا انه احتفال بما استطاع هؤلاء الشهداء تقديمه للامة من روائع التضحيات ، وما تصبو ه من امثلة حية للنبل والشهامة والبطولة . هذا اذا نحن فرضنا ان النتائج العملية لجهودهم ما زالت لم تظهر بعد ، اما اذا ظهرت بالفعل وعم الانتفاع بها فحينئذ نرى – الى جانب ما قدموه فضلهم على نجاح الفكرة التي ضحوا من اجلها بحياتهم ، ونعمتهم على الاحياء المتمتعين بثمرات نضالهم المضني . واذن ففكرة المنفعة لم تتحرك من موضعها من هذه القضية . كما انها تتأثر بعامل تفاؤلها بالحادث الذي ترمي اليه المناسبة وتذكر به ، بناء على ما رافقه من يمن الطالع . والشعوب ولو ادركت اليوم قسطا هاما من الثقافة ، لم تتجرد لحد الآن عن بعض المعتقدات الخرافية ، التي ما زالت مستحوذة على نفسية الجماعات والآحاد ، ولم يفد اى منطق فى اقناعها بالعدول عنها وابطال سحرها . فلعل لذلك علاقة بالغرائز الاساسية فى نفسية الانسان . وتتأثر ايضا بالنزعة الغالبة عليها . فهناك فرق بين جماعة روحية النزعة ، وجماعة مادية النزعة ، فاذا كانت الاولى تولي الاحداث والمناسبات الدينية كل اهتمامها ، فان

الثانية لا تعيرها نفس الاهتمام . وتتأثـر كذلـك بأنظمتها الاقتصادية والسياسية والاجتماعية وعقائدها الموروثـة .

والطبقة المفكرة اذ تفلسف المناسبة تتأثر هي الاخرى بعدة عوامل . منها انها تكون الطليعة الثقافية للامة ، فواجبها يحتم عليها ان تقوم بدور التوجيـه والامساك بعجلة القيادة الفكرية قصد تبصير الجماهير بحقائق حياتها ، والقضايا التي تؤثر في مشاعرهـا . ومنها انها بحكم تكوينها اليها تنتهي المشاعر العامة ، بمعنى انها هي التي تستطيع الغوص الى اعماقهـا ، واستخلاص لبابها وبلورتها في شكل افكار ونظريات محددة ، تكون عمدة التربية الوطنية المدرسية وغير المدرسية . ومنها احساسها بالحاجة الى اظهار قدرتها الفكرية ، وبناء مجدها العلمـي ، وتأكيد ذاتيتهـا الثقافية ، بوصفها خلاصة ما استطـاع فكر الامـة واستعدادها الموهوب والمكتسب ، ان يهباه من نماذج بشريـة .

على ان النخبة المفكرة اذ تدعو الى فكرة المناسبة او تفلسفها انما تستوحي في ذلك واقع الامة وآمالهـا وتطلعاتها ومصالحها ، فهي لا تاتي بها من مكان آخر لتطبقها على الوطن ، وانما تستمدها من الوطن نفسـه ، ومن الشعب الذي هو مصدر الهام للباحثين والمفكرين على توالي العصور . والشعب اذ يقبل الفكرة ويستجيب لها ويكرس جهوده لخدمتها عن قصد او غير قصد ، انما يستجيب في الحقيقة لامر كان كامنا في اعماقه ، لا يتبينه بوضوح ، ولكن بعد ان قدمت اليه الفكـرة ، اصبح ابصر بحقيقة نفسه ، وما يعتلـج فيهـا من المشاعر والرغبات .

وتلتقي حول المناسبة الوطنية كل من الدولـة والمجتمع ، التقاء تجاوب وتعاون . الدولة تقدم القيادة والتوجيه وحشد الامكانيات . والمجتمع يقدم الطاقة البشرية التي تصنع الامجاد ، وتحقق المشاريـع ، ويقدم العواطف والمواقف الحافلة . ومن ثم تظهـر المناسبة في شكليها المزدوجين : الشكل الرسمـي ، والشكل الشعبي . ومن ازدواجهما يكون للمناسبـة بعدان : بعد حكومي ، وبعد اجتماعي شعبي ، يلتحمان ويتآلفان تآلفا تكاد تزول معـه الفوارق بين ما هـو للدولة ، وما هو للمجتمع ، لان الدولة حينئذ تكـون هي الارادة الوطنية مجسمة في القادة ، والمجتمع حينئذ يكون هو الدولة متمثلة في الجمهور . والامر راجـع اولا واخيرا الى طبيعة الروابط السياسية التي تربط الدولة بالمجتمع ، وتحدد نوع الصلة التي بينهمـا .

وقيام الدولة بدورها المؤثر الفعال في احياء المناسبات الوطنية ، دليل على ان الدولة تقف حارسا امينا على مقدسات الشعب ، مثلما تقف حارسا امينا لقيمـه ونظمه الاخرى في جميع الميادين . واندفاع الشعب نحو الاحتفال بهذه المناسبات دليل على انه يؤكد ذاته ويحميها ويريد لها البقاء والاستمرار . وفي تقاعس كل منهما عن القيام بدوره . ما يؤثر على الشعور بالمناسبة، ويدفع به نحو الفتور والضعف . ذلك ان الدولـة اذ تهمل العناية بالمناسبات الوطنية ، ولا تقدم فيهـا المظهر اللائق المحترم ، تجعلها مفتقـرة الى السنـد الرسمي الذي يهبها الجلال ، جلال الدولة وقوتهـا ، ومن ثم قد تقتدي بها طائفة من ابناء الشعب ، فتهمل المناسبة وتحيلها حادثا عاديا ، يمر دون ان يخلف اثرا يذكر . والشعب اذ يهمل المناسبة يفقدها القاعـدة الشعبية الاصيلة التي هي روح جميـع المناسبـات الوطنيـة .

هناك تعاون اذن بين الدولة والمجتمع على اعطاء المناسبة طابعها الرسمي ، وطابعها الشعبي . وهنـا ينبغي التذكير بأن المناسبة عندما تاخذ طابعها الرسمي تكتسب مظهر السلطة ، وتصبح التزاما حكوميا رسميا، يدخل ضمن العرف السائد في الدولة ، ان لم يأخـذ صفة القانون الجاري في البلاد . ويكـون الاخـلال بالمناسبة حينئذ مخالفة صريحة لعرف الدولة وقانونها السائد ، ونوعا من السلبية الوطنية التي تقـدح في صفاء المواطنة وايجابيتها . وهكذا نفهم كيف يتعين — مثلا — على جميع مواطني الاتحاد السوفياتي ، ان يظهروا الاحتفال بذكرى ثورة اكتوبر 1917 ومن لـم يساهم في هذا الاحتفال ، يعتبر عاقا للدولة ، بـل ان عدم مساهمته غير واردة على الاطلاق ، كما نفهم كيف يكون على كل صيني ان يحتفل بذكرى الثورة الصينية، وان لم يفعل كان مواطنا غير صالح ، وهذا غير وارد على الاطلاق ايضا . الا ان اكتساب المناسبة طابـع السلطة لا يجعلها بعيـدة عن الروح الشعبيـة ، لان الشعب ها هنا هو موضوع المناسبة ولحمتها وسداها ومادتها والمقصود من ورائها . فالقضية قضيتـه هو اساسـا . ومن ثم فان سلطة لا تكون تسلطا ، وانمـا تكون بديلا عن الشعب في التنظيم والتوجيه والقيادة ، وهي في الوقت نفسه تعطي المناسبة مظهر الهيبـة ، وتدخل على النفوس الشعور بتعظيمهـا واحاطتهـا بالوقار اللازم ، وتحول دون التلاعب بها او اهمالهـا بالنسبة الى المجموع ، وخاصة بالنسبة الى الاجيال الصاعدة التي تفتقر الى التربية الوطنيـة الحقـة ، والتوجيه الوطني الصحيح .

ومناط الامر بدءا ونهاية ، هو اتخاذ المناسبة بمظهريها الرسمي والشعبي ، وعاء تفرغ فيه جميع القيم والمباديء الوطنية التي تكفلت الدولة بحمايتها، وتصدى الشعب لخدمتها والتجند من ورائها وفي سبيلها .

ومما هو جدير بالذكر ان الدول والحكومات تذهب وتجيء ، وتتناوب التربع على كرسي الحكم على مدى التاريخ ، اما الشعب فهو خالد ابدا ، تتعاقب اجياله جيلا بعد جيل ، ولكن شخصيته باقية لا تزول . ومن ثم فان العمدة الاولى فى المحافظة على احياء المناسبات الوطنية هي الشعوب ، القاعدة الثابتة الراسخة رسوخ الجبال . فاذا تنوعت برامج الدول والحكومات ومشاربها واتجاهاتها ، فان الشعوب تحافظ على بقاء ذاتيتها وامجادها ، تحميها وتدافع عنها بالتضحية وبذل الغالي والنفيس واخيرا تستطيع الارادة الشعبية فرض وجودها على الحكام وانتزاع احترام المناسبة منهم احبوا ام كرهوا . وقد رأينا مثالا حيا على ذلك فى تاريخ المغرب الحديث . فعندما نفي محمد الخامس رحمه الله بعد خلعه عن العرش : اصر الشعب المغربي على التشبث بشخص الملك المخلوع بوصفه رمزا لكل القيم والمباديء الوطنية . واعتبر رغم خلعه الملك الفعلي الوحيد ، وعندما تاتي مناسبة عيد العرش كان الشعب المغربي يحتفل بها فى صمت ، بين حنايا القلوب ، وبين جدران المنازل ، ويحتفل بها احتفالا آخر ، فيه كثير من الضجيج والصخب ، باطلاق مزيد من الرصاص على الحكام الطغاة ، الى ان انتصرت ارادة الشعب ، وكان له ما اراد ، وخرج الاحتفال بالمناسبة من صورته الشاذة الى صورته الطبيعية . وهذا ما يؤكد ان الشعوب هي حارسة على ذكرياتها الخالدة ، ومناسباتها المقدسة . وهنا اذكر بما قلته من ان العواطف الشعبية المتاججة ، هي الرصيد المبدع الخلاق ، الذي تتخذ منه المناسبات الوطنية اساسها القوي ، وليس النظريات والفلسفات، لان هذه ينقض بعضها بعضا .

وهنا نصل الى نقطة حساسة فى الموضوع ، وهي ان كل مناسبة وطنية كبرى تحمل فى تضاعيفها معنى وطنيا محليا ، ومعنى انسانيا عاما . فهي تعبر عن عواطف ومواقف جماعة معينة تسكن وطنا معينا ، رامزة الى حادث عظيم الخطر فى حياة هذه الجماعة ، وهي فى الوقت نفسه ترتبط بالمشاعر الانسانية العامة ، مشاعر كل انسان على ظهر هذا الكوكب ازاء المواقف الحاسمة فى تاريخه . فهناك قدر مشترك بين البشر من المواقف ، ازاء المواقف التاريخية التى يتخذونها نحو احداثهم البارزة ومناسباتهم العظيمة .

ولهذا فالمناسبة الوطنية تحظى بعطف عدد من الشعوب الاخرى ، فتبعث بالتهاني وقد تساهم فى الحفلات المقامة بوفودها الرسمية ، تعبيرا عن تضامنها الانساني مع الشعب المحتفل ، ومشاركتها العاطفية له فى افراحه ومسراته . وغالبا ما يجد شعب ما شيئا من قيمه فى مناسبات وطنية لشعب آخر ، او لشعوب اخرى بقطع النظر عن لون المناسبة وشكلها ، بسبب ذلك القدر المشترك من المشاعر الانسانية العامة . فهناك دائما اعتزاز الانسان بانتصاراته وصموده امام مصاعبه ، وتعشقه لذاتيته ، وجنوحه الى القوة والعزة والكرامة . وهذه كلها ارث انساني لا يخص شعبا دون آخر . ولا سبيل الى الفصل بين ما هو وطني محلي ، وما هو عالمي انساني الا عند الدرس والتحليل ، قصد تسهيل الفهم وتيسير الوعي ، اما لدى الانفعال والمعاندة ، فلا سبيل الى ذلك اطلاقا . على ان المناسبات الوطنية ليست كلها حاملة لهذا المعنى الانساني . فاحتفال الغزاة الظالمين بذكريات انتصاراتهم الجائرة ، ليس مما يحمل اى معنى من المعاني الانسانية ، بل ان احتفالهم المخزي يعد عجرفة وتحديا للانسانية كلها ، وانتهاكا علنيا للقيم الانسانية عامة ، الا انهم — مدفوعين بالتعصب الاعمى — يصرون على ان يعطوا لخزيهم وعارهم معنى وطنيا ، وان كانت الوطنية الصادقة براء منه . وذلك على نحو ما فعلته الصهيونية وما تفعله من قيامها بالاحتفال بمناسبة قيام اسرائيل ، وبذكرى انتصارها الزائف الجائر على العرب فى خامس يونيو 67 . فليست الوطنية الصادقة هي احتلال بلدان الغير بالقوة ، وعملية القتل الجماعي ، وتشريد الآمنين من اوطانهم، والا كانت الوطنية معنى زائفا ، يتلون ويتكيف بتلون وتكيف المصالح الخاصة ، والنزعات العنصرية .

واساليب الشعوب فى مهرجاناتها الوطنية تختلف باختلاف حظوظها من الثقافة ، وباختلاف أمزجتها وانصبتها من الحضارة ، فالشعب الصناعي المتقدم فى شؤون العلم والاختراع يعرض مخترعاته وثمار جهوده العلمية ، والشعب الذي تغلب عليه الروح العسكرية يعرض انواع الاسلحة وآخر ما وصل اليه من وسائل التقتيل والابادة . والشعب الرقيق الفنان يعرض الفنون الجميلة . والشعب الصاخب العنيف يعرض مظاهر العنف والصخب فى رقصاته وضحكاته العريضة الهادرة . وهكذا دواليك . على ان كل شعب لا تخلو مناسباته الوطنية من نواحي الرقة والعنف ، والقوة والضعف ، والجمال والبشاعة ، وذلك تبعا لاختلاف طبقات المجتمع فى الخصائص والمزايا ، الا انه لا بد ان يكون هناك طابع غالب عليه .

فاس : عبد العلي الوزاني

في إطار تمتين الروابط الأخوية بين المغرب والأقطار الاسلامية الأخرى

في عهد جلالة الحسن الثاني:

عشرة أيام في ماليزيا

للأستاذ عبد القادر الصحراوي

كان قد انعقد بمدينة كوالا لامبور ، عاصمة ماليزيا ، في شهر ابريل ، من السنة المنصرمة ، مؤتمر اسلامي حضره علماء من جميع البلاد الاسلامية، وعلماء يمثلون الجاليات الاسلامية في البلاد الاخرى ، وقد مثل المغرب في هذا المؤتمر ، وقد برئاسة الاستاذ العلامة السيد عبد الله كنون ، وعضوية الاخ الاستاذ محمد بنعبد الله ، وكان من القرارات التي اتخذها هذا المؤتمر ، تأييد الدعوة الى انعقاد مؤتمر قمة اسلامي .

— ◆ —

وقد انعقد مؤتمر القمة الاسلامي بالفعل ، بمدينة الرباط ، عاصمة المملكة المغربية بدعوة من صاحب الجلالة الملك المعظم الحسن الثاني نصره الله ، وانتخب جلالته بالاجماع — كما هو معلوم — رئيسا لهذا المؤتمر الاسلامي العظيم ، الذي كان الاول من نوعه في التاريخ ، والذي استمرت اشغاله من 22 الى 25 شتنبر من السنة الماضية.

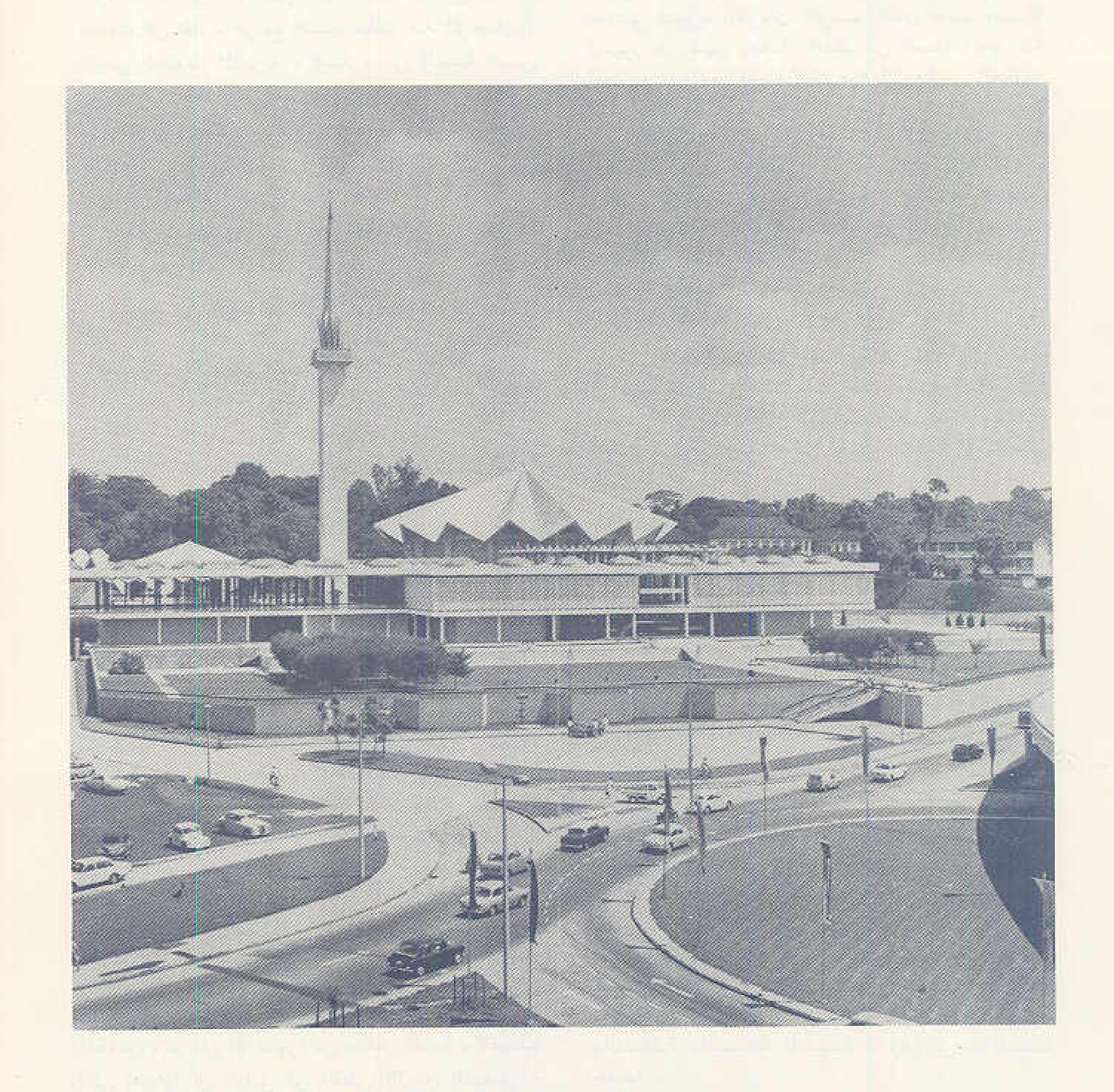
ومثل ماليزيا في هذا المؤتمر ، رئيس وزرائها السيد طانكو عبد الرحمان .

ولم يفت صاحب الجلالة الحسن الثاني نصره الله،ان يوجه في خطابه في حفلة اختتام اعمال هذا المؤتمر، تحية الى القطر الماليزي الشقيق ، تضمنت تنويها بالمؤتمر الاسلامي الذي كان قد انعقد بكوالا لرمبور في شهر ابريل من السنة المنصرمة ، وذلك عندما قال جلالته حفظه الله : «وهذا المؤتمر من جملة ما يريد، لا يريد ان يكون مؤتمرا عاما ، فسوف يكون مؤتمرا عاما اذا هو لم ينوه بالمؤتمر الاسلامي الذي عقد في هذه السنة (1969) في البلد الاسلامي العزيز ، ماليزيا ، في ابريل ، وبكوالا لومبور ، بين علماء الدول الاسلامية ، ذلك المؤتمر الاسلامي الذي دعا بدوره الى اجتماع مؤتمر قمة اسلامي » .

— ◆ —

وفي شهر رمضان المعظم ، من السنة الهجرية الجارية ، نظمت بكوالا لومبور ، المسابقة الدولية العاشرة ، في تجويد القرءان الكريم ، وقد خطب في حفل الافتتاح — وكان ذلك بالضبط في يوم 24 نونبر 1969 — رئيس الحكومة الماليزية السيد طانكو عبد الرحمان ، فكان مما ورد في خطابه قول سيادته : « ان فكرة هذه المسابقة التي تعمل بها حكومتنا منذ عشر سنوات ، كان لها اعظم الاثر في توثيق الروابط بين المسلمين في منطقة الشرق الاقصى ، وبينهم جميعا وبين اخوانهم المسلمين في الشرق الاوسط وبقية البلاد الاسلامية الاخرى ، وقد كان من نتائج كل ذلك انعقاد المؤتمر الاسلامي بعاصمة بلادنا في شهر ابريل من هذه السنة ، وكان من بين توصيات هذا المؤتمر ، تأييد الدعوة الى انعقاد مؤتمر قمة اسلامي ، وقد انعقد مؤتمر القمة الاسلامي بالفعل ، بالرباط ، عاصمة المملكة المغربية الشقيقة ، بدعوة من جلالة الملك المعظم ، الحسن الثاني » .

— ◆ —



صورة رائعة للمسجد الكبير « نيجارا » بكوالا لامبور عاصمة ماليزيا

وبما انـه كان لي شـرف تمثيـل المغـرب كمراقب — في هذا المهرجان العظيم الشيق ، فقد سعيت الى لقاء ءاخر مع السيد طانكو عبد الرحمان ، رئيس الحكومة الماليزية ، لاشكره على التحية التـي وجهها في خطابه الى المغرب والى جلالـة ملكـه ، وذكرت له بالمناسبة ، انني اعتبر ما ورد في خطاب سيادته ، ردا جميلا ، على التحية الجميلة التي سبق لصاحب الجلالة الحسن الثاني نصره الله ، ان وجهها الى القطر الماليزي الشقيق في خطابه في حفلة اختتام اعمال مؤتمر القمة الاسلامي .

وقد رد على ذلك السيد طانكو عبد الرحمـان بانه يحمل في قلبه كثيرا من التقديـر والاعجـاب لشخصية جلالة الملك الحسن الثاني ، تلك الشخصية التي تتميز بالحنكة والحكمة والتبصر ، كما ذكر سيادته انه يحمل في قلبه ذكريات عزيزة غالية مـن زيارته المغرب ، عندما كان يمثل بلاده في مؤتمر القمة الاسلامي .

وكان يحضر هذه المقابلة — فيمن كان يحضرها من الوزراء والسفراء والمقرئين والمراقبيـن واعضـاء لجنة التحكيم — وزير التعليم في الحكومة الماليزيـة السيد الحاج عبد الرحمان بن يعقوب الذي اشاد هو ايضا بجلالة الملك الحسن الثاني ، وبالمغرب ، وبالشعب المغربي ، ذاكرا انه يحمل في قلبه اعـز الذكريات واغلاهـا من زيارته لبلادنا ، عندما كان يقوم بجولته في البلاد الاسلامية للدعوة الى المؤتمر الاسلامي الذي انعقـد بكوالا لومبور ، بين العلماء الممثلين للدول الاسلامية ، وللجاليات الاسلامية . وقد الح على سيادته بالمناسبة ان ابلغ تحياته الاخوية الى جميع اصدقائه بالمغرب ، وبالخصوص الى معالي وزيـر الاوقـاف والشـؤون الاسلامية بالمملكة المغربية السيد الحاج احمد بركاش واني لارجو ان اكون قد فعلت .

— ◆ —

والواقع ان كل هـذه العواطـف ، وكل هـذا التقدير ، لم تكن الا مظهرا من مظاهر المحبة والاعجاب التي يحملها كل الناس في القطر الماليزي الشقيق ، سواء على المستوى الرسمـي ، او على المستـوى الشعبي ، للمغرب ، ولقائد نهضته الموفقة ، ورائده في طريق النمو والتقدم والنجاح ، جلاله الملك الحسن الثاني نصره الله .

ومما اذكره في هذا البـاب ، اننا — واقصـد ممثلي البلاد والجاليات الاسلاميـة في المهرجـان العاشر لتجويد القرءان الكريـم الذي نظـم بكـوالا لومبور في شهر رمضان المعظم من السنة الهجريـة الجارية — عندما قدمنا لاول مرة الى رئيس الحكومة الماليزية السيد طانكو عبد الرحمان ، ما كاد يسمـع اسم «المغرب» حتى تهلل وجهه بشرا ، ووقف وقفة خاصـة قائـلا بالانجليزيـة : « O, Morocco ! »

وكان ذلك بمبنى رئاسة الحكومة ، في حفلة افطـار كبيرة اقامها سيادته لاعضاء الوفود التـي حضـرت هذا المهرجان الاسلامي الكبير ، كما حضرها اعضـاء الحكومة والسلك الديبلوماسـي ، وكثيـر من علمـاء الشريعة الاسلامية الماليزيين .

وزاد السيد رئيس الحكومة على ذلك ، ان رحب بي ترحيبا خاصا ، استلفت انظار جميع الحاضرين، وافاض في الحديث عن اعجابـه بالمغـرب ، وبملكـه المعظم ، وعن ذكرياته عن مؤتمر القمـة الاسلامـي الاول .

وانا اذ اذكر ذلك هنا ، اؤكد في نفس الوقت، اعتقادي ان هذا الترحيب الخاص الذي حظيت به ، كان في حقيقة الامر موجها لبلادي التي كان لي شرفه تمثيلها في هذا المهرجان ، وانه فـي نفس الوقت ، تعبير عن تقدير كبير للقيادة الرشيدة المتبصرة لملكها العظيم جلالة الحسن الثاني حفظه الله ، فقد رفـع جلالته رأس المغرب عاليـا في كل مكـان ، وحـاز الاعجاب بشخصه وببلاده من جميع النـاس .

— ◆ —

هذا وقد اقيمت لنا عدة حفلات افطار اخرى ، اذكر من بينها على الخصوص حفلـة الافطار التـي اقامها لنا في القصر الملكي ، حضرة صاحب الجلالة توانكو اسماعيل ناصر الدين شاه ، ملك ماليزيـا ، وقد قدم لنا الطعام فيها على الطريقـة التقليديـة ، حيث جلسنا على الزرابي متربعين ، في هيئة صفين طويلين متقابلين ، تفصل بينهما اطبـاق المأكـولات واواني المشروبات ، وكان جلالته في غايـة اللطـف والبشاشة والبساطة المحببـة ، وهو يرحب بنـا جميعا .

وقد حرص على ان يجلس قبالتي اثناء تناول طعام الافطار السفير السابق لماليزيا في المغرب، وهو شاب يفيض حيوية ونشاطا ، وقد طلب مني ان أزوره بعد ذلك في مكتبه بوزارة الخارجيـة ، وقـد فعلـت ،

فكان سواء فى المقابلة الاولى او الثانية ، لا يكاد يجد الانفاظ والتعابير الكافية ، للاعراب عن حبه للمغرب ، واعجابه به ، وتقديره البالغ لجلالة ملكه .

— ◆ —

وبمناسبة المهرجان ، طبعت الحكومة عدة كتب ونشرات ، وزعت على نطاق واسع جدا ، تتحدث عن المهرجان ، وعن فكرته ، وعن دوره فى توثيق الروابط الاسلامية ، وفى خدمة الاسلام والمسلمين ، كما تتحدث عن نشاط الحكومة فى هذا الباب ، وقد كان من ابرز الصور التى حليت بها هذه الكتب والنشرات ، صور من مؤتمر القمة الاسلامي الاول الذي انعقد بالرباط ، وصور للسيد طانكو عبد الرحمان مع صاحب الجلالة الحسن الثاني فى مطار الرباط — سلا عندما حضر سيادته لتمثيل بلاده فى هذا المؤتمر ، الذي يعتبر بحق حدثا بارزا من احداث العصر الذي نعيش فيه .

— ◆ —

وقد اتيح لي خلال المدة التى قضيتها بماليزيا ان القى كثيرا من الناس ، فيهم اساتذة جامعيون ، وفيهم علماء فى الشريعة الاسلامية ، وفيهم ادباء وشعراء ، وفيهم موظفون فى المجمع اللغوي الماليزي ، وفيهم وزراء وسفراء ، وفيهم ناس من عامة الشعب ، وقد وجدت الاشادة بالمغرب ، وبجلالة ملكه على كل لسان .

ولم يكن اذ ذاك قد مر على مؤتمر القمة الاسلامي الذى انعقد ببلادنا الا نحو شهرين ، وقد وجدت صداه حيا فى كل قلب ، والحديث عنه لا يزال على كل لسان والآمال المعقودة على آفاق التضامن التى فتحها بين المسلمين ، آمالا كبيرة جدا .

ولست اشك فى ان هذا الانطباع الذى عدت به ، هو نفس الانطباع الذى يعود به كل مغربي من زيارة او جولة فى الخارج .

واذا كان ذلك صحيحا على اطلاقه ، فانه يتجلى بصورة اوضح واقوى واعمق ، فى البلاد الاسلامية ، وبين الجاليات الاسلامية فى البلاد الاخرى .

ان ذلك من شانه ان يشعرنا بمسؤولياتنا ، وباهمية الدور الذى ينتظر من بلادنا ان تقوم به فى خدمة الاسلام ، وفى جمع كلمة المسلمين وتوحيد صفوفهم ، وقد كان مؤتمر القمة الاسلامي ، لبنة ضخمة ، وحجرا اساسيا فى هذا البناء الجليل .

— ◆ —

كانت المباراة فى تجويد القرءان الكريم بكوالا لومبور فى شر رمضان من هذه السنة ، مقتصرة على البلاد الاسلامية غير العربية ، كاندونيسيا وماليزيا والباكستان ، وكالاقطار الاخرى من منطقة الشرق الاقصى التي توجد بها كلها جاليات اسلامية كالفلبين ، والتايلاند ، والصين ، والفيتنام ، وهونغ كونغ ، وسنغافورة ، والكامبودج ، وقد دعي لمشاركة فى المباراة مقرئون من تركيا وايران ، وحضروا بالفعل .

اما الاقطار العربية ، فانما طلب منها ان تساهم بمراقبين واعضاء فى لجنة التحكيم ، ومما يؤسف له انه لم يستجب للدعوة من الاقطار العربية ، الا المغرب ، والمملكة العربية السعودية ، والجمهورية العربية المتحدة ، مع ان الدعوة وجهت الى جميع البلاد العربية بدون استثناء .

لقد كان ذلك مؤسفا حقا ، لان الاساس فى المهرجان كان هو مباراة تجويد القرءان الكريم ، والمسلمون جميعا فى تلك الاصقاع ينظرون الى العرب نظرة خاصة ، فيها كثير من المحبة لهم ، والاعتزاز بهم ، والغيرة عليهم ، باعتبارهم اصل الاسلام ، وأصحاب اللغة التى نزل بها القرءان الكريم ، وجاءت بها الشريعة الاسلامية السمحاء .

وحضور المغرب فى هذا المهرجان الاسلامي الكبير ، لم يكن صدفة ، وانما كان نابعا من شعوره بدوره ، وبمسؤولياته التاريخية ، ومتمشيا مع سياسته الاسلامية ، التى كان انعقاد مؤتمر القمة الاسلامي به ، تتويجا لها من جهة ، وبداية صفحة جديدة فيها من جهة اخرى .

وينبغي ان نعيد هنا الى الذاكرة ، ان انعقاد مؤتمر القمة الاسلامي بالرباط ، قد سبقه مباشرة انعقاد المؤتمر التأسيسي لجمعية الجامعات الاسلامية بفاس ، بحيث كانت نهاية هذا متصلة تقريبا ببداية ذاك ، وبحيث اتيح لرؤساء الوفود التى شاركت فى مؤتمر فاس ، ان تحضر حفلة افتتاح مؤتمر الرباط .

كما ينبغي التذكير بأن ماليزيا التي تخصص هذا الحديث لعلاقاتها بالمغرب ، كانت ممثلة فى مؤتمر فاس،بوفد برئاسة الدكتور عبد الجليل حسن ، عميد الكلية الاسلامية بكوالا لومبور ، وعضوية الاستاذ محمد ابي بكر ، الاستاذ بنفس الكلية .

على ان حضور المغرب فى المهرجان العاشر لتجويد القرءان الكريم بكوالا لومبور، لم يكن هو الاول من نوعه ، فقد سبق له ان شارك فى المهرجان التاسع الذى نظم فى شهر رمضان من السنة الهجرية الفارطة، ومثله اذ ذاك ـ كمقريء مشترك فى المباراة ـ السيد مولاي احمد العلمي، الخليفة بالمقاطعة التاسعة بالدار البيضاء .

ان المغرب ، وهو يثبت حضوره فى كل اللقاءات الاسلامية ، وعلى جميع المستويات ، انما يسير فى ذلك على هدى من تاريخه المجيد ، وبالاخص فى عهد الدولة العلوية الشريفة ، التى لم يال ملوكها السابقون العظام جهدا فى تمتين الروابط وعقد الصلات مع مختلف البلاد والدول الاسلامية، كما يسير فى ذلك على هدى من سياسة ملكه العظيم الحسن الثاني ، وهي سياسة يعتبر العامل الاسلامي من ابرز عواملها واكثرها اهمية .

— ◆ —

وبعد ، فقد يكون من تمام الفائدة أن نقول كلمة عن مهرجان تجويد القرءان الكريم ، الذي داب القطر الماليزي الشقيق على تنظيمه منذ عشر سنوات .

يبدا هذا المهرجان اولا ، بتنظيم مباريات محلية فى كل ولاية على حدة ، من ولايات ماليزيا .

والفائزون فى هذه المسابقات المحلية على مستوى الولايات ، يؤتى بهم الى كوالا لومبور ، العاصمة ، لاجراء مسابقة بينهم جميعا على الصعيد الوطني .

والفائزون فى هذه المسابقة الوطنية ، يشتركون بعد ذلك فى المسابقة الدولية .

وقد كانت المسابقة فى هذه السنة خاصة بأقطار الشرق الاقصى ، مع اضافة تركيا وايران اما البلاد العربية فانما طلب منها ان تساهم بمراقبين واعضاء فى لجنة التحكيم كما سبقت الاشارة الى ذلك ، وقد كان هناك ايضا مراقبون واعضاء فى لجنة التحكيم من نفس بلاد الشرق الاقصى ، التى اشتركت فى المباراة الدولية .

وهكذا كانت كوالا لومبور كلها فى شهر رمضان من هذه السنة ـ كما هو الشأن فى كل رمضان منذ عشر سنوات ـ مسرحا لتجمع اسلامي فريد من نوعه ، يقوم اولا وقبل كل شيء على الاحتفاء بالقرءان الكريم ، تلاوة وتجويدا ، وتفسيرا للمواطنين الماليزيين .

ونعني بالتفسير هنا ما تنهجه الحكومة الماليزية فى هذه المناسبة ، من طبع كتب تشتمل على برنامج مفصل للمباريات ، واسماء القراء المتبارين ، ومواعيد تلاوة كل واحد منهم ، وارقام الآيات واسماء السور التى سيقراونها ، ثم يتبع ذلك ترجمة بلغة الملايو ، مكتوبة بالحروف العربية ، للآيات المقروءة، حتى يتمكن المواطنون الماليزيون من التمتع بفهم النص القرءاني ، الى جانب تمتعهم بجمال الصوت ، وحسن التلاوة والتجويد .

كما ان هنالك فى الملعب ، او «الستاديوم» الذى تجري فيه هذه المباراة ، بعد تهييئه وتجهيزه لذلك ، لوحا كبيرا جدا ، من المعدن المزخرف والمتشابك ، فى مكان عال وبارز وملفت للانظار ، تظهر عليه اول بأول ، ترجمة الآيات القرآنية اثناء تلاوتها ، الى لغة الملايو ، مكتوبة فى هذه المرة بالحروف اللاتينية ، ويتم ذلك بكيفية عجيبة جدا ، وفى غاية الاتقان والروعة ، كما لو كان هنالك من يضرب على ءالة كاتبة ترجمة كل كلمة يتلفظ بها القاريء ، اثناء تلفظه بها .

يضاف الى ذلك ان هذه الحروف تبرز على اللوح المذكور فى اشكال انوار كهربائية ، وعندما يمتليء اللوح ، تختفي اولا بأول السطور الاولى ، لتحل محلها ترجمة ءايات اخرى ، وتبقى الاسطر الاخيرة حتى يتمكن من قراءتها من كان بطيئا فى القراءة ، او ما الى ذلك .

— ◆ —

والواقع بصورة عامة ، ان شهر رمضان يكون فى ماليزيا شهر القرءان بحق ، فالى جانب هذا المهرجان الدولي الفريد من نوعه ، والذي بدات بعض الدول الاسلامية تحدو حدوه ، وتنظم فى شهر رمضان من كل سنة شيئا على نمطه ، على الصعيد الوطني

او الاقليمي ، اقول الى جانب ذلك المهرجان ، فان الطابع البارز الذي يطبع حفلات الاقطار وغيرهـا فى شهر رمضان ، هو تلاوة القرءان وتجويده ، والحديث حول ذلك كله .

وينبغي التذكير هنا بأن المباريات التى تجري فى كوالا لومبور نفسهـا ، على الصعيد الوطنـي والدولي ، تستغرق عشـرة ايـام ، وتسبقهـا كما اشرنا الى ذلك مباريات على الصعيد المحلي ، فى كل ولاية على حدة .

وبعد انتهاء المهرجان ، يستدعى المقرئون الآتون من الاقطار الاخرى ، الى القيام بجولات فى ارجـاء القطر الماليزي ، لتجويد القرءان فى المساجد ، وفى حفلات الاقطار التي تقام لهم ، وفى غيـر ذلـك مـن الامكنة والمناسبات .

والتلاوة فى المسابقات التى تقام فى العاصمة ، تبدا عادة على الساعة الثامنة مساء عقب الافطـار ، وتستمر الى حوالي الثانية عشرة عند منتصف الليل، وتنقلها التلفزة مباشرة ، بحيث يتناوب على شاشة التلفزة ، ظهور المقريء ، وظهـور ترجمـة الآيـة او الآيات التى يقراها فى ذلك الحين ، او تظهر الترجمة اسفل الصورة .

وقد ذكر لي بعـض الاخـوان الماليزييـن ، ان اجهزة الراديو ، وربما اجهزة التلفزيـون ايضا ، فى البلاد الاسلامية فى الشرق الاقصى ، وعند الجاليات الاسلامية فى غيرها من بلاد المنطقة ، لا تلتقط فى ذلك الحين ، فى الغـالـب ، الا ماليزيـا ، للتمتـع بالاستماع الى تجويد القرءان الكريم .

ولكي يجعلني افهم ما يقصد اليه اكثر ، فقد اتى بتشبيه لا بأس من ايراده هنا ، وذلك انه قال لي : ان الامر يشبه فى هذه الحالة ، ما يقع فى منطقـة الشرق الاوسط ، او منطقة المغرب العربـي اذا مـا غنت السيدة ام كلثوم فى حفل فى بلد من بلاد هذه المنطقة او تلك .

— ◆ —

واذا كان هنالك ما لا ينتهي منه العجب ، او ما لم يكد ينتهي منه عجبي انا على الاقـل ، فهو ان هؤلاء المقرئين ، سـواء من ماليزيا ، او اندونيسيا ، او الفلبين ، او التايلاند ، او الكمبودج ، او غيرهـا قل ان يوجد من بينهم من يعرف اللغة العربيـة لا الفصحى ، ولا اية لهجة من اللهجات العامية ، ولعلي استطيع أن اقول،ان المشتركين فى المباراة فى هذه السنة بالذات ، لم يكن من بينهم من يعـرف اللغة العربيـة على الاطلاق ، ومع ذلك ، فان الواحد منهم عندما يتربع فى المنصة المخصصة للتلاوة ، ويفتح المصحف امامه ، تستمع اليه وهو يقرا . فلا تشك انك تستمع الى عربي مطبوع ، ينطق بالسليقـة ، او بالسليقـة والتعليم الطويل الشاق معا . نطقا فصيحا سليما ، لا تشوبه اية شائبة ، ولا تبدو فيه اية لكنة او عجمة ، او اي شيء مما يمكن ان يعيب القراءة ، بـل انـه يجود القرءان كأحسن ما يمكن ان يجوده مهرة المقرئين فى البلاد العربية التى تعتني اعتناء فائقا بتجويـد القرءان ، واختيار احسن الاصوات للتلاوة . واخذها لمدة طويلة جدا بالتربية والمران والتعليم .

فاذ ما انتهى المقريء من قراءتـه . وختمهـا بقوله « صدق الله العظيم » ووقف امامك بعد ذلك. وجدت نفسك امام انسان آخر لا وسيلـة اطلاقـا للتفاهم معه الا بلغته القومية او بلغة اجنبية غيـر العربيـة .

وقد عجبت من ذلك كثيرا حقا . واكثرت مـن السؤال عن السر فيه . فأجابنـي فى احدى المرات «مراقب» من اندونيسيا . كان قد سبق له ان عاش فى المملكة العربيـة السعودية مدة طويلة . ويعـرف العربية كأحد ابنائها . اجابني بقوله مداعبا : « يا أخي لا داعي للعجب ، نحن عجم !! »

ولكن ذلك لم يخفف من استغرابي . فان اجتماع صفة « العجمة » هذه التي لا استعملها انا هنـا الا مجاراة لمداعبة الاخ الاندونيسي . والتى كان العرب يطلقونها على كل من لا ينطق بالعربية . ان اجتماع هذه «العجمة» مع هذا القدر الفائق من الفصاحة ، وسلامة النطق ، وحسن التجويد فى قراءة القرءان، لشيء غريب حقا !!

نعم ، ان هؤلاء المقرئين يؤخذون من صغرهـم بتعلم القراءة فى المصاحف ، ولعل مما يساعدهم على ذلك ان لغة الملايو نفسها تكتب بالحروف العربية ، كما هو الشان فى ايران . وكما كان الشان فى تركيا قبل مجيء مصطفى كمال ، وان كانت لغة الملايو القومية تكتب اليوم بالحروف العربية واللاتينية معا .

— ◆ —

تم ان تربية الاصوات وتعليم التجويد ، يتم كل ذلك على ايدي اساتذة ماهرين ، من المملكة العربية السعودية، او من الجمهورية العربية المتحدة، أو على ايدي اساتذة ماليزيين انفسهم .

— ◆ —

وينبغي التنويه بظاهرة اخرى ، وهي ان الفتيات والسيدات فى ماليزيا ، يحسنن هن ايضا تلاوة القرءان وتجويده بمهارة فائقة ، وبأصوات فى منتهى الرقة والعذوبة والجمال ، وشأنهن فى ذلك لا يقل عن شأن الرجال ، ان لم يفقه فى كثير من الاحوال ، وهي ظاهرة لم نعتد عليها حتى فى البلاد العربية نفسها .

وبالمناسبة فان المباريات تتم على أساس اختيار احسن المقرئين من الرجال على حدة ، واحسن المقرئات من الاوانس والسيدات على حدة .

وهكذا كانت النتيجة فى هذه السنة كما يلي :

من الرجال السادة :

الاول : الحاج اسماعيل بن الحاج هاشم ، من ماليزيا .

الثاني : حبيب ظفر قاسم ، من الباكستان

الثالث : محمد فضولي بن الحاج عبد العزيز، من سنغافورة .

من الاوانس والسيدات :

الاولى : ميمونة معير سهرد ، من التايلاند

الثانية : نورشاه اسماعيل ، من اندونيسيا

الثالثة : سليمة بنت ايوب من الكمبودج

وهكذا نرى ان ظاهرة احسان السيدات والاوانس تجويد القرءان الكريم لا تقتصر على اندونيسيا او ماليزيا او باكستان وحدها ، بل تشمل جميع اقطار الشرق الاقصى التى توجد بها جاليات اسلامية .

— ◆ —

والحديث عن ماليزيا وعن تغلغل الروح الدينية الاسلامية فى الشعب الماليزي الشقيق، طويل جدا، فلنكتف منه الآن بهذا المقدار ، وقد نعود اليه فى مناسبات اخرى ان شاء الله .

الرباط — عبد القادر الصحراوي



الحسن الثاني رائد وحدة المغرب العربي

للأستاذ عبد الكريم التواتي

لقد فكرت طويلا وطويلا قبل اختيار الموضوع الذى ساسهم به فى تسجيل هذه الذكرى لتعدد العظائم وتشعب مظاهرها ، واثناء حيرة الاختيار مثلت امامي ارتال وفود الامم الشقيقة والصديقة التى ما تنفك تتقاطر على المغرب ، ولا يقف سيلها وانما هو صبب فى صبب وتيار جارف لا ينقطع ، وخاصة وفود دول المغرب العربي وبصورة تجسم فورة ايمان ابناء هذا الجزء من العالم العربي بضرورة استمرار اللقاء لتأكيد الاخوة وابراز الولاء .

واذ احس حنينا خاصا — وقد يكون ذلك لاني ساكون من الذين سوف يسعدون بهذا الاخاء حين يتيح لي تجديد الاتصال بمن حرمت منهم من الاحبة والاهل والاصدقاء — لقضية الوحدة الاسلامية اولا ، وللوحدة العربية ثانيا ، ولتوحيد اقطار دول المغرب العربي الكبير ثالثا ، هذا الحنين الذى اذكى اواره ما لوحظ فى السنوات الاخيرة من تبادل الزيارات بين مختلف مسؤولي هذه الاقطار . فى القمم والقاعدات ، ومنها ما نعيشه حاليا . فى هذا الاجتماع الذى يعقده وزراء وكتاب الدولة للتربية والتعليم ببلدنا لوضع سياسة موحدة فى هذا المجال الحيوي والميدان الاكثر اهمية وخطورة لقيام كل وحدة او توحيد لقطاعات بشرية ما .. اقول اذ احس ذلك رايتني مدفوعا بقوة لا منظورة الى اختيار الحديث — كمساهمة متواضعة مني فى هذه المناسبة — عن مواقف الحسن الثاني واعماله ومواقف واعمال اسرته طيلة وجودها على راس هذه الدولة ، من ارساء قواعد الوحدة الحقيقية والكاملة بين دول واقطار المغرب العربي الكبير : ليبيا ، تونس ، الجزائر ، والمغرب .. سيما وقد اصبحت هذه الوحدة امل الجماهير وامنيات كل المخلصين العاملين لتخليصنا من براثن التخلف ، والحافزين لنا على الاستشراف لمراكز الصدارة والقيادة لمواكبة المد الحضاري الذى كان اسهم فى ارساء قواعده آباؤنا بلبنات قوية راسية ، ونواصل نحن او نحاول ان نواصل ، مع ركب انسان العصر الحديث مده بمزيد من الروافد وبلبنات تعلي هرمه الذى لن يقف تسامقه ولن ينتهي كماله ، ما دام تنبض بين جنبات هذا الانسان روح، وتختلج اعماقه آمال ، وتراود نفسه احلام وامنيات لتحقيق الغد الافضل والعيش الارغد والشعور بالطمانينة والسلام .

وقد يبدو — ولاول وهلة — ولمن لا يحسون وطأة القوميات الضيقة على الانطلاقات البشرية نحو التور والاخوة والمساواة والعدالة بجميع انواعها ، ان بحثنا هذا غير ذي غناء .. ولكن امثال هؤلاء نحب ان نؤكد لهم باديء ذي بدء ان احاديث من هذا الطراز اصبحت ضرورية ولازمة ، فى عالم تتنازعه قوتان ذريتان رهيبتان، تتسابقان للتسلح، وتتراهنان لغزو الفضاء والتحكم فى افلاك السماء ، عالم تتقسمه الاهواء المذهبية شرقية وغربية ، ولا شرقية ولا غربية ، وتنتابه التيارات المتعاكسة والتى لم تعد تتأقلم باقليم او وطن ولا تستقطب دينا سماويا صحيحا او تتوخى عملا انسانيا بناء ، وانما هي افكار ضحلة من صنع اقوياء المادة الكافرة بكل ما هو روحاني وانساني نبيل ..

واذا كانت أمريكا وحلفاؤها، وروسيا ونصراؤها والصين واشياعها، ما انفكوا يفكرون في اقامة مختلف التكتلات والاحلاف ، وعديد المبادلات والاسواق الاقتصادية المشتركة ، رغم ما يتوفرون عليه من طاقات بشرية هائلة وامكانيات علمية وصناعية عظيمة ، ومواد خام ومصنعة وفيرة ، مما قد يبدو معه ان تفكيرها في قيام مثل هذه الاتحادات لا مبرر له ولا موجب ، وان استغناءها الوطني واكتفاءها الذاتي من البديهيات ، فانا نحن الدول والامم المتخلفة او السائرة في طريق النمو ، احوج ما نكون الى اهتبال كل فرص الوحدة وامكانيات الاتحاد والائتلاف لا لضمان سلامة اقتصادياتنا ومجتمعاتنا من الغزو الاجنبي المسلط من تلك الدول الكبرى على الصغرى بحثا عن موارد الخامات ، واسواق الاستهلاك ، وانما ايضا للحفاظ على مقوماتنا كأمة ومقدساتنا كأصحاب عقيدة ورسالة ، ثم لانجائنا اخيرا مما لا ينفك يلوح في آفاقنا من ويلات الخلافات المدمرة ... بسبب واهي الامور مما يتعلق بهذه الحدود المصطنعة ، فان ما يغيم ، احيانا على صفو علاقات بعضنا بالبعض ، لا يمكن ابعاده في نظرنا والقضاء عليه الا بقيام وحدة حقيقية تامة وفي كل المجالات والميادين بين هذه الاقطار الاربعة المؤلفة لهذا المغرب العربي الكبير ، والتي هي — كما نرى — موحدة المنبت والمصير ، مع التسليم بأن هذا المغرب كان عبر احقابه التاريخية العريقة القدم موحدا جنسا ولغة ودينا وشعوبا ، وان تقطعت اسباب هذه الوحدة احيانا لعوامل سياسية خارجية من مثل الاستعمار والاطماع .

ونحن حين ننادي بالوحدة لا نقصد فقط ، ما تقتضيه ضرورة الحياة المعاشية ، والمصلحة الاقتصادية ، وازدهار الاسواق الصناعية والتجارية، وانما نعني ونقصد كل ذلك، وشيئا اخر اسمى من ذلك وابقى وهو الوحدة الكاملة الشاملة التي تكون بمعطياتها وابعادها مصدر القوة العسكرية والاستراتيجية ،وتستقطب وحدة حقيقية في مدلولها الجغرافي والسكاني ، اي المدلول الترابي ، مع اعتمادها في كل خطواتها على كثير من الواقعية والاختلافات الزمنكية القائمة — والتي لا بد ان تقوم على الدوام تبعا للمناخ — بين هذه الاقطار .

اما كيف ستتم هذه الوحدة ؟ اما متى تتم ؟ وعلى يد من ؟ وعلى اي أساس تعتمد ، واي نظام للحكم تختار ؟ فان هذه الاسئلة في نظرنا ، وان يكن مفهومها وابعادها متعددة الصور والاخيلة تبعا لتعدد اتجاهات المواطنين ، ولاختلاف ثقافتهم ومشاربها ، واختلاف مراكزهم الاجتماعية واوضاعهم السياسية، فانه يجب ان يبدا — لتحقيقها — بتوضيح ابعادها وغاياتها وما يمكن ان تحققه لاولئك جميعا مما يتمنونه ويبتغونه في حياتهم ، حتى اذا ثبت لدى الجميع الايمان الكامل والصحيح بها عمل ، انطلاقا من هذا الايمان — على تصنيف عواملها الايجابية بحسب الاهمية والقوة ثم يباشر تحقيق تلك العوامل في مراحل دون اسراع ، وقد يبدا بالضرورات الاقتصادية او ببعضها، وببعض مناهج التعليم والتربية وخاصة التاريخ والجغرافيا ، وينتهي في آخر المطاف الى قيام وحدة تامة تصبح من آكد الضرورات التي ستفرض نفسها بنفسها ؛ انطلاقا من الثقافة القائمة على وحدة اللغة والتفكير واعتمادا على التجاوب الروحي القائم على وحدة السلالة والعرق والجنس واستقطابا للمصالح الدينية والدنيوية معا ..

ذلك لانه اصبح من المتعذر على اي باحث متضلع ، وفي اي موضوع من موضوعات البحث والمعرفة الانسانيه ، المتعلقة بهذا الجزء من الدنيا ، اصبح من المتعذر ان يعالج قضية ما ، في قطر من هذه الاقطار الاربعة بمعزل عن مثيلاتها في الاقطار الاخرى لالتحام منابتها واشتباك اصولها والى الدرجة التي تلتقي فيها تلقائيا في السلم ، وتتواطا — ربما تلقائيا ايضا — في الشدائد والملمات ، مناهج واساليب وطرقا كذلك ..

وهذا الالتحام والتواطؤ يتجلى حتى في المحن والالوان والصفات ، وعبثا يحاول علماء السلالات تشكيكنا في الوحدة السلالية لجميع — ولا اقول مجموع — مواطني هذه الاقطار ورعاياها ، كما ان من العبث ان يفكر بعد هذا الوعي الذي حققته الطبقات المثقفة والمتنورة في هذه البلدان ، في فصل تاريخ اي جزء من هذا الشمال الافريقي عن بقية اجزائه الاخرى ، في الشمال والجنوب ، في البحر او البر ، في الجبال والنجود وفي الهضاب والسهول ، وكان الاسلام الذي صهر هذه البلاد وابناءه في بوتقة واحدة بعد ان اتصل بها ، بعقيدته التوحيدية وثقافته الانسانية ، ابى الا ان يقيم الدليل على اصالة هذه الوحدة التي تربط بين مختلف اجزاء هذه البلاد ..



الزيارة الملكية لتونس أثناء عودته من الرحلة الميمونة التي قام بها الى كـل من
تركيا وايران والمملكة العربيـة السعوديـة 1968



فاس : امضاء معاهدة الصداقة والتضامن وحسن الجوار بين الجزائر والمغرب

ومن الحقائق البدهية والاولية التى انتهى اليها الباحثون فى اصول سكان المغرب العربي ، سلالات وجيولوجيا وتاريخ وحضارة ، ان هذا الشمال الافريقي انما هو وحدة (واحدة فى جميع مظاهر حياتها الماضية والحاضره) و(انها كتلة متراصة لا يمكن تجزئتها) وانه (من اجدير الى قابس فى الجزائر الى بوذنيب الى عين صالح فى الصحراء ، توجد لحمة واحدة فى الهيكل العام الذي هو افريقيا الشمالية (1)

وتسليما بهذه الحقيقة ارغم المستعمرون الغربيون بعد ان فرضوا سيطرتهم على هذه الاقطار ابتداء من سنة 1830 م حيث احتلت الجزائر من طرف فرنسا الى 1912 حيث استولت هذه الدولة نفسها على المغرب ، ارغموا على ان يصرحوا بان المغرب فى الواقع (يمكن ان يشبه للاسد الهائل – اوروبا – بانه فلذة اي قطعة لحم – ويكون المغرب الاقصى منه ، اشهى لحم ، والارض المحدودة بالجزائر وتونس صالحة للاكل ، لكنها قطع متفرقة من اللحم ، اما ليبيا فالعظم نفسه (2) ويهمنا من هذا النص مضمونه الوحدوي .

ثم اذا كان يحلو ، للبعض الآخر – وهو الاكثر – من الاوروبيين ، ان يربطوا على الدوام ، بين تاريخ الشعوب وجغرافياتها الترابية ، وان على قيام هذه العلاقة يمكن قيام وحدة وطنية ، وان يقرروا فى النهاية بأن هذه العلاقة منعدمة المظاهر والظواهر فى خصوص شعوب هذه الاقطار التى تؤلف المغرب العربي الكبير انطلاقا من انعدام نقطة الارتكاز الاصلية، التى نتفق معهم على انها عامل اساسي لقيام وحدة مصلحية تشاركية بين امم ما ، فان الواقع التاريخي ، وحتمية المصير كلاهما يدعو وفى الحاح جميع سكان هذه الاقطار الى العمل الجدي المتواصل لقيام وحدة تامة حقيقية بينهم ، ويدعوهم الى زيادة انماء عناصر هذه الوحدة ، ومدها بالروافد لاعطائها مزيدا من الصور المرئية المحسوسة ..

ثم اذا علمنا ان الوحدة او الوحدويات فى العالم، وفى اعراف علماء الاجتماع انما تقوم اساسا على العناصر الآتية ملتحمة ومجتمعة من جهة ..

السلالة – اللغة – الجغرافيا – التاريخ ، اي المظاهر الناتجة عن الاطار الجغرافي ، ومن جهة اخرى : الدين والعواطف ، والاقتصاد والتعليم ثم القانون ، أي ما يمكن ان نطلق عليه عناصر التفكير الاجتماعي لدى القوم الذين يتوحدون او يحاولون ان يتوحدوا ، فان كل هذه العوامل موجودة ومحسوسة ومشاهده فى مواطني المغرب العربي الكبير ، فلنلق نظرات خاطفة على اهم تلك العناصر لنعرف الى اي مدى بلغته من التاثير فى وحدة هذه البلاد .

اولا – التكوين الجيولوجي والجغرافي :
بحارا وجبالا ومناخا وتضاريس ونباتات وحيوانات ومعادن .

واول ما يلاحظ فى هذا المضمار ان مجموع هذه الاقطار الاربعة : المغرب ليبيا ، الجزائر وتونس ، يؤلف شبه جزيرة يحيط بها البحر من الشمال والغرب والشرق ، وتمتد حوالي 1800 كيلومتر طولا وحوالي 400 كلم عرضا بينما تحيط بنا الصحراء الكبرى جنوبا ، ويمتد الاطلسان الاكبر والاوسط عبر كل من المغرب والجزائر حتى اذا بلغا تونس التحما وكونا جبلا واحدا .

وهذه الصحراء الممتدة على طول حدود جنوب المغرب العربي الكبير ذات جذور وحدوية عريقة القدم ، سواء من حيث ما شاهدته تلك الصحراء من حضارات : حضارة نهاية العصر الحجري القديم اي ما قبل الميلاد بسبعة او ستة آلاف سنة وهي ما يعرف بمرحلة الصيادين ، او حضارة العصر الحجري الجديد والمبتديء من حوالي اربعة ءالاف سنة ق – م . وهي المرحلة المعروفة بمرحلة الرعاة أو الحضارة المعروفة بمرحلة الحصان والتى تبتديء حسب تقسيمات العلماء المختصين بحوالي الف ومائتي سنة ق – م . كما توحدت فيما بعد ، وفيما يسمى بمرحلة الجمل ، وذلك عندما طرات على هذه الصحراء تغيرات لم تعد معها صالحة للسكنى ، بسبب ما اصابها من جفاف .

وتجلت هذه الوحدة الصحراوية بصورة اوضح فى عصر التاريخ الذى سجل بعض احداثه المؤرخان (هيرو دوت) الذى كان فى القرن الخامس قبل الميلاد ، و (ديو دور) الصقلي الذى عاش فى القرن

---

(1) من كلمات للكولونيل بوطسن
(2) دعوة الحق السنة 12 العدد2 الصفحة 122

الاول الميلادي ، فقد تحدثنا عن حياة اولائك الرحل الذين كانوا يجوبون الصحراء من النيل الى الاطلس ..

واما من حيث التضاريس : فان التل الوهراني وممر تازة يتبادلان الامتداد الطبيعي الى نهر الملوية، بينما تتلاحق هضاب دبدو وتندرارة المغربيتين بهضاب تلمسان واوسط الجزائر ، كما (ان الاطلس العالي يكون دائما الفاصل بين الانهار الحقيقية التى تتجه نحو البحار ، وبين الوديان التى تجتذبها الخفوس الصحراوية فى الجنوب ... ثم لا يوجد اي اختلاف فى ظروف تكوين اودية هذا الشمال الافريقي حتى ليمكن القول بانها كلها انجرفت فى ازمنة مطيرة قديمة، ولا يوجد اي خلاف فى ظروف وادي الزرود التونسي بالنسبة للجدي الجزائري ودرعة وزيز المغربيين ..

واما من حيث النباتات : فابرز انواعها الوحدوية هو الزيتون والتين ، والكرم ، والرمان ، هذه الانواع التى يظهر ان الفنيقيين هم الذين حملوها الى هذه الاقطار .. ثم هناك الحوامض والفواكه والدفل والدوم ، ثم الحلفة التى يقال انها لا توجد فى العالم الا فى بلدان المغرب العربي الكبير واسبانيا الشيء الذى قد يؤكد فى نظرنا — ان اسبانيا امتداد لهذه الاقطار المغربية الشمالية وانه ربما كان البحر الابيض المتوسط وحده ، والذى لم يكن منذ بدء الارض ، وانما اوجدته عوامل داخل الكرة الارضية من تلك العوامل التى تنشأ عنها التضاريس ، ومختلف التكوينات الجيولوجية التى تتعرض لها القشرة الارضية على الدوام هو الذى فصل بين جنوب اوروبا وشمال افريقيا .

واما من حيث المناخ : فان الميزة العامة لجميع اقطار المغرب العربي الكبير هي الحرارة المعتدلة والامطار الشتوية

ثانيا — وحدة المنحدر السلالي لدى السكان :

فمن الثابت الآن وتاريخيا كما سنرى ، ان جميع سكان اقطار المغرب العربي الكبير ترجع الى عنصرين اثنين : العرب الذين تبربروا ، والامازيغ .

والامازيغ هؤلاء الذين معناهم الاحرار هم فخذتان او قبليتان انحدرتا من اب واحد .. احداهما تدعى البتر اومادغيس بالسين المهملة او المعجمة ، وانهى بعضهم نسب هذه الى بربن قيس ابن عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان (1) .. بينما يرى ابن خلدون فى احدى رواياته انهم ينحدرون من زناتة التى كانت فى الاصل وقبل التطور اللغوي الذى لحق هذه اللفظة (جانا) وانهم احفاد ابن ضريس بن جالوت الذى حارب اليهود وقتله داوود (2)

ثم هؤلاء اي البتر تفرعوا الى زناتة والطوارق وهوارة الخ ..

.. والثانية تدعى البرانس وفروعها : كتامة وصنهاجة ومصمودة الخ ..

.. وكلا الفريقين — فى راي ابن خلدون — يرجعان فى اصل ارومتهما الى العرب الذين وفدوا مع البونيقيين من صيدا او صيدون اثر وفاة النبي موسى عليه السلام الى المغرب عبر مصر وانتهوا الى طنجة التى هي اساطين هرقل اومانتي كما هو اسم المغرب على لسان قدماء المصريين ، او هيسبيريا بتعبير اليونان .

وبهذا الذى نقله ابن خلدون وغيره يثبت علماء الانتروجولوجي وحدة ارومة العرب والبربر معا هذين العنصرين اللذين يتكون منهما سكان المغرب العربي الكبير الاصليون ، مستدلين على وحدة الارومة

هذه **اولا** بالسهولة واليسر الفريدين اللذين تقبل بهما البربر الحضارة الفنيقية دون الحضارة الرومانية مثلا مع طول اتصالها بهم ..

وثانيا السهولة التى تم بها تعريبهم ايام اتصالهم بالعرب .

وثالثا : بان لفظة (بربر) بفتح الباءين او كسرهما وحسبما اثبت مؤرخو السلالات ، لا تعني وجود عرق او سلالة او جنس خاص به هذا الاسم ، وانما اطلقها — فى البداية — اليونانيون على الذين لا يتكلمون لغتهم ، ثم جاء الرومانيون ليطلقوها على الذين لم يتاثروا بحضارتهم ..

(1) انظر ما نقله الاستاذ محمد بنشقرون عن صاحب كتاب « روضة النسرين » دعوة الحق السنة 10 العدد 8 ص 33

(2) انظر مقال محمد رضا شرف الدين البغدادي : دعوة الحق السنة 3 العدد 8 ص 39

ورابعا : بالتأكد ـ ومما كشفت عنه ءاثار عثر عليها بمصر اواخر القرن التاسع عشر ـ من ان عربا يمانيين ومن حضرموت عبروا الى ليبيا ثم افريقيا الشمالية ؛ مع افريقش او قبله او بعده ، كما ان وفودا عربية اخرى ـ كما سنذكر ـ وفدت على هذه الديار مع الفتح الاسلامي طبعا .

خامسا : انتشار تلك القبائل البربرية الاصلية بين جميع ومختلف مناطق هذه الاقطار الاربعة

فقبيلة زناتة التي انتمي انا شخصيا اليها واتحدث لهجتها ، والتي ما تزال أصولها قائمة ومحفوظة لدينا بتوات ، ولاسيما باقليم « جورارة » اذ لفظة (توات) تطلق على مجموع المساحة الارضية الممتدة ما بين مالي والنيجر وموريطانيا في الاصطلاح الجغرافي ، كما تطلق لفظة مراكش على عموم المغرب الاقصى عند بعض الناس ، والجزائر العاصمة على مجموع التراب الجزائري ، وتونس العاصمة على كامل التراب التونسي .

اقول ان قبيلة زناتة منتشرة في نقط مختلفة من عموم الاقطار الاربعة ، وان يكن معظمها يقيم حاليا في القسم الشمالي الغربي من توات (1)، فهي في السوس الاقصى المغربي ، وفي جبال اوراس ، وفي مزاب وورگلة بالجزائر ، وفي نفوسة بطرابلس ، وفي امكنة عديدة من تونس ، خلافا لما ذهب اليه (كوتي) من انه لا وجود لهذه القبيلة الزناتية ؛ وانه بحث عنها في مختلف النواحي المغربية فلم يعثر لها على اثر . وقد تابعه في هذا الراي الاستاذ محمد بنشقرون في مقال نشرته دعوة الحق السنة 10 العدد 8 الصفحة 100 . وما ذهب اليه تجديف لا مبرر له ولا سند له من الواقع، وخاصة (كوتي) الذي كان اقام عندنا في تيميمون بتوات ، بل وتزوج من زناتية ورزق منها ابنا كان زميلا لي في المدرسة الفرنسية هناك . وحين كنت بتوات في زيارتي الاخيرة لها يوليوز سنة 1963 ، سألت عن هذا الابن الذي كان يتظاهر طيلة وجوده معنا في المدرسة بالاسلام ، فقيل لي انه تنصر وهو الآن ضابط برتبة قبطان في الجيش الفرنسي وانه يقيم منذ استقلال الجزائر في فرنسا ..

اما قبيلة البرانس فلها هي الاخرى وجود قائم مستمر حتى الآن في كل من الاقطار الاربعة ، ففي المغرب ما تزال قبائل مصمودة وكتامة وصنهاجة قائمة ، ومعظم من يسمون في الجزائر (القبايلية) ينتمون الى هذا الاصل ، كما ان ابناء هوارة ومكناسة وجراوة ومغراوة ، تلتقي بهم في كل مكان من الاقطار الاربعة ، وما على من اراد مزيد الاطلاع الا ان يراجع الجزء السابع من كتاب (اتحاف اهل الزمان) لابن ابي الضياف ، ليجابه باسماء أسر تونسية ، تحملها اسر مغربية ، مثل الغماد ، والعواد ، والعصفوري ، وبخريص ، ومحرز والقصار الخ ، وحتى ليصعب ان تميز بين جنسيات حاملي هذه الاسماء أهم من المغرب ام الجزائر ام ليبيا أم تونس .

ويجب ان لا يعزب عن بالنا ان من المؤكد انه اذا كانت النواة الاولى لسكان المغرب العربي يتألفون من أولئك اللاجئين او المهاجرين اثر وفاة النبي موسى من فلسطين . فليس من المستبعد ولا من المستحيل ان تكون طوائف اخرى عربية وفدت فيما بعد بفكرة الغزو ، كما هو الحال بالنسبة للوجود الفينيقي في هذا الشمال ، او لعوامل الدعوة وتوحيد الله كما هو الشأن بالنسبة للعرب المسلمين الذين حملهم الفتح ابتداء من عقبة بن نافع وموسى بن نصير الى الادارسة فالعلويين .

والملاحظ ـ فيما يخص الالتحام بين السكان الاصليين والعرب الفاتحين ـ ان انصهارا حصل بين العنصرين ، والى الدرجة التي تم معها هذا التوالد والتجانس والامتزاج المشاهد بشكل يصعب معه التمييز بين اولئك العرب والامازيغ . وكأنما كان الاسلام ولغته العربية التي حملها معه دعاته تطورا طبعيا وامتدادا عاديا لمقومات تقدم هؤلاء السكان وانطلاقهم الى الامام، فقد كان ما تم مع الاسلام معجزة أثارت تعاليق جميع الباحثين ، وفي اندهاش ، فقد قال الفرنسي (كوتي) وهو يحلل هذه الظاهرة : « اننا نلاحظ خلال مجموع تاريخ المغرب تجاذبا بين الرحل البربر والعرب ، ذلك لان تشابه مناهج الحياة والعواطف الجوهرية اقوى من اختلاف اللغات » .

والحق ان الالتحام والانسجام الذي تم بين البربر والعرب كان غريبا والاغرب منه ان البربر اصبحوا معه يرفضون وفي قوة فكرة انتسابهم الى غير

---

(1) في كتابنا « اضواء على الصقع التواتي » الذي تعهدت وزارة موريطانيا والصحراء بطبعه كامل المعلومات عن هذه القبيلة الزناتية وفروعها .

الارومة العربية التى ءامنوا بانها ارومتهم ، وان نسبتهم الى غيرها ضرب من المحال لا يكتفون فقط بانكاره .

ثالثا ـ اللغة والفكر والدين والاجتماع :

(أ) فى اللغــة :

اذا كان التاريخ لا يحدثنا ، وبالضبط والدقة المتطلبين والمتناهيين عما اذا كانت اللغة التى كانت سائدة ، بين مجموع تلك القبائل من البتر والبرانس المتكون منهما السكان الاصليون لهذا المغرب العربي الكبير ، هي لهجة بربرية واحدة ـ ولا اشك انا فى انها كذلك كانت فى المناطق والبداية ـ ام انه كانت هناك عدة لغات ولهجات متنوعة ومتعددة ومتباينة كما هو الحال المشاهد الآن ، فى هذه اللهجات البربرية المنتشرة فى الريف والسوس وجبال الاطلس وتوات ، وجبال الاوراس والقبايلية ، فان الشيء المؤكد والمقطوع به والذى لا يقبل الشك او الارتياب هو اولا : ان اللغة البونية الفينيقية او الليبية كانت تسود كل القطاعات الشعبية لهذه الاقطار ، وقد اثبتت الحفريات هذه الحقيقة بما كشفته من خطوط اثرية كتبت على الحجر بهذه اللغة البونية ، وبحروف قيل انها اشتقت من الحروف الفينيقية التى لوحظ استعمال بعضه فى القرون الاخيرة لدى قبائل الطوارق .

ثانيا : ان العرب الفاتحين ، وخاصة من الهلاليين والسلميين الذين وفدوا على المغرب فى القرن الخامس ، وعرب بني صالح الذين استوطنوا ناحية غمارة وكانوا قد وفدوا قبل نشأة دولة الادارسة ، وضعوا نصب اعينهم العمل على توحيد المتساكنين حول هذا العنصر ، الذى هو شديدة الحساسية وكثير الاهمية بالنسبة لقيام اية وحدة وبين اي اناس ، ذلك لان اولئك العرب انما جاءوا يحملون رسالة ، ويبشرون بدين ، ويدعون الى سلوك يحدد ابعاده دستور ، وحيث ان ذلك الدستور كان القرءان والقرءان نزل بلغة قريش العربية، اي لغة اولئك الفاتحين ، فقد كان من الضروري العمل على نشر هذه اللغة ، حتى يتسنى للداخلين فى حظيرة الدين الاسلامي ، والمقبلين على تدارسه كعقيدة وسلوك ان يتفهموا ابعاد تلك العقائد ، ويقفوا على معطيات ما تسنه من سلوك .

وقد استطاع ابناء واحفاد اولئك الفاتحين ، وبالاخص او بصورة اتم واشمل بعد انتشار عقد الخلافة الاسلامية فى الاندلس وهجرة فلول ابنائها الى اقطار الشمال الافريقي ، حيث استوطنوا اهم حواضره كفاس والرباط وسلا وتونس ووهران وتطوان . استطاعوا ان يركزوا جهودهم فى هذا المضمار ، والى الدرجة التى اصبحت معها اللغة العربية هي وحدها اللغة المنتشرة بين كل مواطني ورعايا الشمال الافريقي . وحتى اصبح اولئك المنحدرون من الاصول البربرية ـ وكما قال كوتي ـ « لا يكتفون باتخاذ العربية لغة لهم فحسب ، بل يؤكدون انهم عرب ، وانه لا تجري فى عروقهم نقطة من الدم ليست بعربية » .

وهكذا نجد العرب اليوم مستقرين فى المواطن التى كانت تغمرها زناتة فى العصور الوسطى » (1).

(ب) فى الدين والفكر :

عرف سكان الشمال الافريقي منذ القديم، وعلى العموم ، بانهم قوم محافظون على التقاليد ، متمسكون بالدين ، واذا كانت عبادة الاصنام المشخصة للافكار الغيبية ، وعبادة الظواهر الكونية من شمس وقمر وكواكب ونجوم ، ظاهرة ربما كانت عالمية انسانية فى تلك العهود الحجرية وقبلها وفى عهود الغيبيات التى لا تعتمد دينا سماويا ، ولم تتصل افكارها بالسماء بعد ، فان سكان المغرب العربي قاطبة ، كانوا هم ايضا يمثلون عصرهم ذاك من هذه الوجهة .

والظاهرة المغربية فى الموضوع ان مختلف اقطار هذا المغرب العربي كانوا ـ فى الجملة ـ يتحدون فى نوعية العبادات ، بما فى ذلك عبادة الاصنام ، فمن المعلوم الآن ان القرطاجنيين كانوا عباد اصنام ، وكان الصنم (بعل) الههم العظيم والمفضل ، يقدمون له القرابين البشرية فى مواسم بهيجة وحفلات رائعة ، كما كان ـ وبالدرجة الثانية ربما ـ الاله كافون Gafon والاله بين Pen والمثبت تاريخيا ان البربر من سكان هذه الاقطار كانوا يقدسون هذه الالهة ، كما ثبت دفنهم لموتاهم ، ولو حتى بعد فشو عادة تحريق اولئك الموتى ، كما ثبت استنكارهم للحوم الخنازير وتحريم اكلها .

وتبعا لعنصر الوحدة الذى كان يربط بين هؤلاء السكان لوحظ انه عندما جاء الاسلام بطقوسه

(1) دعوة الحق السنة 1 العدد 12 الصفحة 4

ومعتقداته وسلوكه ، اعتنقوه جميعهم وان لم يكن ذلك دفعة واحدة ولا بتمام السهولة او بدون مقاومة.

ولم يكتف اولئك السكان بالوحدة العقائدية ، وانما تعدوها الى وحدة المذاهب ، فقد ظلوا من يومئذ يتمسكون بنفس المذاهب الفقهية القائمة على آراء وفهوم ائمة الدين والتابعين والصحابة والمصدرة اليهم طبعا من منطلق الاسلام ومهده مكة والمدينة اولا ثم هما والعراق والشام ثانيا ، وذلك بعد ان دون اصلا الدين : القرءان والحديث . .

وهكذا فانهم تمذهبوا جميعهم – ولعهد الفتح – بسلوك الصحابة والتابعين ، حتى اذا كان العهد الادريسي والفاطمي شوهد هناك فى نفس الوقت مذاهب الحنفية والشيعة والخوارج تبعا لنفوذ الفاطميين ، وما تم للمسودة العباسيين بسط نفوذهم على هذا المغرب الكبير حتى تمذهب سكانه بخصوص المذهب الحنفي لكونه مذهب العباسيين . . فاذا جاء القرن الخامس الهجري حيث تمكن المرابطون من فرض سلطانهم على عموم هذه الاقطار تقريبا رأينا السكان يتمذهبون جميعهم بالمذهب المالكي ، الذى تبناه اولئك المرابطون ودعوا اليه ، حتى انه من يومئذ يكاد يكون المذهب العام لسكان هذه الاقطار باستثناء وجود ما لقبر المذهب المالكي فى كل من تونس وليبيا وربما الجزائر ايضا ، نظرا لتعرضهما لوجود السلطنة العثمانية .

وكان للقرويين الفضل الاكبر على انتشار المذهب المالكي اذ انها كانت على الدوام ملتقى فطاحل العلماء ، ونبغاء الطلبة من مواطني كل اقطار المغرب العربي الكبيـــر .

وايمانا بهذه الوحدة الدينية والفكرية ، وضمن اطارها العام ، لوحظت حركة التبادل الثقافي الحر فى مجال العلماء والمفكرين ، وكان هذا التبادل معمولا به وبصورة مستمرة ودائمة بين مختلف مثقفي هذه الاقطـــار .

وكان يقوم به ، وعن طواعيــة وبكــل اختيار ، العلماء . لا يصــدرون فى ذلـك الا عن الرغبـة فى تلقي العلم والاستفادة، او نشره والافادة . واصبح من الاشياء المألوفة والمعتادة أن ينتقل هذا العالم او ذاك من مسقط راسه بأحد هذه الاقطار ليقيم فى القطـر الآخر، دون الاحتياج الى اي شيء من هذه الاوراق والوثائق التى تفتقت عنها عبقرية القومية الاوروبيـة الضيقة الافق والمحدودة الابعاد .

ونحن اذا ذهبنـا نتقصـى اولئك الاعلام الذين توافدوا على هذا القطر او ذاك ومن بعضها على البعض، أو رحلوا من احدها للاقامة بالآخر ، نندهش لهـذه الكثر ة الكثيرة من القائمين بهذه الحركة التبادليـة الحرة ، مع ملاحظة ان اولئك الاعلام يجدون نفس المكانة والتقدير وربمـا اكثـر الذيـن يجدونهـا فى مساقط رؤوسهم .

فهذا يونس ابن طربية القصري (من قصـر كتامة) يتولى قضاء طرابلس . وجمال الدين محمد ابن أبي بكر البغدادي القصري ايضا صاحب الوتريات فى مدح الرسول يختار للاقامة تونس حيث بها قضى نحبه ، وهذا محمد بن ابراهيـم العبـدري الابلي التلمساني المتوفى سنة 757 هـ يختار الاقامة بفاس بعد الطواف بين اهم العواصم الاسلامية لعصرئذ ، ويتوفاه الله بها ، وعبد الرحمن بن خلدون التونسي المولد المتوفى سنة 808 هجرية يقضي شطرا عظيما من حياته فى المغرب .

وهكذا يلاحظ المتتبع للحركة الطلابية – ان صح التعبير – بين الاقطار الاربعة – ان مبدأ الاخذ والعطاء الفكري والعلمي بين فقهاء واساتـذة وطـلاب تلـك الاقطار كان مبدأ قائما مقررا ومعمولا به فابن العباس الغبريني العالم التلمسـاني يتتلمذ على احمد بن عيسى القاضي ، كما تتلمذ محمد بن الحاج الفاسي صاحب المرحل على ابي محمد عبد الله المرجاني . وتتلمـذ ابن عرفة الافريقي وابن مرزوق التلمساني والمقـري النسب ، علي محمد بن سليمان السطي من قبيلـة اوربة الخ . .

وبلغت تلك الوحدة الفكرية القمة حينما افتى علماء فاس للامير عبد القادر الجزائري بجواز جباية الضرائب من سكان القطرين معا المغرب والجزائر ، وباسم المولى عبد الرحمن العلوي سلطان المغرب ليتمكن من متابعة حرب التحرير ، خاصة وقد حقق نصرا مبينا على الجيوش الفرنسية الغازية فى موقعة (مغنـــة)

(ج) فى الاجتمـــاع :

ان مظاهر الوحدة الاجتماعية بين الاقطار الاربعة كثيرة ، ومن ابرزها وحدة اللباس ، الذى كان يتكون فى الغالب من قميص طويـل وطاقيـة شبيهـة بالطربوش ، بالاضافة الى برنوس . .

ثم هناك الوحدة في المظهر العام ، فالجميع يرسلون لحاهم مع اختلافها طولا وقصرا ، ويصبغونها عندما تبيض، وهم يستعملون الكحل والحناء الزينة .

اما الطعام فهم جميعا يتناولون الكسكوس ويحرمون اكل الخنزير ، ويبيحون شرب الخمور .

رابعا ـ التاريخ والانتفاضات والثورات :

(أ) التاريـــخ :

يجبه المتتبع لحركة المد التاريخي ، والدارس لعوامله الداخلية والخارجية ، ولهذه الاقطار ، بظاهرة شمولية كل حركة او انتفاضة او ثورة لكل انحاء وبلدان هذه الاقطار ، حتى ان هذه الظاهرة لتشاهد فيما جل او صغر من اعمال سكانها ، كانوا في القمة او في القاعدة .

وما من شيء يحدث في جزء من اجزاء هذه الاصقاع الا ويكون له الصدى والتجاوب العملي في باقيها خيرا كان او شرا ، وفي جميع الميادين والمجالات اجتماعية وسياسية واقتصادية وتجارية فعندما سادت قرطاجنة وشيدت ملكتها عليشة ديدون معالمها . واقامت اسواقها التجارية المعتمدة على الملاحة البحرية . استجابت اقطار المغرب الكبير لهذه الحركة التجارية التي ازدهرت بفضل ما وضعت لها قرطاجنة من اسس بحرية عظيمة ، فاذا المتاجر الفونيقية تنتشر على طول سواحل المغرب الكبير .

وعندما تغلب الرومان والوندال لم يقتصر نفوذهم على المملكة القرطاجية وافريقيا القديمة ، وانما تسربت تلك السيطرة وامتد ذلك النفوذ الى كل البقاع .

وعندما ثارت الكاهنة ، الثورة التي اتت على الاخضر واليابس ، وخربت المدائن والحصون ، كان عملها التخريبي عاما وشاملا ، وكان ـ كما قال ابن خلدون ـ « من طرابلس الى طنجة ظلا واحدا في قرى متصلة فخلت اكثر البلاد ».

وعندما جاء الفتح وعم الاسلام بنوره كل مكان كانت عقيدته وافكاره محط العناية والاقبال من جميع اقطار المغرب الكبير .

وحين استولى مسيحيو شبه جزيرة ايبيريا على بعض شواطىء هذا الجزء من العالم ، شوهدت باقي شطآنه وهي تلقى نفس المصير .

كما اشتبه الوضع والمصير ايام العهد العثماني في جميع اقطار المغرب العربي باستثناء المغرب الذي استطاع ان يحتفظ بجذوة استقلاله حية قوية تتحدى الاعاصير وتنشر الامل في النفوس .

وحين تكالبت الامتيازات الاجنبية على المغرب الاقصى وتهارشت ، وخاصة في عهد المولى عبد العزيز ومن كافة دول اوربا العظمى ليومئذ : فرنسا، ايطاليا ، انكلترا، والمانيا ، كان هذا التكالب يستهدف جميع هذه الاقطار ، كما راينا في نهاية مسرحيته الاليمة ، ومأساته الفظيعة .

وفي هذا المضمار كانت المعاهدة المبرمة بين ايطاليا وفرنسا في شأن تنازل الاولى عن مطالبها في المغرب مقابل تنازل فرنسا عن مطامعها في طرابلس ، وهذه المعاهدة هي التي كانت وقعت بين البلدين في سنة 1900 ميلادية .

وفي نفس الوقت تلقت ايطاليا تأكيدا من فرنسا بحسن نيتها فيما يتعلق باستيلائها على طرابلس الغرب . هذا الاستيلاء الذي قصدت به ايطاليا ستر هزيمتها المنكرة التي تكبدتها يومئذ في شرق افريقيا وفي غزوها للحبشة بالذات .

وكانت تأكيدات فرنسا تلك نظير اعتراف ايطاليا ببسط حمايتها على تونس التي كانت توجد بها جاليات ايطالية يتجاوز عدد افرادها المائة الف ، مع الاعتراف بحقوق هذه الجاليات والاحتفاظ لها بامتيازاتها المخولة لها من الباي منذ سنة 1868 ميلادية داخل نظام الحماية الجديد الذي فرضته فرنسا على تونس ، وقد ابرمت هذه الاتفاقية بين الدولتين المعتديتين في شهر سبتمبر من سنة 1896 .

وهكذا على حساب اقطار هذا المغرب الكبير تم التصالح بين الدولتين ، ووضع كذلك حد للحروب الجمركية التي كانت قائمة بين البلدين حين تم الوصول الى اتفاق بين البلدين في شأنها وذلك بعد سنتين من اتفاقية الترضيات الآنفة الذكر وكان ذلك في نوفمبر سنة 1898 .

وحين تحرر المغرب وليبيا اخيرا من السيطرة الاجنبية ، لم يكن لتونس والجزائر الا ان تتحررا .

وهكذا يلاحظ ان مواقف هذه الاقطار من كل القضايا والاحداث مواقف موحدة منسقة ، او هي كما قال الشيخ محمد الشاذلي التونسي ـ وهو يصف هذا التجاوب القائم من الاقطار هذه في كل شيء :

« لا يكاد يحدث ما له تأثير من انبعاث حركة جديدة الا انتقل فى اقطار المغرب العربي الكبير وتجاوبت اصداؤه فى ارجائه بدون استثناء ، فكأن هناك عقلا واحدا ، وكأن هناك روحا واحدا (1) »

فالمد الاستعماري الذى تعرضت له هذه الاقطار عبر احقاب تاريخها والذى اشرنا الى بعض مظاهره والقائمين به : الفينيقيين والقرطاجيين والرومانيين والونداليين والبيزانطيين « كان له نوع من الفعالية فى توحيد الشمال الافريقي ، على التعاقب قرونا طويلة ولو على حسابه ، ومقارنة استمراره وتوغله فى الداخل ، اذ ان كثيرا من القبائل الداخلية المعتصمة بقمم الجبال وكثيرا الصحراء التى كانت فى مناعة من الغزو الاجنبي، كانت دائما متكتلة ضده فى شبه استنفار دائم ، او فى حالة دفاع مشترك مع سكان السهول والموانيء ، ولا شك ان رد الفعل هذا له خطره ووزنه فى تكوين الامة وتوحيدها 2) »

(ب) الانتفاضات والثورات :

فى صدر هذه الانتفاضات والثورات ، نستطيع ان نسجل باديء ذي بدء ثورة الخوارج الصفرية والاباضية التى كان منطلقها سنة 122 هـ والذى تولى كبرها وتزعم قيادتها واثار شرارتها ـ فيما يحكيه التاريخ ـ ميسرة المضغري ثم واصل حركتها خليفته من بعده خالد بن حميد الزناتي الذى تغلب على خالد بن حبيب الفهري بموقعة الاشراف قرب طنجة سنة 123 هـ كما هزم فيما بعد بقدورة على مقربة من تاهرت بالجزائر القائد كلثوم بن عياض .

وقد امتد نفوذ هذه الانتفاضة الى سائر اصقاع المغرب الكبير من طرابلس الى تونس فالجزائر فالمغرب ، وامتدت شمالا ما بين طنجة وسبو وجنوبا من قابس الى سجلماسة ففجيج .

وتوطدت هذه الحركة حين اسس الخوارج بزعامة بني رستم ـ نسبة الى رستم قائد القادسية ـ دولة لهم بسجلماسة معارضة فيما يبدو ، لفكرة حصر الامامة فى قريش ، او للتخلص من جور عمال الخلافة الاموية وعسفهم ، حسب رواية المالكي صاحب كتاب (رياض النفوس) الذى اورد قصة توجه ميسرة فى بضعة وعشرين رجلا من اصحابه الى الشام لمقابلة هشام الذى رفض استقبالهم ، وذكر بانهم وقتئذ دخلوا على الابرش يشتكون قائلين: « ان قائد الجيش الاموي يغزو بنا وبجنده ، ومتى غنمنا نفل جنده دوننا ، بدعوى ان حرماننا اخلص لجهادنا » . ثم سالوا الابرش «هل هذا الموقف له سند من كتاب الله او سنة رسوله ، او انه مجرد راي صار اليه الامام » ؟ قال المالكي فى روايته : انه لما طال بهم الانتظار ونفدت نفقتهم دون ان يحظوا بمقابلة امير المؤمنين كتبوا اسماءهم ودفعوها الى احد وزراء امير المومنين قائلين : « اذا سأل عنا فأخبروه » ثم رجعوا الى افريقيا ، الى ان كان من أمرهم ما كان .

ويقال ان قطب دائرة حركتهم الانتفاضية تلك كان فى البداية ابا الخطاب عبد الاعلى بن السمح المعافري .

والملاحظ ان هؤلاء الخوارج الصفرية ، كما اقاموا دويلات لهم فى المغرب الاقصى :

فى طنجة بزعامة ميسرة وخلفائه من بعده كما قلنا .

وفى تامسنا احواز فضالة والبيضاء ، بقيادة صالح بن طريف .

وفى مكناسة بامرة عيسى بن مزيد الاسود من موالي العرب . وهذه تعرفت الى صفرية جرسيف الواقعة بين تازة ووجدة ، وصفرية سجلماسة بتافيلالت بالصحراء التى تأسست قواعد مملكتها العظيمة ، مملكة (مدرار) سنة 140 هـ . اقول كما اقاموا تلك الدويلات فى المغرب اقاموا دولة اخرى اباضية خارجية بالمغرب الاوسط الجزائر، وهي الدولة الرستمية التى قامت بتاهرت (عراق المغرب) كما كانت تدعى يومئذ نظرا لاختلاف من آوتهم من طوائف دينية ما بين الخوارج والمعتزلة والشيعة واهل السنة ايضا .

وقد دامت دويلة تاهرت هذه حوالي القرن والنصف من الزمان وكان سقوطها على يد العبيديين الشيعيين .

ولتتم الوحدة استطاع الخوارج هؤلاء فى سنة 160 هـ ان يهزموا جيوش المنصور العباسي ، وان

(1) دعوة الحق السنة 2 العدد 7 الصفحة 45
(2) دعوة الحق السنة 12 العدد 4 الصفحة 79

يبايعوا عبد الرحمن الرستمي الذى كان رشحه لمثل هذه المهمة ابو الخطاب حين هم بمقاتلة جيوش المسودة التى كانت بقيادة محمد بن الاشعث الخزاعي . . .

ثم لاعطاء وجوده الخارجي ابعادا اوسع ، اصهر عبد الرحمن هذا الى المنتصر امير سجلماسة بأن زوجه ابنته اروى التي – فيما قيل – استطاعت ان تكون ذات شأن كبير لفائدة مصالح الدولة الصفرية السجلماسية .

وقد صار ابنه عبد الوهاب فى هذه الخطة فتزوج بنت شيخ قبيلة (لواتة) الباقية آثارها حتى الساعة قرب صفرو ، وهي ما تزال تحمل نفس الاسم واذكر ان الفرنسيين في حوادث 1944 م سجنونا هناك ، حيث حفرنا ترعة مائية تحمل الآن اسم ساقية الوطن .

والطريف فى دول الخوارج هذه ، انها كلها مزيج من العرب والبربر الشيء الذى يؤكد تشبث العنصرين بالوحدة التامة فى مواقفهما ومصايرهما ، وفى كل شيء .

وفى نطاق وحدة اقطار المغرب العربي فى الانتفاضات والثورات نستطيع ان ندرج ايضا مشاركة الجيوش المغربية للجيوش الجزائرية ايام الغزو الفرنسي للاراضي الجزائرية 1844 . وكان التدخل المغربي خطيرا وذا آثار فعالة في ترجيح كفة الجزائريين، وتقديرا لخطورته احتجت ضده فرنسا، ثم دفعت ببوارجها الحربية وقطع اسطولها الثمانية والعشرين الى محاصرة مينائي طنجة والصويرة ، ورميهما بالقنابل ، ثم الهجوم بالمدافع على الجيوش المغربية الى ان وصل البلدان الى اتفاق . .

ثم اذا نحن ذهبنا نتقصى اخبار الماضي واحداث التاريخ عن امكانيات هذه الوحدة ، وعما اذا كانت قد تحققت عمليا ، والى اي مدى ، فاننا لن نعدم وجود صور حية خالدة لوحدة حقيقية ، فى كل ابعادها ومجالاتها كانت تمت بين دول المغرب العربي الكبير .

واول ما نقف عليه من مظاهر هذه الوحدة الوطنية المنبثقة عن الارادة الشعبية ، ومن داخل الشمال الافريقي الى خارجه ، وتتوخى بالاضافة الى كل ذلك الوحدة السياسية التامة الكاملة ، هو محاولة الامير الجزائري (سيفاكس) احد امراء نوميديا « الجزائر الحالية » ، حين امتد نفوذ سلطانه على طول الشمال الافريقي تقريبا ، ووحد البلاد من قرطاجنة الى تلمسان .

ثم نقف من ذلك ايضا على ما قام به كل من يوسف بن تاشفين وعبد المومن فى دولتي المرابطين والموحدين من ضم اجزاء هذه الاقطار الى بعضها ، من طرابلس الى طنجة واحيانا الى الاندلس .

ثم نقف كذلك على ما بلغه نفوذ الفاطميين ، حيث كان امتد من فاس الى القيروان .

ثم نقف كذلك على ما قام به ابو الحسن المريني من الاستيلاء على المغربين الاوسط والادنى ولتدعيم هذه الوحدة عاد ابو الحسن لستة ملوك سجلماسة بني عمومته من الاصهار الى رؤساء وكبار الشخصيات فى هذه الاقطار ، فقد صاهر العائلة المالكة فى تونس ، وعن طريق هذه المصاهرة امكنه التدخل لمباشرة تحقيق الوحدة ، غداة حدوث ازمة ملكية بتونس اثر وفاة صهره .

وحاول ابو الحسن هذا ان يقيم هذه الوحدة على اسس فكرية وروحية ، فصاحب معه فى رحلته الى تونس جلة العلماء . ولا شك ان عملا من هذا القبيل ذو آثار حميدة على توضيح فكرة الوحدة لدى الاخوان الافارقة التونسيين .

ويبدو من مواقف ابي عنان هو الآخر، شديد التشبث والتعلق بفكرة الوحدة هذه ، وان لم يجد من علماء دولته التشجيع الكافي للمضي فى هذه السياسة .

فأمل الوحدة والتوحيد لاقطار المغرب العربي الكبير ، امنية ظلت تراود افكار كل الذين قدر لهم ان يحتلوا مراكز القيادة والتوجيه فى هذه الاقطار . وان التاريخ ليحدثنا كيف ان ابا فراس الجوطي هو الآخر قد سعى لتحقيق هذه الفكرة فى اخريات عهد بني مرين وبداية افول نجمهم .

ثم الملاحظ تاريخيا ايضا انه ما ان تنعدم الوحدة بين هذه الاقطار او بعضها ، او تتعرض للاهمال واللا مبالاة من القادة والمسؤولين الا اختل الوضع السياسي فى جميعها واصاب أممها وشعوبها الخذلان، ولنا فى بعض الوقائع التاريخية – وهي تلك التى انفصمت فيها عرى الوحدة بين الجزائر وتونس – اعظم دليل واقوى برهان على ما نقول ، ففى الفترة

الواقعـة ما بيـن 1037 هـ 1638 م ، و 1235 هـ 1816 م ، وهي الفترة التي تعرضت فيها سيـادة هذين القطرين للوجود التركي تقابل البلدان بالسلاح ما لا يقل عن ست مرات (1)

وكانت الدولة العلوية ـ وشيمتها التسابق الى الخيرات ، واتيان المبرات ، ـ من اكثر الـدول اهتماما بفكرة وحدة المغرب العربي وقضاياها ، وعلى الصورة الحقة وفى كل الميادين ابتداء من الاقتصادية والاجتماعية الى السياسية ووحدة المصير .

وقد سعت الى تحقيق الفكرة واخراجهـا الى حيز التطبيق ، بل تبنتها وصاغتها فى اطارها الدولي، ولا غرابة ، « فالاسرة العلوية ـ وكما يقول الاستاذ علال الفاسي ـ قامت على اساس الدعوة الى توحيد الدولة المغربية وجمع كلمتها (2) » .

واذا علمنا ان نشأة الدولة العلوية اساسيا انما كانت لتشييث دعائم التوحيد ، وعلمنا مدى تشبثها بهذه العقيدة الدينيـة ، فى كل اعمالهـا وحركاتهـا وسكناتها ، وعرفنا مدى غيرتها على تطبيـق الـروح الدينية فى كل الميادين ومرافق الحياة، وعلمنا ان هذا الدين يدعو الى الوحدة والتوحيد ، اذا علمنا ذلك لم نستغرب تبني العلويين لفكرة توحيد المغرب العربي الكبير ، هذا التبني الذى وضع اسسه ملوك هذه الدولة الاولون، وقعده الملك الراحل محمد الخامس، ويحاول الحسن الثاني ان يرفع بنيانه ويعلي هرمه.

وللتدليل على ان منطلق الدولة العلويـة فـى مواقعها كلها انما ينبثق عن روح الاسـلام ويتوخـى ما يمر به لصالح البلاد والعباد يعجبني ان اورد الفقرة التالية من رسالة توجيهية وتشجيعية كان وجههـا محمد الخامس الى مجلة دعوة الحق الغـراء غـداة صدور اول اعدادها : يوليوز 1957 قال رحمه الله (ان حرصنـا على الاعتصام بحبل الدين ، والتشبث بمبادئه ، والسير على سننه ليعـد احـد العوامـل الاساسية فى خروجنا من معركة الحرية ظافريـن منتصرين ، بالرغم عما اعترض سبيلنا من عراقل وما منينا به من اهوال وخطوب ، وسيظل عاملا اساسيا فى تحقيق اهدافنا المنشودة ، كأمة تواقة الى حياة راقية كريمة)

اما فيما يخص موقفه من فكرة وحدة المغـرب العربي فاليكم بعض المواقف والتصريحات ، ففى تصريح له للصحف اليومية الباريزية ، وفى تاريخ 6 مارس 1958 ، اكد ايمانه بهذا الاتحاد واستعداده التام للدخول فيه ، والعمل على اخراجه الى حيز التطبيق .

ولكي يعطي محمد الخامس تصريحاته تلك طابعا رسميا وشعبيا فى آن واحد عاد فأكده فى الخطاب الذى كان القاه بالدار البيضاء فاتح ماي سنة 1958 بمناسبة الاحتفالات بعيد الشغل والعمال

ومحمد الخامس فى موقفه هـذا يصـدر عن الفكرة الاساسية التى عاش لها ، وظل ينـادي بهـا طيلة وجوده كمسؤول اول على راس هذه الدولة ، واعنى بها فكرة توطيد اواصر الاخوة والمحبة بيـن سائر شعوب وامم العالم ، فمن كلماته ، وهو يرحب بعاهل الحجاز الاثنين 18 فبراير 1957 (ان المغرب شارك دائما فى توطيد اواصر الاخوة بين المسلمين، والمودة مع جميع ذوي النيات الحسنة فى كل الانحاء)

ومن غير شك ان موقفه من الوحدة العربيـة كان هو الآخر يصدر فيه عن نفـس النبـع ، محبـة العالمين ومصافحة كل الذين يسعون للصلاح وينهون عن الفساد ، ومن كلماته فى الموضـوع (ان المغـرب ينتمي الى عالم العروبة والاسلام والرحب الفسيـح وهذا الانتماء يجعله شديد الاهتمام بما يجري فيه متتبعا عن كثب تطور احواله ، مؤيدا قضاياه العادلة فى المنظمات الاممية، كما انه سيسعى لتقوية ما يصله به من اواصر معنوية ومادية) 18 نوفمبر 1957 .

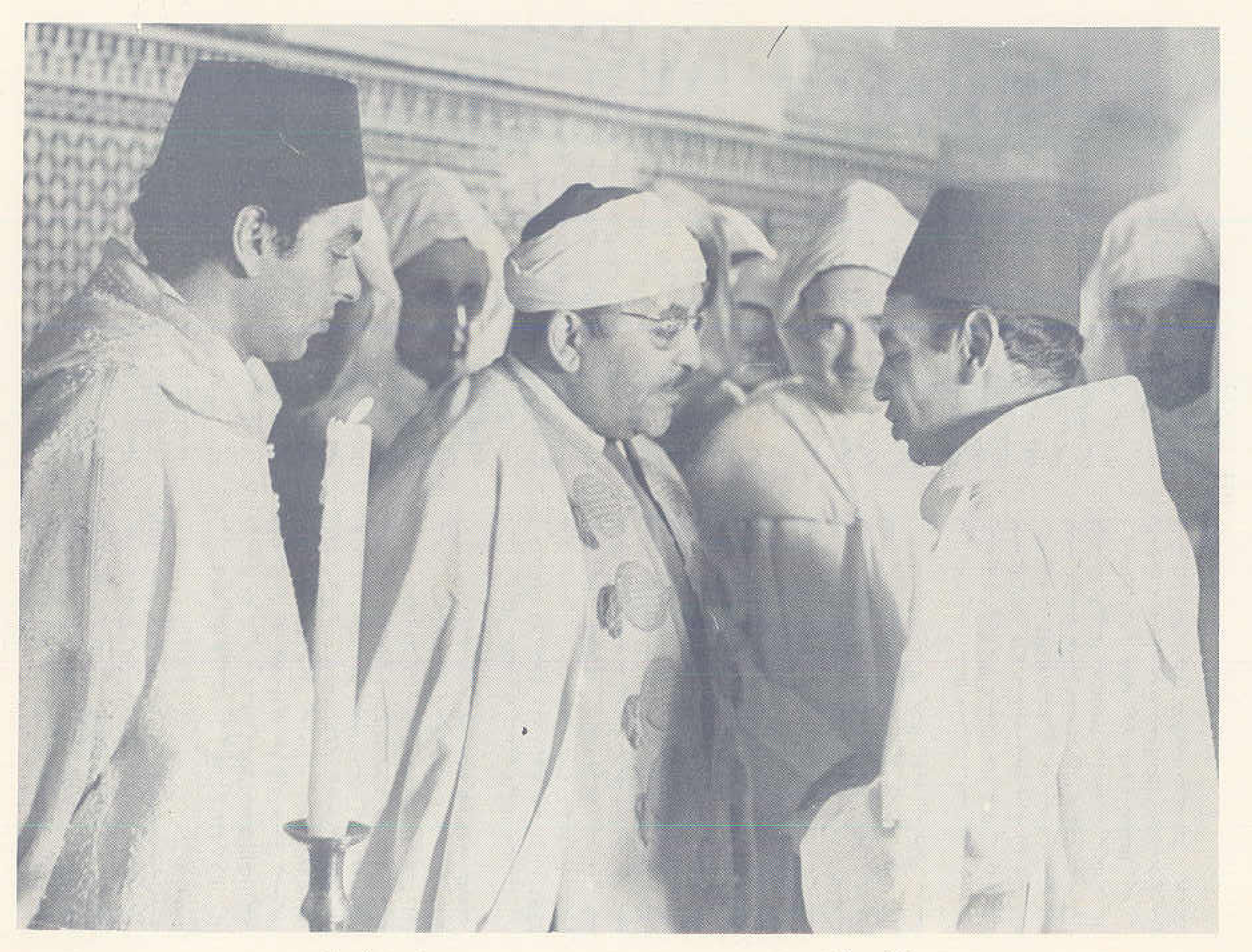
وبمناسبة تقديم السفير الباكستـانـي اوراق اعتماده لدى جلالته 16 يوليوز 1958 ، قال محمد الخامس : (انها لمناسبة سعيدة حقا ان يتاح فيها لمملكتنا ان تمتن روابطها مع اكبر دولة اسلاميـة).

وترحيبا بالملك حسين 22 ابريل 1959 قال : (لقد كنا وشعبنا نتوق من زمان الى زيارتكم لنا ، ورؤيتكم فى هذا الجزء من الوطن العربي الكبير ، سيرا مـع خطتنـا الراميـة الى توثيـق التعـارف والتعاون بيـن ملوك الاسلام والعروبة ورؤسائها)

---

(1) اتحاف اهل الزمان لابن ابي الضياف الجزء الثاني الصفحة 33 ، الجزء الثالث صفحـات 41 ، 51 ، 58 ، 124 .

(2) دعوة الحق السنة 11 عدد اربعة صفحة 20



صاحب الجلالة يكرم علماء تونس في شخصية العالم السيد الفاضل بن عاشور

وفى كلماته للاجئين الفلسطينيين ، حين زار مخيماتهم بأريحا 29 يناير 1960 قال (اتينا الا ان نزوركم ، لا باعتبارنا ملكا .. بل باعتبارنا اخا مسلما عربيا يقاسم اخوانه العرب والمسلمين آلامهم وآمالهم، ويشاطرهم سراءهم وضراءهم ، حيثما كانوا وانيما وجدوا)

اما موقفه فى خصوص القضية الجزائرية ، يوم حمل هذا الشعب المناضل السلاح فى وجه الوجود الفرنسي الاستعماري فهو موقف غني عن البيان ، ولا يحتاج الى برهان ، لانه من القوة والصراحة بمكان وللتدليل لا الحصر نورد كلمتيه التاليتين والاولى ابتهال ودعاء فى خطبة الجمعة التى القاها بنفسه فى مسجد تطوان الاعظم سنة 1957 وقد جاء فيها (اللهم انزل سكينتك على الجزائر ، وتداركها بلطفك الباطن، والظاهر ، وكن وليا لها ولسائر المستضعفين ، وانشر سلامتك عليها وعلى اهل الارض اجمعين)

والكلمة الثانية وردت فى خطاب العرش لسنة 1957 ، وقد جاء فيها هذه النفحات القدسية . والسبحات الالهية ، قال رحمه الله (ونريد ان نؤكد هنا موقفنا من قضية الجزائر الشقيقة ، التى هي بعض من كل هذا المغرب العربي ، فنحن نؤيد دائما رغبتها فى الحرية والاستقلال ، ونعد هذا التأييد مما يدخل فى التزاماتنا نحو ميثاق الامم المتحدة والمبادىء المتعلقة بحقوق الانسان وحرية الشعوب فى تقرير مصائرها ونكرر رجاءنا فى ان يهتديء المسؤولون الى حل عادل سامي يحقن الدماء ، ويضمن المصالح العليا للطرفين . وبذلك تستفيد اقطار الشمال الافريقي الثلاثة امنها واطمئنانها ويتأتى لها حينئذ ان تتعاون — طبقا لما تفرضه وحدتها التى احكمتها الروابط التاريخية والجغرافية — من اجل استكمال نهضتها والقيام بدورها فى اقرار السلم والاستقرار فى هذا الجانب الهام من حوض البحر الابيض المتوسط)

... ولم يخف ارتياحه العظيم حين اظهرت فرنسا بوادر الاعتراف بالوجود الجزائري ، وبحق هذا البلد فى تقرير مصيره بنفسه وقد سجل ارتياحه هذا فى خطبة عيد العرش لسنة 1959 ، حين قال: (واوصلنا الجهود التى ما فتئنا نبذلها لتشييد وحدة المغرب العربي ، فدخلت الاتفاقيات المغربية التونسية فى طور التنفيذ ، وقام ولي عهدنا بزيارة تونس ، واجرى محادثات ذات اهمية مع رئيسها ورجال حكومتها ، كما جرت اتصالات ومشاورات بين ساسة الاقطار المغربية كلما اثيرت مسألة من المسائل التى تهمها ، خصوصا المسألة الجزائرية واننا لنسجل بارتياح كبير اعتراف فرنسا على لسان رئيس جمهوريتها بحق الجزائريين فى تقرير مصيرهم ، وقبول هؤلاء لهذا المبدا الذى نأمل ان يدخل فى حيز التنفيذ ليتسنى للشعب الجزائري ان يستعيد سيادته، ويقوم بالدور الجدير به . »

ويجب ان لا يعزب عن بالنا بأن عمل محمد الخامس هذا ومواقفه الحاسمة هذه تجاه القضايا العربية والانسانية، وتجاه قضية الجزائر بالخصوص انما هو امتداد لما عرف عن افراد هذه الاسرة العلوية المالكة وعظماء سلاطينها الافذاذ .

والتاريخ يحدثنا كيف ان الجزائريين حين احسوا بأن مقاومتهم بزعامة الامير عبد القادر بن محيي الدين لن تكون حاسمة ، ورأوا ما آل اليه امر هذا الامير بعد استيلاء الجيوش الفرنسية بقيادة الجنرال (بيريتزن (Berthezene) اذ نقلوه الى خارج الجزائر حيث انتهى به المطاف الى الاقامة النهائية فى سوريا ، وارتأى الجزائريون لكل ذلك وخاصة سكان غربها ابتداء من وهران ان يبايعوا السلطان المغربي المولى عبد الرحمن بادر هذا الى تلبية النداء الصريح واعلن تدخله المباشر لصد العدوان ، كما اشرنا الى ذلك من قبل ، وعين لتمثيله هناك ابن عمه المولى علي بن سليمان الذى كانت سنه يومئذ لا تتجاوز الخامسة عشرة ، وذلك فى 7 نوفمبر 1830 .

وعمل المولى عبد الرحمن هذا الذى كان قطعا تحقيقا لرغبة السكان الجزائريين التى كانوا قد اعربوا عنها قبل هذا التاريخ بزمان ، اذ كانوا رغبوا فى رعوية السلطان المغربي سنة 1806 ، عندما طلبوا من المولى سليمان ان يساعدهم على مقاومة الوجود التركي وتحرشات الفرنسيين اقول ان هذا العمل من الرجلين كان يتوخى الاعراب الصادق عن ايمان ملوك الدولة العلوية اولا بوجوب اعانة المسلم لاخيه المسلم وثانيا بوجوب مساعدة الجار ، وثالثا كان ايمانا منهم بأن يتحملوا مسؤولية الحفاظ على الوجود العربي والاسلامي فى هذا الجزء من عالمه ، واعتقادا بأن اية فرصة تلوح لتحقيق الوحدة بين اقطار الشمال الافريقي يجب اغتنامها ..

ولكن المؤسف ان بعض من ينتظر منهم ، فى مثل هذه الظروف ، ان يكونوا فى مستواها ، كانوا

ابعد ما يكونون عن فهم الدواعي الحقيقية للتدخلات المغربية من هذا النوع ، فقد حدثنا التاريخ كيف ان علماء فاس افتوا المولى سليمان برفض العرض الجزائري ، وان هذا اوشك ان يتردد لولا ان الراي العام كان في مستوى الظروف فابدى استعداده التام للسير مع السلطان الى النهاية الشيء الذي جعله يقدم ولا يحجم.. وموقف الراي العام هذا من العرض الجزائري ورفضه لفتوى العلماء ، واستجابته لاهداف ملكه تعبير صارخ وواضح يبين الى اي مدى كانت شعوب المغرب العربي ، ورأيها العام يومئذ بوحدة المصير المشترك ، وضرورة اتخاذ المواقف الموحدة ازاء ما يجبه هذه الاقطار من اخطار .

وترحيب الجزائريين الحار ، بالمولى علي – كما يحدثنا التاريخ – كان الجواب العملي للمتقاعسين الانهزاميين ، وكانت اكبر القبائل ترحيبا (الحضر) وبنو هاشم ، واتخذ هذا الترحيب صورا حية متحركة حين انضم الجزائريون الى جيوش المولى علي التي استطاعت بفضل حيويتها واستماتتها ، وايمانها بما من اجله تقاتل ، ان تستولي على مدينة (معسكر) بعد ان ثبتت اقدامها في تلمسان ، وبهذا الانتصار التفت حوله الارادات الصالحة التي كانت تشخصها يومئذ الزوايا : القادرية – التابية الوزانية – والتيجانية ، كما كان يبلورها رؤساء القبائل .

وتأكدت الوحدة في هذه الظروف – والالام والمصائب توحد على الدوام بين الناس ، وتحدد بدقة مفاهيم الاخلاق والتضحية – واطمان الاخوة الى بعضهم ، حتى ان مبعوث المولى عبد الرحمن الجديد الذي خلف المولى علي 16 غشت 1831 ، استقبل بنفس الحماس والترحيب اللذين استقبل بهما سلفه ، وازدادت التاييدات من مختلف القبائل الجزائرية ، ولوحظ انضمام قبيلة (السمائل) وآغاءات الدوائر الى الزمرة الطلائعية التي كان يمثلها الوجود الوحدوي للامتين المغربية والجزائرية، فتعاون الجميع على استعادة وهران في سبتمبر 1831 ، وان لم يستمر ذلك اكثر من اسبوعين ، نظرا لشدة وطأة الفرنسيين وكون جيوشهم مزودة بأحدث الاسلحة لذلك العصر .. واستمر المغرب في مركزه هناك عاملا على اعادة الثقة الى النفوس ، وتفجير طاقاتها الفوارة ، لخلق رجل الساعة ..

حتى اذا تجسم في الامير عبد القادر ارتأى المغرب ولظروف خاصة تمس سيادة المغرب داخليا وخارجيا ان يسلم القيادة – كما اشرنا قبل – للشيخ الحاج عبد القادر في 24 نوفمبر 1832 هـ ، حيث بايعته قبائل بنو هاشم وبنو عامر وقبيلة غرابة في سهل اغريس ، وكان عمر عبد القادر يومئذ 24 سنة .

واذا كان ذلك موقف المولى عبد الرحمن او بعضا من مواقفه فان المولى سليمان قبله قام بمساع مماثلة، ومبادرات رائعة في ميدان التضامن للدول العربية في الشمال الافريقي ، وعمل بدون انقطاع لتحقيق وحدة المغرب العربي الكبير ، ففي سنة 1217 هجرية 1803 م ، وعندما وجهت امريكا اسطولها البحري لحصار موانىء طرابلس تمهيدا لغزوها تحت ستار ضرورة تامين سلامة مواصلاتها البحرية لم يتقاعس المولى سليمان عن واجبه الديني والوطني ، وانما هب لانجاد ليبيا ، واتجهت قطع اسطوله البحري – كما هو الحال بالنسبة للسفن الجزائرية – الى موانئها وارغمت الامير كاف على الانسحاب (1) مردفا عمله البحري ذلك بعمل ديبلوماسي ، فقد ارسل هذا السلطان كتابا الى امير ليبيا يطمئنه فيه باستعداد المغرب لتقديم كل العون اللازم ، ويؤكد له فيه رغبته الصادقة على الوقوف بجانب الشعب الليبي وقضاياه العادلة ، فقد جاء في الرسالة الثانية من الرسائل الثلاث التي نشرها اخيرا الاستاذ المحترم السيد محمد المنوني (2) ، وحقق انها ارسلت في شأن هذا الاعتداء الامريكي على طرابلس لا نألو جهدا في صلة نصركم ، واعزاز امركم ، واتساق سعدكم ، واسعاف قصدكم .. وقصدنا بهذا ان يعلم اعتناؤنا بأمركم ، وعملنا على نصركم ، واهتمامنا بشأنكم ، ليقصر شأو عدوانها – والضمير لامريكا فيما حققه الاستاذ المنوني – ويتضاءل طغيانها) والرسالتان الاخريان اكدتا نفس هذه المواقف ، فقد جاء في الرسالة الاولى هذه العبارات (وسفيركم الوافد علينا لا جرم يرضى ، وهيهات ان ندع اعانتكم او نبدي في ذلك عذرا .. اذ الحر للحر معوان والمومن للمومن كالبنيان ..) وجاء في الرسالة الثالثة هذه الفقرات (.. والهدية وان كانت سنة ماضية ، وشريعة بازدياد الود آذنة وقاضية ، فلدينا من كريم الاخاء ما لا يحتاج لتأكيد ولا تكرير

---

(1) دعوة الحق السنة 12 العدد 4 ص 42

(2) دعوة الحق السنة 12 العدد 4 ص 42

ولا ترديد .. ولم نال جهدا في اعانة خديمكم الرايس ومامور جنابكم بعون الله ملحوظ ، في كل ما تريدون من اعانة وجهاد ، او التماس ارفاد)

ولزيادة تاكيد هذا التضامن ، ولاعطاء الوحدة صورة التحام سلك سنة امثاله ملوك ذلك العهد عندما يريدون ان يربطوا مصير شعوبهم ودولتهم بمصير شعوب ودول صديقة ، ففي سنة 1226 هـ 1811 م تزوج كريمة سيف النصر احد اعيان قبيلة الخنانشة الطرابلسية ، وقد كانت اختها في عصمة السلطان المولى اليزيد (1)

وتحقيقا لنفس الاغراض اي ضمان استمرار وحدة اقطار الشمال الافريقي لبى المولى سليمان صريخ الاخوة الجزائريين واستجاب نداءهم غداة هاجم بلادهم الاسطول الانجليزي سنة 1234 هـ 1818 م .. وكان بعث نجله الامير ابراهيم بكتاب الى باي الجزائر (1) وتتويجا لايمان المولى سليمان باخوة المغرب العربي الكبير - وعندما قرر، لاسباب ليس هنا موضع ذكرها - تفكيك اسطوله البحري عام 1233 هـ 1817 م اهدى بعض قطع هذا الاسطول للجزائر بينما اهدى بعضها لليبيا (1) .

والخلاصة ان ظاهرة تشبث الملوك العلويين بفكرة ضرورة قيام وحدة بين الشمال الافريقي ترجع جذورها الى الايام الاولى لقيام هذه الدولة ، اذ في عهد المولى محمد بن الشريف وحين توجه لناحية المغرب الشرقي سنة 1060 هـ في حملة تهدئية جاءه اهل ندرومة وتلمسان وقبائل حميان بقسميها، وعين ماض والاغواط مبايعين وراغبين في الانضواء تحت لوائه .

ولمن اراد مزيد الاطلاع على خصوص مظاهر هذه الوحدة بين المغرب وتونس ان يراجع مقالتنا المنشور بالعدد الرابع من دعوة الحق السنة 10 او ان يراجع كتاب اتحاف اهل الزمان لابن ابي ضياف وخاصة الصفحة 132 من الجزء 2 والصفحات 21 ، 51، 130 ، 200 من الجزء الثالث والصفحات 13 - 168 - 191 من الجزء الرابع والصفحات 53 - 97 - 117 من الجزء السابع

وفي نفس هذا الاتجاه سار الحسن الثاني ، وعلى منواله نهج وبسنن آبائه اقتدى (2) ، فقد كانت اولى كلماته التي عاهد الله عليها والشعب ، وهو يلقي اول خطاب له بصفته رئيس هذه الدولة ومليكها 3 مارس 1961 هذه الفقرات (وانني اعاهد الله واعاهدكم على ان اضطلع بمسؤولياتي واؤدي واجبي الوطني طبق مبادىء الاسلام وقيمه السامية ، وتقاليدنا القومية العريقة ، ومقتضيات مصلحة الوطن العليا)

وفي كلمة توجيهية كان قد اتحف بها مجلة دعوة الحق - وجلالته يومئذ ولي العهد قال (.. ونهضة المغرب نهضة تهدف الى اقامة مجتمع سليم على مثال ما دعت اليه تعاليم الاسلام النقية الطاهرة تلكم التعاليم الداعية الى الايمان بالله والعمل على ما فيه سعادة الدارين والحكم العادل الذى يربط الحاكمين والمحكومين برباط الالفة والمودة والتعاون على تحقيق الخير للمجموع ، وضمان حرية العقيدة والفكر والتصرف في حدود القانون ، وحماية كل ما يعتز به الانسان من اسرة ووطن وتراث مادي واستثمار الموارد التي سخرها الله لنا وجعل التمتع بها حلالا طيبا)

ومن كلماته في خطاب العرش لسنة 1968 « ان عنايتنا في المحافظة على القيم الاسلامية وبنشر التعاليم الدينية لا تقل عن اهتمامنا باشاعة الرخاء والازدهار والطمانينة بين افراد شعبنا »

وبمناسبة الاحتفال بليلة القدر المباركة لرمضان سنة 1387 هـ التي صادفت ذكرى مرور اربعة عشر قرنا على نزول القرءان : جاء في الكلمة التي وجهها لوفود علماء العالم الاسلامي « .. اجتهادنا هو العمل اليومي على ان يصير كتاب الله عملة خلقية وانسانية وقانونية ليتعامل بها جميع بني الانسان ، مسلمين كانوا او عربا .. انا قد جربنا عدة مسالك ومنها المسالك السياسية ، فلم تمكننا الى يومنا هذا من اي حل .. علينا ان نجرب كوسيلة لتوحيد الصفوف واتحاد الجهود وسيلة سماوية مقدسة الا وهي حبل الله المتين . »

والحسن الثاني بثاقب نظره ، ولمعرفته بدخائل نفوس سكان اقطار المغرب العربي الكبير آمن ان

---

(1) دعوة الحق السنة 12 العدد 4 ص 42

(2) التشبث بالاسلام ومبادئه اولا ، والدعوة الى توحيد العالم الاسلامي العربي ودول المغرب ثانيا ، ثم توحيد افريقيا والعالم الانساني ثالثا .

خير رباط يمكن ان يربط بين تلك الاقطار ويجمع بين سكانها على الائتلاف والوحدة ، ويوطد دعائم الاتفاق ، ويبعد شنآن الافتراق ، هو الدعوة الى الله والتشبث بكتابه . والعمل حسب هديه ، ومقتضى ارشاداته ، ذلك لانه راى – ورايه الحق – ان بالقرءان وحده امكن لهذه الامة التى يؤلفها سكان هذا الشمال الافريقي – وعبر طفراتها التاريخية الهائلة ، ووثباتها المظفرة التى تحقق الوحدة الحقيقية وانه انما تمت وكانت يوم اظل القرءان اهلها واستمسكوا به وبحبله المتين واعتصموا برباطه المكين .

ومن هنا – فيما اعتقد – راى وهو يضع اللبنات الاولى لقيام هذه الوحدة المنشودة ، ويخطو الخطوات المتزنة الواثقة لبلوغها ، ان يعود كما قلنا لسنن آبائه واسلافه ، فيحتضن القرءان وعلومه ، ويعمل على نشر واحياء الروح الدينية لدى سائر المواطنين ورعايا الدولة الاسلامية ، فكانت الاحاديث الرمضانية ، التى تبلورت فى انشاء دار الحديث الحسنية ، ودعمت بهذه المجموعة من دور القرءان التى بثها فى نقاط استراتيجية على طول المملكة ، وزكيت بالعمل المبارك لاحياء الكتاتيب القرءانية .

ثم لاعطاء الفكرة وجودا مرئيا محسوسا وحركة شمولية دعا علماء العالم الاسلامي ابتداء من علماء الاقطار الاربعة للمغرب العربي لحضور تلك الدروس الرمضانية والمشاركة فيها بالتدريس والمناقشة والحوار .. فلم تكن دعوته لاولئك العلماء مجرد صدفة او عملا اعتباطيا ، ولكنها خطة مدروسة تهدف الى الوحدة العقائدية التى يجب ان تتبلور فى جميع اذهان العالم الاسلامي والى تجديد ابعاد الوحدة الدينية التى يجب ان تشمل الارض والسماء والدين والدنيا والمادة والروح والانسان وما عدا الانسان .. وتهدف كذلك الى تنقية تلك العقيدة مما علق بها من ادران الترهات المتسترة بالدين ، والدين الحق منها براء ، وانجائها فى نفس الوقت من زوالف مغريات الحضارة الحديثة القائمة فى معظمها على المادية الكافرة بالانسان وانسانيته، والجاحدة لكل المقومات الروحية ومقدسات الانسان الغيبية .. حتى اذا آمن الجميع ، ووقر فى اذهانهم واطمأنت نفوسهم، وسلمت عقولهم، ان لا طريق للخلاص ، الا بالرجوع الى القرءان ، الذى كان الى حدود كثيرة سببا فى قيام الوجود الحق لهذه الدول المتساكنة فى هذا الشمال الافريقي، وسببا فى استمرار ذلك الوجود ، ومده باليقظة الفوارة كلما لاح ان شللا سيعطله ، او جرحا سيصميه، او ان عائقا سيحول دون انطلاقه نحو مواصلة رسالته الحضارية والتمدينية .

وحتى اذا قرر قادة هذه الشعوب ان استلهام القرءان جزء من وجودهم وبعض من رسالتهم : وطريق لاستمرار معطيات ذلك الوجود ، وابعاد تلك الرسالة ، امكن حينئذ جمع الكلمة على مبدا التفكير فى ضرورة الوحدة والتوحيد ، انطلاقا من فكرة توحيد الاله والعقيدة ، ثم المذهب والسلوك .

ومن هنا سعى الحسن الثاني لجعل دروسه الحديثية الرمضانية ، تكون شبه مؤتمر اسلامي عالمي ، تطرح فيه مشاكل الساعة ، ومشاكل الانسان الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، مرتبطة بالناحية الروحية والخلقية ، اعتبارا لان النواحي الخلقية والروحية هذه ، اجدى على الانسان فى يومه وغده ، وفى حاله ومعاده، من النواحي المادية المجردة ..

ولست فيما اقرره أرسل الكلام جزافا، او اطلقه على عواهنه ، او لمجرد التأويل وزركشة الحديث ، ولكني استوحي كل ذلك من مواقف وكلمات الرجل ، وتدبروا معي ان شئتم الكلمات الآتية الواردة فى خطابه بمناسبة الذكرى الاولى لجلوسه على العرش. (يجب ان تكون شخصيتنا الاسلامية بارزة فى جميع مظاهر النهضة .. وان تاريخ المغرب نفسه ليشهد بأن أزهى عصورنا هي العصور التى كان التمسك بالاسلام فيها من ابرز المميزات . وان كل حركة تحريرية اصلاحية انما قامت على اسس القيم الروحية ، ففى اطار ديننا الاسلامي السمح ستسوغ كل عمل ، وكل اصلاح ، لان المكاسب الدنيوية ليست غاية فى حد ذاتها ، لانها مكاسب محدودة اما المكاسب الروحية فليست لها حدود ، لانها هي الوجود ، ولانها هي التى تمكن الفرد من حسن التصرف ، فى مكاسبه الدنيوية ، وتكيف تصرفه بالخصال الحميدة ، حتى لا تكون فى المجتمع شحناء ولا بغضاء ولا تفرقة) .

وقال فى الخطاب الذى وجهه للعلماء والفقهاء الذين وفدوا على المغرب للمشاركة فى الاحتفالات الدينية المقامة احتفاء بمرور اربعة عشر قرنا على نزول القرءان رمضان 1387 هـ (.. ولكن اسمحوا لي ايها السادة ان اقول لكم ان هذه اليقظة التى انطلقنا على ضوئها نترسم طريق الخلاص ، ونترسم

على هديها طريق النجاح والصلاح، لن تكون لها اية فائدة تذكر ، اذا لم يكن شعارنا وعملنا في جميع مراحلها نستمده من عزة القرءان العظيم الذى بدونه لانستطيع ان نبتي اية نهضة ، ولا نتمكن بدونه ان نثبت اية عقيدة ، امام هذه التيارات الجارفة التى بدات تغزو عالمنا بشعارات من الانحلال والالحاد ، الا اذا تمسكنا بمنهج القرءان العظيم ، وجعلنا منه خير مادة ، واحسن عملة ، واعظم وسيلة ، لها من الاتقان والنهج والغاية والهدف ما يناسب اي تطور في الدنيا ويصاحب اية نهضة في العالم) (1) .

وهكذا يتجلى بوضوح ان الحسن الثاني يقيم وجوده ووجود دولته واستمرار الوجود الانساني على هذه الارض ، يقيمه على هذه الزاوية الدينية المتفتحة على كل ارجاء الدنيا ، والباحثة عن النور ، اعتبارا لان الوجود الانساني والاول لقيام الدولة العلوية - في نظر الحسن وفي نظر ملوك هذه الدولة كما قلنا - انما قام لاعطاء ملابسات الشعور الديني والدنيوي مزيدا من الروافد الجياشة بالحياة ومعطياتها الايجابية . خاصة ونحن نعلم ما كان يجتاح النفوس المغربية ساعة قامت هذه الدولة من الانحلال الخلقي التى استشعرت تلك النفوس بذاتها شدة وطاته عليها ، وسوء عواقبه على وجودها ذاته فكان ذلك مع ما اضيف اليه من التحدي البرتغالي الذى كان يومئذ يحاول توسيع رقعته على حساب الشواطيء المغربية ، ما حدد مجال الدولة العلوية وحدد اهدافها القريبة والبعيدة .

وما من شك في ان فكرة اعادة قيام قواعد الوجود المغربي على مبدا الرجوع الى استلهام الاسلام والسير حسب تعليماته مع المحافظة على مكتسبات هذا الوجود ، هي الحافز الاول لقيام العلويين ، كما كان الشأن بالنسبة لمجموع الدول الاسلامية التى تعاقبت على زعامة هذه الامة ، وان اختلفت اساليب هذه الدولة عن تلك التى كانت تنهجها الدول قبلها نظرا للاختلافات الزمنكية . ولكن الاطار العام بقي هو هو ، وكانت مبادرة هذه الدولة للاتصال بالدول المسيحية والتفاوض معها لاطلاق سراح جميع اسارى المسلمين لا بوصفهم من رعايا المغرب فحسب ، اعظم حجة على ان من معين المفهوم العام للاسلام ومضمونه الحقيقي يصدر ملوك هذه الدولة في مواقفهم الداخلية والخارجية . وان

من هذه الزاوية ايضا يصدر الحسن الثاني في مواقفه من قضايا فكرة الوحدة كانت في المحيط الاسلامي او العربي او الشمال الافريقي او القارة الافريقية او العالم كله .

ففيما يخص فكرة الوحدة الاسلامية والعربية نستطيع ان نستخلص مواقفه تجاهها بالاضافة الى ما اوردناه سابقا من كلماته التالية :

فمن كلماته ترحيبا برئيس مالي 3 يونيه 1961 (... ونحن لا نعتبركم اجانب في هذه البلاد ولا غرباء عن اهلها ، بل نعتبركم في بلدكم وبين اهليكم وعشيرتكم ، ولا عجب فمنذ فجر التاريخ ، وبلدانا مرتبطان بأوثق عرى الاخوة والصداقة ، وقد زاد تلك الروابط قوة ومتانة اهتداء شعبيهما بهداية الاسلام وقيامهما معا بنشر تعاليمه وتوسيع نفوذه داخل القارة الافريقية) .

وفي ترحيبه بشاه ايران ، بمناسبة زيارته الرسمية للمغرب ، 11 يونيه 1966 قال : (.. ان الاسلام الحنيف الذى انبثق من جزيرة العرب واينع غرسه في مشارق الارض ومغاربها ، وترعرعت الحضارة في ظله الوارف، دين يعتبر المومنين اخوانا، ويدعو الى التعارف والتعاطف بين شعوب الارض كافة؛ ومن آكد الواجبات الملقاة على عاتق اولي الامر من المسلمين ، وان بعدت بهم الديار وشط بهم المزار ان يوجهوا اكبر اهتمامهم الى شؤون اخوانهم في العقيدة ، ويعملوا على اصلاح احوالهم ورعاية مصالحهم .)

وفي خطاب العرش لسنة 1962 جاءت هذه الكلمات : (.. ولم ننس في وقت من الاوقات رغم ما تضطرب به ارجاء الدنيا من احداث جسام ، ان المغرب جزء من العالم العربي ، وان بيننا نحن العرب في الشرق والغرب روابط ماسة ، يجب علينا في كل وقت وحين ان نعمل على تنميتها وتعزيزها)

وقد اكد الحسن الثاني بكلماته هذه ما سبق ان اكده ابوه طيلة حياته السياسية الطويلة بمواقفه الرائعة من القضايا العربية الاسلامية، وكانت تصريحات طنجة 1947 بلورة لتلك المواقف اذ جاءت في ذلك الخطاب التاريخي الهام الفقرات الآتية (.. وغني عن البيان ان المغرب دولة عربية ، صلتها وثيقة بالمشرق

---

(1) دعوة الحق السنة 11 العدد 4 ص 143

العربي ، فمن الطبيعي ان يزداد هذا الاتصال متانة وقوة ، سيما وقد اصبحت الجامعة العربية تقوم بدور مهم في السياسة العالمية ، وهذا الايمان بالعروبة وهذا التشبث الوطيد بها لم يكن وليد ظروف او حالات عابرة) .

ومن كلمات ابن يوسف في خطاب افتتاح مؤتمر الدورة الثانية والثلاثين لجامعة الدول العربية الذى كان انعقد بالدار البيضاء فاتح سبتمبر 1959 والذى القاه الحسن الثاني بالنيابة عن ابيه ، نقف امام هذه الفقرات (... والمغرب لم يتردد في الانتظام في سلك الجامعة العربية بعد استقلاله عازم على القيام بدوره الكامل في حضنها ، بجانب اشقائه، اداء لواجب يفرضه عليه انتماؤه للعروبة ، وشعورا بمسؤولية العمل لحفظ السلم العالمي داخل منطقة اقليمية نص على مثلها ميثاق الامم المتحدة ، وسعيا في نصرة المباديء التى قامت عليها الجامعة، وتحقيق اهدافها وتبليغ رسالتها تلك الرسالة المستوحاة من تقاليد الامة العربية ومثل الاسلام العليا .)

والحسن الثاني في ترسمه خطى الوحدة العربية والاسلامية يضع النقط على الحروف ويسمي الاشياء بأسمائها،ويمس المواطن الحساسةلهذه القضية، ويقدم فيّ نفس الوقت مخططا مدروسا يعتمد الواقعية العالمية، وامكانيات الدول العربية والاسلامية، وما تتوفر عليه في ذلك ماديا وبشريا . ولتوضيح موقفه ذلك نورد الفقرات الآتية من الخطاب الذى كان القاه في الدار البيضاء تاسع سبتمبر 1965 ، بمناسبة انعقاد مؤتمر القمة العربي الثالث قال : (... ان معركة محاربة التخلف .. هي المعركة التي يجب أن نجند لها جميع امكانياتنا وطاقاتنا .. انها معركة تقوية الوجود العربي من الداخل بتقوية الانتاج ، وتدعيم التجهيز ، وبرفع مستوى حياة جماهيرنا ببناء القوة الذاتية العربية في جميع المجالات ، خصوصا واننا نملك رصيدا ضخما من الكفاءات والامكانيات المادية والمعنوية ، والثروات المحتاجة الى الاستغلال والاستثمار ، واذا كان عالمنا العربي يتوفر على اقتصاديات يتكامل بعضها ببعض فان تنسيق الجهود للتنمية هو وحده الكفيل بتحقيق الازدهار الشامل الذى تطمح اليه شعوبنا ، فبالتعاون وتنسيق الجهود واحكام الخطط في الميادين الاقتصادية نستطيع ان نقترب من جميع اهدافنا في الوحدة والتقدم والتحرر والانتصار بذلك على خصومنا .. نحن هنا لنواصل السير من حيث ابتدانا ، كان هدفنا هو الاتحاد والعمل من تحرير فلسطين وتقدم الامة العربية وتطورها وما زلنا على ذلك موحدين القصد مؤكدين العهد)

وفي الخطاب الذى القاه الحسن الثاني في اختتام ذلك المؤتمر عاد فأكد آراءه السابقة حيث قال : (... كما لا تغفل ان هذا المؤتمر قد وضع الاسس العملية لدعم التضامن العربي دعما صحيحا في جميع المجالات ، ايمانا بأن قوتنا الحقة تكمن في هذا التضامن عن طريق تيسير اسبابه ، وازاحة كل ما يعرقل قيامه وتدعيمه ، فالتقدم العربي وانطلاقة العربي نحو غد افضل مرهونان بهذا التضامن)

ولا شك ان هذه الاشعاعات الحسنية هي قبس من ذلك النور الذى واكب وجود الدولة المغربية عبر تاريخها الحافل بجلائل الاعمال خاصة في العهود الاسلامية ، وبالاخص في عهد هذه الدولة العلوية التى كانت حركاتها على الدوام تقترن وتمتزج بالروح الدينية .

والحسن الثاني هنا يقتفي في مواقفه بآثار اجداده ، وبأبيه خاصة ، ويلبي احدى وصايا هذا الاب الخالدة ، فمن كلمات محمد الخامس في الموضوع ما صرح به للسيد كامل الشريف نائب امين عام المؤتمر الاسلامي بالقدس الشريف ، فقد قال : (... لقد كان الاسلام هو غذاءنا الروحي في سنوات الكفاح الطويلة ، ولولاه ما صمدنا في وجه الاستعمار، وهذا الدرس قد تلقيناه عملا لا قولا ، فلا حياة ولا مستقبل لنا الا بالاسلام ، وان انتصارنا على الاستعمار كان انتصارا للقرءان على خصومه ولولا هذا الكتاب الذى جمع قلوب مواطنينا على اختلاف عناصرهم وقومياتهم لانتهت امة المغرب والشمال الافريقي من زمن طويل ، ولاصبحت هذه الديار قطعة اوروبية حقيقية لا مجازا ، حقا لقد كان القرءان رائدنا في معركة التحرير ، وسيظل كذلك بالنسبة لنا في معركة الوحدة والبناء) (1) .

ثم كان من ابرز نقاط السياسة الخارجية للحسن الثاني منذ تسلمه مقاليد الدولة ، الدعوة الى توحيد المغرب العربي ، اعتقادا منه بأن وحدة ما : افريقية او عربية او دولية يشارك فيها المغرب ينبغي

(1) دعوة الحق السنة 11 العدد 4 ص 147

ان تنطلق معطياتها من الوحدة الاقليمية ، لما يكون عادة بين مجموعة متساكنة فى اقليم ما من عوامل الاتصال والاتحاد ما قد ينعدم وجود مثله فى القارات او العالم كله .

وايمانا من الحسن الثاني بما اشرنا اليه فى بداية هذا الحديث ، من عناصر الارتباط والوحدة القائمة بين اقطار المغرب العربي الكبير ، نادى فى اول خطاب للعرش القاه بضرورة بذل المساعي ومضاعفة الجهود للعمل على تحقيق هذه الوحدة وابراز معطياتها وامكانياتها الى حيز التطبيق ، فقد قال جلالته : (وان مما يدعم الكيان العربي ، ويعزز مكانته ، ذلك الحدث السعيد الذى لاحت تباشيره فى سماء جناحنا الغربي ، ونقصد به ميثاق اقطار المغرب العربي ، ولا شك ان هذه الوحدة التى صهرتها آمال وآلام شعوب هذه الاقطار ، وغذتها ارادتها المشتركة ستكون عاملا قوة لها ، وتفتح الآفاق لتقدمها ورقيها ... واننا اذ نرقب دنو ساعة تحرير الجزائر المكافحة لنسجل بارتياح عميق الجهود الكبيرة التي تبذل لاقرار السلم فى ربوعها على اساس الاعتراف لها باستقلالها ووحدتها ، وكما وقفنا بجانب الجزائر فى كفاحها سنظل متضامنين معها الى ان تتبوا مكانتها كدولة مستقلة متمتعة بسيادتها وكرامتها .)

واذا كان لم يكن للحسن الثاني – وذلك فيما يتعلق بفترة من تاريخ عمره المليء بالنضال والكفاح، وهي الفترة التى ظل فيها اميرا مواطنا او وليا للعهد – ان يتخذ المواقف الرسمية الصريحة من قضية الوحدة المغربية، او بتعبير ادق اذا لم يكن ان تسجل له تصريحات رسمية ، او تدون له اقوال (1)، فاننا نعلم جميعا – مع ذلك – انه وأباه ، فى كل المواقف الانسانية والقضايا الوطنية الكبرى ، كانا يصدران عن نبع واحد ، ويشربان من معين واحد ، ويتوخيان هدفا واحدا ونعلم ايضا ان الحسن الثاني كان فى كل المناسبات ، وفى كل فترات حياته : يفاعة وشبابا مواطنا مجردا او وليا للعهد ، او ملكا مسؤولا ، ينحو فى هذا المضمار ، اي مضمار وحدة المغرب العربي ، اتجاهات ابيه ، الشيء الذى يعطينا حق اعتبار مواقف ابيه وتصريحاته لتلك الفترة مواقف وتصريحات له :

وهل ينبت الخطى الا وشيجه ... وتغرس الا فى منابتها النخل فلنورد اذن بعض مواقف ابيه من خلال تصريحاته لربط السلسلة بتصريحات ومواقف الحسن الثاني ملكا .

فمن كلمات ابيه فى خطاب العرش لسنة 1958 قوله : (..ولم نفتأ نتضامن التضامن التام مع الشعب الجزائري ونعمل لتحقيق استقلاله ذلك الاستقلال الذى هو عنصر اساسي لتشييد وحدة المغرب العربي) .

كما جاء فى خطاب العرش لسنة 1959 قوله : (... وواصلنا الجهود التى ما فتئنا نبذلها لتشييد وحدة المغرب العربي فدخلت الاتفاقيات المغربية والتونسية فى طور التنفيذ) .

واعتقد ان سياسة الحسن الثاني فى قضية وحدة المغرب العربي الكبير – وربما كباقي ساسة وقادة هذه الاقطار – تنطلق او يجب ان تنطلق ابتداء من قيام وحدة اقتصادية بين هذه الاقطار ، ثم تنسيق مناهج التربية والتعليم والثقافة فى مفهومها العام : مسرحا وسينما وتلفاز وتراثا قوميا وفنونا جميلة وتبادل خبرات وفنيين واساتذة وطلاب، ثم تنسيق باقي الميادين الاجتماعية ، لتنتهي كل هذه الوحدويات الى وحدة سياسية كاملة تنمحي فيها الحدود والسدود .

ويمكن ان يكون خطابه الاخير الاثنين 16 يونيه 1969 فى وزراء وكتاب الدولة للتربية والتعليم فى بلدان المغرب العربي خلاصة فلسفته فى الموضوع ، وتلخيص لاهداف هذه الفلسفة وخطواتها الاولى ولهذا نرى ان نقتبس منه الفقرات التالية (.. اننا فى هذا الظرف التاريخي الذى تجتازه الامة العربية لم نشعر فى يوم من الايام كما نشعر اليوم باننا مهددون فى فلسفتنا الاسلامية وفى علمائنا وفقهائنا .. وانكم اليوم فى ندوتكم هذه لتبنون جسرا عظيما يمتد من طرابلس الى الرباط .. هذا الجسر الذى

---

(1) وبهذه المناسبة نأمل من الاستاذ الكبير مؤرخ المملكة السيد عبد الوهاب بنمنصور – وهو الخبير بهذه الشؤون – ان ينجز عملا ايجابيا كان وعدني به شخصيا فى مقابلة لي معه ، وهو وضع كتاب يعالج حياة وآثار الحسن الثاني ومواقفه الحاسمة قبل تربعه على كرسي اسلافه المنعمين ، حتى يتمكن الباحثون عن جوانب شخصية هذا الملك ان يقفوا منها على ما يجهلون .

من شانه ان يعزز الروابط بين دول المغرب العربي ، خصوصا ونحن جميعا تربطنا وحدة الدم والدين واللغة والتاريخ .. اننا اليوم امام واجبات جديدة لتحرير مقدساتنا الاسلامية واعادة الكرامة الى شعوبنا .. ان واجبنا فى هذا الظرف العصيب يحتم علينا العمل على استرجاع بيت المقدس ، وواجبنا ايضا ان نوحد الخطة لهذا العمل) (1) .

وقلنا ان هذا الخطاب كان خلاصة فلسفة الحسن الثاني في هذه القضية لان تصريحات ومواقف عديدة سابقة كانت قد اتخذت ونشرت ولا نستطيع ان نتقصاها جميعها او نستوعبها ، ولكنا سنحاول الاشارة فى ايجاز الى بعضها .

فبالاضافة الى النصوص التى أوردناها سابقا ننقل لزيادة التأكيد نصوصا اخرى من مختلف خطابات العرش ، فقد جاء فى خطاب العرش لسنة 1963 (.. اننا لننظر بمنتهى التفاؤل والاستبشار الى قيام دولة جزائرية مستقلة اعتقادا منا ان استقلال الجزائر ازاح من الطريق جميع العراقل التى كانت تحول دون تحقيق هدفنا المشترك ، الا وهو تشييد وحدة المغرب العربي .. وان الاتصالات التى قام بها وفدان مغربيان بكل من ليبيا وتونس والجزائر والزيارة التى قام بها وفد ليبي الى المغرب ثم الاجتماع الذى عقده وزراء خارجية تونس والجزائر والمغرب بالرباط بعد ذلك ، لتؤكد اننا ءاخذون بأسباب تحقيق هذه الوحدة ، كما دلت هذه الاتصالات والروح التى سادتها على ارادتنا المشتركة وعزمنا القوي على التعجيل بالوصول الى هذا الهدف المنشود .)

وجاء فى خطاب العرش لسنة 1965 الكلمات الآتية (.. واذا كنا مومنين بما لقيام الوحدة الافريقية من فعالية وجدوى ، فاننا نعتقد ان قيام الوحدات الاقليمية فى قارتنا خير سبيل لتحقيق الوحدة الكاملة ، واختصار المراحل الضرورية للوصول اليها ، وهذا ما يجعلنا علاوة على الروابط الخاصة التى تربط اقطار المغرب العربي نولي عناية فائقة لقضية تشييد المغرب العربي الذى تتوق اليها شعوبنا فى الشمال الافريقي .. وقد اقترحنا فى خطاب القيناه امام مجلس الامة التونسي عقد اجتماع يضم الاقطاب المغاربة الاربعة للبحث عن احسن الوسائل لاخراج الفكرة الى حيز الوجود ، وتخطيط سياسة محكمة رشيدة تلتزمها الاقطار المغربية فى تعاملها مع الخارج وفى تعامل بعضها مع البعض وكان الخطابان المتبادلان بين رجلي الدولتين المغربية والتونسية وبمناسبة توامة مدينتي فاس والقيروان والتى تمت اثناء زيارة الرئيس الحبيب بورقيبة للمغرب ما بين 9 سبتمبر الى 13 منه سنة 1965 كما كان البيان الصادر عقب هذه الزيارة دعوات حارة الى اخراج الفكرة الى حيز التطبيق ، فقد جاء فى ذلك البيان ما نصه : (... وافضت – اي المحادثات بين الرجلين – الى الاتفاق على الخطوط الرئيسية لانتهاج السياسة الموحدة .. ويلاحظ الرئيسان بارتياح الخطوات المستمرة والموفقة التى تبذلها اللجنة الاستشارية الدائمة للمغرب الكبير الذى يقطع خطوات حثيثة فى سبيل تحقيق اهدافه فى الوحدة والكرامة والمناعة ... ويوليان الميادين الاقتصادية عناية خاصة ايمانا منهما بأن التعاون على اساس التكامل والتناسق يشكل خطوة ايجابية لتحقيق المغرب الكبير) .

وجاء فى خطاب الحسن الثاني بالمناسبة (... اذا كانت عزيمتنا منصرفة اليوم الى بناء المغرب العربي وارساء قواعده على اسس متينة . واذا كنا نهتم اليوم بأن يكون هذا البناء منتظما فى سائر الميادين الثقافية منها والاقتصادية والاجتماعية ، فان عملنا الذي يتسم بطابع جديد انما هو عمل يصل بين الماضي والحاضر ويدخل فى نطاق ما دأب عليه اسلافنا من قبل)

وجاء فى رد الحبيب بورقيبة : (.. انه لمن مميزات شعبينا ان كانت جهودهما ملتئمة متآلفة فى السراء والضراء على مر الازمان ، وخاصة فى اهم فترات تاريخهما الطويل الحافل بعظائم الاحداث .. وليس ادل على اصالة تضامننا من هذه الاحداث التى تربط بين اجيالنا الصاعدة منذ ما يزيد على الثلاثين سنة فى الكفاح من اجل الحرية والكرامة ، وفى سبيل وحدة مغربية متينة ، لها من القوة والمناعة ما يجعلها فى مأمن من غائلات الدهر .. وتاريخ اقطارنا الاربعة يشهد بعراقة ما يربطنا من عرى وثيقة لم تنفصم على مر القرون)

ونفس المواقف والافكار اكدت فى خطاب العرش لسنة 1965 ، فقد جاء فى الفقرة الخاصة

---

(1) جريدة الانباء المغربية العدد 1695 بتاريخ 17 يونيه 1969

بالموضوع (وفى نطاق المبادىء العامة سعينا ونسعى جادين لبناء وحدة المغرب والاتصال والتعاون المستمر بين اقطارها فى المجالات الاقتصادية والثقافية والاجتماعية وغيرها على اساس التكامل والتنافس كخطوة ايجابية اولى لتحقيق مغرب كبير) وعلى نفس هذه النغمة وقعت اوتار خطابي العرش لسنتين 1968 – 1969 . ففى الاول نقرا هذه الفقرات المحددة لمجال الخطوات الاولى لهذه الوحدة حين يقرر : (... ولم يغب عنا ما للتداول مع دول المغرب العربي فى الشؤون الاقتصادية من كبير اهمية . فقد شاركت بلادنا فى اجتماع وزراء الاقتصاد لدول المغرب العربي . الذى انعقد في تونس فى شهر نوفمبر الماضي . فتم خلال هذا الاجتماع وضع مشروع اتفاق يقضي باقامة مرحلة انتقالية ، مدتها خمس سنوات . ويتضمن برنامجا للتعاون بين هذه الدول فى ميدان المبادلات التجارية وتنسيق الجهود الاقتصادية والصناعية) .

اما فى الخطاب الثاني فقد وردت فيه عدة فقرات مثبتة بين مختلف خطوطه العريضة تؤكد الفكرة وتحدد ابعادها ومجالاتها .

ولا نستطيع فى هذه العجالة ان نحيط شموليا بكل المواقف والخطوات التى قام بها الحسن الثاني فى مضمار وحدة المغرب العربي . ولكن يلاحظ المتتبع لتلك المواقف انها تنبع من ايمانه بضرورة الوحدة الاسلامية التي يجب فى نظر الحسن الثاني ان تكون نهاية مطاف هذه الوحدات الاقليمية والوطنية مما يجعلنا نعتبر الرجل بحق رائد وحدة المغرب العربي ووحدة العالم الاسلامي قاطبة . ويؤكد هذه الحقيقة اهتباله اية فرصة تسنح فى الموضوع . ومن كلماته فى مؤتمر القمة العربي الذى اشرنا اليه سابقا هذه الشذرات : (... وفى عصر يمتاز بكونه عصر التكتل والتضامن والتعاون بين جميع الدول فان العرب – احرى بهم ان يتكتلوا ويتضامنوا – ويتعاونوا فى اطار منظمة تجمع كلمتهم وتوحد صفهم وتسير بهم نحو اهدافهم وغاياتهم بخطوات ثابتة وايمان قوي)

وواكب ايمانه هذا فكرة الوحدة حتى اصبحت جزءا من مهامه العظمى والى الدرجة التى اصبح معها يجند الرجال الاكفاء ليبلغوا دعوته السامية تلك الى كل اقطار العالم الاسلامي .

ففى 13 يونيه 1969 ، وبعد خطابه التاريخي الذى دعا فيه الى ضرورة عقد مؤتمر للقمة الاسلامية ، لتدارك مضاعفات ازمة خامس يونيه 1967 عبأ ثلة من وزرائه وحملهم مهمة القيام بربط الاتصالات المباشرة مع جميع رؤساء الدول الاسلامية ، وهكذا اوفد ممثله الشخصي الى دول ءاسيا الاسلامية ووزير دولته الاستاذ السيد عبد الهادي بوطالب الى دول الشرق العربي الاسلامي ووزيره للسياحة الى دول افريقيا الشمالية الاسلامية ، بينما بعث وزيره للبريد الى دول افريقيا الاسلامية .

بقي ان نعرف مظاهر هذه الوحدة لدى شعوب وقادة باقي هذه الاقطار المغربية ، وهي – والحق يقال – مظاهر فيها من حسن الاستعداد آيات، ومن الايمان بها بينات ، تثلج الصدور وتبعث على التفاؤل وتغمر القلوب ثقة واطمئنانا .

ومظاهر هذه الوحدة فى العصر الحديث، ولدى شعوب الشمال الافريقي قاطبة قمة وقاعدة ، متعددة الصور ، متنوعة المبادرات ، ويقوم بالدعوة لها والعمل على تحقيقها ، بدون استثناء ، جميع المؤمنين بالمصير المشترك للعالم العربي والاسلامي .

والملاحظة الجديرة بالاعتبار فى هذا المضمار ، الخطوات المباشرة من طرف كل تلك الدول لتحقيق ما يؤمل ومن وراء هذه الوحدة من غايات ، وما تزخر به من بركات .. وقد تبلورت لدى الجميع ابعادها ومعطياتها ، وخرجت بها من الفكرة الطوباوية الى عالم المحسوسات والمرئيات ، وابتعدت بها عن العواطف والامنيات لتجسيم الامكانيات العقلانية لها .. وتتجلى هذه العقلانية فيما يظهر ، كل الفرقاء من استعداد للقيام بما تتطلبه من مسؤوليات ، ومن ايمان مطلق بانها هي الهدف الجميع . وفيها الخلاص من كل العقد والرسوبات ، وهي الحلول للمشاكل الاقتصادية والاجتماعية ، بل والسياسية ايضا وهي بالتالي المفتاح السحري لفتح الاقفال والاستشراف على ذلك المستقبل الباسم الفواح الذى ينتظر هذا الجزء من معمور العالم العربي الاسلامي .

وفى الوقت الذى آمن فيه سكان هذه الاقطار للوحدة كفكرة ، وبمباشرة معطياتها كحتمية تاريخية آمنوا انها لن تتم دفعة واحدة ، ولا فى طفرات ، كما انها لن تشمل فى بداية المنطلق كل الميادين ولا سائر المجالات ، وانما يجب ان توضع اللبنات القوية تلو اللبنات حتى اذا دعم الاساس ورسا انطلق البناة لتشييد الجدران بالتؤدة والواقعية والايمان ، مهيئين اولا المواد الخام ، مبتدئين بالقضايا الاولية

والعاملة على زيادة التآلف والتوافق والتواجد والانسجام ، أي ان يبدأ في مباشرة الفكرة من القضايا الاقتصادية الحيوية لجميع الفرقاء ، ومنها ينطلق الى الخطوات التى تستقطب الفكرة الثقافية والاجتماع ، حتى اذا تمت وحدة هذا المجال افضت بالضرورة والتلقائية الى الوحدة العليا المتوخاة اعني الوحدة السياسية .

ومنذ ان حصلت الدول الاربع العربية فى الشمال الافريقي على تحريرها السياسي ، وانعتقت من ربقة الاستعمار ، وهي تواصل الجهود المتابعة لارساء المقدمات الصحيحة المفضية الى النتائج الايجابية .. وما هذه المؤتمرات المتوالية فى كل المجالات والتى توجت اخيرا بمؤتمر وزراء وكتاب الدولة للتعليم والتربية بالاقطار الاربعة ، بعد الاتفاقات السياحية والمواصلات واتفاقيات التعاون وحسن الجوار ، والتبادل الثقافي والتجاري، ما كل ذلك الا البداية الصالحة والوسيلة الناجعة للسير قدما وفي ثقة واطمئنان الى تحقيق هذه الوحدة المنشودة ، التى لا تستجيب فحسب لعواطفنا الدينية او السلالية ، وانما ايضا لمعطيات وجودنا المادي والاقتصادي، ولبقاء هذا الوجود قادرا على الصمود فى وجه التيارات المعاكسة له ، قادرا على الاختيار فى الاخذ والعطاء لانه لا مكان للضعفاء تحت الشمس ، ولا بقاء الا للاصلح والاقوى .

ونحن نعلم — ونسجل هذا للتاريخ — ان اول حركة ايجابية بوشرت فى العصر الحديث ، لابراز الفكرة الى حيز المداولات والتجربة ، كانت تلك التى تبلورت فى انشاء الحركة الطلابية لشمال افريقيا ، تلك الحركة التى اوجدتها الظروف المعاشية والفكرية لطلبتنا الذين وجدوا انفسهم — حين توجهوا الى اوربا للدرس والتحصيل — فى محيط مغاير لواقعهم ومعاشهم ، فحاولوا التغيير لاوضاع بلدانهم ومسايرة الواقع الجديد الذى جابههم بمعطياته وابعاده ، فكان ذلك التفتح العقلاني الذي وقفهم على حقيقة المصير الجهم الكالح الذا كانت تهيئه لهم ولاوطانهم زبانية الاستعمار الفرنسي والايطالي والانجليزي .

واذكر وفى سنة 1937 فيما اظن ، وانا يومئذ فى بداية العقد الثاني من عمري اتابع دروسي الابتدائية فى العربية بمدرسة (رحبت القيس الوطنية) التى كان يشرف عليها اساتذتي الاجلاء المحترمون السادة بوشتى الجامعي ، والهاشمي الفلالي ، وعلال الفاسي ، وعبد الواحد العلوي ، اذكر كيف ان هذا الاتحاد الطلابي ثان عقد مؤتمره بعرصة بتزاكور السيد الحاج ادريس بالطالعة بفاس ، وكيف وقف الاستاذ المنجي سليم يلقننا قبل المؤتمر بايام نشيد وحدة المغرب العربي الذى كان مطلعه :

حيوا افريقيا ،، حيوا افريقيا ياعباد ،،

شمالها يبغي الاتحاد ،، اشبابها يابى الاضطهاد

ثم كانت الحركة الثانية لهذه الوحدة — فيما اعلم — هي تلك التى اسست مكتب المغرب العربي بالقاهرة غداة مطالبة المغرب بالاستقلال سنة 1944 ، والتى توجت بمؤتمر الزعماء السياسيين لهذه الاقطار والذى كان انعقد فى فبراير 1947 وتحت شعار « مؤتمر القمة العربي » وقد واصل هذا المكتب اعماله الخالدة الى دعوة محمد الخامس وابنه الحسن الثاني من منفاهما وتحرير القطرين المغربي والتونسي .

ثم اخذت الفكرة شكلا ايديولوجيا منظما على اسس الواقع التاريخي وحتميته فى مؤتمر طنجة الذى كان انعقد ما بين 27 — 30 ابريل سنة 1958، وبحضور ممثلي الهيئات السياسية لكل من المغرب وتونس ، وجبهة التحرير الوطني الجزائري ، التى حضرت المؤتمر لا بوصفها ملاحظة فحسب ، وانما بوصفها عضوة عاملة .

ثم جاءت دساتير هذه البلدان ، بعد الاستقلال، لتنص على هذه الوحدة وانها جزء من صميم قضاياها الوطنية الكبرى والاساسية ، فقد جاء فى ديباجتي الدستورين المغربي والتونسي التصريح بذلك ، ففى صلب الدستور التونسي نقرا هذه الفقرة : (.. الجمهورية التونسية جزء من المغرب الكبير تعمل لوحدته فى نطاق المصلحة المشتركة) وقد جاءت نفس الفقرة فى الدستور المغربي مع استبدال كلمة الجمهورية طبعا بكلمة المملكة المغربية .

وبعد فتلك لمحات وجيزة عن بعض مواقف الحسن الثاني ، ومن ورائه شعبه والامة العربية المسلمة لمغرب العربي الكبير ، دعانا لتسجيلها



البعثة المغربية متوجهة الى القطر الجزائري الشقيق للمشاركة
في احتفاله بذكرى فاتح نوفمبر

ـ وبمناسبة بلوغ هذا الملك الشاب الصالح سن الاربعين ـ ما نلمسه في مواقفه تلك وما نشاهده من ايمان بهذه الفكرة ، والى الدرجة التي اصبحت عند جلالته قضية وطنية كبرى ، يربط مصير امم هذا الشمال الافريقي العربي بمصيرها ، ويذكر العرب بان عليهم ان يتبنوها ويبذلوا قصارى جهودهم في سبيل تحقيقها ، والوصول اليها لادراك ما يتمنون من استقرار اقتصادي وازدهار اجتماعي ، وحياة حرة كريمة .. فان وفقت بما جاء في هذا البحث

فالشكر لله وله المنة ، وان عثرت وخانني التوفيق ، فحسبي اني وضعت لبنة في موضوع شائك يحتاج الى دراسة اعمق ونفس طويل . ولله الحمد في الآخرة والاولى وله الملك واليه المصير وهو حسبي ونعم الوكيل .

فاس : عبد الكريم التواتي

ظهائر سلطانية برعاية الربط وحراسة الشواطئ المغربية

للأستاذ سعيد أعراب

منذ ان بدا ظل الاسلام يتقلص بأرض الاندلس ، وحملات الصليبيين تترى على الشواطىء المغربية، واطماعهم تزداد مع الايام ، وقد لعبت القرصنة — وهي سلاح العاجز — دورها الخطير ، في كل من المحيط والابيض والمتوسط ، وكان للبرتغاليين والاسبان ، مهارة كبرى في هذا الميدان ، ولا يزال التاريخ يحتفظ لنا بصور بشعة ، يتجلى فيها مدى الاسفاف البشري والانحطاط الخلقي (1) !

وكانت القرصنة تجارة رائجة ، وبضاعة نافقة، في اسواق اوربا ، لدى العصور الوسطى ، وقد قام الريكي الثالث (2) بحملة مسعورة على شواطىء المغرب ، فخرب مدنا عدة ، وهدم كثيرا من الحصون والقرى (3) . واذا ظهر من بعض الحكومات وهن في فترات من التاريخ ، او كان هناك من المسؤولين من تخلى عن واجبه ، فان الشعب المغربي ، ظل الحارس الامين ، والوفي المخلص ، في كل العصور والازمان ، يتفانى في حب وطنه، ويفديه بالمهج والارواح ، واظهر عند الجلاد ونزول المدلهمات ، بطولات نادرة المنال ، وتضحيات قلما عرفت لشعب من الشعوب .

وقد لمس هذه الروح — السلطان المصلح مولاي محمد بن عبد الله ، عند تجواله على الشواطىء المغربية ، وتفقده للثغور والربط ، فاتصل بالقبائل المرابطة التي حبست نفسها للجهاد ، وكرست حياتها للدفاع عن حوزة البلاد ، فاطلع على احوالها وخبر معنوياتها ، فأعجب بشأنها ، واضفى عليها من تشجيعه وتقديره ، واصدر ظهائر شريفة تعطي لها الصبغة الرسمية ، وتكفل لها البقاء ، وتحيطها بهالة من التقدير والاحترام .

من بين الثغور التي زارها، واصدر مراسيم برعايتها واحترامها : مرسى تاركا ، بقبيلة بني بوزرة من قبائل غمارة .

وقد وقفت على مجموعة ظهائر في هذا الشأن.

نص الظهير الاول منها :

الحمد لله ، وصلى الله على سيدنا محمد وءاله وصحبه وسلم تسليما كثيرا اثيرا ، (الطابع الشريف) (4) ، حملته المجاهدون الاكرمون ، القبيلة

---

(1) وقد اورد صاحب الظل الوريف في صلحاء الريف ، صورا مختلفة الاشكال والالوان ، انظر ص: 13، 16 ، 21 ، 31 — (مخطوط خاص)

(2) ويعرف في الرواية الاسبانية ، بهنري الثالث،انظر عنان ، نهاية الاندلس ص 38 .

(3) من بين المدن التي خربت لهذا العهد ، مدينة تطوان انظر الاستقصاء 89/4 — 90 ومحمد داود ، تاريخ تطوان 1 / 82 — 83 .

(4) نقش الطابع الشريف : (محمد بن عبد الله بن اسماعيل، الله وليه ومولاه) ، ونقش دائرته :
ومن تكن برسول الله نصرته ان تلقه الاسد في ءاجامها تجم

البوزراتية (5) ، من قبيلة غمارة ، عمرها الله ، يعلم منه اننا عظمنا المرساة الكائنة بتركة (6) حرسها الله، واحترمناها ، واحترمنا اهلها ، فهي معظمة محترمة الى يوم القيامة ، مراعاة لثغر الجهاد المقابل لاعداء الله الكافرين دمرهم الله ، ولقربهم من الولي الصالح سيدي احمد الفيلالي (7) فزاويته محترمة ، موقرة معظمة ، ومن لاذ بها ، او احتمى بها كائنا من كان ، كان ءامنا على نفسه ، ومن .... (8) فلا يلومن الا نفسه ، وزكاتهم واعشارهم (9) في ضعفائهم والمجاهدين ، والواقف عليه يعمل به ولا يتعداه . في رابع ذي الحجة الحرام ، عام واحد وسبعين ومائة والف (10)

الظهير الثاني :

وقد اصدره يعفيهم فيه من الوظائف الحكومية، والكلف المخزنية ، ويجدد لهم التوقير والاحترام .

نصـــه :

الحمد لله وحده ، وصلى الله على سيدنا محمد وءاله وصحبه (الطابع الشريف) جددنا بحول الله وقوته ، وشامل يمنه ومنته ، لحملته المجاهدين الاخيار ، جماعة بني بوزرة ، من قبيلة غمارة على ما بأيديهم من الظهائر الموجبة لهم الاحترام التام ، والتوقير الشامل العام ، فقد ابقيناهم على عادتهم المعروفة ، واجريناهم على سيرتهم المعهودة والمالوفة، فلا يجرى عليهم وضيق ، لا قوي ولا ضعيف ، ولا يكلفون بكلفة من الكلف ، ولا القيام بالعسة في مرساة تركة ، وحراستها من العدو الكافر ، وما ينوبهم في جملة قبائل غمارة ، من قطع العود للمراكب (11) وغير هذا لا يكلفون به ، وما يجب عليهم من زكاة واعشار ، يصرفونه في فقرائهم ، ومن طاف بساحتهم ، فلا يلومن الا نفسه ، ولا يضر

---

(5) من ابناء هذه القبيلة الذين حملوا راية الجهاد: ابو الحسن علي بن ميمون ، من اهل العلم والعمل، استنفر الناس للجهاد، ولازم الثغور والربط، فاجتمع عليه عدد كبير من الغزاة ، وولوه قيادتهم ، فأبلى البلاء الحسن ، ثم رحل الى المشرق ، وشدد النكير على علماء عصره ، ولاسيما المتصوفة منهم ، على انه من كبارهم ، وانما كان يدعوهم الى التمسك بالسنة ، والتقيد بروح الدين ، وله عدة مؤلفات في هذا الباب توفي بدمشق سنة (917 هـ) . انظر الكواكب السائرة 271/1

(6) حصن قديم ، يبعد عن تطوان بنحو 80 كلم ، ذكره الادريسي في نزهة المشتاق انظر ص 170 .

(7) هو ابو العباس احمد بن محمد الفلالي ، احد الافراد ، من مشايخ الزهاد والعباد ، من اهل العلم والعمل ، وهداية الخلق والمريدين ، لم يتمسك من الدنيا لا بقليل ولا بكثير ، تخرج على يده كثير من اهل الفضل والعلم ، استوطن قبيلة بني بوزرة ، من قبائل غمارة ، وبها توفي سنة ثمان وتسعين وتسعمائة (998 هـ) ودفن في قنة جبل على اميال من شاطيء تركة، بني عليه قبة عالية ترى من بعيد ، وتجتمع في زاويته اموال كثيرةمن الصدقات، وهناك قيم تجمع هذه الفتوحات على يده ، وتصدر الامور عن رأيه ، وقد افتى العلماء بصرف هذا المال العريض في الجهاد وفداء الاسرى ، وما الى ذلك من سبل الخير انظر مرآة المحاسن ص 228 .

(8) هناك كلمات متآكلة لم نستطع قراءتها تشبه العبارات الآتية : (فمن طاف بساحتهم .. او خرق عليهم عادة) .

(9) وقد اورد الشريف العلمي في نوازله بعض الفتاوي بانه لا يجوز فرض الضرائب على الصيادين لمعونه هذه الربط ، وانفاقها في الجهاد ، لانها مهنة شريفة يجب الاستعانة عليها بالحلال الطيب (فالله طيب لا يقبل الا طيبا)

(10) وقد زار السلطان مولاي محمد بن عبد الله قبائل غمارة ، عند مقدمه لاخماد ثورة ابي الصخور الخمسي اواخر عام 1171 هـ انظر الاستقصا 8 / 10

(11) زار السلطان مولاي محمد بن عبد الله شواطيء المغرب سنة 1173 هـ – ومر في رجوعه على سبتة ، ووقف على حصانتها ومناعتها ، وتحقق ان لا مطمع فيها الا باسطول بحري قوي ، فامر بصنع المراكب الشراعية ، والسفن البحرية ، وجعل دار صناعتها بتطوان ، وكلف عبد الهادي اخ القائد عبد الصادق باشا طنجة ، بالاشراف عليها ، وطلب من حكومة السويد ان تبعث اليه باقامة المراكب والبارود ، وامر باصلاح قرصانه ، وان تجعل لها اقامة جديدة انظر الاستقصا 8 / 11 – 12 ، 19 .

الا راسه ، والواقف عليه يعمل به والسلام . وفى اوائل صفر الخير عام اربعة وسبعين ومائة والف (1174 هـ) .

ونص الظهير الثالث (12)

الحمد لله وحده ، وصلى الله على سيدنا محمد وءاله وصحبه وسلم تسليما (الطابع الشريف)، جددنا بحول الله وقوته ، وشامل يمنه وبركته ، لحملته المجاهدين من جماعة بني بوزرة ، من قبيلة غمارة ، على ما بايديهم من الظهائر الشريفة ، الموجبة لهم التوقير والاحترام ، والقيام بالعسة فى الجهاد بمرسى تاركة ، وحراستها من العدو الكافر ، وتامر خديمنا القائد عبد الصادق (13) ان يستوصي بهم خيرا ، وان يبقيهم على عادتهم ، ولا يترك من ترامى عليهم ، حسبما هو مسطر بظهيرنا ، والواقف عليه يعمل به ولا يتعداه ، ومن خرق عليهم عادة لا يلم الا نفسه ، والسلام . وفى اواخر ربيع النبوي عام سبعة وسبعين ومائة والف (1177 هـ) .

وعندما ولى السلطان مولاي محمد بن عبد الله(14) على قبائل غمارة، القائد احمد بن مرزوق اصدر ظهيرا ءاخر يامر فيه القائد المذكور برعاية القبيلة المرابطة على مرسى تاركة ، ويعفيها من كل الكلف سوى الرباط وحراسة الثغر ، ونصه :

الحمد لله وحده ، وصلى الله على سيدنا محمد وءاله وصحبه وسلم تسليما، (الطابع الشريف)، جددنا بحول الله وقوته ، وشامل يمنه وبركته ، لحملته خدامنا المجاهدين ، بني بوزرارة ، على حكم ما بايديهم من ظهائرنا الشريفة ، فقد ابقيناهم على عستهم بمرسى تاركى ، على عادتهم المعروفة ، ولا كلفناهم بشيء سوى العسة ، فنامر القائد احمد بن مرزوق (15) ان يزيد فى توقيرهم واحترامهم ، ولا يكلفهم بشيء غير العسة المذكورة ، ويخلي سبيلهم ، ومن طاف بساحتهم فى قليل او كثير ، فلا يلم الا نفسه ، والواقف عليه يعمل به ، ولا يتعداه ، وفى اواسط جمادى الاولى عام واحد وثمانين ومائة والف (1181 هـ)

هذا وهناك عدة وثائق تشهد بما لهذه القبيلة من ماض فى الجهاد ، وسابقة فى الرباط ، وقدم فى مناهضة العدو ، ولنثبت هاتين الوثيقتين لاهميتهما :

نص الاولى :

الحمد لله يشهد من يضع اسمه عقب تاريخه بمعرفة مرسى تركة ، من قبيلة بني بوزرة ، من قبائل غمارة حاطها الله ، ويشهد مع ذلك بأن المرسى المذكورة من مراسي سواحل البحر، من القبائل المذكورة ، وانها من الثغور التى يجب سدها وحياطتها من العدو الكافر ، خذله الله ، وان القائم بحراستها وحفظها منه ليلا ونهارا ، بنو بوزرة المذكورون ، اذ هم قائمون بها ، ومعتكفون عليها ، بحيث لا تصحبهم غرة ، ولا يلحقهم تقصير ولا معرة ، وانهم ممن يستحق وصف المجاهدين فى سبيل الله، والتوقير والاحترام ، والحمل على كاهل المبرة والاكرام ، لاعتنائهم وحزمهم ، وحمايتهم هذا الثغر المذكور ببلدهم ، اذ ما حام العدو فى البحر حول حماه ، وقام الصريخ ، الا نهضت القبيلة المذكورة للقائه ومحاربته ، ومضاربته بالسيف ومناضلته . فيرجع على اعقابه مخذولا ، ولم ينل مما رامه مامولا، نصرا من الله للاسلام ، ودين النبي عليه الصلاة والسلام ، واستمر على هذا عملهم خلفا وسلفا ، وما زالوا ولا يزالون يزدادون بذلك حبا وشغفا ، شد الله فى ذلك ازرهم، وجمع على ما يرضيه امرهم، واعانهم وقواهم ، ورضي الله عن المجاهدين فى سبيل الله

---

(12) وقد اصدره بمناسبة تعيين القائد عبد الصادق على هذه الجهات ، واوصاه بهذه الرابطة خيرا ، وان يحميه ويرعاها حتى تؤدي مهمتها خير اداء .

(13) هو ابو محمد عبد الصادق بن الباشا احمد بن علي الريفي ، باشا طنجة ونائب السلطان بشمال المغرب وفى سنة 1180 نكبه السلطان المذكور، واودعه السجن هو وقرابته انظر الاستقصا 8 / 128

(14) زار السلطان المولى محمد بن عبد الله قبائل غمارة للمرة الثانية عام 1179 ، فى طريقه الى الريف وتفقد ثغورها ووقف على القوات المرابطة بها ، وقد انتهى الى كرت من بلاد الريف انظر الاستقصا 8 / 101 .

(15) عائلة بني مرزوق اصلهم من تلمسان ، قدموا الى فاس فى حدود القرن الحادي عشر ثم منها الى تطوان وغمارة ، وبيتهم بيت علم ورياسة .

بأموالهم وانفسهم . شهد به في 26 جمادى الله عام 1171 هـ اشكال سبعة عدول من قريتي تغصة (16)، وترغة (17) .

ونص الثانية :

الحمد لله شهوده الموضوعة اسماؤهم عقب تاريخه ، يعرفون مرسى تركة من قبيلة بني بوزرة، مدفن الولي الصالح ، المتبرك به حيا وميتا ، ابي العباس سيدي احمد الفيلالي ، نفعنا الله ببركته ، واسكنه فسيح جنته ، معرفة تامة ، ويشهدون مع ذلك بأن المرسى المذكورة من مراسي سواحل البحر ، من قبائل غمارة حاطها الله، ومن ثغورها التي يغشاها العدو الكافر ، وان اهل القبيلة المذكورة ، هم القائمون بحفظها وحراستها منه ليلا ونهارا ، سرا وجهرا ، بحيث لا تصحبهم في ذلك غرة ، ولا ينالهم فيه كسل ولا فترة ، ومما قام الصريخ من الرتاب للحراسة ، الا انتدبت القبيلة ونهضت ، خفافا ونعالا ، ركبانا ورجالا ، فيقاتلون ويقتلون ، ويغلبون بنصر الله ولا يغلبون ، وفاء بوعده الكريم ، في كتابه الحكيم ، « فان تكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين، وان يكن منكم الف يغلبوا الفين باذن الله » . وكما يشهدون بأن المرسى المذكورة ، فيها مسالك وعرة ، ومخابيء يرصد العدو فيها الغرة ، فلا ينال بفضل الله مما رامه نيلا ، وينقلب مقصوده وبالا عليه وويلا ، وان اهل القبيلة المذكورة ، لم يزالوا على ذلك مستمرين ، منذ ءابائهم الاقدمين ، وهلم جرا ، فلا يتاخرون عن ذلك الى وراء ، ولا يرجعون عنه القهقرى ، فهم احق بالاحترام والمراعاة ، اذ رباطهم لله لا المباهاة ، ثبت الله اجرهم ، وشد بعناية ازرهم ، واعان المجاهدين بأموالهم وانفسهم في سبيل الله ، وتقبل عملهم وتولاه ، انه عزيز حكيم ، جواد كريم .. في 26 جمادى الاولى عام 1171 هـ (18)

وهكذا ظلت هذه الربط ، العين الساهرة على شواطيء المغرب ، تحمي الحمى ، وتكف عادية العدو ، وكانت كمنظمة شعبية ، تستمد قواها من نفسها ، وتعتمد على وسائلها الخاصة ، وما لديها من امكانيات ، من زكوات واعشار، وكان الملوك العلويون يرعونها ، ويحيطونها بكل تشجيع وتقدير ، فصارعت الاستعمار مآت السنين، وكان لها تاريخ حافل بالمغامرات والبطولات ، استشهد فيها كثير من ابناء البادية ، وانك لتكاد تقطع مرحلة او مرحلتين ، الا وتجد محارس ومقابر متسعة الارجاء ، تحمل اسم « المجاهدين » ، الى اليوم .

وعلى شاطيء تاركا الذى خصصنا له هذا الحديث ، اماكن لا تزال تحتفظ بمعالمها التاريخية الى الآن ، مثل نوالة العسة ، وقصبة سيدي يحيى (19) ، ومقبرة المجاهدين ، وسواها .

وما احوجنا الى تاريخ هذا الربط ، والدور الذى لعبته في محاربة القرصنة والاستعمار الصليبي، والبحث عن ءاثارها ، والوثائق المتصلة بها ، وما اكثرها بالبادية !

وعما قريب ستضيع ، ويمحى اثرها ، فيضيع بذلك شطر كبير من تاريخنا وقوميتنا ، واننا لنهيب بالمسؤولين ، للبحث عن هذا التراث ، واحصائه الاحصاء الشامل .

واقترح أن تكون هناك دار للوثائق والمستندات الوطنية ، يوكل اليها بمثل هذه المهمة ، وتكون خير معين للباحث والدارس ، والله الموفق .

تطوان – سعيد اعراب

(16) تغصة : قرية على شاطيء البحر بقبيلة بني جرير على مراحل من تاركا ، بها ءاثار وكانت في القديم قرية صغيرة يسكنها صيادو السمك استعمرها الرومان ثم تهدمت . انظر ليون الافريقي.

(17) قرية على شاطيء البحر بقبيلة بني زيات ، على بعد نحو 30 كلم. من تاركا ، وكانت مركزا رومانيا صغيرا عمره القوط . انظر المرجع السابق .

(18) وربما كانت هذه الشهادات مما قدمه اهل الرابطة الى السلطان لتزكية عملهم ، وعلى ضوئها اصدر ظهائره الشريفة بتوقيرهم واحترامهم واعفائهم من الكلف المخزنية .

(19) يعرف بسيدي يحيى اعراب من الابطال المجاهدين الذين كرسوا حياتهم للرباط على الثغور ، من اهل القرن الحادي عشر .



لم يكن اهتمام دولتنا العلوية المجيدة ــ مقصورا على توطيد الامن وتنظيم شؤون الشعب من الوجهة العسكرية ، وان كان جل اوقاتهم ــ مصروفا فى هذه الناحية لما عرفناه من موقف المغرب الدقيق طوال مدة حكمهم ازاء الدول الاوربية التى كانت نهضتها سائرة قدما نحو التفتح والازدهار ــ وقتا اخذت فيه الامم الاسلامية تغط فى نومها العميق الذى كانت ما تزال تجني نتائجه الوخيمة الى قريب من عهدنا .

بيد انهم كانوا مع ذلك يولون الناحيتين ــ العلمية والاجتماعية اهتماما جد كبير ــ فالتاريخ لا يفتا يحدثنا ــ انهم كانوا يعفون الطلبة ورجال العلم من كل الاداءات والكلف المفروضة على الغير خاصة القراء وحفاظ مختصر خليل وسواها من امهات المتون والنصوص . فهذا المؤسس الرشيد طيب الله ثراه ــ يرى وهو يبذل فى سبيل العلم والثقافة اموالا باهظة، ويمنح العلماء والادباء الصلات الضخمة التى تذكرنا بعطايا الخلفاء الاموين والعباسيين وامرائهم ــ فهو قدس الله روحه ــ حينما فتح زاوية الدلاء وشرد من كان بها من الرؤساء ــ لم يدع علماءهم يضربون فى الارض طولا وعرضا فيضيع لذلك علمهم بل فرقهم على عواصم المغرب ، مغدقا عليهم جزيل الاعطيات والصلات ما جعلهم ينشطون لنشر الثقافة بما تحمله من مدلول سابغ آنذاك وبثها فى جميع النواحي مدن وقرى . بل كان فوق هذا يتردد على كثير من اندية العلم لتعاهد ثقافته وتنميتها ــ فكان كلما زار مدينة من المدن الا وبحث معاهدها العلمية والدينية وحضر دروس بعض مشاهير العلم ــ ويكفي فى هذا تاسيسه مدرسة الشراطين التى ما تزال بجانب القرويين دليلا قائما على العمل الذى قدمه العلويون للعلم وطالبيه .

وعلى هذا السنن نهج صنوه المولى ابو النصر طيب الله ثراه ــ فازدهرت المعارف فى ايامه ، وابنعت ظلال الثقافة فى عهده الآمن

ومن عناية العاهل الاسماعيلي برجال المعرفة جرايته السنوية على المرحوم العلامة ابي الحسن علي العكاري الرباطي ــ ت : 1118 هـ ــ 1706 م المقدرة بـ : 100 مثقال ــ من خراج مرسى الرباط ــ وكان هذا كاقتراح من اهل الرباط وطلب منهم . وكم للعكاري من نظير فى هذه الالتفاتة ويذكر صاحب نشر المثاني ــ ان المغرب فى عهد المولى اسماعيل ــ كثرت عمارته وجدد الناس فيه للعلوم عهدا .

وذكر المؤرخ ابن الحاج فى تاريخه ان فى ايامه كثر العلماء ، وحفاظ القرءان . وهذه الظاهرة ساوقت عصر الانبعاث للثقافة الاندلسية فى الرباط.

وتلك ءاثاره ما تزال معاهدها بادية فى ءاسفي ومكناس وفاس وزواياها العلمية التى كانت رحابها تعج بمختلف الدارسين على اختلاف مستوياتهم الثقافية اصولا وفروعا .

وبرهنة على هذه النفثة الغالية ما علمناه عن تكوين ابنه المغفور له ـ محمد العالم الاديب الفحل الذى شعت انوار ادبه فى جنبات القطر السوسي ـ بما كان يعقده اثناء خلافته هناك ـ من ندوات علمية وادبية تجلت لامعة فيما خلفه من ءايات ثقافية تبلورت فى ثنايا المساجلات والمطارحات التى احتفظ الادب السوسي وتاريخه بها حتى الآن .

اما فى عهد حفيده المولى محمد بن عبد الله فحدث عن البحر ولا حرج ـ فقد اضاف لاهتمامه بالثقافة ورجالها ـ اهتماما جديدا بأساليب الدراسة وطرقها ـ فحرر رسالته الشهيرة فى مبادىء الدين الاولى تقريبا على اذهان الصغار ورغبة منه فى دراستها بجميع المدارس القرءانية ، كما وضع رسالة فى المنهج الذى يجب على اساتيذ القرويين السير على ضوئه طموحا منه رحمه الله فى تطوير اساليب الدراسة والخروج بها من العقم والجفاف واملاء المحفوظات وملء اذهان الطلبة بنصوصها عارية فى المجموع عن المفهوم المراد من وراء فحواها ـ ذلك انه حذر من التطويل الممل ، ومن الاشتغال بما لا جدوى وراءه من الابحاث والمماحكات اللفظية ـ التي ما يزال مولعا بها كثير من رجال العلم كما تراها تجري حتى اليوم من فينة لاخرى فى حلقات هامة .

هذا علاوة عن بحوثه العلمية وتآليفه القيمة خاصة منها « الفتوحات الالهية فى احاديث خير البرية » المطبوع بأمر من العاهل المغفور له ـ محمد الخامس قدس الله روحه ـ بمطبعته المحمدية سنة 1364 هـ ـ 1945 م .

ومن اهتماماته الجلى بالعلم والثقافة ـ انه عندما بنى مسجده العظيم ـ جامع السنة ـ المجدد اخيرا ـ اسس فى اخرياته غربا غرفا لايواء طلبة العلم على ممر الايام وامدادهم بالمؤن الضرورية تشجيعا لهم على ما كرسوا حياتهم من اجله ـ ثم ما حرره شيخنا العلامة المرحوم محمد المدني ابن الحسني ت 1378 ـ 1959 م عن هذا العاهل الخالد ـ المطبوع بطالعة الفتوحات ـ ليغني الباحث عن التعرف على هذا الملك المحمدي العالم ـ الذى كانت انظاره الثقافية ، واشاراته البعيدة العمق ـ لعلية مجالسيه من العلماء توحي بهذا او اكثر فينتظم لوقته دررا غالية يفتخر بها التاريخ ، وتزدان بها معلمته الاسلامية مدى الدهور والعصور .

اما نجله ابو الربيع عالم الدولة المولى سليمان رحمة الله عليه فكان هو الآخر باقعة المعرفة ينشرها هنا وهناك ، ويمهد لبثها سلفية نقية بعيدة فى جوهرها عن كل الاساطير والتلبيسات وما يرمي الى الشعوذة والتمويه ـ بما كان يعقده في قصوره من ندوات علمية تضم مجالسها فحول العلم ورجال الثقافة على اختلاف مشاربهم علما وفنا اصولا وفروعا .

وهانموذج حي من تلك الظاهرة الخالدة ـ فبينما كان (قدس الله روحه) يدرس التفسير فى صفوة من علماء العدوتين وغيرهما ممن كانوا يلازمون بلاطه السعيد ـ بقصر « لكبيبات » او دار البحر ـ الذى اصبح اليوم مستشفى عسكريا ـ وقد استغرقوا فى دراسة قول الله سبحانه : « واعلموا ان ما غنمتم من من شيء فان لله خمسه الى ءاخر الآية ـ 41 ـ من سورة الانفال ـ واذا بالرئيس المعطي الرباطي يأتي مساء اليوم بغنيمة على القصر ـ فكانت من عجيب الاتفاقات الغريبة ، والمصادفات النادرة التى طابقت الموضوع فى صميمه ـ ككرامة او شبه معجزة او كيفما شئت ان تلقب وقوعها ـ وفورا انعم العاهل ابو الربيع على الرئيس المذكور بجائزة ثمينة ـ سيف ممتاز ، وكسوة من اعلى طراز (1). ذلك ما دفع الشعراء للتباري فى هذا الحدث الغريب ، وممن حضروا وشاركوا فى القول الشيخ ابراهيم بن عبد القادر الرياحي التونسي ت : 1266 ـ 1850 اتى من بلده الشقيق طلبا للمساعدة والميرة فقال قطعته الميمية :

دلائل فضل الله فينا تترجم
وان غفلت عنها طوائف نوم

ومن اكبر النعما ولاية من له
علينا وفينا حكمة وتحكم

تلطف فى اخفائها متسترا
ومن كمات فيه الولاية يكتم

ولما اراد الله اظهار سره
جرى الامر فى الاظهار من حيث يعلم

(1) نقلا عن الاديب الاجتماعي المرحوم احمد بن محمد الزبيدي الرباطي

الم تفتتم وقت المســاء وغــدوة
بدا الوقف في التفسير آية واعلموا
ليدري صحيح الذوق ان مليكنا
له في طريق الكشف نهج مقـوم
وان لنا فيمـا قضـاه مغانمـا
فمجل ذي بـرء لما هـو اعلـم
فلا زالت الايام تخـدم سعـده
ولا زال مثلي في عـلاه ينظم

قال ابو اسحاق الرياحي : ولما انشدتها بيـن يديه وقعت منه بأثـر انشادهـا العطيـة الجميلـة والجائزة الجليلة (2) .

وزاد الشيخ الرياحي قائلا : وحضرت دروس مولاي سليمان في التفسير حتى سمعتـه يقـريء قول الله تعالى : « وفيها ما تشتهيـه الانفس وتلـذ الاعين » (3) فكان مما قرره فيها – ان وجه العـدول عن جمع الكثرة الى جمع القلة – ان الناس الذيـن يعملون بعمل اهل الجنة قليلون بالنسبة لما لا يعملون بعملها – قال : فاستحسنت هذا التقرير من مولانـا السلطان خلد الله ملكه .

ولم يكن طيب الله ثراه يقتصـر على البحـث والنقاش اللفظي في الفنون والعلوم بل كان له ولوع خاص حتى بالتصنيف والتقييد – كوراثة عن ابيه – من ذلك حاشيته على الموطا المحتوية غوامض وابحاثا واجوبة وايضاح مشكلات قد يتعسر فهمها وحلها على الغير ، وله حواشي على المواهب اللدنيـة ضمنهـا فوائد قيمة – ومن كتاباته الدالة على سلفيته وروحه العلمي الحر – رسالته التي حررها للرد على المبتدعة وقمع الملحدين منهم بالاخص – على ما يأتونـه مـن الشرك الملف بصنوف من الالوان والتمويهـات – رسالة جاءت غاية في الابداع والصراحة في القـول الدال في جلاء على ما له يد طولى ، وقدم راسخة في اتباع الهدى والتشبث بالسنة – لحقد دفعه قدس الله روحه لامر خطباء المملكة ان يخطبـوا بها بثـا للسلفية وروح الاسلام الصافي في نفوس المغاربـة ، وبعثا لهم في نفس الوقت علـى التفكيـر الصحيـح والاستقلال الذاتي في فهم النصوص وتعمق مدلولاتها ابتعادا بهم عن التحجر والتقليد .

هكذا نجد المغرب يسير متفتـح الفكـر بعـد فترات انحلال قاسى ويلاتها تحجرا وجمودا .

ففي القرن الماضي فكر الحسن الاول قدس الله روحه – في تكوين اطر في العلوم الحديثة لما كـان عليه من التفتح والانطلاق الى ابعد الغايات – بيد انه (وباللاسف) كانت تعترضه قوتان تحولان الاسبـاب مختلفة) دون اتجاه الفكر المغربي نحو حياة عصريـة بما تحتويه من مقتضيات – فاولا – هيأة المحافظين التي لم تكن تعادي التطور ، ولكنها كانت تخشى ما قد يؤدي اليه التطور على الطراز الاوربي من تاثير على الذهنية العربية والخلق الاسلامي والكيان الوطنـي للدسائس الاوربية التـي بلغت اشدهـا آنـذاك .

وثانيا – الكتلة القليلة من المغرضين الذين استولـوا على مقاليد الحكم واصبحوا يعملـون على توطيـد نفوذهم على حـساب مصلحـة المغـرب العليـا – معرقلين تحقيق أي نوع من التفتح والتطـور خشيـة انبثاق عناصر اكثر وعيا وتبصرا – ورغم كل مـن القوتين – ظل العاهل الحسن الاول يكافح في هدوء وحكمة – الى ان تغلب على كل قوة مذللا كل ما كان يواجه سبيله من عراقل وصـوارف – فأسس ما يشبه (مدرسة مركزية للمدفعية بالجديدة) ثم (صار يوجه مغاربة للتدريب سريا في انجلترا واسبانيـا وحتى امريكا – كما وجه رحمه الله بعثات الى فرنسا وايطاليا للدراسة في معاهدها – وكان القصد من هذه الدراسة – التكوين العام ، ثـم التكويـن الهندسي العسكري – غير ان بعض المسؤوليـن لم يكونـوا يختارون دائما العناصـر الصالحـة ذات المستـوى الثقافي المناسب .

وحتى اذا اختير الاكفاء من الشباب وساعدهم الحظ فتخرجوا من مدارس اوروبا وعادوا الى الوطن فقد لا يجدون اي نوع من التشجيع يحدو غيرهم من الشباب على تحمل شدائد التغرب من اجل الدراسة .

ذلك ان المهندسين الذين انهوا دراستهم الفنية – في اوربا – انجلترا – ايطاليا – المانيا – رجعوا الى المغرب واخذوا يتقاضون 14 (سوردي) (4) يوميا في مقابل عمل جامد في المكاتب الجمركية – بالرباط –

---

(2) راجع كتاب تعطير النواحي ج 1 ص 24 .
(3) الآية – 71 – من سورة الزخرف .
(4) عملة اجنبية راجت في المغرب بعد .

وطنجة ـ الى حد ان مختلف البعثات الموجهة لاوربا لم تسفر عن اية نتيجة رغما عن تكوين مهندسين وخبراء لا باس بهم ـ على ان الجهود الفردية كانت هي الاخرى تتبعثر حتى بالنسبة للطلبة الذين يدرسون في الداخل .

نعم رغم كل ما كان يجده الشباب المتعلم امامه من عراقل ـ يكفي ان الوعي دب في النفوس واخذ المغاربة يستيقظون من سباتهم العميق متفتحي الصدور على الفنون الجديدة والعلوم والرياضيات التي عرفت مجموعها : مدرسة محمد الرابع ـ بن عبد الرحمن .

اما العلوم الشرعية واللسانية فقد ازدهرت في العهد الحسني اكثر بما كانت تحظى به من عناية وتقدير سواء في ذلك الاساتيذ والطلبة من جرايات ومكافئات تنال الجميع في كل مدن المغرب وقراه خاصة كلية القرويين الخالدة والمنبع الفياض لباقي المعاهد الاخرى .

والحديث عن الثقافة في عصر دولتنا العلوية الشريفة اعزر من ان يحده القلم في اسطر كرموز واشارات فالى فرصة اخرى نفتح فيها الحقيبة لنستشرف من ثناياها اعمق واشرق فهنيئا للجالس على العرش المفدى بذكراه التاسعة .

الرباط ـ عبد الله الجراري

يا راعي الأحرار

للشاعر محمد محمد العلي

ياراعي الاحرار فى أوطانها ... ومجدد الاضواء فى اجفانها
يا ايها (الحسن) المفدى عرشه ... انت الشذى الفواح فى اركانها
تهفو المعالي نحو عرشك دائما ... فترى الزمان يلح فى اذعانها
ياراعي الاحرار، وهي شريدة ... ومصارع الاطماع فى اوثانها
أبشر فانك فى الكفاح مظفر ... فلأنت للأوطان رفعة شانها
وبتاجك الميمون نور ساطع ... يطغى على الاكوان فى تيجانها
وحدت كل مبعثر متناثر ... وبعثت بيت الله فى (حسانها)
لمعانه يعشي العيون جميعها ... ويحل ـ يا بشراه ـ فى انسانها
والشمس قد خجلت اذا ابصرتها ... يسري جميع الحسن فى لمعانها
كل العوالم فى غرامك اصبحت ... تبدي هياما شاع في اركانها
كتمانها للحب فيك صبابة ... ولقد يزيد الحب فى كتمانها
وعلى الولاء توحدت اصواتها ... وارى الفداء يصح فى برهانها
سبحان من اعطاك ذكرا خالدا ... يطغى على الاحداث فى طوفانها
وعليك فى كل القلوب جلالة ... اذ انت سلطان على خفقانها
فكأن فى يدك الكريمة روحها ... اذ انت سر حفاظها وضمانها
فلأنت فى افواهنا انشودة ... تختار روح الفن فى الحانها
ياعاهلي انت المعالي حية ... والطير انت الفن فى افنانها
من فرط ذكرك فى الملائك اصبحت ... كل الحسان يهمن فى ادمانها

مزجت بك التسبيح فى محرابها ... وبك القبول يصح فى قربانها
ما شعبك الميمون الا جنة ... فى حورها خمر وفى ولدانها
يهديك فى رضوانها رضوانها ... وبك استزاد الحسن فى ريعانها
عيدانها مالت على ريحانها ... والطير موسيقى على عيدانها
الحسن فيها كامل متناسق ... والمسك والكافور فى غدرانها
والكوثر المعسول فى جنباتها ... يروي غليل الروح من ظمآنها
والشعب كالبحر الخضم حماسة ... امواجه رقصت على شطآنها
ما ضم دهر مثل تاجك فى الورى ... حتى ، ولو فى الفرس ، فى ايوانها
ان البرية كلها لفخورة ... بك يا مليكي ، يا رسول امانها
ما انت الا كوثر وكؤوسه ... ملء الشفاه تدور فى ندمانها
والنفس فى اشجانها وهمومها ... انت السلام الحق فى نيرانها
انت الدم المكنون ضمن عروقها ... فاعذر قلوب الناس فى ذوبانها
بك اظهر الله الحقوق لشعبنا ... حتى رآها الناس ، راي عيانها
وبدا بالاستقلال ما نهفو له ... من عزة نسعى الى اعلانها
والامة انقلبت الى ريحانة ... تزهو بنور العلم فى عرفانها
والهة الاشعار فيك تولهت ... اذ انت كل الشعر فى ديوانها
بستانها انت الشذى لزهوره ، ... ما احسن الجلسات فى بستانها !
قحوانها يختال بين ورودها ... والياسمين يغار من نعمانها
وارى الربيع الغض يحسدها على ... تجديدها المفتر فى الوانها
مزجت بك الانفاس : ان دماءنا ... اصبحت انت السر فى سريانها
مولاي يا تاج الملوك وفخرها ... انت الامام الفرد فى اعيانها
ما انت مهما اقلبت ازمانها ... الا رسول الانس فى سلوانها
كم فيك من ذكرى تعود وعبرة ... علوية النبرات فى تبيانها
افهمت امتك الفتية حقها ... فتخلصت بالعزم من ادرانها
وحدتها ، فتوحدت اجنادها ... وسقيتها ، فالخير فى اردانها
قد احرقت انفاسها فى مجمر ... لتشم انت الطيب ملء دخانها
وتوحدت اضدادها حول الولا ... ء الصدق فى الاحزاب ، فى قرآنها
لا يخذل الابطال ان هم صابروا ... والصبر رمز الحرب فى ميدانها
لا يقهر الاعداء الا بالسلا ... ح المر ، فى الطغيان ، فى عدوانها
ان الكرامة بالكفاح لذيذة ... تاتي بفضل البأس فى ابانها

قال العداة ، وقولهم اكذوبة : تستعجلون الموت قبل اوانها
انا الى الوطن العزيز ضحية وكذلك الاوطان فى اثمانها
انا لأشرف امة قد اصبحت تزهو بمولاها على اقرانها
بالعزم حققنا هنا استقلالنا فامورنا بزمامها وعنانها
دام الامام لشعبه فى عزة والنصر معقود على فرسانها
لا عاد الاستعمار فينا لحظة فجنوده الويلات فى ركبانها
انا بفضل كفاحنا فى عيشة كم لج الاستعمار فى بهتانها !
دام المليك لنا ودام ثناؤه اغرودتي أفتن فى اوزانها
عاشت لنا أشبال عاهلنا الذي يرتاح فى اخلاصها وحنانها
ان السفينة فى ضخامة بحرها تنجو بفضل العزم فى ربانها
ما اعظم الغفران من متصرف ، يشري فعال الخصم فى غفرانها !
فيحيله ملكا رحيما بعد ما قد كان للأعداء من اعوانها
يكفي بلاد المغرب الاقصى اهتدا ء واقتباس من هدى سلطانها
اني أرى اعماله وفتوحه كل الورى يدعو الى استحسانها
هو منقذ الاوطان من برحائها ومجيرها من ذلها وهوانها
قد بدلت احوالها وشؤونها اذ لم تعد ترتاع فى خذلانها
فى (مجلس الامن) استوى ببلاده حتى تبلغ امرها بلسانها
اكرم بنفس مليكنا وجهاده ! وكذا العهود تدوم فى صوانها
ان الجوارح اصبحت سكنا له وكذا العوالم صار ملء جنانها
يا عاهل الاحرار ، يا تاج العلا يا طيب الانساب فى عدنانها
ان التواريخ التي شرفتها جعلتك كالطغراء فى عنوانها
لم تعرف الاوطان مثلك سيدا اذ انت غرة أهلها وزمانها
وكذا الخلود تناله بجدارة فالنفس تخلد فى ذرى ايمانها
فلأنت من بعد الرسول رسولنا تدعو بني الاسلام فى فرقانها
حتى تهب الامة الكبرى بفضـ ـل ثباتها المبثوث فى شبانها
للوحدة المثلى ، لبدء حياتها فى العز ، كالآساد فى اوطانها !

الرباط : محمد بن محمد العلمي

ديبلوماسية الدولة العلوية

للأستاذ إبراهيم حركات

من العسير ان يتحدث شخص عن الدبلوماسية العلوية فى مقال موجز ، لان هذه الدبلوماسية تتناول جوانب كثيرة من علاقات المغرب الدولية ووضعيته الداخلية ، واذا كانت دبلوماسية الدولة العلوية من الناحية الشكلية ، استمرارا لنشاط المغرب السياسي التقليدي فهي فى جوهرها تتجاوز مجرد تقليد معمول به منذ عهد المرابطين على الاقل فميزة دبلوماسية الدولة العلوية انهاكانت ترتبط بمصالح دول كثيرة لها نشاط اقتصادي عظيم بالمغرب كانجلترا وفرنسا ، اما دبلوماسية دول مغربية سابقة فكانت تتناول فى الغالب الجانب السياسي والعسكري فى نطاق محدود ، وقد جمعت دبلوماسية الدولة العلوية كل الجوانب التى تتناولها دبلوماسية العصر الحاضر .

لقد كانت اهم دولة اسلامية فى العالم ايام الدولة العلوية هي الدولة العثمانية وبوصفها دولة تحتل الجزائر ، قد عقد المغرب معها معاهدات كثيرة، خصوصا معاهدة حول الحدود بين الطرفين بعد سنوات قليلة من تولي مولاي اسماعيل الملك ، ومنذ سنة 1112 توقف تدخل الاتراك العسكري بالمغرب بسبب النشاط الفائق الذى ابداه هذا السلطان المجاهد ، واستقرت العلاقات حسنة بين الدولتين امدا طويلا حتى استغل الاسبان حسن الجوار بين المغرب والعثمانيين لافتكاك اسراهم من يد الترك ، وكان للسلطان سيدي محمد بن عبد الله نشاط بالغ الاهمية فى الميدان الدبلوماسي حتى كان يستفيد من حسن علاقاته الطيبة بالاتراك فى خبرتهم التقنية البحرية والحربية ، ومما اثر عنه انه دعاهم الى محاولة اعادة بناء ترسانة الرباط فاخبره الفنيون منهم بان ذلك سيكلف الدولة جيلا من الزمن ، مع المصاريف الباهظة ، ولذلك وجه همه الى موانيء اخرى كما فعل بانشاء ميناء الصويرة .

وكان الاتراك قد احتلوا وجدة فى عهد السلطان مولاي سليمان فى وقت استغل فيه دعاة الفتنة وداعة هذا السلطان العالم وروحه السليمة ، فاقنعهم دون حرب بالانسحاب وبذلك جنب بلاده اراقة الدماء فى سبيل استرجاع مدينتهم ، ولقد لعب الاسطول السليماني دورا محمودا فى حماية شواطيء البحر المتوسط ، فحمى بذلك النفوذ العثماني بشكل فعال ، كما رفض انضمام تلمسان الى التراب المغربي وقد احب اهلها الدخول فى طاعته فتجنب بذلك ، الدخول فى حرب مع الاتراك .

ان اعظم مظاهر دبلوماسية الدولة العلوية ، تتجلى فى علاقتها مع الدول الاوربية التى خبرت ميدان السياسة العالمية زمنا طويلا تمكنت خلاله من بسط نفوذها بشكل او بآخر ، على دول كثيرة من العالم .

وقد اكتسبت الدولة العلوية منذ العصر الاسماعيلي هيبة عظيمة بسبب استرجاع الثغور المغربية والقضاء على النفوذ الاجنبي ، ولذلك كانت

تتعامل مع المغرب بكثير من الحيطة والحذر خشية الدخول معه فى حرب . خصوصا وقد استطاع فى فترات غير بعيدة ان يوقف هجمات الاتراك على الحدود المغربية، بل وان يتوغل فى اراض كانت تحت نفوذهم . وكان المغرب نفسه يبادل الدول المذكورة هذه الحيطة والحذر لانه كان يخشى بدوره على استقلاله ومركزه .. ومع ذلك فقد فتحت الدولة العلوية صدرها لكل الدول الاجنبية التى تعاملت معه على اساس المودة وسياسة تبادل المنافع، وبذلك نشطت حركة المغرب الاقتصادية مع الخارج بشكل لم يتقدم له نظير فى تاريخ المغرب .

وعلى الرغم من هذه السياسة المتحررة التى سلكتها الدولة العلوية فان الاطراف الاوروبية التى كانت لا تقنع من خيرات المغرب باستغلالها واصحابها جملة . كانت تدعي ان المغرب بلد مغلق فى وجه الحضارة الحديثة بينما كانت تلاحق كل مسؤول به بشتى الوسائل ليتخلى عن تراب وطنه ، ومن ثم عملت على فتح الباب للامتيازات الاجنبية التى طغت بشكل خطير على الاقتصاد الوطني وهددت سلامة البلاد من الوجهة السياسية نفسها ، وكانت اقطار افريقيا قد اصبحت فريسة الاستعمار الاوروبي الذى لم يعد يسمح ببقاء اقطار الشمال الافريقي خارجة عن نفوذه ، وهكذا فلم يكد يتوفى السلطان المرحوم مولاي سليمان حتى كان النفوذ الاوروبي قد اخذ يمده جذوره بواسطة الامتيازات الاقتصادية ونظام الحمايات التى كانت تجعل من المواطن المغربي ذا جنسية مزدوجة

ولقد كان السلطان مولاي عبد الرحمن ذكيا فى اتخاذ خطة دبلوماسية مزدوجة ؛ فعقد مع بريطانيا معاهدة يخولها فيها امتيازات اقتصادية هامة بالنسبة لغيرها من الدول الاوروبية ، ثم عقد مع فرنسا معاهدة لا مفنية لضمان حدود المغرب على اثر وقعة ايسلي المشؤومة ، ولكنه لم يتاخر عن نصرة الامير عبد القادر الجزائري بوصفه وطنيا مسلما يدافع عن قضية وطنه ، وبذلك عضده وآزره فى قضيته هذه ، ثم ضمن حليفا يضايق عدوا مشتركا ، كذلك استفاد من محالفة انجلترا فى تدخلها لدى اسبانيا التى حاولت على اثر حادث بسيط وقع بين جنودها وقبائل الانجرة قرب سبتة ، ان تزحف نحو طنجة، وكان تدخل الانجليز ايجابيا دون ان يصل الى الجانب العسكري ، وهكذا عدلت اسبانيا عن زحفها المذكور سنة 1859 .

وعندما طغى التنافس الاوروبي على خيرات الوطن اضطر ملوك الدولة العلوية الى سلوك سياسة جديدة ، فقد اتخذوا من طنجة مقرا للدبلوماسيين الاجانب وبواسطة نائب السلطان بطنجة ، كانوا يتصلون بالحكومة المركزية التى تسوفهم وتماطلهم ثم تحاول ان تهدد بعضهم ببعض ، وكانت هذه الدبلوماسية التى اثارت اعجاب المؤرخين والدبلوماسيين الاوروبيين حتى الد اعداء المغرب منهم ، تضايق السفراء والمبعوثين الاجانب الذين كانوا يندهشون من هذه الدبلوماسية التى كان بعضهم يصفها بالمراوغة ؛ وحقا ان دولة فى وضع المغرب وامام اطماع عديد من الدول الاستعمارية التى تربض باساطيلها وبنفوذها الاقتصادي داخل المغرب او على مقربة منه ، ليشرفها ان تسلك سياسة المراوغة اذا كان من ورائها المحافظة على سلامة التراب الوطني وحماية استقلاله واذا لم تكن المقاومة العسكرية ذات فائدة تذكر امام كل هذه الدول الطاغية .

اما اعظم دبلوماسيي الدولة العلوية قبل الحماية، فهو السلطان المجاهد الحسن الاول الذى كان ظهوره يمثل فترة عصيبة من تاريخ المغرب الدبلوماسي ، والذى يشهد اشد غلاة المؤرخين الاجانب كراهية للمغاربة ، انه كان داهية الدهاة حنكة وقدرة على اختبار نوايا الاستعماريين وصرفهم بكل الوسائل الدبلوماسية عن وضع يدهم على التراب المغربي ، فقد عدل مولاي الحسن قليلا من سياسة اسلافه بحكم تطور الاوضاع ، وعامل الدول الاوروبية الكبرى على قدم المساواة ، فعقد مع كل منها معاهدة ثنائية حول الحمايات الاجنبية والامتيازات القنصلية ، ثم دعا الى عقد المعاهدة الدولية الشهيرة بمدريد 1880 حول الحمايات المذكورة ، وقد استفاد المغرب منها اكثر مما استفادته الدول الاجنبية ، حيث منع على المواطنين المغاربة ان يتجنسوا بالجنسيات الاجنبية كما حددت الملكية بالنسبة للاجانب ، وفى هذه الظروف بالذات كان مولاي الحسن يستغل تقدير الدول الاوروبية له ، والمعاهدات المبرمة بينه وبينها فيوفد البعثات العلمية والعسكرية لتتكون بها طبقا لتطورات النهضة الاوروبية يومئذ .

وقد اعاد الحسن الاول تنظيم الجباية والشؤون المالية، وشملت موارد الدولة الزكوات والاعشار والضرائب الجمركية ومكس الاسواق وغيرها واتخذ من الامناء موظفين سامين يعينهم

بنفسه ويصحبهم بموثقين حاسبين يضبطون الجبايات والموارد المالية احسن ضبط . وبذلك استقرت الاحوال المالية في عهده بشكل مرض حتى وان لم تسد كل الحاجيات في عهد هذا الملك الذي كان يطمح الى تطوير شامل لبلاده . واذا كانت انجلترا صاحبة اكبر امتياز اقتصادي بين الدول الاوروبية في عهد الحسن الاول فقد استغل السلطان العبقري هذا التشريف الذي خصصه لها وضمن مناصرتها له في ظروف صعبة نجا منها بفضل حنكته ودهائه .

كذلك لم يتمكن الاسبان من التوسع على حساب التراب المغربي حيث عمد سكان الشمال الى مهاجمة مليلية سنة 1892 وحاول الاسبان ان يستغلوا الفرصة ليشنوا هجوما على نطاق واسع ، فاوقفهم عند حدهم بترضية مالية لم يكن من الممكن ايقاف هجومهم بغيرها وقد كانوا ذات قوة عسكرية وبحرية يحسب لها حسابها .

وكان نشاط الحسن الاول في الميدان الدبلوماسي يتسم بطابع المساواة في المعاملة بين الدول الاجنبية بعد ان اتضح ان تجربة تخصيص دولة بامتيازات معينة ليس من صالح الدولة ولا مما يفرض هيبتها على الاجانب .

وهكذا فان مؤتمر مدريد سنة 1880 قد وضع حدا لسياسة الحمايات الاجنبية الطاغية التي مارستها الدول الاوروبية ازيد من قرن قبل هذا التاريخ .

وعرف الحسن الاول كيف يصرف الاسطول الحربي الاوروبي الذي هدد سنة 1892 مدينة طنجة. كما عهد الى مجموعة من الضباط الاوروبيين ينتمون الى مختلف الدول . باعادة تنظيم الجيش المغربي فاسند الى مهندس ايطالي مهمة الاشراف على دار السلاح بفاس . وقد كانت تنتج الاسلحة من مختلف الاصناف والعيارات بما في ذلك المدافع . وعهد الى مجموعة من الخبراء العسكريين الفرنسيين بتدريب الجيش المغربي بينما اسند الى الانجليزي هاري مهمة قيادة فريق من الجيش بطنجة . وكان مع ذلك يحضر بنفسه مختلف الاستعراضات العسكرية وقد امتدت عنايته الى التحصينات الضرورية لحفظ الثغور والموانيء والجهات التي قد تتعرض لخطر داخلي او خارجي واستصلح كل الابراج والحصون الممكن استخدامها للمدفعيين والرماية ، وقد كان يحضر المناورات والتمارين العسكرية التي كان يجريها رجال المدفعية حتى يؤكد اهتمامه بهذا النوع من الاسلحة الثقيلة التي كانت اهم اسلحة العصر يومئذ . وكانت مرتبات الجيش في عهده مكفولة مضمونة . وقد درج معظم ملوك المغرب في القديم على اداء ارزاق الجيش النظامي في وقتها على عكس ما كان يقع في دول اسلامية اخرى، وقد تولى الحسن الاول مع مشاغله السياسية والدبلوماسية العديدة مهمة الاشراف بنفسه على شؤون الجيش وقيادته العليا وبذلك بقي مهيب الجانب في اعين الدول الاوروبية وقد رأته يقتبس منها احسن ما لديها ويوجه البعثات العلمية والعسكرية الى اقطارها لاستكمال ثقافتها وتكوينها . وليبطل خرافة انغلاق المغرب في وجه الحضارة الاوروبية .

وهكذا كان من بين خريجي الجامعات الاوروبية الذين ارسلهم الحسن الاول ضمن عدة بعثات الحاج ادريس الشاوي قائد المدفعية الذي تلقى دراسته بانجلترا والزبير سكيرج الذي شارك في مؤتمر مدريد وقد تلقى تكوينه بنفس البلاد وتخصص في الهندسة العسكرية وقاسم بن الحاج الادريسي الذي درس بفرنسا وغير هؤلاء كثير .

ونشطت الحركة الفكرية في عهد الحسن الاول نشاطا عظيما فظهر علماء مجيدون في الفلك والجغرافيا ومؤرخون شهيرون وادباء خلدوا آثارا رائعة ومن هؤلاء واولائك عبد السلام العلمي الذي ابتكر جملة من الآلات الفلكية ، ومحمد المهدي بن سودة الذي وضع عدة مؤلفات منها ما يهم النظام العسكري، وجعفر بن ادريس الكتاني المشارك في عدة علوم ، واحمد بن خالد الناصري المؤرخ الذي يعد كتابه الاستقصاء اهم كتاب جامع لاخبار دول المغرب من حيث استقصاؤه واعتماده على مصادر ووثائق بعضها في حكم المفقود .

ولقد لعب كثير من هؤلاء العلماء الامجاد دورا رائعا في مساندة السياسة التي سلكها الحسن الاول في محاربة الامتيازات الاجنبية وفيهم من رفع عقيرته ضد الحمايات التي افرطت قنصليات الدول الاوروبية في استغلالها حتى قال ابو حامد المشرفي وهو من معاصري الحسن الاول : (واجب على كل من يؤمن بالله واليوم الآخر ان لا يجالس اهل الحماية ولا يصادقهم ولا يؤاكلهم ولا يعاشرهم ولا يناكحهم . وان يوصي كل من لقيهم بمجانبتهم ومباعدتهم وترك

معاملتهم ردعا لامثالهم ، لان هذا المنكر من اعظم المفاسد فى الدين) .

وبين هؤلاء العلماء من وضع رسائل حول الامتيازات الاجنبية بعناوين طريفة مثل رسالة لجعفر الكتاني بعنوان «الدواهي المدهية للفرق المحمية» ، ورسالة علال بن عبد الله الفاسي بعنوان « الويل والثبور لمن احتمى بالبصبور » .

ولقد عرف عهد الحسن الاول ظهور الصحافة العربية لاول مرة بالمغرب على يد عناصر من اللبنانيين المثقفين الذين اتخذوا المغرب وطنا ثانيا لهم . وبما ان مقر الدبلوماسيين الاجانب كان هو طنجة فقد كانوا ينشرونها هناك وفتحت صدرهـا للاعلانات والاخبار السياسية والوطنية وكان اكثرها يهتم بالجانب الادبي والفكري الى جانب اهتمامها بالشؤون السياسية .

ولكن كانت هناك دولة هي اشد من غيرهـا اهتماما بشؤون المغرب ، الا وهي فرنسا بحكم احتلالها للجزائر وتونس ، فكانت تخلق من حوادث الحدود حتى ابسطها مبررا للتدخل العسكري اذا واتتها الفرصة ، ولكن الدول الاوربية الاخرى كانت تنفس عليها هذ التدخل ، وبذلك يامن المغرب مع ما يبذله من جهود دبلوماسية ومقاومة وطنية ايضا . جانبها الى حين .. ولم يكن من السهل ان تتخلى الدول المنافسة عما تعتبره حقا فى ارض ليست ارضها وبذلك ظهرت سياسة التراضي والاتفاق على تقسيم الغنائم وفتحت معاهدة ايطاليا وفرنسا سنة 1901 وما يليها من معاهدات مع الدول الاخرى المجال امام فرنسا حتى كان مؤتمر الجزيرة الخضراء سنة 1906 وفيه تقرر ان تتولى كل من اسبانيا وفرنسا القيام بتنظيم الشرطة والجمرك والشؤون المالية . ثم جاءت سنة 1911 فتراضت ءاخر دولة اوروبية بقيت تعترف باستقلال المغرب ، مع الدولة الفرنسية حيث تنازلت هذه لتلك عن جزء من بلاد الكونغو ، وتركت المانيا لفرنسا حق التدخل كليا فى شؤون المغرب ، وبذلك فقد المغرب ءاخر نصير بين الدول الاجنبية ثم تحركت الجيوش الفرنسية نحو فاس وارغمت السلطان مولاي عبد الحفيظ على اقرار الحماية ... ولولا قبوله لهذا النوع من التدخل الاجنبي لكان من الممكن ان يفرنس المغرب كما حدث للجزائر التي الحقت بالتراب الفرنسي .. ومع ذلك فان المقاومة الشعبية لم تتوقف قط . حتى ظهر السلطان العظيم محمد الخامس الذى غذاها بتشجيعه المادي والمعنوي ، بل وتبناها عندما اقتضت الظروف ذلك ، وكانت حكمته وتبصره مثار اعجاب العالم اجمع ، وكان مع ذلك يبذل المستحيل حتى يجنب شعبه اراقة دمائه ، بينما لا يترك فرصة ليعرف الاطراف الدولية بقضية بلاده حتى سهل الله لقاءه المثالي بشعبه فى المناضلة فآثر المنفى ثم التقى به مرة اخرى بعد الاستقلال فقلب وجوه السياسة والحنكة كلها ليوفق بين التيارات الوطنية ويرعى صالح بلاده فوق جميع النزعات وبذلك فتح طريق الدبلوماسية الحق امام وريثه الحسن الثاني الذى يحتل الآن مكانا مرموقا لدى دول العالم قاطبة . فبينما هو يناصر بالحاح سياسة وحدة المغرب العربي ، يؤيد نضال الدول العربية ضد الاستعمار والصهيونية ، وفيما هو يمد يده الى دول العالم الثالث يلتفت الى الدول العظمى فيخلق حيالها سياسة توازن ذكية ، واخيرا يبرم كل يوم معاهدة تكسب بلاده مزيدا من الصداقات ويحصل لها على المزيد من النمو الاقتصادي والتقدم الفكري والاجتماعي . حقق الله آمال المغرب فيه وسدد فى سبيل الخير خطاه .

فاس ـــ ابراهيم حركات

جهاد الباعمرانيين

في سبيل العرش والدين

للأستاذ الحسين وكاك

كل من تتبع الاحداث التاريخية والوطنية يدرك جيدا الدور الهام الذى قامت به قبائل ايت باعمران فى سبيل العقيدة الاسلامية والوحدة الوطنية والدفاع عن العرش العلوي المجيد فمعاركها البطولية التى خاضتها مع الغزاة الفرنسيين والمستعمرين الاسبانيين ومواقفها الرائعة لمحاربة مرسوم (1) التجنيس والمطالبة بالوحدة الوطنية واعلان الولاء لملوكها الشرعيين خير دليل على صدق ايمانها بعقيدتها وتفانيها فى حب وطنها وتعلقها بملوكها واخلاصها لمقدساتها وتراثها العظيم .

وكانت قبائل ايت باعمران المخاصة لله والوطن تحظى دائما من طرف الملوك العلويين بتقدير كبير حسبما تشهد بذلك رسائل السلاطين والملوك التى ترد عليها فى مختلف المناسبات ، وتخص بالذكر هنا الرسالة (2) التى بعثها الملك مولاي عبد الرحمن العلوي الى الشيخ امحمد الباعمراني والتي يقول فيها :

« محبنا الشيخ محمد الباعمراني وكافة آيت باعمران وفقكم الله وارشدكم وسددكم سلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته ، وبعد ثانكم اهل محبة وخدمة لدارنا الشريفة ، ولكم من الفضل فى ذلك ما ليس لغيركم ، وقد ولانا الله هذا الامر واولانا نصره ، فيجب عليكم ان تكونوا اسبق الناس لخدمتنا واسرعهم لاجابتنا لما لكم من المحبة وكمال الانحياش قديما وحديثا ، فبوصول كتابنا هذا اليكم اقدموا لحضرتنا العالية بالله جماعة وافرة من اعيانكم ولكم عندنا من المبرة والاكرام ما ترضون ان شاء الله تعالى والسلام فى 5 محرم الحرام فاتح عام 1240 هـ »

ورغم ما كابدته قبائل ايت باعمران من فتن واهوال ، وقاسته من شدائد وحروب فانها صامدة صمود الجبال، وفية كل الوفاء، غيورة على مقدساتها الدينية والوطنية ، لم تقبل فى يوم من الايام ان تكون تبعا لدولة ليست منها ولا من ارضها ولا من جنسها، ولم ترض فى عهد من العهود الماضية ان تكون منفصلة عن الوطن، بل قاومت طوال ما يقرب من قرن من الزمن كل المحاولات التى اريد بها استدراجها الى موالاة الدخلاء والمستعمرين ، واحتقرت كل ما قدم لها من اموال لتبيع شرفها وتخون وطنها وتنبذ العهد الذى اخذ عليها من ملوكها الاشاوس وتنقض الميثاق الذى التزمت به فى سبيل الدفاع عن العرش والدين .

(1) جريدة الميثاق عدد 80 ص 6

(2) توجد هذه الرسالة فى كتيب تاريخي حول ايت باعمران لصاحب المقال طبع اخيرا .

لقد حاول الاسبان في حروبهم الواقعة معها ما بين سنه 1896 وسنة 1832 ان يرهبوها ويحتلوها بقوة الحديد والنار فلم يفلحوا . وحاول الفرنسيون بدورهم ان يغزوها ويستعمروها في الحروب الضارية التي شنوها ضدها ما بين سنة 1913 وسنة 1934 فلم ينجحوا . لانها قبائل وفية لملوكها الذين وجهوها التوجيه الاسلامي الصحيح . وحذروها من مغبة الخضوع لجميع الدخلاء والمستعمرين فكانت نعم الحارس الامين والخادم الوفي المطيع .

ولما تكالبت عليها القوى الاستعمارية . واتاها التهديد من كل جهة ارتأت ان تتعاون مع اسبانيا حتى لا تنتقم منها الجيوش الفرنسية التي دحرتها عدة مرات في معارك متعدده فكان قضاء الله وقدره واصبحت اسبانيا صاحبة الامر والنهي في ايت باعمران بعد ما ضربت بالاتفاقيات المبرمة بينها وبينهم عرض الحائط . والتي تضمن لهم حريتهم وكرامتهم وتصون مقدساتهم وتحافظ على انظمتهم واعرافهم .

وقبل سنة 1947 بقليل طغى وتجبر كل من الاستعمارين الفرنسي والاسباني واصبحت الادارة الاسبانية (بسيدي افني) بنفس الشعار الذي اصبحت به الادارة الفرنسية في مجموع التراب المغربي : وجوزت لنفسها التدخل في كل شيء . وحاولت اهانة الباعمرانيين الشجعان وابعادهم عن مقدساتهم ومحو آثار ملوكهم اولا . وتجنيسهم وادماجهم في الدولة الاسبانية ثانيا الشيء الذي جعلهم يعلنون سخطهم العام على مدبري التجنيس ودعاة التنصير في مظاهرة عامة نظمت في مسجد سيدي احمد ابراغ (بسيدي افني) ويعاهدون الله على محاربة الاسبان والعمل المتواصل لتحقيق الوحدة الوطنية . والاستظلال بظل العرش العلوي المنيف . وقد تجلى صراع الباعمرانيين مع الادارة الاسبانية في مواقف ثلاثة :

1) امتناعهم عن رفع الراية الاسبانية

فقد كان من عادة المسؤولين الاسبان في (سيدي ايفني) ان يلزموا السكان برفع رايتهم لدى استقبالهم للشخصيات الرسمية الاسبانية التي تزور أيت باعمران في مختلف المناسبات كبرهان ساطع على رغبة أيت باعمران في الاندماج . وعندما ادرك الباعمرانيون سوء نيتهم اتفقوا على رفضها والامتناع عن رفعها ابدا . واول من رفض رفعها من القواد القائد احمد والقائد سعيد اللذان احتجا على ذلك بقوة معلنين للمسؤول الاسباني اذ ذاك . الكومندان سابس ان الراية التي يجب علينا رفعها هي شعار الاسلام الذي هو راية ملوكنا العلويين وقد قابله الكومندان سابس بكلمات جارحة الشيء الذي اغضب القائد احمد فرفع به شكاية الى رئيسه الكولونيل برميخو الذي لاطفه وازال غضبه منتظرا الفرصة للانتقام منه ومن زميله القائد سعيد اللذين اظهرا شجاعة نادرة في الدفاع عن الراية الحمراء التي اصبحت اليوم ترفرف ولله الحمد على المباني العامة والخاصة في (سيدي ايفني) وآيت باعمران .

2) محاربتهم لمرسوم التجنيس

حاولت الادارة الاسبانية في (سيدي ايفني) ان تدمج آيت باعمران في الدولة الاسبانية وتعتبر اقليمهم جزءا لا يتجزأ من التراب الاسباني فبداوا يفترون على التاريخ الكذب ويشوهون الحقائق ويزعمون ان اقليم آيت باعمران ليست بها آثار السلاطين ولم يحكمه قط ملك من الملوك ولكن الباعمرانيين لم يسكتوا عن هذه المناورات . بل قاوموها بجميع الوسائل وبداوا يبحثون عن الظهائر والآثار التي تدل دلالة قاطعة على انهم مغاربة ومتشوون دائما تحت سلطة الملوك الشرعيين البلاد . وفي هذا الوقت بالذات هرع الاسبان الى اخراج المغاربة القاطنين بسيدي ايفني كوسيلة اولى في تطبيق مرسوم التجنيس الذي اصدروه سنة 1365هـ موافق 1947 والذي يقضي بتجريد سكان آيت باعمران من جنسيتهم المغربية واعتبارهم من الاسبان بالجنسية التي منحت لهم بالقوة وعندما شرع الاسبان في تنفيذ سياستهم التنصيرية وكونوا لجنة لجمع توقيعات السكان على اوراق بيضاء واستفسارهم عن حالتهم المدنية ثار الباعمرانيون على هذه التوقيعات المجهولة القصد وقرروا رفع عريضة الى المسؤول الاسباني في (سيدي ايفني) اذ ذاك الكولونيل برميخو .

وكان نقل هذه العريضة وتسليمها للكولونيل برميخو من حظ الحاج محمد عرواش واحمد الذيب اللذين وقعت بينه وبينهما المحاورة التالية :

برميخو : ماذا في هذه العريضة ؟
هرواش : احتجاج آيت باعمران ضد التجنيس
برميخو : اقراوها لاسمعها
هرواش : الاحسن ان تكلف ترجمانك بقراءتها
برميخو : من كتبها ؟
هرواش : سكان سيدي ايفني وآيت باعمران
برميخو : عينوا لي الذى كتبها بيده
هرواش : اذا كنتم تبحثون عن شخص واحد مسؤول فان امامكم الآن شخصين اثنين يهمهما ان يتفاهما معكم حتى لا يحدث السكان ما لا تحمد عقباه.

برميخو : هذا احسن وماذا تريدون ؟

هرواش : نريد ايقاف التجيس حالا ، ونؤكد للسيد الكولونيل أن آيت باعمران كلهم رجالا ونساء صغارا وكبارا لن يسكتوا عن شؤون دينهم ولن يقبلوا العيش بدون دين .

برميخو : هذا قانون اسبانيا ويعم الباعمرانيين ما يعم اسبانيا وقصدها ان ترفع من قيمتهم .
هرواش : وهل تقبلون التخلي عن دينكم ؟
برميخو : لا
هرواش : ونحن كذلك
برميخو : اذا منحت فرنسا للمغرب فى الصباح استقلال المناطق التى تحتلها فان اسبانيا ستمنح له فى المساء استقلال (سيدي ايفني) وآيت باعمران .

هرواش : نحن لا نتحدث الآن عن الاستقلال الذى هو امنية الجميع ، فالذين يطالبون به يطالبون به لجميع اقاليم المملكة ، ولكننا الآن امام قضية التجنيس التى هي دينية بحتة راغبين فى ان تتفهم اسبانيا موقف الباعمرانيين الذين لا يريدون بدينهم بديلا .

برميخو : سأعتني بعريضتكم وادرس ملتمسكم، ، ولكن لا تنسوا ان هناك رؤساء آخرين يشرفون على اعمالي .
هرواش : متى يجيبنا جنابكم ؟
برميخو : حينما تجيب الحكومة الاسبانية
برميخو : لمن ارسل الجواب ؟
هرواش : الى مسجد سيدي احمد ابراغ
برميخو : لمن يعطى فى المسجد ؟
هرواش : سكان سيدي ايفني كلهم ينتظرونه بعد صلاة العصر

هرواش : وفى انتظار جواب الحكومة الاسبانية نطلب باسم السكان ايقاف لجنة التجنيس حتى لا يحدث الاضطراب بين المواطنين .

برميخو : سأفعل

وقد حررت تلك العريضة بأسلوب مفعم بالايمان، ومما ورد فيها : « ان الباعمرانيين كلهم سيضطرون الى الدفاع عن اسلامهم وبلادهم وملكهم اذا لم يوقف الاسبان اوراق التجنيس وانهم يعتبرون ان لا حياة لهم بعد الدين » وقد كتب هذه العريضة التاريخية الحاج احمد امستي الذى لفظ نفسه الاخير تحت التعذيب الاسباني سنة 1957

3) نصر محمد الخامس

وقد كان رد الفعل من طرف الادارة الاسبانية بسيدي ايفني على امتناع الباعمرانيين عن رفع الراية ومحاربتهم للتجنيس ان قاموا بنشر دعاية واسعة النطاق تنسف كل اتصالات آيت باعمران بملوكهم وتموه الحقائق وتضلل العقول فهال الامر السكان واسود الجو امامهم واقض مضاجعهم ما يدبر فى الخفاء فاجتمعوا فى ضريح (سيدي ايفني) يرتلون القرآن الكريم لعل الله يرشدهم الى عمل مفيد فى تقويض السياسة الاسبانية من اساسها فاهتدوا الى اعلان مغربيتهم ونصر محمد الخامس امير المومنين على المنابر وفى الاسواق تكذيبا عمليا لكل الدعايات والاراجيف الاستعمارية الاسبانية ، وفعلا طبقوا هذه الفكرة وكتبوا الرسائل بذلك الى جميع القبائل فكانت (اصبويا) اول قبيلة اعلنت النصر فى اسواقها وعلى منابرها بزعامة القائد احمد البشير الذى رفض الاموال المعروضة عليه من طرف (الكومندان سايس) الذى طار مع فرقة من قواته الى (اصبويا) بعد سماعه النصر رغبة منه فى تراجعهم واقتلاعهم عن الانسياق وراء الطائشين حسب زعمه فقال مخاطبا قائدهم المخلص القائد احمد تنصر السلطان وهو فى الرباط ؟ فقال له القائد احمد : لاني اراك تنصر فرانكو وهو فى مدريد : ثم قال له : كان من الواجب عليك ان لا تقدم على هذا الامر الا بعد ان تاخذ رأينا فيه فقال له القائد احمد : ان هذا الامر ديني يهم الباعمرانيين وحدهم فرجع يخفي حنين بعدما وجد قبيلة «اصبويا» وعلى راسها القائد احمد مصرة على النصر الى الموت ولم يكد خبر اعلان النصر فى (اصبويا) ينتشر حتى بدأ سكان (سيدي ايفني) يستعدون

لاعلانه بدورهم الامر الذى جعل السلطات الاسبانية تجري مفاوضات مع ممثلي السكان وعلماء المدينة رغبة منها فى تاخير النصر . ولكنهم صمموا العزم على اعلانه بعد صلاة الجمعة مهما كلفهم ذلك من ثمن متجاهلين كل العواقب الوخيمة التى ستترتب على ذلك . فتدخلت مرة اخرى لدى الخطيب الهمام السيد محمد الامام لعله يقتنع برايها ولكنه حكم ضميره واعلن النصر فى خطبة مؤثرة ابكت جميع المومنين ..

ولقد تاثرت القبائل بمهرجانات النصر فى (سيدي ايفني) وتتابعت فى اعلانه الواحدة تلو الاخرى مما اغضب الحاكم الاسباني واثار غيظه فاصدر اوامره باعتقال الزعماء والاعيان والشيوخ والمقدمين وكل من شارك فى ذلك ودعا اليه من التجار والفلاحين ومصادرة املاكهم وتشريدهم ونفيهم من البلاد .

ومن جملة من اعتقل وشرد فى هذه الحادثة احمد الذيب الذى وقعت بينه وبين تريثتي (الونصي) الاسباني المحاورة التالية :

الونصو : هل حملت رسائل الشكايات الى الرباط ؟

الذيب : لم احمل معي اي رسالة

الونصو : هل رايت الملك ؟

الذيب : نعم

الونصو : اين رايته ؟

الذيب : وجدته فى مقهى هناك

الونصو : كيف يجلس الملك فى المقهى ؟

الذيب : اذا لم يوجد فى المقهى فاين يجده مثلي . وهل تقدر وانت ضابط ان ترى فرانكو ؟

الونصو : لا

الذيب : اذن انا اضعف من ذلك

الونصو : انتم الباعمرانيون حمق

الذيب : ولماذا ؟

الونصو : لانكم نصرتم ملكا لا يوجد فى بلدكم

الذيب : هو ملكنا واجداده ملوك اجدادنا

الونصو : انتم قوم معروفون بالطمع . ولو كان هناك ضابط اسباني يعطيكم مليونين من البسيطة لنصرتموه ملكا عليكم ، وقد نصرتم فى فترة من تاريخكم آل ماء العينين .

الذيب : انتم دخلتم البلاد سنة 1934 فما هي (السكة) العملة التى تصرف هنا ؟ فهل وجدتم سكة ماءالعينين او سكة مولاي الحسن ؟

الونصو : اطرق هنيهة وقال : ماذا تريد من هذا السؤال ؟

الذيب : اريد منك ان تقول الحق

الونصو : وجدنا فيها السكة الحسنية

الذيب : هذا دليل على ان البلاد لمولاي الحسن

الذيب : وهل وجدتم هنا سكة غيرها ؟

الونصو : لا

الذيب : اذن البلد لمولاي الحسن

الونصو : اوما عرفت ان هذا البلد اشترته اسبانيا منذ 485 عاما

الذيب : من هو الذى باعه لكم ؟

الونصو : سلطان قديم من سلاطين المغرب (يجهل اسمه)

الذيب : هل عقدكم هذا صحيح ؟

الونصو : نعم

الذيب : اين حدوده الاربعة ؟

الونصو : ماذا تريد من هذا السؤال ؟

الذيب : اريد ان اعرف حدوده من الجهة التى تحتلها فرنسا لانكم دائما تتخاصمون مع الفرنسيين على الحدود من جهة اكلميم والنواحي الاخرى .

الونصو : ذاك يهم اسبانيا

الونصو : لماذا كنتم السبب فى هلاككم ونفيكم من البلد وقد عرفتم ان البلاد اسبانية .

الذيب : انتم السبب

الونصو : لماذا كنا السبب ؟

الذيب : لانكم زعمتم شراءها منذ 485 عاما ، وكان يجب عليكم ان تعمروها حتى تعلم انها لكم ونحن معذورون اليوم حينما نطالب بها اذ انكم انتم الذين تركتموها واهملتموها حتى قمنا بعمارتها واحيائها .

الونصو : البلاد لاسبانيا ، وكان دائما نمر فى البحر على سفننا ونراها خضراء حتى عام 1934 فنزلنا بها

الذيب : فهل شراؤكم صحيح ؟

الونصو : نعم

الذيب : ولماذا تشترونها مرة اخرى من قبيلة (امستي) متجاهلين شراءكم الاول ، ولعلكم تعرفون ان شراءكم الثاني دليل على فساد شرائكم الاول

الوتصو : نحن لا نشتري الآن من قبيلة (امستي) انما نحسن اليهم ونعينهم

الذيب : الاحسان عادة لا يحتاج الى كتبه فى الرسوم والتوقيع عليها

الوتصو : ذاك يهم اسبانيا

الوتصو : لماذا ترتم ونصرتم الملك مع اننا لم نمنعكم من دينكم وعبادتكم ؟

الذيب : ان ما تعملونه ضد الاسلام مثله مثل من يقطع عروق الشجرة واحدا بعد الآخر فكما ان تلك الشجرة لابد ان تيبس بعد حين فكذلك انتم وبهذه الاعمال ستسدون علينا ابواب المساجد فى يوم من الايام .

الوتصو : انت تستحق هذا السجن قبل هذا التاريخ .

وهنا ادخل الحارس رسالة فقراها امام (الذيب) قائلا له :

الوتصو : هل تعرف ما فى هذه الرسالة ؟

الذيب : من قراها يعرف ما فيها

الوتصو : فيها ان بعضكم سينفى الى الداخلة

الوتصو : وهل تعرف الداخلة ؟

الذيب : لا

الوتصو : جزيرة وسط البحر

الذيب : انها تناسبنا كثيرا

الوتصو : ولماذا ؟

الذيب: لاننا لا نريد ان نسمع اخباركم وافعالكم التى تقترفونها هنا ضد الاسلام وضد ملوكنا الشرعيين

ثم نفي الى الداخلة وبقي هناك سبع سنين مشتغلا فى سجنه بحفظ كتاب الله العزيز

وفد آيت باعمران فى القصر الملكي بالدار البيضاء

لم تستطع الادارة الفرنسية فى المغرب ان تمنع المجاهدين والوطنيين الاحرار من الاتصال بجلالة الملك محمد الخامس الذى طوقته فى قصره بالدار البيضاء سنة 1953 عندما اقلقها واغضبها ما يقوم به من خدمات لصالح وطنه ، وما يظهره من تصلب فى الدفاع عن حقوق شعبه . فاقبلت على القصر الملكي بالدار البيضاء افواج من المومنين الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه . وكان وفد آيت باعمران من بين الوفود التى شرفها الله بمقابلة جلالته فى ذلك الظرف العصيب من تاريخ الامة المغربية وفي تلك الايام التى تدبر فيها ادارة الحماية الفرنسية مكيدة نفي جلالته عن وطنه وابعاده عن شعبه الذى يبادله الحب والتقدير ، ويفديه بالمهج والارواح .

وخلال تلك المقابلة التاريخية اعرب اعضاء الوفد عن ولاء الباعمرانيين والسوسيين للعرش العلوي المجيد واخلاصهم للجالس عليه محمد الخامس الذي جاهد فى الله حق جهاده وضحى فى سبيل عزة المومنين وكرامة المغاربة المجاهدين كما اوصاهم ملكهم المحبوب بالصبر والثبات والعمل المتواصل فى سبيل الحرية قائلا لهم : « بلغوا اخوانكم انه ما ضاع حق وراءه طالب » وسنبقى فى موقفنا صامدين حتى يحقق الله النصر للمسلمين . وسيعلم الذين ظلموا اي منقلب ينقلبون . وان آيت باعمران واهل سوس من المومنين الذين يتلون كتاب الله صباح مساء ويقراون فيه قول الله تعالى « ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون » .

وبعد هذا اللقاء التاريخي بثلاثة ايام نفت سلطات الحماية السلطان الشرعي للبلاد محمد الخامس الذى اختار النفي والتشريد على البقاء اسيرا فى يد المستعمرين . فضحى بعرشه وعرض اسرته للمنافي السحيقة فى سبيل اعلاء كلمة الله .

عيد العرش فى سيدي ايفني وآيت باعمران

لم يتحمل الشعب المغربي ان يهان رمز كرامته وشرفه ، وان يرضى بالحياة بدون محمد الخامس ، وان يعيش رائده فى المنفى بعيدا عنه فاجمعت كلمته على اخذ الثار . فقام مقاومة ضارية حتى حقق الله وعده ونصر عبده وهزم الشيطان وحده ورجع محمد الخامس الى وطنه فاهتزت البلاد فرحا وسرورا بعودته . وطربت النفوس لرؤيته . واحيى الله الارض بعد موتها ، وهرع المواطنون لاستقباله وتهنئته وشكره ، واقاموا الافراح والمهرجانات احتفالا بمقدمه واعتناء بعيد عرشه . فاراد الباعمرانيون ان يشاركوا الشعب فى احتفالاته فنظموا مهرجانا فى (سيدي ايفني) عبروا فيه عن فرحهم برجوع الملك الى

وطنه . وتعلقهم بالعرش العلوي المجيد . وتفانيهم في حب ملكهم المجاهد محمد الخامس الذي هو ملك المغاربة اجمعين الشيء الذي اغضب سلطات (سيدي ايفني) فالقت القبض على بعض الافراد والاعيان ونفتهم الى منطقة العيون انتقاما منهم على ما ابدوه من تعلق وولاء للعرش والجالس عليه .

حفلات الاستقلال بسيدي ايفني وآيت باعمران

وبعدما زار جلالة الملك محمد الخامس اسبانيا سنة 1956 واعترف فرانكو باستقلال المنطقة الخليفية تبعا لفرنسا التي اعلنت بدورها استقلال المغرب بعد كفاح مرير نظم الباعمرانيون مرة اخرى مهرجانات في (سيدي ايفني) ومختلف القبائل الاخرى وعبروا اصدق تعبير عن فرحتهم الكبرى بالاستقلال في حفل خطابي اقيم هناك بتلك المناسبة. واستدعي اليه مختلف الشخصيات الاسبانية وغيرها. ومن ضمنها سكرتير الجنرال الحاكم في (سيدي ايفني) اذ ذاك والذي صرح في ذلك الاحتفال الضخم بأن اسبانيا تعترف باستقلال سيدي ايفني) وآيت باعمران فكان فرح المحتفلين عاما وشاملا بذلك التصريح الذي اعتبره الباعمرانيون اذ ذاك تصريحا حكوميا واعترافا رسميا بالاستقلال ؛ الا انه بعد مدة قصيرة تراجع الحاكم الاسباني عن تصريحه بالاستقلال ؛ والقى القبض على بعض العلماء والشخصيات الوطنية التي تحظى بثقة السكان ونفاهم الى بعض الجزر التابعة لكناريا .

ورغم اطلاق سراحهم بتدخل من جلالة الملك محمد الخامس رحمه الله فان الادارة الاسبانية ما زالت تصر على اعتبار (سيدي ايفني) وآيت باعمران جزءا لا يتجزأ من التراب الاسباني وتفكر في ان تثقل الحدود بالجنود حتى لا يتمكن احد من الدخول ولا من الخروج فلما اكتشف الباعمرانيون ما يدبره الاسبان في الخفاء قرروا الهجوم عليهم هجوما عاما وشاملا فاستولوا بعد شهر من الجهاد على مختلف المراكز باستثناء (سيدي ايفني) الذي لم تتمكن الفرقة المكلفة باحتلاله من السيطرة عليه نظرا لكثرة الجيوش الاسبانية المرابطة فيه .

وهكذا استمرت الحرب بين الطرفين اربع سنوات حتى تدخل امير المومنين وحامي حمى الملة والدين جلالة الحسن الثاني الذي هيأ الجو للعمل الديبلوماسي وربح المعركة سلميا وتوج جهاد المناظلين بفوز عظيم ونصر جسيم أعاد (سيدي ايفني) الى حظيرة الوطن ومحا الوجود الاسباني على تلك الناحية من المملكة المغربية فاصبحت الراية الحمراء ترفرف وحيدة على تلك الربى المحبوبة والجبال الشامخة..

وستعرف مدينة (سيدي ايفني) المحررة بفضل الديبلوماسية الحسنية كيف تحتفل لاول مرة في عهد استقلالها بعيد عرشه ؛ وستعرف قبائل آيت باعمران المجاهدة كيف تعبر عن ولائها لعاهلها المظيم وتحتفل بعيد ملكها المجاهد امير المومنين الحسن الثاني الذي اضاف هذا العمل الخالد الى جلائل الاعمال التي حققها هو ووالده المنعم محمد الخامس طيب الله ثراه واسلافه المنعمون في سبيل عزة وكرامة واستقلال هذا الشعب المغربي الكريم .

الرباط ــ الحسين وكاك

وثبات دبلوماسية مغربية موفقة في العهد الحسني الزاهر

للأستاذ عبد اللطيف خالص

يحتفل الشعب المغربي في اوائل شهر مارس من كل سنة بعيد العرش المجيد . وهي مناسبة جليلة تغتنمها الامة المغربية جمعاء للاحتفاء بذكرى جلوس حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم الحسن الثاني نصره الله على عرش اجداده الكرام والاعراب عن تعلق المغاربة اجمعين وولائهم المتين لصاحب الجلالة ، وتجديد العهد لمواصلة مسيرة البلاد المظفرة نحو الرقي والكمال والتقدم والجلال . ويعد هذا العيد العظيم فرصة غالية يقف فيها العرش والشعب على عتبة التاريخ ليتدبر كل منهما ما قدمته يداه لهذا الوطن من جلائل الاعمال وما يتحتم عليهما القيام به للوصول بالسفينة المغربية الى شاطىء النجاة . واذا كان جلالة الحسن الثاني العظيم يقف يوم ثالث مارس بساحة المشور السعيد يخاطب شعبه ليقدم اليه ما حققه المغرب ، تحت قيادته الموفقة ، من منجزات وما اقامه من منشآت ، وكانت جميع الوزارات والادارات والمصالح العمومية تصدر منشورات عديدة تطفح بالبيانات الشافية والارقام الكافية لتؤكد المراحل التي قطعتها البلاد والخطوات التي اجتازتها في طريق التنمية والتقدم ، فان الواجب الوطني يقضي على المثقفين بان يغتنموا هذه المناسبة الوطنية العزيزة ليتعرضوا للجوانب الغامضة من هذه المنجزات بالشرح والتحليل ، ويتعمقوا في دراسة تاثير هذه المنشآت على الوطن والمواطنين ، ويعربوا بكل حرية عن آرائهم ونظرياتهم حول المكتسبات التي حققتها البلاد ، والوثبات الظافرة التي دفعت عجلة المغرب الى الامام . ان يضطلع المثقف الحق بهذا الدور الطلائعي في التوجيه والارشاد الا اذا امعن النظر الحصيف في هذه المنجزات ، ورجع البصر كرتين في المشاريع التي شهدت بلادنا تحقيقها . وتعهدها بالنقد المجرد النزيه الذي يسمو به عن الاهواء والاجواء ، ويعلو به عن الميول والنزعات ، وينأى به عن الاعراض والمصالح .

ان مهمة المثقف تحتم عليه مسايرة الاحداث التي تعرفها بلاده . ومواكبة المعركة الكبرى التي يخوضها الشعب ضد التخلف الاقتصادي والاجتماعي والسياسي ، والوقوف ، عن كثب ، على مجالي التطور التي تسير فيها البلاد حتى لا يكون بمعزل عن مظاهر الاصلاح والتجديد التي تحدد مستقبل البلاد ، وتجسد آمال ابنائها في التحرر والترقي . وليس من الضروري ان يقف هذا المثقف مؤيدا لما يجري في البلاد ، مصفقا لكل عمل يتحقق ، ومناصرا لكل مشروع ينجز . ولكن الواجب يفرض عليه ان يتدارك منجزات بلاده بالعطف والاهتمام ، ويوليها ما تستحقه من العناية والدرس ، ويخصها بما تتوقف عليه من نقد وتحليل حتى يؤكد ، بهذه المشاركة العلمية ، حقه في المواطنة ، ونصيبه في التبعة الاهلية التي يتحملها كل فرد يعيش في هذه البلاد التي يتفيا ظلالها الوارفة ، ونفحاتها المنعشة ، ونسيمها العليل ، وماءها الزلال ، ونعمها الكريمة ، وعطاءها المبذول ، ونوالها السمح الذي لا يكتفي بالتغني به ، بل يطلب من كل مواطن يتمتع به ان يسير في روافده . ويكون من منابعه الثرة السخية .

وقد كان بودي ان اواصل فى هذه المناسبة البحث الذي شرعت فيه فى مثل هذه المناسبة من السنة الماضية حول « مظاهر الاصلاح والتجديد فى عهد الدولة العلوية » ولكن ادارة تحرير المجلة ارتأت ان يدور العدد الممتاز من « دعوة الحق » فى اطار النشاط الوطني الجم الذي طغى على حياة بلادنا هذه السنة المباركة والذي بلغ شأوه عندما تجسد فى مؤتمرين عالميين عظيمين لم اولهما شتات المسلمين لاول مرة فى التاريخ وتكفل الثاني بتوحيد صفوف العروبة وتعزيز كفاح ابناء فلسطين السليبة بغية استرجاعها لحظيرة الامة العربية زيادة على ما حققه المغرب من انتصارات ديبلوماسية اخرى تجلت في الندوات الفكرية والعلمية التي احتضنتها بلادنا وفى اعادة العلاقات المغربية الفرنسية الى سالف عهدها بعد تبادل السفراء بين المغرب وفرنسا ، كما تجلت فى دخول بلادنا عهد المواصلات الفضائية وما نتج عن ذلك فى الميدان الديبلوماسي من تعزيز اواصر التعاون والتفاهم بين المملكة المغربية والولايات المتحدة الامريكية بعد الحديث الودي المباشر الذي دار بين صاحب الجلالة والرئيس الامريكي نيكسون . وسوف لا تفرغ من هذه الدراسة الا بعد التعرض للآفاق الجديدة التي فتحها هذا النشاط المدهش فى وجه الديبلوماسية المغربية للاضطلاع بدور حاسم فى العلاقات الدولية بصفة عامة .

وسأحاول فى هذه الصفحات التعرض لبعض الاحداث الديبلوماسية الهامة التي شهدتها بلادنا والتي كان لي شرف الاحتكاك بالمسؤولين المباشرين عنها او التي اسعدني الحظ فكنت منبثا فى كواليسها الامر الذي اعانني على تتبع مجراها ، والوقوف على دواعيها ونتائجها ، والتعرف على العواقب السارة التي انبثقت منها . ومن البديهي اني لا اعتزم الدخول فى شرايين هذه الحركات حتى استخرج منها الغث والسمين ولكني سأكتفي بشرح الجوانب المفيدة الكثيرة التي تحلت بها هذه الاحداث ، والثمرات اليانعة التي جنتها بلادنا من ورائها .

لا مراء فى ان المواطنين ما زالوا يتذكرون ان بلادنا كانت خلال السنة الهجرية الحالية مسرحا لحدثين سياسيين جليلين لم يتجاوز الفرق بين كل منهما ثلاثة اشهر .

فقد تبسم فجر فصل الخريف بانعقاد مؤتمر القمة الاسلامي فى الرباط ، بينما افتر ثغر فصل الشتاء وعاصمة المملكة المغربية تأوي اقطاب العروبة .

وهكذا كانت البشرى بشريين ، وصار العيد عيدين لان اجتماع ملوك المسلمين ورؤسائهم يبشر بدخول الاسلام عهدا جديدا مشرقا فى هذا القرن الهجري الرابع بعد العشر بينما يدل تلاقي ملوك الدول العربية وقادتها على ضم الصف العربي ، وخروجه من اطار الخلافات والملابسات الدولية . ورغم ما اكتساه المؤتمر الخامس لاقطاب العالم العربي من اهمية نظرا للظروف القاسية التي يجتازها العرب اليوم بعد نكسة يونيه 1967 فقد احتل مؤتمر القمة الاسلامي الاهمية الكبرى لانه سمح ، لاول مرة فى تاريخ الاسلام ، بتلاقي قادة العالم الاسلامي ، وتوصلهم الى كلمة سواء لمواجهة التحديات العنيدة التي يتلقاها الاسلام والمسلمون فى كل يوم من خصوم دينهم الحنيف ومن اعداء المسلمين .

لقد كان الامل فى جمع شتات المسلمين يداعب ابناء الملة الاسلامية منذ ابعد العصور ؛ ولقد تعددت الدعوات المتكررة لعقد اجتماع يضم المسؤولين عن السياسة والفكر والدين فى الاقطار الاسلامية . وكم هم المسلمون الصادقون الذين وقفوا حياتهم لخدمة هذه الدعوة فى القرون الماضية . اننا نجد آثار هذه الدعوة فى كتب القادة السياسيين كما نتلمسها فى مؤلفات الزعماء والمصلحين الذين كانوا يتحرقون شوقا ليوم يتفق فيه المسلمون على ربط الصلات بينهم ، وتوثيق عرى الاخاء بين شعوبهم ، وجمع صفوفهم لمقاومة خصومهم . فقد نادى بهذه الدعوة ابن تيمية فى القرن السابع الهجري . كما نادى بها من بعده الشيخ جمال الدين الافغاني والمصلحان محمد عبده وعبد الرحمن الكواكبي والداعية شكيب ارسلان منذ انبثاق هذا القرن الهجري الجاري . وقد تحمس لهذه الدعوة فى بلادنا علماء اجلة نخص بالذكر السادة : ابا شعيب الدكالي والمدني بن الحسني .

وقد وجدت هذه الفكرة فى طريق تحقيقها مقاومة شديدة من طرف القوات المعادية للاسلام، كما لقيت معارضة قوية من جانب بعض المسؤولين فى الاقطار العربية والاسلامية . فقد كان الاجانب من المنتمين للنحل والديانات الاخرى يرون فى وحدة المسلمين خطرا على وجودهم ، كما كان المعارضون من بعض القادة العرب والمسلمين يتوجسون خيفة من كل اتحاد اسلامي قد يحطم نفوذهم ، ويسلبهم السيطرة المعنوية التي كانت تسمح لهم بتسيير سياسة العالم الاسلامي وفق اهوائهم واغراضهم . ففي الوقت الذي كان الاجانب وخصوم الاسلام يرون فى التكتل الاسلامي خطرا جديدا قد يهدد كيانهم ومصالحهم ، ويضع حدا

لاستقلالهم للاقطار الاسلامية بسبب تفرقها وخلافاتها ويدعون ان خروج مثل هذا التكتل الى الوجود معناه الرجوع الى عهد العصبية الدينية التي تتنافى ، في نظرهم ، وروح القرن العشرين ، كان معارضو دعوة المسلمين الى الاتحاد والاجتماع داخل البلدان العربية والاسلامية يزعمون ، واهمين ومغرضين ، ان مثل هذه الدعوة لن ينشأ من ورائها خير ، اذ سيتولد عنها، حسب رأيهم ، حلف اسلامي رجعي ، لن يخدم الا مصالح الاستعمار والامبريالية . وهكذا ظلت فكرة توحيد صفوف المسلمين تتأرجح بين المد والجزر وتتردد بين الاخذ والرد الى ان تضعضع مركز القادة العرب والمسلمين الذين كانوا يعارضونها ، وتداعى نفوذهم بعد ان قويت هجمات خصومهم عليهم ، واشتدت بعدما اشتدت ضربات اعداء العرب والمسلمين عليهم الشيء الذي جعل هؤلاء القادة يتراجعون عن مواقفهم الاولى ويدعون بانفسهم الى توعية المسلمين في العالم اجمع بالاخطار التي تهدد المقدسات الاسلامية. ورغم ان هذا التراجع جاء متأخرا جدا عن النداءات الصارخة المتوالية المتكررة التي وجهتها كثير من المنظمات والندوات الاسلامية التي كانت تجتمع هنا وهناك لتدارس احوال المسلمين كمؤتمر العالم الاسلامي الذي طالما طالب بعقد اجتماع بين قادة الاقطار الاسلامية ، وتوصيات المناظرة الاسلامية التي انعقدت بكوالا لامبور ، عاصمة ماليزيا ، في غضون سنة 1388 وعن المساعي الكبيرة التي يبذلها كل من جلالة الملك فيصل ، وجلالة امبراطور ايران رضا بهلوي فقد بذلت جهود جديدة لتحقيق هذه الفكرة خصوصا بعد ان قويت الاعتداءات على المسلمين في كل مكان .

ومن حسن حظ بلادنا ان صاحب الجلالة الملك المعظم كان من الداعين الاولين لهذه الفكرة . فقد نادى بها اول الامر في احد دروسه الحديثية التي يختتم بها جلالته المحاضرات الدينية التي يترأسها في شهر رمضان عندما اشار الى تجربة الورقة الاسلامية بعد ان فشلت الورقة العربية في الميدان كما اكدها في الخطاب السامي الذي القاه بمناسبة حلول عيد المولد السعيد في السنة الماضية ؟ وقد جسدها جلالته عندما قرر ارسال بعثات وزارية لمختلف الاقطار الاسلامية المنبثة في ارجاء المعمور لجس النبض ، والوقوف على مدى اهتمامها بهذه الدعوة ، واستمالة قادة هذه الدول لاجتماع اسلامي موسع ، واعرب جلالة الملك عن استعداده للسير في هذا الميدان عندما عين مندوبين مغاربة في مؤتمرات وندوات اسلامية عديدة .

وفي الوقت الذي كان صاحب الجلالة يوالي هذه المساعي المولوية الحميدة ، ويواصل اقناع قادة الراي والفكر والسياسة للمشاركة في مؤتمر اسلامي عام وقعت حادثة احراق المسجد الاقصى بالقدس الشريف تلك الحادثة التي ارتاع لها العالم الاسلامي باجمعه وضجت لهولها وشناعتها ارجاء الدنيا والتي قررت الجامعة العربية على اثرها تكليف قائدنا الهمام، وعاهل المملكة العربية السعودية بدعوة ملوك الدول الاسلامية ورؤسائها الى اجتماع سياسي في مستوى القمة لتدارك حالة الاسلام وتفادي ما قد تتعرض له الحرمات الاسلامية من ويلات ونكبات حتى لا يتسع الخرق على المرتق ، ويصير في غير الامكان تجاوز ما كان . وبالفعل فقد تولى صاحب الجلالة الملك المعظم هذه القضية بنفسه ، واخذ على عاتقه جمع المسلمين بعاصمة مملكته ، وبدا ، بذلك ، نشاط ديبلوماسي هام انتهى بخروج الفكرة الى حيز الوجود والتطبيق ، وتكلل بانعقاد اول مؤتمر للقمة الاسلامية في تاريخ المسلمين خلال العشر الاواخر من شهر شتنبر 1969 . ويعتبر هذا المؤتمر الذي حضره ازيد من خمس وعشرين دولة وتتبع اعماله ما يقرب من اربعمائة صحفي من مختلف انحاء العالم اعظم وثبة ديبلوماسية خطتها السياسة المغربية في حياتها . فقد اظهرت ديبلوماسيتنا الفتية في هذا المؤتمر نشاطا موفورا ، وحركة دائبة ، وابان جلالة الحسن الثاني العظيم في تسيير هذا المؤتمر حنكة كبيرة ، ومقدرة جليلة ، وتبصرا بعيد المدى وجلدا نادر المثال نوه به المشاركون في المؤتمر ، واشاد به الملاحظون والمتتبعون لاشغال القمة الاسلامية . ذلك ان تدبير مؤتمرات من هذا النوع ليس بالامر اليسير نظرا لاختلاف وجهات نظر المؤتمرين ، وتباين مشاربهم ، وتعدد ميولهم ونزعاتهم وتنوع الآفاق التي يتطلع اليها كل منهم من جهة ونظرا للمؤتمرات الخفية والظاهرة التي كان لا بد لمثل هذا المؤتمر ان يتعرض لها ، وللدسائس والمقاومات المتسترة التي كان من المفروض ان يغدو مرماها وهدفها من جهة اخرى . فقد ابدع المعارضون في خلق الصعوبات والعراقيل في وجه المؤتمر كما تفنن المقاومون له في ابتداع مشاكل جانبية كان القصد الاول منها تعطيل اشغال المؤتمر ، وتحويل اتجاهه عن الغاية السامية التي كان يسعى الى ادراكها . ان تمثيل منظمة التحرير الفلسطينية في المؤتمر ، ومشاركة الهند في اعماله ، وحوادث حيدراباد التي وقعت عند

بداية اشغال المؤتمر كلها مؤامرات مدبرة كان القصد الاول والاخير لاصحابها هو احباط المؤتمر . وتحطيم مساعي المساهمين فيه . واقبار آمال المسلمين في الاجتماع والتقارب . ومهما كانت جنسية مدبري هذه الحيل . ومكانة دولهم السياسية والاقتصادية . والتاثيرات والتوجيهات التي ما فتئوا يتلقونها فانها تدل على ان العالم الاسلامي ما زال مسرحا للاجانب . وخصوم الاسلام يعيثون فيه فسادا سواء شعر بذلك المسلمون ام لم يشعروا ، ومجالا للصراع العقائدي الذي يتخبط فيه العالم اليوم سواء علم ذلك المسلمون ام لم يعلموا . ومهما كتب بعض المثقفين من العرب والمسلمين او الملحدين المتبثين في صفوفهم ومهما قالوا فان المعركة القائمة في العالم اليوم ما زالت تكتسي صبغة دينية محضة لان بعض قادة الديانات الاخرى غير الاسلام ما زالوا يسعون للقضاء على الاسلام لانهم يجدونه خطرا على مللهم المتداعية ، ونحلهم التي ينخر اجسامها الهرم والسقم . حقا ان الصراع القائم في العالم اليوم يأخذ طابعا اقتصاديا وتوسعيا مهولا بين الكتل المتنافسة ، والقوات المتعارضة ولكن هذا الصراع من اجل السيطرة والاستيلاء على الكون بين الاستعمار الجديد المختفي وراء المساعدات المادية والتقنية والشعوب النامية الراغبة في تحصين استقلالها وتاكيد سيادتها لا يخلو من جانب ديني يمد احد الاطراف المتنازعة بالعون الروحي والمدد المعنوي الضروري لبسط السيطرة وضمان تركيز النفوذ . فبالامس القريب اجتمعت الكنيسة في مؤتمر ديني مهم لم شتاتها لاول مرة في التاريخ منذ تصدع صفوف اتباعها ، وتكتلهم داخل فرق متعادية وهيآت متطاحنة. وقد استقبل العالم هذا الحدث باستبشار عظيم وارتياح كبير لان هذا الحدث سيضمن توسيع نفوذ المسيحية واعانتها على القيام بالتبشير المسيحي الذي يتمتع بالتأييد التام والقبول الكامل . اما اليهودية فان مؤتمراتها العالمية ، وندواتها المتعددة التي تعقد في كل ركن من أجزاء العالم لا تعد ولا تحصى ، كما ان سيطرتها على الاجهزة الاقتصادية في مختلف ربوع الدنيا والمرافق الحيوية في كثير من الاقطار لا حد لها ولا استقصاء . ومع ذلك فاننا لم نر احدا يحمل المعول ليهدم هذه المؤتمرات ، ويندد بهذه الاجتماعات بل ان كل هذا يتحقق والعالم تتبعه بمزيد من العطف والاهتمام ان لم يكن بالتأييد المادي والمناصرة المعنوية. وعند ما يحاول المسلمون ان يجتمعوا ليتداركوا امورهم ويتدبروا في شؤون دينهم ودنياهم ، ويرمموا ما تصدع في صفوفهم فان نعرة الحقد والضغينة تتحرك في النفوس المريضة ، وتدفعها الى العمل على الحيلولة دون التئام شمل المسلمين بادىء الامر والى تحطيم هذا الجمع ـ اذا تم ـ والسعي بعد ذلك ، الى اخفاق مداولاته ـ اذا تحقق ـ بمختلف الوسائل التي يتوفر عليها خصوم الاسلام ـ وما اكثر هذه الوسائل الدنيئة واعظمها ـ .

وعلى كل حال فقد انتظم هذا الجمع الاسلامي المبارك في بلادنا رغم الاشواك العنيدة التي واجهته ، وافضى الى نتائج ايجابية رغم الملابسات والمؤامرات وانطلق منه اشعاع روحي ومادي يتمثل في عزم قادة الدول الاسلامية على مواصلة لقاءاتهم في المستقبل ، وتأييد قضية المسلمين الاولى ـ وهي مناصرة الفلسطينيين في كفاحهم من اجل استرجاع بلادهم ، واسترداد المسجد الاقصى الذي انقلبت بحمد الله نقمة احراقه من طرف المعتدين الآثمين نعمة على الاسلام والمسلمين كما صرح بذلك جلالة ملكنا المعظم كما يتجلى هذا الاشعاع في اجتماع وزراء خارجية الاقطار الاسلامية الذي سينعقد في هذا الشهر بجدة والذي ستنبثق عنه امانة عامة دائمة يعهد اليها بتطبيق مقررات مؤتمر القمة ومواصلة الرسالة السامية التي ارتسمت خلال دورته الاولى وتحددت في لقاء الرباط واعداد ميثاق اسلامي يتكفل بضمان وحدة صفوف المسلمين وضبط ميادين التعاون بينهم وارساء دعائم التبادل والتناصر والتفاهم والتشاور كلما الم بالمسلمين خطر يهدد حرماتهم ، ويعبث بمقدساتهم . ويعد مؤتمر القمة الاسلامية وثبة كبرى حققتها الديبلوماسية المغربية خلال عام 1389 هـ بقيادة جلالة الملك المعظم الحسن الثاني حفظه الله الذي تكفل المؤتمرون انفسهم بالتنويه بجهوده المظفرة في وثيقة رسمية صادقوا عليها في نهاية اجتماعهم . واكد هذا الاعجاب والتنويه هؤلاء المؤتمرون في تصريحات خاصة ما فتئوا يدلون بها منذ انتهاء المؤتمر والى يومنا هذا .

واذا كان ثغر الخريف في هذه السنة قد افتر عن انعقاد القمة الاسلامية فان هذا الفصل غادر الوجود وهو يشاهد قمة ثانية لا تقل اهمية عن الاولى ، وما هذه القمة الا اجتماع ملوك دول الجامعة العربية ورؤسائها الذي يعتبر الخامس من نوعه ورغم ان القمة العربية لا تصطبغ بالقيمة التي اضيفت على مؤتمر ملوك المسلمين وقادتهم الذي كان الاول من نوعه فان الظروف القاسية التي تجتازها الاقطار العربية اليوم، والضربات المتوالية التي يتعرض لها ابناء العروبة منذ انشاء دولة اسرائيل في عقر ديارهم ، بصفة عامة ، وتعود اعتداءات الصهاينة منذ حرب يونيه 1967 على

البلاد العربية بصفة خاصة وتردد المسؤولين في اتخاذ موقف موحد من دولة الصهاينة بصفة اخص ، كل هذه الاشياء جعلت مؤتمر القمة العربية يكتسي اهمية خاصة . وهذا ما يفسر تتبع عدد كبير من الصحفيين والملاحظين لا يقل عن اربعمائة لاشغال هذا المؤتمر ، واهتمام عدد مهم من العواصم العالمية ، والاوساط السياسية ، والمنظمات الدولية بمداولات هذا المؤتمر والوقوف على النتائج التي توصل اليها . ومما زاد هذا المؤتمر اهمية ان الاقطار العربية لم يكن لها اتجاه موحد ، وراي متفق عليه في الوضعية الحالية التي يمر منها العالم العربي بالاضافة الى الخلافات المذهبية الموجودة بين الانظمة السياسية في هذا العالم والى التنافر القائم بين الاطراف التي يهمها النزاع الاسرائيلي . ومن المؤسف ان هذه النزعات المتباينة كانت تحول منذ ازيد من سنة دون انعقاد هذا المؤتمر الذي سبق لعاصمة المملكة المغربية ان تهيات لاحتضانه رغبة من المسؤولين عندنا في تخفيف حدة التوتر الراهن ، وتقريب وجهات النظر بين الفرق المتنازعة والتوفيق بين الاتجاهات المختلفة السائدة في عالمنا العربي . وقد حققت الديبلوماسية المغربية وثبة جديدة اخرى عندما توفقت الى توحيد كلمة العرب وجمع قادتهم حول مائدة مشتركة تطرح المشاكل على بساطها ، وتعرض الخلافات في مهادها حتى تتجلى نقط عدم التفاهم ، وتتم المقابلة والمقارنة بين آراء هذا الفريق وذلك وتظهر امكانيات الاتفاق بعد حسم نقط النزاع كل على حدة ، واعتقد ان القمة العربية قد نجحت في هذا السبيل رغم ما اظهره بعض المؤتمرين من امتعاض وما ابانوه من عناد كاد يعصف بمصير العرب اجمعين لولا وجود صاحب الجلالة الملك المعظم الذي ساعدته مهارته السياسية ، وحنكته الديبلوماسية ، وبعد نظره السديد ، وقابليته للكيف مع المواقف المختلفة رغم صعوبتها ، فقد بذل جلالته الجهد والجلد ، وابان عن ادراك عميق لمواطن التوفيق بين الفئات المتنازعة المتطرفة ، وزج بنفسه ، بحكمة ودهاء ، في مجالات ضيقة عويصة ، وقدم الحلول لأعصى نقط الخلاف ، وعرض تسويات عجيبة حتى اضمحل الضجر والعناء ، وحل الوئام والاخاء محل الشحناء والبغضاء . وقد اسعدني الحظ فشاهدت جلالته يتنقل بين الملوك والقادة العرب ، ويقرب بين وجهات نظرهم مقدما لكل منهم الحلول المطاقة للمواقف التي اتخذها في مختلف القضايا وعارضا عليه الافكار التي ابتكرها فكره الثاقب للخروج من المآزق الحرجة، والمواطن الصعبة التي انزلق فيها المؤتمر بعض الاحيان . وما زال جلالته يحاول التوفيق بين هذا الجانب وذاك ، ويسدد بين الاطراف المتنازعة حتى انتهى المؤتمر بكل خير فاندثرت اسباب التطاحن والتنابذ وامحت آثار الخلاف والتنافر . ولم يكن بوسع القمة العربية ان تصل الى اكثر من هذا بعد ما استفحل الخلاف ، وقوى البلاء وعز الدواء . كان في اول الامر كل جانب متمسكا برايه لا يريد به بدلا ، وكان كل حزب قابضا بزمام جواده ، لا يلتوي لا الى اليمين ولا الى اليسار . ومع ذلك فان ملكنا الهمام قد الان الكثير من المواقف الصلبة ، وكيف العديد من الآراء المتطرفة ويسر ، بجهاده المستميت الظافر ، الوصول الى حلول مرضية ، وتسوية مقبولة . وهكذا عزز المغرب مكانته في العالم العربي بعد ما اعرب جلالة الملك عن نوايا بلادنا بصدق لهجته ، وحسن طويته ،وصفاء سريرته ، واكد استعداد المغرب لمناظرة اخوانه في المشرق مهما تطلبت هذه المناظرة من تضحيات جسام ، واستلزمته من نفقات ضخام ، لان الامر جد ليس بالهزل ، ذلك ان العرب والمسلمين مرتبط بتحرير فلسطين ، وارجاع اهلها اليها . وهكذا ظهر للعيان ان المغرب الذي حارب الاستعمار الاجنبي حقبة غير يسيرة من الزمان ، وقاوم الاحتلال بكل قواه لن يتردد في اتخاذ الموقف اللازم لمساندة اخوانه في الكفاح والدم واللغة والدين لاسترداد مجدهم ، واستعادة كيانهم المغصوب . وقد وفق الله المغرب لجمع شمل العرب في وقت بلغ فيه اليأس مداه ، والتشاؤم منتهاه ، والانكسار اقصاه . فعسى ان يغتنم العرب هذه الفرصة المواتية لاستتباب وحدة الصف وتوطيد الاتفاق في الراى والخطة حتى يخرجوا منتصرين في هذه المعركة المصيرية الكبرى التي لا ترضى باية فكرة انهزامية ، ولا تقبل اى حل لا يرد لهم حقوقهم ومكتسباتهم . وخلاصة القول فقد وثب المغرب بهذه القمة العربية وثبة ثانية في حياته الديبلوماسية ابانت عن الدور المهم الذي اخذت بلادنا تلعبه في مجال السياسة الدولية ، واظهرت المقام الذي تتمتع به بلادنا في المحيط العربي والاقليمي بعدما اوضحت القمة الاسلامية المكانة المرموقة التي تحتلها بلادنا في الافقين الاسلامي والدولي . وتلك نعمة انعم الله بها على هذه الامة منذ وهبها قائدا محنكا يسير مقاليد امورها ، وزعيما سياسيا منتصرا يقود سفينتها ، وداعية كبيرا اجتمعت فيه الخصال التي تجمعت في جده المصطفى عليه افضل الصلاة وازكى السلام ، واكتملت به حلقة المصلحين المجددين الذين وعد الله على لسان نبيه انه سيبعث على راس كل مائة سنة

احدا منهم يجدد للامة الاسلامية امر دينها ، ومصلحا اجتماعيا يتدارك مصيرها ، ويصلح احوالها .

والواقع ان المغرب لم يحقق بهاتين القمتين نصرا ديبلوماسيا في حياته السياسية فحسب ، ولكنه استطاع في اعقاب هذين المؤتمرين الدوليين ان يسوي كثيرا من القضايا السياسية ؛ والمشاكل الثنائية مع بعض الاقطار . فقد مهد مؤتمر القمة الاسلامية الطريق لحل مشكلة كادت تصبح مزمنة نظرا لارتباطها الوثيق بتاريخ المغرب السياسي والاجتماعي والديني كما ساعد مؤتمر القمة العربية على اعادة العلاقات الديبلوماسية مع الجمهورية العربية السورية التي كانت منقطعة منذ ازيد من اربع سنوات . فقد تطورت في اطار القمة الاسلامية ، العلاقات بين المغرب وموريطانيا واخذت آفاق التفاهم والتقارب تلوح بين البلدين بعد ما ظل الخلاف مستفحلا بينهما منذ خلقت الجمهورية الموريطانية الاسلامية . وطويت بذلك صفحة اليمة في حياة المغرب السياسية كان لا بد لطيها من التسلح بالمزيد من التبصر والحنكة والاقتناع بفعالية واقعية الحياة السياسية الدولية . فقد اصبحت موريطانيا امرا واقعا لا يكابر في وجوده الا مجاحد عنود . وصار لموريطانيا وجود ذاتي ليس الى انكاره من سبيل . وما كان على المغرب الا ان يعترف بهذا الواقع ، ويؤمن بهذا الوجود او يظل يتخبط في مشكل قائم ليس لأوله ولا لآخره حل .

نعم ان الايمان بهذا الواقع مر ولكنه أمر ، لا بد منه . وان الاقتناع بهذا الوجود صعب مؤلم ولكنه اقتناع لا مفر منه ، وكيف ما كان الامر فان العالم لا يقبل اليوم وجود دول صغيرة لان تطور العلاقات الدولية ، وقيام وحدات اقتصادية وسياسية في مختلف انحاء الدنيا ، يحتمان على الدول المتجاورة تعاونا فيما بينها ، وضم مجهوداتها في التجهيز والتصنيع والاقتصاد ، وتكامل حاجياتها ، وتكوين تكتلات اقليمية ، ووحدات جهوية لمواجهة الدول الكبرى والاقطار المتقدمة . فقد نشأت في أوربا سوق أوربية مشتركة كما قامت في شرق هذه القارة وحدة بين اقطارها ، وما اميركا نفسها اليوم الا ولايات متحدة ، وشعوب مشتركة جمعت شملها ؛ واستطاعت بوحدتها الاقتصادية الكبرى ان تكون اعظم دولة واقواها في العالم . ورغم توفر هذه البلاد على الطاقات الضرورية للنهوض ، والامكانيات الهائلة للنمو فانها تسعى منذ الحرب العالمية الثانية في اقامة حلف بينها وبين كندا واقطار اوربا الغربية حتى تستطيع ان تواجه اي اعتداء على حدودها ، وتوقف كل من تسول له نفسه المس بسيادتها واستقلالها . وما قلناه عن الولايات المتحدة الامريكية يمكن ان تكرره فيما يتعلق بالاتحاد السوفياتي الذي تمكن بعد ضم عدد من الشعوب في وحدة وطنية شاملة من ان يصبح دولة تحتل المكانة الثانية في القوة والمنعة والتقدم التقني بعد امريكا في العالم باسره . كل هذه الامثلة الحية تؤكد ضرورة التقارب بين الاقطار المتجاورة ، وحتمية التخلي عن بعض الاطراف والاجزاء في بعض الدول والاقطار اذا صح عزم هذه الدول على سلوك سياسة معقولة محكمة في مضمار العلاقات الدولية ورغبت في الخروج من العزلة السياسية ، والانطلاق في غزو الاسواق العالمية ، وحمل صوتها وحضارتها الى الاصقاع النائية وفرض رأيها على المجموعة الدولية .

وقد يطول بنا المقام لو اردنا تعداد مناقب الوحدة بين الدول بل ان هذا الموضوع قد يخرج بنا عن نطاق الدراسة التي تدور حول الوثبات الديبلوماسية التي خطتها بلادنا خلال السنة الهجرية الحالية .

ولكننا لن نستوفي هذا الموضوع حقه اذا نحن لم نتعرض للجوانب الاخرى التي تأكد بها الدور الفعال الذي تضطلع به بلادنا في مجال السياسة الدولية .

ان نشاط المغرب السياسي لم يتوقف على المؤتمرين السياسيين العظيمين الذين حللنا نتائجهما فيما سبق ولكن هذا النشاط تعدد وتنوع وتكاثر وتفرع . فقد احتضنت بلادنا خلال هذه السنة حفلات مهرجانات رائعة شاركت فيها دول كثيرة ذلك ان المغرب شهد انشاء رابطة للجامعات الاسلامية حضره اكبر رجالات التعليم العالي والتربية الوطنية في العالمين العربي والاسلامي ، كما اجتمع في مراكش في العشر الاوائل من ذي القعدة (منتصف يناير 1970) مؤتمر وزراء التربية والتخطيط في الاقطار العربية الذي شارك فيه السيد روني ماهو مدير المنظمة العالمية للثقافة والتعليم والتربية . وقد استمع هذا المؤتمر في نهاية جلساته الى خطاب ملكي كريم نوه بالجهود التي تبذلها الاقطار العربية في حقل التربية والتعليم ، كما نوه بالقرار الذي اتخذه المؤتمر بالاجماع في شأن الاهتمام باطفال اللاجئين والشهداء الفلسطينيين . وقد اعرب السيد ماهو في خطابه عن تقدير منظمته للاعمال التي يقوم بها المغرب من اجل التطور والازدهار والمواقف التي وقفتها بلادنا في مختلف القضايا الدولية .

وفى مختتم شهر شوال دشن صاحب الجلالة الملك المعظم محطة محمد الخامس للمواصلات عبر الاقمار الاصطناعية فى حفل بهيج حضره وزراء الدولة فى البريد والداخلية والاشغال العمومية والمواصلات فى كثير من الاقطار الشقيقة والصديقة ورؤساء المؤسسات الدولية المهمة كهيأة الامم المتحدة واليونسكو والمنظمة الدولية لاستغلال الاقمار الاصطناعية ، والاتحاد العالمي للمواصلات السلكية واللاسلكية والاتحادين البريديين العربي والافريقي . وقد امتاز هذا التدشين بعمل ديبلوماسي مهم تمثل فى المكالمة التليفونية المباشرة التي اجراها صاحب الجلالة الملك المعظم مع رئيس الولايات المتحدة ريشار نيكسون . والواقع ان هذه المكالمة تكتسي طابع حديث سياسي ودي يجريه رئيسا دولتين ربطت بينهما اواصر التفاهم والتعاون. وجمعت بينهما اسباب التعارف والتبادل . وهي بهذه المثابة تندرج فى اطار النشاط الديبلوماسي المغربي الذي توجه فى هذه المرة الى دولة اجنبية ليؤكد بذلك مساهمة بلدنا فى التقارب بين الشعوب والتعاون بين الامم . ولا يخفى ما ينتج عن حديث يدور بين رئيسي دولتين من امكانيات للتقارب والتعاون ، وما يفتحه من آفاق لتعزيز علاقات الصداقة والاخاء بينهما . وقد تأكد من هذا الحديث ان جلالة الملك والرئيس نيكسون سيتقابلان خلال السنة الميلادية الحالية .

واعتقد شخصيا ان هذه الزيارة التي سيتم فيها تلاقي رئيسي دولتين صديقين لن ينتج عنها الا الخير للبلدين معا نظرا للرغبة الذي ستحمله لتعزيز العلاقات بينهما . ولا اشكال فى ان صاحب الجلالة سيغتنم هذه الفرصة ليلفت نظر الرئيس الامريكي الى الحالة المزرية التي يعيشها اشقاؤنا فى الشرق العربي ، ويحمله على ابداء المزيد من العطف والتفهم لقضية فلسطين ، ويطالبه بالعمل السريع الفعال لوضع حد لتصرفات الاسرائيليين الطائشة ، واجبارهم على تنفيذ القرار التاريخي الذي اتخذه مجلس الامن فى 22 نونبر 1967 والذي يلح على تحرير الاراضي العربية المغتصبة ، وتصفية مشكل اللاجئين . ولا ريب ان صاحب الجلالة سيكون معززا فى هذه المحادثات بالانتصارات الديبلوماسية الرائعة التي حققها المغرب ، بفضل نشاط جلالته الدائب ومساعيه السامية المستمرة الشيء الذي سيجعل من جلالته فى هذه المحادثات ملك المغرب ورئيس مؤتمرين عظيمين كان لهما اكبر الوقع فى السياسة العالمية . وهكذا سيتحدث جلالة ملكنا الهمام ، بكل صراحة وادراك تام ، للمواقف المختلفة التي تسم الاقطار العربية والاسلامية فى اهم القضايا الدوليه والتيارات المتنوعة التي تتصارع فى آفاق العالمين الاسلامي والعربي .

وما دمنا نتكلم عن العلاقات الثنائية بين المملكة المغربية وغيرها من البلدان ، والمكاسب التي حققتها بلادنا فى هذا المضمار ، فاننا نشير الى وثبة أخرى خطتها الديبلوماسية المغربية النشيطة . وتتجلى هذه الوثبة فى تصفية النزاع المغربي الفرنسي واعادة العلاقات الديبلوماسية بين بلدينا بعدما خيم عليها ردحا من الزمان جو من سوء التفاهم . فقد التحق سفيرا البلدين الجديدان بمقر عملهما ، واسترجع المغرب مكانته السالفة فى العاصمة الفرنسية فى وقت كان احوج ما يكون فيه لاسترداد هذه المكانة المرموقة نظرا للعطف الذي تحظى به الاقطار العربية والاسلامية من طرف الحكومة الفرنسية ، والمواقف النبيلة التي وقفتها حكومة باريس من قضية فلسطين . ومما يضفي على اعادة العلاقات بين المغرب وفرنسا طابع الاهمية ، السياسة الجديدة التي تعتزم فرنسا سلوكها فى حوض البحر الابيض المتوسط ورغبتها فى اشراك اقطار المغرب العربي فى تحقيق هذه الخطورة . ولم يمض على ارجاع العلاقات المغربية الفرنسية الى سالف عهدها وقت قصير حتى تقررت زيارة صاحب الجلالة الى باريس ، وحدد موعد لمقابلة جلالته للرئيس الفرنسي جورج بومبيدو واجراء محادثات سياسية رسمية بين رئيسي الدولتين اسفرت عن نتائج طيبة عزز الروابط التاريخية القائمة بين البلدين الذين عرفا فى الماضي البعيد والقريب تعاونا وثيقا ، وتبادلا مثمرا واتخذا خلال التاريخ ، مواقف مشتركة فى بعض القضايا السياسية العالمية .

واذا اضفنا الى هذه الخطوات الديبلوماسية الموفقة زيارة السيد الدومورو وزير الشؤون الخارجية الايطالية الى المغرب فى العشر الاواخر من شهر يناير (منتصف ذي القعدة) وتقاطر بعض المبعوثين من طرف رؤساء الدول الافريقية واقطار المغرب العربي ، والرسائل الخاصة المتبادلة بين جلالة الملك وكثير من رؤساء دول العالم فاننا ندرك ان سنة 1389 كانت سنة حافلة فى هذا العهد الحسني الزاخر بالمبادرات الملكية السامية والوثبات المولوية المظفرة التي يسعد بها هذا الشعب المغربي ، وينعم بفوائدها الجمة ومزاياها الكريمة ، وخيراتها المتدفقة وبركاتها المحققة .

يستنتج من هذا العرض ان بلادنا اكدت فى هذه السنة المباركة وجودها فى مسرح السياسة العالمية ،

وبرهنت على استعدادها للاضطلاع بأخطر الادوار ، واكبر التبعات لحل القضايا الدوليـــة وفرض هـــذا الوجود بالمبادرات التي قام صاحب الجلالة في الميدان الديبلوماسي ، والخطوات التي قطعتهـا في مضمـار العلاقات الدولية .

وان دلت هذه الحركة الديبلوماسية الموفقـــة على شيء فانما تدل على ان بلادنا تسعى بقدم راسخة وخطى ثابتة ، للادلاء بدلوها لاحلال السلام في العالـم واسماع صوتها في المجال الدولي ، وتعزيز نفوذهـا السياسي على الصعيد العالمي حتى يستتــب الامن والطمانينة في الوجود ويستقر الاخاء والهناء بين بني الانسان . وهذا يمثل جانبا مهما من السياسة التي جاء بها الاسلام ، وحمل رسالتها محمد بن عبد اللـه عليه الصلاة والسلام والتي تلقفها من بعده احد احفاده الميامين جلالة الحسن الثاني العظيم الذي نحتفـل اليوم بعيد جلوسه على العرش المغربي المنبثـــق من السلالة المحمدية الطاهرة ، والعترة النبوية الزاهرة .

الرباط : عبد اللطيف أحمد خالص



الطاعة نظام وقوة للأمة

للأستاذ محمد العربي الهلالي

ان مما من الله تعالى به على هذه الامة المغربية من نعمه وكرمه أن وهبها ملكا عظيما منها يشعر بشعورها ويهمه ما يهمها ، ويبذل كل جهد في سبيل مصلحتها وعزها ، ولا يزال دائبا فيما يعلي شأنها ويرفع ذكرها في الدنيا والاخرة ، ذلك هو الحسن الثاني الذي شهد له الكثير من اقطاب العالم واساطينه ، بالحنكة والخبرة والتفكير والتجربة ؛ والرزانة وارصانة والعقل ، ووضع الاشياء في موضعها ، واجتناء الثمار في ابانها ، والدخول الى الامور من ابوابها ، ومعرفة الفروع وردها الى اصولها ، وغرس المسائل والافكار في منابتها ، وتعهدها بالكياسة والتدبير حتى تأتي اكلها الطيب في اوانه . وليس هذا واكثر منه ببدع في عاهلنا الحسن الثاني ، بل هي تنشئة عريقة متأصلة بعيدة الجذور ورثها عن اجداد اطهار . وآباء صدق ابرار ، عرفهم التاريخ بعلو الهمة بين الملوك والعظماء ، واصابة الحزم اذا اظلمت الامور ، واشتدت الازمات ، وهذا سبب ما يراه الناس في عظيم المغرب ـ « الحسن الثاني » ـ من نبل وكرم ، وبعد في المرمى ، واصابة للاهداف ونضج في التفكير . ومن جاء على اصله فلا سؤال عليه ، ورحم الله من قال :

بأبه اقتدى عدي في الكرم
ومن يشابه ابه فما ظلم

وعليه انطبق قول القائل :

وما كان من مجد اتاه فانما
توارثه آباء آبائه قبل
وهل ينبت الخطي الا وشيجه
وتغرس الا في منابتها النخل

فهو سلالة تلك الشجرة المباركة التي ثبت اصلها وامتد فرعها في السماء ، سلالة مولاي علي الشريف ذلك الرجل التقي النقي الطاهر الذي اتبع جده الاعلى اشرف البرية على الاطلاق محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، اتبعه في مكارمه وعلو نفسه ودينه وعلمه، اتبعه في الدعوة الى الله ، وتبليغ الرسالة النبوية ونشرها بين عباد الله ، ذلك ما عرف به مولاي علي الشريف طيلة حياته حتى توفاه الله ، ومنه تفرعت وامتدت اغصان تلك الشجرة العلوية المزهرة المثمرة ، التي اثمرت النبل والمجد ، والعظمة والبطولة ، وامتد وارق ظلالها على بلاد المغرب ، وعلى الامة المغربية ، وهذا فرعها المخصب الملك الجليل الحسن الثاني الذي اذكى الشعلة من جديد ، وفق الله مساعيه ، وامده بروح من عنده ، واعانه على الحق ، ووقاه كيد الظالمين ، وشر الحاسدين ليتم للامة آمالها في التقدم والوصول الى ما ترومه من خير وسعادة وعز وعلو .

لقد ظل ولا يزال صامدا ثابتا في وجه الحوادث والصعاب كيفما كانت وايان ظهرت ، فكم من عقد سياسية حلها فشهد له الساسة بالكفاءة والقدرة ، وكم من مهمه مشتبه الاعلام شق فيه طريقه وانارة ببصيرة وقادة وعزيمة لا تعرف اليأس ، وهمة لا يعتريها الكلال .

هذا ولا ننسى حبه وتفانيه في العلم ونشره ، ورعايته وتتبعه وتشجيعه ، وبذل كل رخيص وغال في سبيله ، والحث عليه والدعوة الى تحصيله ، لان العلم هو منار الامم في طريق تقدمها في مسالك الحياة وتعاريجها الملتوية ، وهو غذاء العقول الذي تزيد به قوتها وتتفتح له اكمامها فتزهر وتثمر وتنمو وتستنير فتعرف كيف تستغل الحياة ، وتتغلب على صعابها ، وكيف تستفيد منها وتسخرها لصالحها . كل ذلك لم يخف على ملكنا الهمام الذي يقدره شعبه كل التقدير، ويكن له كل عطف وكل خير ، لانه شعب نبيل يعرف

ابطاله وقادته المخلصين ، فيواليهم بالطاعة والتأييد ، ويمدهم بالمعونة والنصح اداء لذلك الواجب المقدس الذي اوجبه الله على الامة لقادتها وأيمتها ؛ قال الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اطيعوا الله واطيعوا الرسول واولي الامر منكم » . فطاعة اولي الامر من العلماء ومن يوليهم الله سبحانه أمر المسلمين من الرؤساء والحكام الذين منهم ، فرض واجب مقدس من الله تعالى لا يمكن لمؤمن ان يخالفه ابدا على اي حال ، بل لا بد له ان يسمع ويطيع لاولي الامر ولا ينازعهم ، كما وردت بذلك الاحاديث الصحاح ، فقد اخرج البخاري ومسلم وابو داود عن عبد الله بن عمر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « السمع والطاعة على المرء المسلم فيما احب وكره ما لم يؤمر بمعصية ، فاذا امر بمعصية فلا سمع ولا طاعة » .

وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه ، قال : بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة ، في منشطنا ومكرهنا وعسرنا ويسرنا ، واثره علينا ، وان لا ننازع الامر اهله ، قال : « الا ان تروا كفرا بواحا عندكم فيه من الله برهان » ، اخرجاه . وفي حديث آخر عن انس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اسمعوا واطيعوا وان امر عليكم عبد حبشي كان راسه زبيبة » . رواه البخاري في صحيحه . وجاء عن ابي هريرة رضي الله عنه ، قال : اوصاني خليلي ان اسمع وأطيع وان كان عبدا حبشيا مجدوع الاطراف . رواه مسلم . وروى مسلم ايضا عن أم الحصين رضي الله عنها انها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يوم حجة الوداع وهو يخطب الناس : « لو استعمل عليكم عبد يقودكم بكتاب الله ، اسمعوا له واطيعوا » .

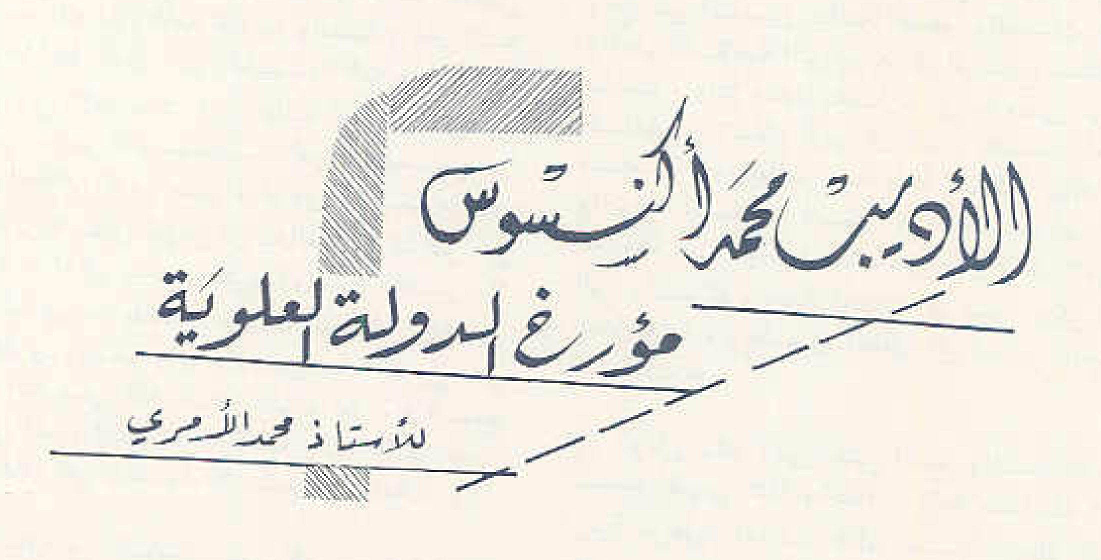
وروى ابن جرير عن ابي هريرة رضي الله عنه ان النبي صلى الله عليه وسلم ،قال : « سيليكم ولاة بعدي ، فيليكم البر ببره ، والفاجر بفجوره ، فاسمعوا لهم واطيعوا في كل ما وافق الحق ، وصلوا وراءهم فان احسنوا فلكم ولهم ، وان اساءوا فلكم وعليهم » .

وعن ابن عباس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من راى من اميره شيئا فكرهه فليصبر فانه ليس احد يفارق الجماعة شبرا الا مات ميتة جاهلية » . أخرجه البخاري ومسلم في الصحيحين .

والاحاديث في هذا الموضوع كثيرة ، وكلها تدل وتلح على المسلمين بطاعة أئمتهم والتمسك بالتعاليم والنظم الاسلامية التي وردت في الموضوع تمسكا صحيحا مخلصا ، واذا مددنا بابصارنا الى ما مضى من تاريخ المسلمين والاسلام نرى ان القوم كانت احوالهم مستقيمة ، وروابطهم قوية طيلة تمسكهم بتلك المقاييس والقواعد الاسلامية القيمة التي ترسم لهم طريق المحافظة على الوحدة السياسية ، واقامة الامن ودوام العز والشوكة ، وعدم احداث اي فجوة يمكن للعدو ان يدخل منها ، ويطمع في الحاق أي شر بالمجموعة الاسلامية .

وعلى ذلك وعلى نفس النهج والمسلك سار الشعب المغربي كتلة واحدة ، وامة متماسكة الاطراف عزيزة مرهوبة الجانب طالما تمسكت بتلك العرى والمقاييس الالهية والتعاليم النبوية منذ ان شع نور الاسلام في البلاد المغربية ، وظلت كذلك ردحا من الزمن تتقلب في ظل الحضارة الناعمة ، والعيشة الراضية ، في جو من الامن والطمانينة ، رافعة الرأس وافرة الكرامة تخشى عواقبها لدى اعدائها ، وكل من يهم بالمس من كرامتها الى غير ذلك مما هو معروف مدون في كتب الاخبار ، كذلك كانت الامة المغربية ، وكذلك يليق بها أن تكون ، ولكن عندما اقبل هذا القرن الذي نعيش فيه ، بدات الامة المغربية تتخلى عن مبادئها ، او تخلت عنها فدب فيها الوهن والانحلال ، وامتدت اليها يد الاعداء الذين كانوا يتربصون بها الدوائر ، ويتحينون لها الفرص فسقطت فريسة للاستعمار ، وقاست من عسفه ومرارته ما هو معروف ، ولا تزال تعاني من سمومه ورواسبه الشيء الكثير ، الا اننا نامل من الله تعالى أن يقلبنا وينصرنا على ما نحن فيه من صعوبات بفضله وحسن معونته ثم بفضل سعي ملكنا العظيم الحسن الثاني الذي لا يني يعمل لاعادة المغرب الى افضل مما كان عليه ، ورفعه الى المستوى الذي يليق به خصوصا وان الشعب المغربي بدا يلتمس طريقه ، ويعرف ما حوله ، ويشعر بالظروف المحيطة به ، فما علينا الا ان نلتف حول ملكنا وقادتنا التفاف النحل في خليته ، ونوحد الجهود مع اخلاص النية ، وصحة العزيمة ، والصبر والمثابرة ، وصدق العمل . وحينئذ لا بد من الفوز وبلوغ المقصود .

تطوان : محمد العربي الهلالي



لعل من حسن الطالع ان يزاح الستار عن شخصيات مغربية مغمورة ، تكشف الايام عن قيمتها العلمية والثقافية فيتبين لنا من خلال البحث انها لا تقل مستوى عن غيرها من الشخصيات المشرقية والاندلسية المحظوظة، فلقد سبق ان عرفنا ببعض الشخصيات الادبية من مثل أحمد الغزال ، واحمد بن عثمان المكناسي (1) ومحمد بن ادريس العمراوي (2) ويأتي اليوم دور شخصية اخرى ان اجتمعت مع من تقدم في اشياء فقد انفردت وحدها باشياء واشياء ، تلك هي شخصية الاديب الموسوعي محمد بن أحمد اكنسوس ، فهو ان كان يلتقي مع اولئك في الاخذ بزمام الادب شعرا ونثرا ، مما اهلهم لتقلد منصب الكتابة ، فانه يلتقي مع صفيه محمد بن ادريس في ان كلا منهما تقلد الوزارة ، ونالته عوادي الزمن ، بينما شارف كلاهما الذروة في قرض الشعر، غير انه يمتاز عن كل هؤلاء بانه كان آخذا بحظ وافر من الاطلاع في جميع فنون المعرفة على عهده ، مما يستحق معه ان يوصف بالاديب الموسوعي بحق ، اهله لذلك تفرغه الطويل للمطالعة والتاليف ، بعد ان عاكسه الحظ في الاستمرار في تبوء المناصب الوزارية ، كما ان ما اتيح له من بسطة في العمر (83 سنة) كان له اثر قوي في ذلك ! يصفه الاديب محمد غريط (3) بانه « طلق العنان ، كميت وقته وجبيبه » الى ان يقول : « مطلعا على قواعد العلوم الرياضية وحقائقها ، واسرار الحروف ودقائقها » وهناك ايضا ما يثير انتباهنا عن هذه الشخصية الفذة وهو بعض اطواره الغريبة ، وسنحاول بقدر الامكان تعليلها ، وقبل ذلك نسوق نبذة عن حياته .

نسبه ونشأته : ولد بسوس بقبيلة اداوكنسوس سنة 1211 ونشأ بين احضان اسرته التي كانت لها منزلة سامية بين القبيلة اذ تنتسب الى جعفر بن ابي طالب ، وبدون شك فانه تلقى دروسه الاولية في مسقط رأسه ، حيث حفظ القرءان الكريم ومبادىء اللغة والفقه وبعض المتون ، وذلك جريا على عادة جميع طلبة المغرب آنذاك حيث لا يتأتى للطلاب أن ينخرطوا بالقرويين او ابن يوسف الا بعد ان يكونوا قد اتقنوا حفظ كتاب الله ، والموا بمبادىء العلوم اللغوية والدينية ، ولا نعرف شيئا عن شخصية والده ولا بعض اساتذته الذين تلقى عنهم دروسه الاولية .

انتقاله الى فاس : في سنة 1229 هـ رحل الى فاس لطلب العلم كما يحدثنا هو نفسه ، وهناك تردد بين علماء اعلام من مثل حمدون بن الحاج ، ومحمد بن عامر التادلي ، واحمد بن التاودي بن سودة ، وعبد

1) دعوة الحق ـ العدد 4 السنة 12 .
2) دعوة الحق ـ عدد 9 و 10 السنة 12 .
3) فواصل الجمان ـ ص 7 .

السلام الآزمي ، وابن عمرو الزروالي ، وابن منصور الشفشاوني ، وكل هؤلاء كانوا على مستوى عال من الشهرة والسبق في الحقل الثقافي لذلك العهد ، وفي حلقات دروس هؤلاء تعرف على محمد بن ادريس السراوي وتوثقت عرى الصداقة بينهما كما اسلفنا في مقال عن الاديب المذكور ، حيث يذكر اكنسوس انه لما قدم الى فاس في السنة المذكورة وجد الشيخ الآزمي في باب الشهادات من مختصر خليل ولازم دروسه صحبة بن ادريس الى ان ختم الكتاب المذكور فنظم الطلبة قصائد بهذه المناسبة كما اعتادوا ذلك في مثلها ، وكان من المع المشاركين صاحبنا اكنسوس بقصيدته التي يقول في مطلعها :

ختام الهوى قد فض منك بسره

فما لك تطوي الحب من بعد نشره

وقد اعجب ابن ادريس بالقصيدة وطلبها من رفيقه بقطعة من نفس البحر ، ومن هذا نستنتج ان اكنسوس لم يقدم الى فاس الا بعد ان كان على حظ وافر من الالمام بالعربية والتمرس بالشعر ، لان المدة التي قضاها بفاس منذ قدومه اليها وشروعه في الدراسة ، وكان الآزمي في باب الشهادات الى اختتام المختصر غير كافية لان تكون منه شاعرا على نفس المستوى الذي نلاحظه في القصيدة المذكورة . ومن دون شك فان الصداقة المتينة التي كانت تربطه بابن ادريس كان لها تاثير كبير عليهما معا ، لما كان بينهما من تنافس بريء ، ولما اتصفا به من ذكاء وقاد ولاشتراكهما في الطلب والدراسة والمساجلات ، وقد تسنم كلاهما ذرى المجد والجاه ، ونال كل منهما حظه من المحنة ، غير ان حسن الطالع عاد بابن ادريس الى سابق مجده ، بينما انقطع اكنسوس للتاليف والانتاج وكان محل تقدير واهتمام من الجميع ، وقد اتحف المكتبة المغربية بتاليف هام هو كتاب « الجيش العرمرم الخماسي في دولة أولاد مولانا علي السجلماسي » وبفضل هذا الكتاب نعرف الكثير عن الدولة العلوية ، سيما والرجل يعنى بالدقة في تحري الاخبار واستقصاء الاحداث التي عاصرها .

حياته السياسية وتقلبه في الوظيف :

كان من الطبيعي ان يتقلد رجل من مثل ذكاء اكنسوس وثقافته اسمى المناصب ، فقد قلد منصب الكتابة اولا على عهد السلطان مولاي سليمان سنة 1235 وكلفه هذا السلطان الصالح بمهام عويصة وفي ظروف صعبة ، فانجزها بكل جراة وشجاعة ، فلقد بعث السلطان في شانه كتابا الى ولده المولى الطيب بفاس ، وكان هذا بالقصر الملكي بفاس الجديد ايام الفتنة ، فما كان منه الا ان ارسل الى اكنسوس برسالة السلطان مع رسول تسور سور المدينة التي كانت ابوابها مغلقة ، واستجاب اكنسوس لدعوة السلطان فالتحق به بالقصر الكبير ، فكلفه بمهام مختلفة ، منها توجيهه الى فاس برسائل لاولاده وبعض الرؤساء ، كما ارسله في مهمة أخرى الى ابن اخيه المولى عبد الرحمن وكان بالرباط وبعثه ايضا الى سوس ، ولما آلت الخلافة الى المولى عبد الرحمن سنة 1238 وهو ابن اخي المولى سليمان قلده كتابة الانشاء على الرغم مماكان يجد عليه من انحياشه لبعض ابناء السلطان الفقيد ، ونشط السعاة في هذه الفترة للايقاع به ، الى ان تم لهم ما ارادوا حينما تاكد السلطان بنفسه من مجالسته لتلك الجهات ، وحينئذ اشخص الى مراكش ، وهناك احترم بالضريح الغزواني الى ان زار السلطان الضريح المذكور فعفا عنه (1) . ومنذ ذلك الوقت انقطع للتاليف والعبادة ، متصوفا على الطريقة التيجانية ، ويذكر عنه الاديب غريط انه كان « ممتنعا عن اكل كل ذي روح » فهل كان هذا تقليدا منه للمعري ؟ ام كان ناشئا عن تاثر بما بلغه عن الدعاة الوهابيين الذين قيل انهم كانوا لا ياكلون اللحم وبعض المواد (2) ؟ واذا علمنا ان اكنسوس كان له موقف فعال من الدعوة الوهابية ، ودافع عنها ضد بعض المنكرين من مثل ابي القاسم الزياني ادركنا السبب في تركه اكل اللحوم ، وقد طال عمره الى ان ادرك سلطنة المولى الحسن الاول ، ولم تدركه الوفاة الا سنة 1294 هـ بعد ان عمر ثلاثا وثمانين سنة ، ودفن بمراكش قرب ضريح الامام السهيلي .

علاقته بصديقه ابن ادريس : سبق ان افضنا القول في العلاقة بين الرجلين عند مقالنا عن هذا الاخير (3) ويبقى علينا هنا اتماما للفائدة ان نضيف شيئا يتصل بعلاقتهما بعد افول نجم اكنسوس ، وشروق نجم ابن ادريس ، فلقد كان من سخرية القدر ان يكون الشخص الذي يخلفه في مهامه هو صديقه الحميم ابن ادريس ، فهل حقد عليه ؟ وهل كانت له يد بعد فيما حل بصديقه حينما امتحن هو الآخر

1) فواصل الجمان ص 11 . 2) الاستقصا ج 8 ص 120 .

3) دعوة الحق عدد 9 و 10 السنة 12 صفحات (104 الى 110) . نقلا عن كتاب الاعلام ج 5 ص 271 .

واقصي عن مهامه ؟ كان من الطبيعي ان يتشكك اكنسوس ، ويعتبر صديقه من بين الوشاة ، سيما وقد احتل منصبه ، غير ان بعض العوامل جعلته لا يضحي بما كان بينهما من صفاء واخاء ، قد يكون من بين هذه العوامل انه تأكد من براءته ، وقد يكون من بينهما مساعدة ابن ادريس له على صروف الزمان وتطييب خاطر السلطان عليه ، اما ان يكون اكنسوس ساهم من قريب أو بعيد في الدس لصديقه ، فهذا ما يستبعد. سيما اذا علمنا تعليقه على تلك النكبة في تأليفه الخالد « الجيش العرمرم » عند تعرضه لترجمة صديقه ابن ادريس فهو يقول بعد ذكر قصيدة ابن ادريس التي انشدها امام السلطان بمناسبة عيد الميلاد النبوي الشريف ، وذلك بعد حفلة الامداح التي اعتاد السلطان اقامتها في مثل هذه المناسبة الكريمة : « ولم يختلف قط الا في المدة التي عزل فيا وقام غيره مقامه ممن حرم مراضع الادب ، ونسلت اليه الحفاوة من كل حدب ، ونعاه الدست السلطاني مع وجوده وندب » وهذا يدل على ان اكنسوس لم يتشف في صديقه ، بل انه يأسف لذلك ، ويصرح بان خلفه ـ وهو المختار بن عبد المالك الجامعي ـ لم يكن من مستوى ابن ادريس لا في ميدان الادب فحسب ، ولكن في الطبع كذلك . وكان خلفه بعد وفاته محمد بن المختار الجامعي ، وهو ابن الجامعي المتقدم الذكر ، وعنه يقول اكنسوس : « فولى السلطان مكانه الفقيه النجيب ذا الاخلاق العاطرة والانامل الواكفة الماطرة ، والرأي الاصيل والامر المحبوك والباطن الصافي الذي يحاكيه الذهب المسبوك ، ابو عبد الله محمد العربي بن المختار الجامعي » فيكون اطرى الولد من حيث طعن في الوالد، حتى اذا اعيد ابن ادريس الى منصبه ، نرى اكنسوس يتحدث عن ذلك بمثل هذا الاعتزاز والتعظيم وكأن الامر يعنيه ؛ « فلما عاد الوزير الاعظم الى نصابه ، واسترجع حقه من عُصابه ، عادت الدولة الشريفة الى شبابها ، وتمسكت بمتين اسبابها ، وجرت سنة التعظيم والتشريف على مجراها ، ونالت من المحامد كبراها وصغراها » والحق ان ما كان بين الاديبين من صلات متينة أسمى من ان يعفي عليها الزمان او ان ياتي عليها عامل من عوامل الوشاية والضغينة ، هذه الصلات هي التي يتحدث عنها اكنسوس ، يقول له : « فتمكن من يومئذ بيننا وبينه حب روحاني ، بقضاء سابق سبحاني واقتناء الفضائل والنفائس ، واقامة الافراح والمتنزهات ، والمخاطبات والمساجلات والمباسطات » وهذا ما يفسر ان اكنسوس كان لا يذكره الا بالفاظ التبجيل والتقدير ، فهو تارة « أخونا في الله» وتارة اخرى « لسان الدولة » واحيانا « الفقيه العلامة » وقلما يذكره خاليا من لقب الوزير ، ويحدثنا الاديب غريط ان ابن ادريس كان يستدعي صديقه اكنسوس مع ابي عبد الله محمد غريط الى بستانه الشهير بمراكش كل يوم خميس ، وكان « يحتفل لهما احتفالا جميلا ، ويوسعهما مبرة وتبجيلا » (1) وبدون شك ، فان ابن ادريس كان يعرف قيمة اكنسوس الفكرية والعلمية ، وهذا ما كان يحمله على الاحتفاء به والتشبث بصداقته ، ولا شك انه ينوه بمكانته فيما قد يكون له من تقييدات وتسجيلات لم نطلع عليها ، حيث لا نعلم عن تآليفه اكثر من الديوان الذي جمعه له ولده ادريس .

اكنسوس وابو القاسم الزياني :

يقول ابو القاسم الزياني في البستان : « وهؤلاء الثلاثة الذين ظهروا في دولة امير المؤمنين بعد حمدون والحوات ، هذا ابن ادريس والارغي واكنسوس » قال ذلك في معرض حديثه عن ابن ادريس ، ويذكر ان هذا كان اعرفهم بالتاريخ ، لانه كان يساعده في نسخ تآليفه التاريخية ، ولكنه على اي حال يجعل اكنسوس احد العباقرة الثلاث على عهد السلطان مولاي سليمان. وبدون شك فان اكنسوس كان من بين الطلبة الذين ترددوا على ابي القاسم الزياني ، وان كان ابن ادريس اكثرهم اتصالا به ، قبل ان تحدث بينهما نفرة ادت بهذا الى الانحياش لجانب حمدون ابن الحاج ، فهل استمر اكنسوس في الاتصال بالزياني بعد ذلك ؟ من المرجح ان الصلات لم تنقطع بينهما ، يدل على هذا ان الزياني لم يتعرض له بشيء حينما تعرض لما حدث له مع ابن ادريس بشيء من الصراحة الجارحة اذ ذكر ما كان يؤديه له من اجرة مقابل قيامه بنسخ كتبه . لكن الجو سرعان ما أظلم بين الرجلين ، ولعل ذلك بسبب موقف الزياني من الدعوة الوهابية ، وتشيعه على الاديب حمدون بن الحاج لانه مدح عبد الله بن سعود داعية الوهابيين بقصيدة مشهورة يقول في مطلعها :

حق الهناء لكم جيران ذي سلم
وبارق واللوى والبان والعلم

---

1) فواصل الجمان ـ ص 40 .

ويبدو من بعض ابيات القصيدة انهـا باذن من السلطان مولاي سليمان ، بدليل قولـه : واتـه من سليمان وانه باسم الله لا زلت باسم الله أي سمـي وكانت القصيدة جوابا عن الرسالة التي بعث بها سعود الى علماء تونس . وهؤلاء بعثوا بنسخة منها الى المغرب، ويقول اكنسوس في الجيش « كان تصدى الشيخ ابي الفيض لذلك الجواب بأمر من السلطان وعلى لسانه. وذهب بجوابه ولده المولى ابراهيم حين سافر للحج» ويستنتج صاحب الاستقصا « ان كتاب سعـود ورد على السلطان المولى سليمان بالقصـد الاول (1) . لا أن نسخة منه وردت بواسطة علماء تونس والله تعالى أعلم » بينما ينفي الزياني ان يكون ذلك باذن السلطان او بلغ الى علمه ، ويقول : « وحاشاه ــ أي السلطان ــ ان يطرق خبرها مسامعه ويرتضيه . او يطلع على ما رسم فيها ويمضيه ، ولا تقع الا من مبتدع مثله . ــ اي حمدون ــ ومن يتعاطى مذاهبه ونحله ، وهذه الابيات التي بها يتشدق ويتقرب للمبتـدع ، ليس لهـا طلاوة (2) الخ . . » وفي مكان آخر من الترجمانة يقول مثل ذلك باسلوب اكثر تهجما على حمدون . وبعد ان يسرد جواب مفتي تونس يقول : « فانظر يا مولانـا الامام وعلم الاعلام ما بين هذا الجواب . وبين جواب المادح للكذاب . الحائد عن نهج الصواب (3) الخ . » ولما وصلت نسخة من جواب المفتي التونسي لسعود الى فاس يقول الزياني عن ذلك : « ولما طالعه حمدون سقط في يده ، وعلم انه اخطأ في مدحه . ووقـع في الملامة بين ابناء جنسه (4) » . ومن خلال ما ذكـره اكنسوس في الجيش يتضح أن الرسالة المرسلـة من المغرب او « جواب السلطان » بتعبير اكنسوس . كانت سببا في تسهيل الحج على ركب الحجاج المغاربـة . « وكل من تعلق بهم من الحجاج شرقا وغربا » وكان الوفد يتركب من علماء اعلام ، مثل القاضي ابي الفضل العباس ابن كيران ، والشريف مولاي الامين بن جعفر الحسني الرتبي . وابي عبد الله محمد العربي الساحلي والقاضي ابي اسحق ابراهيم الزداغي » وهذا الاخير هو الذي حاور ابن سعود في شأن مذهبـه . قـال ابن سعود :

ــ ان الناس يزعمون اننا مخالفـون للسنـة المحمدية ، فاي شيء رأيتمونا خالفنا من السنة ؟

القاضي الزداغي : بلغنا انكم تقولون بالاستواء الذاتي المستلزم لجسمية المستوي .

ابن سعود : معاذ الله ، انما نقول الاستواء معلوم، والكيف مجهول ، والسؤال عنه بدعة ، فهل في هذا من مخالفـة ؟

القاضي وصحبه : لا وبمثل هذا نقول نحن أيضا، وبلغنا عنكم انكم تقولون بعدم حياة النبـي صلى الله عليه وسلم واخوانه من الانبياء عليهم الصلاة والسلام في قبورهم : ــ فلما سمع ابن سعود ذكر النبي ارتعد ورفع صوته بالصلاة عليه وقال : معاذ الله انما نقول انه صلى الله عليه وسلم في قبره ، وكذا غيـره من الانبياء حياة فوق حياة الشهداء .

القاضي : وبلغنا انكم تمنعون زيارته صلى اللـه عليه وسلم ، وزيارة سائر الامـوات مع ثبوتـها في الصحاح التي لا يمكن انكارها .

ابن سعود : معاذ الله ان ننكر ما ثبت في شرعنا، وهل منعناكم انتم لما عرفنا انكم تعرفـون كيفيتهـا وآدابها ، وانما نمنع منها العامـة الذين يشركـون العبودية بالألوهية ويطلبون من الاموات ان تقضي لهم اغراضهم التي لا تقضيها الا الربوبية ، وانما سبيـل الزيارة بحال اعتبار الموتى ، وتذكر مصير الزائر الى ما صار اليه المزور ، ثم يدعو له بالمغفرة ، ويستشفع به الى الله تعالى ، ويسأل الله تعالى المنفرد بالاعطاء والمنع بجاه ذلك الميت ان كان ممن يليق ان يستشفع به ، هذا قول امامنا احمد بن حنبل رضي الله عنه . ولما كان العوام في غاية البعد عن ادراك هذا المعنـى منعناهم سدا للذريعة . فأي مخالفة للسنة في هـذا القدر ؟ » (5) .

ويضيف اكنسوس « هذا ما حدث به اولئـك المذكورون سمعنا ذلك من بعضهم جماعة ، ثم سألنـا الباقي أفرادا ، فاتفق خبرهم على ذلك » .

واذا علمنا ان الوفد كان على رأسه الامير ابراهيم ابن السلطان مولاي سليمان ادركنا ان الوفد كان من مهمته أيضا استطلاع ما يجري هناك ، مع الاطلاع على حقيقة الدعوة الوهابية ، وذلك ما ظهر اثره في الحملة التي شنها السلطان الصالح مولاي سليمـان ضـد الطوائف والبدع الضالة مما سنفرد له مقالا خاصـا باذن الله .

---

1) الاستقصا ج 8 ص 120 . 2) الترجمانة نشر وزارة الانبـاء ص 388 . 3) المصدر السابـق ص 402 . 4) نفس المصدر ص 396 .

5) عن الاستقصاء ص 121 و 122 ج 8 .

والواقع ان ابا القاسم الزياني حفزه الى اتخاذ الموقف المذكور ما كان له من روابط مع الاتراك العثمانيين ، واتصالاته المتكررة معهم سواء عند سفارته للسلطان عبد الحميد من قبل السلطان سيد محمد بن عبد الله ، او في رحلته الثانية ايام السلطان مولاي سليمان . وكان تسرعا منه ان يعتمد في تقييم الدعوة الوهابية على الشائعات التي راينا كيف ابطلها ابن سعود لركب الحجاج المغاربة حسب رواية اكنسوس في الجيش ، وهذا يجرنا ايضا للحديث عن موقف الرجلين من بعض المتصوفة ، من مثل احمد التيجاني (1) . ومولاي عمرو ، فبينما يتعرض الزياني في ترجمانته للاول عدة مواضيع بما ينفي عنه الولاية ، ويدخله اهل البدع ، مشددا النكير عليه وعلى اتباعه من « خدام الدنيا اهل اليسار » كما يقول ، ناعتا اياه باشنع الالقاب اذا باكنسوس يؤلف رسالة سماها « الحلل الزنجفورية في اجوبة الاسئلة الطيفورية » . ويقول عنها الاديب غريط : « سدد فيها اسهمه البيانية لبعض المنكرين على طريقته التيجانية » ولعل هذا الاخير كان تيجانيا كذلك ! .

اما الثاني وهو مولاي عمر الذى قضى ابن ادريس مدة طويلة في خدمته ، وهو الذى كان يلقبه بالسلطان الصغير . وكان ابن ادريس يقول : « انه ما ادرك ما ادرك الا ببركة ولي الله تعالى سيدي عمرو » . ويصف اكنسوس الرجل بانه « صالح مشهور بالزهد والعبادة والتجافي عن جميع اسباب الدنيا » ويصفه ايضا اتصاله به فيقول : « فدخلت عليه في بيت باعلى المدرسة ، فرايت رجلا يذكر الله جالسا على حصير اظنه بلا لبد ، لابسا حائكا وقميصا لا غير ، وكان الزمان باردا جدا ، وهو ضعيف الجسم نحيل ، مائل الى الطول اسود اللحية ، فدعا لنا بالخير وقرانا الفاتحة ، والحمد لله على لقاء اهل السعادة (2) » ويقول انه كان لا يقبل العطية من احد ، وهذا ما يؤكده الزياني نفسه في اول ترجمانته فيقول : « ومثل هذا كان في وقتنا بمدينة فاس زاهد متعبد ناسك شريف اسمه مولاي عمرو ولا يقبل شيئا مما يعطيه الناس ، حتى ان امير المؤمنين مولانا سليمان ابقاه الله لما بلغه زهده وورعه واعتزاله عن الخلق واشتغاله بامر دينه وجه ولده لزيارته ومعه صلة كبيرة ، ولما اجتمع به بمسجد الاندلس دعا له بخير ، وترك الصلة وخرج من المسجد كانه يريد قضاء حاجة ، فلم يعد اليه (3) » غير ان الزياني يقول في مكان آخر عنه « ثم بعد موته (اى التيجاني) ظهر مبتدع آخر يزعم انه من اشراف اهل بلده ، وممن يشار اليه من اهل الزهد المصنوع بيده ، فانقطع بزعمه عن الناس في بيت بمسجد ياتيه اعيان الناس فيظهر لهم الزهد في الدنيا ويتصوف وقلبه على الدنيا والدرهم يتملق » وبعد هذا يسوق كلاما ينسب فيه لنفسه (اي الزياني) بعض الخوارق مدعيا أن الآخر لو عرفها وكان يباشرها لادعى النبوة من مثل انه « يلقي السبحة من يده تسعى اليه بعد الاستدعاء ، وانه يتكلم على المصباح الموقود فينطفيء الخ . ومع ذلك فهو جالس في بيته لتسويد الاوراق بما شاهده في الجولان بالآفاق! (4)

وعلى الرغم من عدم توفر العناصر الكافية لتحقيق هذا الموضوع فاننا لا نستنكف عن التنويه مبدئيا بموقف الزياني الصاب من البدع الضالة والطوائف واصحاب الزوايا ... ومن ثم نلمس مدى التقدير الذي أولاه لرسالة السلطان مولاي سليمان في محاربة البدع الضالة، فلقد ساقها بكاملها في ترجمانته ، على اننا لا نستنكف ايضا عن تقدير موقف اكنسوس : فلقد كان من المتحمسين للدعوة الوهابية ، ولقد تحرى حقيقة هذه الدعوة من خلال ما سمعه من وفد الحجاج المغاربة جماعات وافرادا ، وعلى هذا فانه وهو العالم المطلع والباحث المحقق مع ايمانه القوي وصلاحه وتقواه ، لم يجد ملجئا بعد فشله في شؤون السياسة سوى في التصوف والزهد ، ولعله وجد ضالته في الطريقة التيجانية التي مهما قال الزياني عنها ، فانها لم تكن بالطريقة التي تستعمل آلة من الآلات او تلجأ الى الرقص والشطح ، ويفهم من كلام صاحب الاستقصا ان الشيخ احمد التيجاني يرى نفس راي الوهابيين في زيارة الاولياء ، حيث منع اصحابه من ذلك .

ويبقى علينا بعد هذا ان نسجل حقيقة واضحة، وهي ان اكنسوس استفاد كثيرا من الزياني ، فلقد كان احد الطلبة الذين يفدون عليه للمذاكرة والاستفادة من تجربته وخبرته ، ولا سيما في التاريخ ، وذلك ما لا نعدم اثره في المؤلف التاريخي لصاحبنا اكنسوس (الجيش العرمرم) .

نظـرة موجـزة عن نشاطـه الثقافـي :

يقول عنه صاحب كتاب « فواصل الجمان » « كميت وقته وحبيبه ، مطلعا عن قواعد العلوم الرياضية وحقائقها ، واسرار الحروف ودقائقها ،

1) الترجمانة ص 460 .
2) نقلا عن الاعلام ج 5 ص 267 . 3) الترجمانة ص 102 . 4) نفس المصدر 390 .

ممتنعا عن كل ذي روح لما هو عند الحكماء مشروح » فهو يقارنه بالكميت وابي تمام من حيث الشعر ، وهي مقارنة ان كانت صحيحة الى حد بعيد بالنسبة للكميت لا في سلالة الفاظه ، بل وطول نفسه كذلك ، فانهـا لا تجافي الحقيقة بالنسبة لابي تمام ايضا . وذلك فيما يمس بعض نماذجه الشعرية ولا سيما ما يتصل منها بالطبيعة ونحن نعلم أن أديبا شاعرا مثل المرحوم غريط الذي خبر الشعر ، وعاناه دارسا وناظما لا يلقي الكلام على عواهنه ، ولا شك انه اطلع على ديوانه ، ومعظم تآليفه ، وهو ليؤكد او ليبرر وجها من اوجه مقارنته لابي تمام يحكى عمن روى له عن صديق اكنسوس العلامة احمد كلا بناني انهما (اي اكنسوس وبناني) كانا يجتمعان بالزاوية التيجانية بفاس « فتلقى عليه اقتراحات متمنعة فيقيد القافية والمعنى ، ثم ينجز للطالب ما تمنى ، في خفية معنى » (1)

اما نثره فجيد ، أحيانا هو سهل في غير اسفاف، ومتين في غير تعقيد ولا اعتياص ، وهذا ما يغلب عليه كثيرا ولاسيما في كتابه التاريخي ، وفي «حسام الانصار في دولة بني عشرين الانصار » الذي الفه للتعريف بالوزير محمد بوعشرين ، اما في رسائله ولا سيما الاخوانية منها ، وفي بعض مقاماته كالمقامة الكنسوسية فاننا نؤخذ من براعة اساوب الرجل وتمكنه من اللغة ، وحسن اختياره للسجعات ، وتلاعبه بأفانين البلاغة والبديع ! على أن الذي يثير انتباهنا ايضا ما يتمتع به اكنسوس من سعة افق ، حيث يخوض في مختلف الموضوعات العلمية والسياسية والدينية والصوفية باسلوب لا يخلو من نقد لاذع احيانا ، وفهم نافذ سديد ، ولعل ذلك وغيره ما حضر الوزير الاعظم للسلطان مولاي الحسن الاول ابا عمران موسى بن احمد ان يعرض عليه بعض التآليف لابداء نظره فيها ، ومن ذلك كتاب عن المعادن لا نعرف اسم مؤلفه ولا مترجمه ان كان مؤلفه أوربيا وهو الغالب ، وقد ضمن رايه في الكتاب في رسالة بعث بها الى الوزير المذكور، وفيها ينتقد على المؤلف اغفاله لطريقة استخلاص المعادن من مصادرها ، مستهينا بالاحصائيات التي يتوفر عليها الكتاب ، على ان النقطة التي تفطن اليها اكنسوس هي مسألة التدريبات العملية المعتمدة على الملاحظة بالعين ، والمباشرة باليد ، وكان واقعيا جدا في اشارته بالجمع بين الميدانين النظري والعملي .

كما كان بعيد النظر في رسالته تلك حينما اشار الى تاثر المزروعات بالمناخ الجوي وان ما يصلح في المناطق الباردة لا يصلح بالمناطق الحارة معتمدا في ذلك على التجربة والمشاهدة كما يقول (2) ، اما عن اطلاعه على اسرار الحروف كما يذكر الاديب غريط في ترجمته لاكنسوس ، فلا نعلم له اي تاليف في هذا الميدان ، ولا اية نادرة تحكى عنه في ذلك ، ولا يستبعد الامر ما دام معروفا أن طلبة سوس كان لهم اهتمام بهذا العلم ان صح ان يسمى علما ، ونعرف عن أستاذه ابي القاسم الزياني انه كان يعنى بهذا الجانب ، كما يحكي هو عن نفسه صراحة .

وفي ميدان التصوف نعلم عن طريق مترجمه المذكور انه الف رسالة سماها : « الحلل الزنجفورية في أجوبة الاسئلة الطيفورية » ويقول المترجم انه سدد فيها سهامه البيانية لبعض المنكرين على طريقته التجانية ، يضاف الى ذلك مناظراته مع أحمد الكنتي حول التصوف .

نماذج مقتضبة من شعره :

اشتهر اكنسوس بمولدياته التي كانت تلاقي استحسانا من لدن الاوساط الثقافية والادبية . ومن لدن الملوك الذين كانت تلقى امامهم وكانوا يدركون قيمتها الادبية ، ومن هذه المولديات لاميته التي القاها امام السلطان مولاي عبد الرحمن :

عهدي بكم جيرة البطحاء موصول
يا ناسي العهد ان العهد مسؤول

أشيم برقا سرى من نحو ربعكم
وفضل ذيلي بوبل الدمع مبلول

ومنها مولديته التي هنأ فيها السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمن :

حنانيك ان الشوق قد بلغ المدى
اما ترحم المضنى الكئيب المسهدا

ورحماك ان المستهام من النوى
له حالة سواى ترق له العدا

وهناك رائعته في بستان صديقه ابن ادريس التي تذكر برائعة البحتري :

1) فواصل الجمان ص 39 .

2) اورد الاستاذ عبد الله كنون نص الرسالة في العدد الخاص باكنسوس من سلسلة « ذكريات مشاهير رجال المغرب » .

الم بمغنى اليمن من ذا المجلس
وادر بساحته نجوم الاكؤس

واسعد فان الدهر اسعد اهله
واحاهم فيه حلول المعرس

واشرب هنيء البال في جنباته
يغنيك عن جيرون أهل المقدس

واصرف عن الزهراء ذكرك ساليا
وعن الخورنق والرسوم الدرس

لو قلت ما نالت بدائع حسنه
غرف البديع وحق مجدك لم تس

ومن تغزله قوله من مقدمة قصيدة مدح بها السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمان :

وخود الاماني حسنها مجدد
ومنظرها يحكيه خد مورد

قضى الحب في كل القلوب بانها
مماليك ارباب الجمال وأعبد

وكم من عصى الهوى متعفف
يفر من السود العيون ويبعد

تصيده ظبي على حين غفلة
مهفهف مستن الوشا حين اغيد

فاصبح مفقود الفؤاد مخبلا
وأي فؤاد عاشق ليس يفقد

وفى الرثاء نلحظ تأثره البالغ بأبي العلاء المعري، وذلك ما نلمسه فى مرثيته للسلطان مولاي عبد الرحمن :

هذي الحياة شبيهة الاحلام
ما الناس ان حققت غير نيام

الى ان يقول :

دار تزيد بها العبور لغيرها
ويظنها المغرور دار مقام

منع البقاء بها تخالف حالها
وتكرر الاشراق والاظلام

فهل نستطيع ان نربط هذا التأثر على الاقل هنا بما ذكره الاديب غريط من ان اكنسوس كان لا يأكل اللحوم ، ام نرجع بالاضافة الى ذلك الى ما عرف عن الوهابيين من انهم كانوا يجتنبون اكل اللحوم وبعض المواد الاخرى ويحق لنا أن نقول فى النهاية بأن اكنسوس اديب موسوعي وشاعر مجيد ، يستطيع ان يغالب فحول الشعراء بالشرق فى القرن التاسع عشر .

وزان : محمد الأمري



هامت بحبك أمة

للشاعر محمد بن علي العلوي

لقط الهزار بيوم عيدك جوهرا ... والشوق طار به فغام المنبرا
ورأى من العرش المقيد مفاخرا ... تترى فزغرد بالثناء وعبرا
يثني على تاج العلى ومتوج ... غمر الزمان بنوره فتنورا
والشعر الهبه سناؤك روعة ... وحباه ذكرك رونقا فتبخترا
واتى البيان من المحبة صافيا ... عذبا لذيذ الطعم يشبه سكرا
والتاج زينه جبينك فاهتدت ... بسناه الافكار فى دنيا الورى
والنور اشرق من جبينك ساطعا ... يهدي الى سبل الحضارة معشرا
قبس من المختار ضاء سناؤه ... فغدا له الملك المؤيد مصدرا
الله اكبر ذاك ضوء محمد ... من سبطه الحسن المجاهد اسفرا
يا ايها البطل الذى بجهاده ... ترقى مواطننا الى أوج الذرى
هامت بحبك امة احببتها ... فاصنع بامتك المحبة ما ترى
والاطلس الحر الاشم مواطن ... تشدو بمجد العرش تشكر حيدرا
وتحدث الدنيا عن البطل الذي ... كسر القيود عن البلاد وحررا
تروي الى الاجيال وصف بطولة ... عصفت بمن دخل الحمى مستعمرا
تشدو بها الركبان عند نزولها ... وتقصها عند المسير وفى السرى
وغدت بها الامثال تضرب فى العلى ... ويضمها التاريخ ينشق عنبرا
الله ما ابهى واروع ان ترى ... شبلا على التحرير ساعد قسورا
يا ابها الحسن الذى حسناته ... تترى وتعظم ان تعد وتحصرا

احييت والبلد العظيم فلم تدع ... لسواك يا ملك المفاخر مفخرا
ونشرت الوية الثقافة رافعا ... علم الهداية مرشدا ومنورا
تدعو بني الدنيا لاقوم مذهب ... يغني الفقير وما يضر المكثرا
علمت امتك النضال فشمرت ... لما راتك الى الفلاح مشمرا
وتقدمت الى الامام يقودها ... ملك يبلغها المراد واكثرا
عرفت بك الاوطان سالف عزها ... وتراك قائدها الحكيم الخيرا
وملات وقتك بالجهود وقد غدا ... بجهادك الامر العسير ميسرا
تبني لامتك العظيمة عزها ... وتشيد الامجاد شامخة الذرى
والدهر راق له نضالك فانحنى ... شكرا لمن شرع الجهاد الاكبرا
ولواؤنا الخفاق ينشد في العلى ... اغرودة الاحرار من اسد الشرى
هزت مشاعره بطولتك التي ... اجلت عن الوطن المقدس عسكرا
اكسبته مجدا يزيد فخاره ... قسما ورقرق في العلى وتبخترا
وغمرت عهدك بالمفاخر والسنا ... وكساه تاجك رونقا فتنورا
ذكرتنا زمن الخلافة مشرقا ... واريتنا حسنا يجدد حيدرا
ومنحتنا بين الشعوب مكانة ... رفعت مواطننا الى اوج الذرى
واريتنا سبل الرشاد موضحا ... بالراي منك لنا الطريق منورا
عودتنا منك الجميل فما نرى ... الا الجميل مشخصا ومصورا
اسهرت جفنك في سبيل رقينا ... وسواك ينعم باللذيذ من الكرى
واذقتنا ثمر الجهود وانه ... ثمر يفوق من الحلاوة سكرا
وجعلت من قفر المواطن جنة ... فواحة الازهار مخصبة الثرى
تجري بها الانسام عاطرة الشذا ... وتشقها الانهار تحمل كوثرا
وعنادل الادواح في انحائها ... تشدو وترقص او تعانق منمرا
تتمايل الاغصان في ارجائها ... ويراقص الشحرور فيها المزهرا
ويجرر الطاووس فوق بساطها ... ذيل التبختر كي يتيه ويفخرا
يتلو بها الصداح اية نهضة ... ويؤمها طرب الجنان ليشكرا
ويرتل الغريد لحن مسرة ... ويحرك الفنان فيها المزهرا
ان كان في دنيا السياحة منظر ... يغري الوفود بان تطير وتعبرا
فبلادنا وسهولها وجبالها ... اضحت بفضلك للسياحة مفخرا
ارض بها ابهى المناظر جمة ... تحكي لناظرها العروسة منظرا
واناسها اهل الحضارة والندى ... وبيوتها ماوى الضيافة والقرى

ما جاءها قصد السياحة زائر … الا وسر بما يراه ومن يرى
اضحت بفضلك للسياحة كعبة … تأتي الوفود لها تزور المشعرا
نزه ابا الاحرار طرفك فالذي … غرست يمينك للمواطن اثمرا
ومزارع الفلاح اطلعت الجنى … فاستقبل الفلاح عهدك اخضرا
والخصب قد نشر البساط منمقا … والغصن اورق في الجنان وازهرا
هذي المعامل حركت دولابها … فتدفق الانتاج يمطر متجرا
ومصانع تؤتي الثمار وتنتقي … للناس اجود ما يباع ويشترى
انتاجها فتحركت الاتها … وغدا بها الفنان يبدع مفخرا
ومساجد التقوى رفعت صروحها … واقمت للخطباء فيها المنبرا
يغدو لها الشيخ الوقور مهللا … ويؤمها الحدث التقي مكبرا
ومناهل العرفان تسكب سلسلا … عذبا حلاوته تفوق السكرا
فجرتها فتدفقت انهارها … علا يغذي بالثقافة معشرا
ووهبتها للنشء ترفع شانه … وتقلد الفكر المهذب جوهرا
وحدائق الفرقان فاح عبيرها … وجرى الاريج الى النفوس معطرا
اضحت بفضلك في ظلال زهورها … اطفال هذا الشعب تقطف مثمرا
تتلو من الذكر الحكيم مواعظا … تشفي العليل وتنقذ المتعثرا
وتعالج الافكار من ادوائها … وتنبه الغفلان والمتاخرا
هذا اتحاد الفتيات خلقته … ترجو لنصف الشعب ان يتطورا
يسمو به الجنس اللطيف ويرتقي … متظافرا متطورا متنورا
يهفو الى الاصلاح يعمل ما به … يطوي المراحل كي يفوز ويظفرا
ينمو به الوعي المفيد لامة … وينال من سامي العناية اوفرا
اكرم بما صنع الهمام لشعبه … يا نعم ما صنع الهمام وقررا
يا ايها الحسن الذي حسناته … غمرت منافعها المدائن والقرى
ننوي الجزاء لما عملت فلم نجد … الا الولاء وان نحب ونشكرا
فاسلم ابا الاحرار لموطن الذي … اكسبت امته المجيدة كوثرا
وليحفظ الرحمان بيتك والحمى … ووسي عهدك للزمان منورا

فاس — محمد بن علي العلوي

أمير المؤمنين يزود وفد الحج لهذه السنة بنصائحه الثمينة



صاحب الجلالة يزود الوفد الرسمي بنصائحه الثمينة ...

استقبل صاحب الجلالة عشية يوم الثلاثاء 10 ـ 2 ـ 70 بالديوان الملكي الوفد الرسمي الذى مثل جلالته الشريفة بالديار المقدسة خلال موسم الحج الماضي ، وحضر المقابلة السيد ادريس السلاوي المدير العام للديوان الملكي والدكتور احمد العراقي الوزير الاول .

ونشير الى ان الوفد الرسمي كان قد راسه فى هذه السنة الاستاذ السيد الحاج احمد بركاش وزير الاوقاف والشؤون الاسلامية ويضم فى عضويته السيد محمد بالعالم نائب كاتب الدولة فى الداخلية والجنرال مصطفى احمراش من القيادة العليا للقوات المسلحة الملكية والسيد عبد الخالق القباج مكلف بمهمة فى الديوان الملكي والسيد احمد بن بوشتة عامل اقليم فاس والسيد محمد المعزوزي عامل بوزارة الداخلية والسيد محمد والزهراء رئيس ديوان وزير الاوقاف والشؤون الاسلامية والسيد عبد السلام العلوي باشا مدينة زرهون والسيد محمد بن عبد السلام العلوي من شرفاء مدينة فاس والسيد عبد القادر بن شقرون مفتش اول بالتعليم الاصلي بفاس ومولاي عبد السلام المراني من المجلس العلمي بمكناس والسيد عبد السلام الفروي مهندس والسيد محمد عصامي من علماء تارودانت والسيد طاهر عزيز من علماء تطوان والسيد محمد رافة من علماء مراكش .

وقد زودهم حفظه الله بتوجيهاته السامية ونصائحه الغالية ودعا لهم بحسن التوفيق والقبول من الله عز وجل ، والقى امامهم حفظه الله خطابا قيما ساميا جاء فيه :



عناق حار ... عندما استقبل جلالة الملك فيصل مولانا صاحب الجلالة الحسن الثاني عند وصوله الى مطار جدة ...

((انكم ستذهبون الى البقاع المقدسة نيابة عنا وانكم ستمثلوننا لدى جميع المسلمين الذين قصدوا تلك البقاع المقدسة ليعطوا لفريضة الحج معناها ومدلولها الحقيقي ، الا وهو التجمع الاسلامي سنويا حتى يتعارف المسلمون بينهم وحتى تشتد بينهم الاخوة وتتوثق بينهم روابط الصلة .

وان وجودكم بمكة المكرمة وبالمملكة السعودية الشقيقة في هذه الظروف وفي هذا التاريخ ليكتسي بالنسبة لنا معنى خاصا الا وانه في شهر مارس سوف يعقد مؤتمر وزراء الخارجية الذى كان قرره مؤتمر القمة لملوك ورؤساء الدول الاسلامية ذلك المؤتمر الذى له مهام كثيرة .

ومن اهمها احداث كتابة دائمة او امانة دائمة لرابطة الدول الاسلامية ، فنوصيكم معالي الوزير خديمنا الحاج احمد أن تؤكدوا الى جلالة الملك فيصل أخينا وحبيبنا استعدادنا الكامل والمستمر على اتباع السياسة الاسلامية التى خطها مؤتمر القمة الاسلامي

ونرجو منكم جميعا ان تكونوا سفراء للمغرب سفراء لجميع اخوانكم الذين تركتموهم هنا .

كما نأمركم ان تطلعوا جماعات وفرادى على أحوال المغاربة ورعايانا الموجودين فى تلك البقاع من الناحية الصحية ومن الناحية المادية حتى يكون حجهم حجا مبرورا وحجا آمنا مطمئنا من الناحية المادية .

كما نرجوكم ان لا تنسونا فى دعائكم فى عرفات وان تدعوا لهذا الشعب ولهذه الامة وان تدعوا لها باستمرار تعلقها وتضامنها وتمسكها بالقيم الروحية وبالقيم الدينية وان تبقى دائما سائرة فى طريق الفضيلة وفى طريق الاتزان وفى طريق الميز بين الخبيث والطيب والصالح والطالح .

ودعاؤنا لكم بالسفر الميمون والعود الميمون وارجو لكم حجا مبرورا وسعيا مشكورا والسلام عليكم ورحمة الله)) .

الملوك العلويون وفريضة الحج :

جلالة الحسن الثاني وحجاجنا الميامين

للأستاذ الحاج أحمد معنينو

اتجهت عناية الملوك المغاربة بصفة عامة والعلويين بصفة خاصة ، الى الحجاج المغاربة الميامين الذين يتجهون سنويا الى البقاع المقدسة لتادية الفريضة . وللمشاركة في التجمع العام الذى دعا اليه المولى جلت قدرته بقوله : ((**واذن فى الناس بالحج ياتوك رجالا :** الى قوله **ليشهدوا منافع لهم** ؟ وللدعاء والصلاة في الاماكن المقدسة ، التى اقام بها النبي المصطفى الكريم ، وبلوغ طيبة ، الحبيبة مدفنه الزاهر ، عليه افضل الصلاة وازكى السلام .

ولما كان السفر الى الحج فى قديم الازمان تكتنفه العديد من المخاطر ، سواء فى الطريق الطويل الفاصلة بين المغرب العربي والمشرق العربي و الحالة الصحية التى يعود بها الحجاج الى وطانهم . فان عناية الملوك العلويين اتجهت لمعالجة كل المشاكل حفاظا للمغاربة على السمعة الطيبة التى يتحلون بها. وتشجيعا للذين يودون الالتحاق بالديار المقدسة فى احسن الظروف .

ولقد قام الملوك العلويون باستمرار بحماية الحجاج فى الطريق ، وذلك بتطهيرها من اللصوص والمجرمين وبعث مراقبين من ذوي الثقة لمرافقة الحجاج فى ذهابهم وايابهم ، وبعث الرسائل والتوصيات الى الحكام والملوك لتيسير مقام طوائف الحجاج المغاربة ومساعدتهم فى رحلاتهم الطويلة .

اما الجانب الصحي فمعلوم أن الاوبئة كانت غالبا ما تنتشر بسرعة نتيجة الاختلاط العظيم الذى تعرفه منطقة الشرق فى ذلك الموسم ، ونتيجة لضعف الطب على العموم وذلك للوقوف فى وجه الانتشار السريع والخطير ضد الاوبئة .

نعم فى العصور الاخيرة ظهر السير بالبخار عن طريق البحر . واندفع الحجاج المغاربة بشوق عظيم لركوبه ، وكان فى اول امره لا يزال مشوها ومشبوها ، ومستعصيا ، ورغم كل هذا اقدم الحجاج عليه دون التفات الى عواقبه الوخيمة حيث يرمي الحاج بنفسه فى الباخرة دون اي احتياط او تعرف بالحقائق المرة ، وبذلك يتعرض كثير من الحجاج لازمات واضرار مؤلمة ومؤسفة بل ومخزية فى بعض الاوقات وكل هذه الاضرار والمصائب لا يبيحها الشرع الاسلامي لاحد ، بل ان الشرع الطاهر يقنن بمنتهى العناية والرعاية للبشرية ، ويبالغ فى الاحتياط مبلغا محمودا ومشكورا .

فاذا لم تتوفر للحاج الشروط المطلوبة ، فالحج ساقط عنه حتى تزول عراقيله وموانعه ، والقد تكاثرت الاخبار المؤسفة بوقائع مخزية ترتكب ضد الحجاج والحاجات من لدن الرعاع من مستخدمي البواخر فى اول أمرها ، وبلغ ذلك بتواتر لاسماع الملك الهمام المولى عبد العزيز طيب الله ضريحه هذا من جهة . ومن اخرى ابلغ مجلس دولي بطنجة لسيدنا المنصور بالله فى تلك السنة نفسها انه نظرا لتكاثر الامراض وتعرض ركاب البواخر لامراض معدية ومتعددة دعوا جلالته لعقد اجتماع عام للنظر فى اتقاء الامراض والاوبئة عند عودة الحجاج المغرب وذلك باتخاذ قوانين وضوابط صحية يلزم الوقوف عندها من لدن الحجاج واصحاب البواخر على السواء ، ولا يجوز لاحد اغفالها او تجاوزها .

وامام هذين الخطرين العظيمين ، اصدر جلالته ظهيرا شريفا مؤرخا ب 24 رمضان 1314 هـ يمنع فيه الحج تلك السنة نهائيا ، وامر عماله وخدامه

بتبليغ هذا الامر المولوي للرعايا والمواطنيـن وانه فى مصلحتهم اولا ومصلحة سمعه الاسلام وسمعة المغرب، ولقد جاء فى هذا ، الظهير الشريـف نـص فتـوى شرعية صدرت من علماء مراكش ، صانها الله ، فى الموضوع . وهكذا نجد دائما ظهائر ماوكنا الاشاوس، تستمد فى النصوص التقنينية لها على النص الشرعي الاسلامي . فالاعتبارات الاولى والاخيرة تستمد من نصوص الشريعة المحمدية . وكل الذين لهم اقل المام بالتشريع العام الاسلامي يعرف ما لهذه النصوص من احكام وانصاف وابعاد ومغازي سامية تمنع الاضرار وتحوط البشر من المهالك والمصائب والرزايا . والى القراء الاماجد نص الظهير الشريف :

الحمد لله وحده

وصلى الله على سيدنا محمد وءاله وصحبه

عبـد العـزيـز
بـن الحـسـن
بـن محمـد
اللـه وليـه
الطابع الشريف

خليفة خديمنا الارضى القائد عبد الله بنسعيد السلاوي . وفقك الله وسلام عليك ورحمة اللـه وبركاته وبعد : فلا يخفى ان وجوب الحـج على المسلمين مشروط بالاستطاعة ، وفسرها ايمة المالكية . بامكان الوصول بلا مشقة عظمت والامن على النفس والمال والزاد والراحلة او ما يقوم مقامها من الصنعة والقدرة على المشي، ومهما اختلت هـذه الشروط انتفى الطلب وارتفع اللزوم ، ولاسيما حيث انضاف لتعذر الاستطاعة اقتحام ركوب البحر من غير حصول شروطه التى منها ان لا يغلب عطبـه . ومنها ان لا يضيع الراكب ركن صلاة ــ او شرطا من شروطها . ومنها ان لا يكون المسلمون تحت احكام الاجانب واعنائهم وهذا من افظعها لما يلحق به حرمة المومن من الانتهاك ويعوقه عـن الاعتصام بدينـه والاستمساك ، ولما صار الحجاج يقتحمون هذه الطاعة من غير امكان واستطاعة اوقعوا انفسهم فى المحظور، واستوجبوا الكف عن السفر لامور منها ما يلحقهم من اهل البابورات من الاهانة والاهتضام ، ومنها ما يقع منهم من تعطيل الصلوات وترك شروطهـا ، ومنـها اقتحام العطب والالقاء بالنفس للتهلكة . ومنها كونهم تلك المدة تحت احكام الاجانب الذين يعوقونهم عـن الديانة والقيام بالواجب ، ومنها ما يقـع للنسـاء المسلمات من اكراه اهل المراكب لهـن على الفحشاء زيادة على اختلاطهن بالرجال ومنها مجاهرة اصحاب المراكب للمسلمين بالسب الفـادح . وسب الديـن ودوسهم باقدامهم ، ومنها افتضاح اعراض الحجاج فيما بينهم بسبب التضييق الذى يقع بهم ، ويلجئهم ذلك الى غير ما ذكر ، مما لا يرضى الله ورسوله من كل مسلم ان يتسبب فيه لنفسه او ان يتحمل الصبر على رجسه وكنا غاضين الطرف عن الكلام فى ذلك فيما مضى لبشاعة سماع سقوط قاعدة من قواعد الاسلام وشيوع ذلك عند الجهلة العـوام البعيـدة افهامهم عن ادراك المقصود ومعرفة المراد : والسر فى ذلك وما يعقلهـا الا العالمون ولاشتهـار ذلك عند الحجاج، واطلاعهم عليه ومعاينتهم له مع تماديهم على الاقدام عليه بعد شرح مساويه شرحا لم يبـق معـه غبار على عين من تشوف منهم للحج بعد سماع تلـك القبائح التى تشيب الرضيع وتلحق الرفيع بالوضيع ، حتى تفاحش امر تلك القبائح وذاع وسارت الركبان من مساويه مما تمجه الاسماع اذ فى كل عام يوقـر الحجاج ، اسماع الناس بزيـادة حـوادث شنيعـة ومنكرات فظيعة مما عاينوه وسلكوه بالقدم ، ويعود أهل المروءة على انفسهم بالندم ، لكونهم قصدوا اداء طاعة فوقعوا فى معاصي عديدة فادحة انقلبوا من اجل ما يقع لهم فى انكاد كالحة ، وما زلنا مع ذلك نتربص الوجه الذى يكون علاجا ونتانى رجاء ان ترهم همـة الاسلام عن تجرع ذلك المورد حيث صار اجاجـا ، غير راضين بهذا المانع الذى اخل بالاستطالة واوقع فى الحرام فضلا عن ان الضرورة لها احكـام الى ان كتب النائبالطريس لحضرتنا الشريفة مماخبر بهنواب الاجناس من كونهم اتفقوا فى سائر الاقطار على منع ركوب سائر حجاج المسلمين هذه السـنة مما تحقق عندهم من حدوث الطاعون والحبة على هيئة غير معهودة بالناحية التى ينشأ فيها ذلك من بلاد الهند فمنع كل جنس ركوبهم من جهته اخذا على زعمهـم بالاحتياط لسلامة الابدان وصلاح العالم العمومـي وان من غر بنفسه من المسلمين وتوجه مختفيا لبـلاد الحجاز فانه لا يعود لبلاده حتى يعاني اقتحام مشاق عظيمة يندم عليها ومن جملتها الاغتراب فى جزرهـم الخالية المتباعدة عن المعمور مدة تزيد على السـتـة اشهر بحيث لا يسع احدا من دول الاقطار الخروج عن هذا الاتفاق فى هذه السنة . وحيث كلفنا الله تعالى برعاية عباده وحملنا اعباء مصالحهم واوجب علينـا

انقاذهم من كل ما يؤدي بهم الى الهلاك ، او يفضي بدينهم وحرمتهم الى الانتهاك ، رأينا من الواجب تحذير من يريد التوجه للمشرق هذا العام وتبصيرهم لما يتوقع من اجل هذا الاتفاق الذى هو شامل وعام نصيحة لهم وبيانا للمانع واخبارا بالعارض الواقع وبعد ذلك قدمنا فى القضية استفتاء لعلمائنا بالحضرة المراكشية ، حفظها الله ، استبراء للدين ليكون ارتكاب المصلحة المتعينة فيها على يقين ونبني الامر فيها على الوجه الذى تنبنيء عنه شريعة سيد المرسلين فأفتوا بأن شرط الاستطاعة غير متوفر شرعا بسبب ما ذكر من تلك الموانع العارضة للحجاج وبأن منعهم يتعين المصير اليه حتى تسلم الاستقامة فيه من الاعوجاج وان من اقتحم تلك المضار وادى فرضه يكون مع اجزائه عاصيا بسبب القائه بنفسه للتهلكة ولاجل هذا أصدرنا امرنا الشريف لسائر خدامنا عمال المدن والمراسي بمنع المتوجهين للمشرق فى هذه السنة حتى يظهر الوجه الذى يحصل به الامن والسلامة للجميع ويتوفر الشرط المقصود ويزول بحول المانع القظيع وعليه فنامرك ان تمضي على مقتضى ما ذكر من منع كل من يريد التوجه من هنالك للمشرق فى هذا العام بعد تبصيرهم باسباب المنع الشاملة للخاص والعام ، حتى يتمهد المنهاج الذى تحصل به السلامة ويكون قصد الطاعة فيه جاريا ان شاء الله على منوال الاستقامة والسلام .

24 رمضان المعظم عام 1314 هـ

نعم انني اثبت نصه هنا تمجيدا وتخليدا للعناية الملكية الموروثة لدى الملوك العلويين الامجاد خلفا عن سلف . فهم نصرهم الله واصلح بهم كلما حز بهم امر رجعوا للشريعة المطهرة يستظهرونها فى الموضوع ويعتمدونها فى المشروع . سدد الله خطاهم ووفقهم واثابهم وهيأ لهم كل فلاح فيما يرمون اليه من صيانة حوزة المسلمين . والاعتناء بالمقدسات وبالمواطنين حتى لا يتعرضون لما يدنس الشرف ويشين، وما دمنا تعرضنا لنقطة هامة تتعلق باتخاذ محجر صحي للوقاية دعت اليه الظروف والملابسات ، نثبت هنا تاريخ انشاء المحجر . والدول التى شاركت فى تكوين نصوصه والتزمت بالعمل بها . وباسم المحجر الذى اتخذ بالمغرب ومكانه ، ففي نفس السنة التى منع فيها الحج كما سبق تكون اجتماع دولي شارك فيه المغرب بالراي والمشورة يتركب من نواب الدول الآتية اسماؤها بعد نائب المغرب المكلف من لدن صاحب الجلالة اولا نائب انكلترا – المانيا – فرنسا – امريكا – هولاندة – روسيا – ايطاليا – بلجيكا – السويد – البرتغال – اسبانيا . وعقب الاجتماع وتبادل الرأي صدرت الضوابط للسير وتتركب من عشرة ضوابط قدمت للموافقة للدولة المغربية بواسطة نائب اسبانيا بتاريخ 28 ابريل 1901 وعينت « لكرنطينة » المحجر الصحي بالمغرب بالجزيرة المقابلة لمدينة الصويرة وهي قائمة الوجود حتى اليوم مكانا سياحيا هاما .

ولا نغفل امتثال عامل سلا للامر المولوي الكريم فننشر هنا نص رسالة جوابه لحضرة الملكية تعلن بتنفيذ الامر وتستحسنه وتباركه والى القراء نصها :

الحمد لله وحده

وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وءاله

ادام الله العز والتمكين والفتح والنصر المبين لسيدنا ومولانا أمير المومنين وحامل راية الاسلام والمسلمين اما بعد تقبيل حاشية البساط الشريف واداء ما يجب لعلي المقام المنيف من الاجلال والاعظام والتحيات والاكرام فننهي لشريف علم سيدي بأنه ورد على العبد كتاب سيده دام مجده وسناه ءامرا بمنع كل من يريد التوجه من هنا للمشرق فى هذا العام بعد تبصيرهم بأسباب المنع الشاملة للخاص والعام حتى يتمهد المنهاج الذى تحصل به السلامة ويكون قصد الطاعة فيه جاريا ان شاء الله على منوال الاستقامة لما أبدته جواهر افكار سيدنا من النكات العجيبة والفوائد الغريبة التى يرقص لها العقل وتسجد لها مجلدات النقل المدخر الصدع بها لياقوتة حقائق الملوك وفريدة عقد السلوك جزى الله مولانا عن الاسلام والمسامين احسن الجزاء واقام بك دعائم الدين ولا قطع لنا منك رجاء وبه الاعلام طالبا رضى مولانا الامام متعني الله

رجب الثاني دفعه فى 22 شوال عام 1314

ثم تدخل سنة 1315 هـ وتكون المشكلة سويت والحواجز اتخذت لها حلول مناسبة وملائمة وعزيمة الحارس الامين للامة ودينها اطمأن على سلامة الرعايا وطابت نفسه الكريمة بالسماح حينئذ لمن يريد الحج بسلامة ورعاية وحفظ وكرامة .

فأصدر اعز الله أمره فى ظهير شريف مؤرخ بـ 18 رجب 1315 هـ برفع المنع والسماح بالحج لمن اراده ، وفعلا اقبل المغاربة كعادتهم على السير قدما

نحو الحرمين الشريفين قياما بشعيرة اسلامية عظيمة في كنف ورعاية قوانين صحية مشرفة والى القراء نص الظهير الشريف :

الحمد لله وحده

وصلى الله على سيدنا محمد وءاله

خليفة خديمنا الارضى القائد عبد الله بن سعيد السلوي وفقك الله وسلام عليك ورحمة الله وبعد فما كنا اصدرنا لك به شريف امرنا عام أول من منع من يريد التوجه للحج للموانع التى كانت أوجبت ذلك قد نسخ الآن بزوالها وارتفاع اسبابها ولم يبق من فضل الله ما يوجب ذلك الآن وعليه فنامرك بتسريح من شاء ذلك وعدم منعه منه فانا أبحناه لهم وأمرنا أمناء المراسي السعيدة المحروسة بعدم التعرض لهم في الركوب بضوابطه القديمة المؤسسة فيه بلغ الله المقاصد والسلام في 18 رجب الفرد عام 1315

وحتى اليوم لا تزال عدة مناطق تذكر التجمعات الوقائية الدينية حتى تكثر الصلوات والابتهالات الى الله في انتظار الاتصال بالاهل والاحباب ، وقد كانت السلطات بأوامر ملكية تسهل المقام وتعتني جهد الاستطاعة بكل المهام .

واذا كانت الاجراءات الوقائية الصحية تتخذ عند عودة الحجاج من الديار المقدسة فقد كانت التقارير ترفع الى القصر الملكي معلنة السلامة او الاصابة فيجاب عنها بما يناسب السلامة او غيرها ؟ نعم في العصور الاخيرة والعهود القريبة اضيف شرط جديد لسفر الحاج وذلك بتلقيحه قبل السفر وحصوله على شهادة طبية تتوفر على استعماله لكل الوقايات الممكنة وتطورت الحال في وسائل الرحيل واصبح البخار كطريقة جديدة للرحيل السريع : وتحولت الرحلات من البر الى البحر وقد اسرع الملوك الاشاوس الى توفير الراحة للحجاج ، وتتجلى هذه الاسباب في الاتفاق مع الشركات ، واقتناء البواخر المريحة وتكوين مجموعة رسمية تتكلف بالسهر على المسائل الدينية والاجتماعية مع المحافظة على الامن وتوفير الغذاء الصحي واللازم للحجاج وصلة الوصل بين الحجاج والمسؤولين في الباخرة حفاظا على السلامة، وجلبا للراحة والاطمئنان ذهابا وايابا .

ومع تطور وسائل النقل من البواخر البخارية الى الطائرات كانت العناية الملكية توالي السهر على صحة الحجاج وسلامة ذهابهم . وجاء عهد صاحب الجلالة المغفور له محمد الخامس قدس الله روحه فزاد من العناية الملكية ، واصبح وفد رسمي يرافق الحجاج الميامين الى البقاع المقدسة حيث تقدم اليه الاوامر لمساعدتهم والوقوف معهم وتوفير كل اسباب الراحة والمقام الطيب لهم كما اصبحت بعثة طبية مؤلفة من الاطباء والمرضين ترافق الحجاج وتقيم بالديار المقدسة أماكن خاصة لمساعدة الحجاج ومعالجتهم والسهر على صحتهم. وجاءت العناية الملكية في في مضمار آخر يتجلى في بعث العديد من المواطنين المعوزين لاداء الفريضة ووجه المغفور له محمد الخامس الملك المنعم نور الله ضريحه رسائل الى الحجاج عند ذهابهم يصدر اليهم اوامره السامية التى تدعو الى الوحدة الاسلامية والتعاون والتآزر متمنيا لهم حجا مباركا وعودا ميمونا . .

وجاء عهد صاحب الجلالة الملك المعظم الحسن الثاني نصره الله فضاعف جلالته من اعتنائه بكل المقدسات الدينية وقد ركز الاهتمام على كل مرافق الحياة الدينية والروحانية في المغرب وجاء سفر الحج الموسمي كمظاهرة دينية تتجلى فيها قوة الروابط بين العرش والشعب وقوة العناية الملكية بالرعايا الاوفياء وللانسجام مع روح الاسلام وابعاده الروحانية وتطبيقا للشريعة الاسلامية التى تنص على وجوب مرافقة المحرم المراة عند سفرها ؟ والا يعد سفرها محرما : وقد ايدت الايام صواب التشريع الاسلامي في هذا التقنين الذى ليس وراءه الا العفة والطهر والنظافة والحشمة ؟ **وكفى بها مفخرة تسجل للحسن الثاني في هذه العناية الكبرى والوصية العظمى الصادرة من جلالته هاته السنة بعدم السماح لسفر المرأة الحج الا مع محرم ؟** ما عدا المراة المسنة التى يتجاوز سنها الستين فلها ان تسافر وحدها ما لم تكتنفها شبهة ؟ ابقاء على طهارة مسعى الحج وتعظيما لحرمات الله في بلاد المسلمين المقدسة وهذا القرار الملكي المعظم نعده عناية بالنساء المؤمنات القانتات العابدات .

ان رعاية الملوك العلويين بكل مظاهر الدين في هذا الوطن العزيز لا يزيده التاريخ المجيد للدولة العلوية الا رسوخا وتركيزا ولا تزيدها الايام الا قوة ومناعة كيف لا والمغرب عرف منذ عهوده القديمة



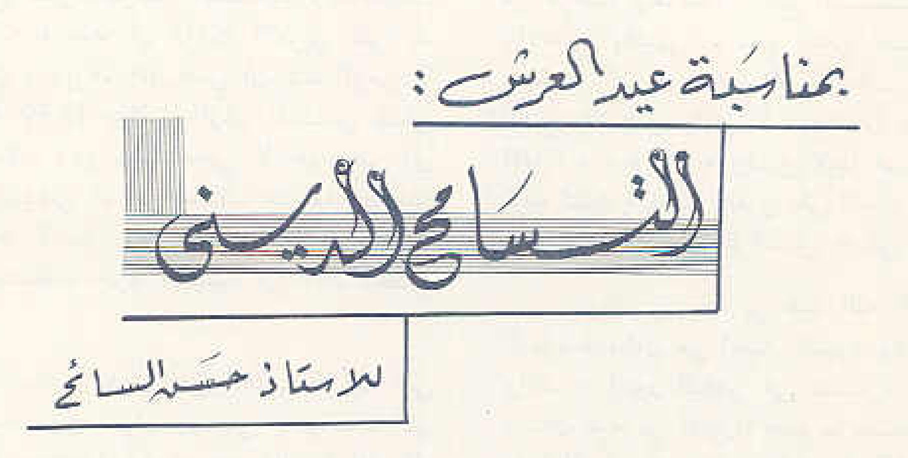
جلالة الملك يقبل الحجر الاسود فى الكعبة المشرفة ، ويبدو فى الصورة صاحب السمو الملكي الامير مولاي عبد الله

بمواقفه المشرفة والشجاعة لحماية الدين وحماية ورعاية رجالاته وقد جاءت مجهودات الملوك العلويين الميامين لتؤكد الالتحام القوي بين العرش والشعب الالتحام القوي بين عرش مسلم مؤمن معتز باسلاميته وايمانه مدافعا عنهما رادا لكل معتد عنهما وشعب مسلم مؤمن قدم الكثير من التضحيات من اجل المحافظة على دينه مؤمن ايمانا قويا بمبادىء الاسلام كخير مثال للحياة القائمة على الاخاء والاحترام والحب المتبادل ان الاسلام فى هاته الديار خير تلحم بين العرش والشعب وخير طريق للوصول الى اهدافنا جميعا فى التنمية والازدهار والرخاء

وما عناية الملوك العلويين بالحجاج الميامين الا ظاهرة من بين المظاهر الاسلامية التى تسهر عليها الاسرة العلوية الشريفة فبارك الله فى ملوكنا وبارك حجاجنا الميامين ودعواتنا جميعا بخير هذه الامة وعظمتها وبرخائها وازدهارها .

وحفظ الله جلالة الملك بلطفه ورعايته ووفقه لمتابعة جهوده الاصلاحية لبعيش شعبه المسلم تحت كنف الشريعة الاسلامية الطاهرة .

سلا — ج احمد معنينو



ليس المراد بالتسامح الديني ان يؤدى المتدين واجباته حسب رغبته وسعة وقته . وليس المراد بالتسامح الديني كذلك ان يغض المسلم الطرف عما يرى ويسمع دون أن يامر بالمعروف وينهى عن المنكر حسب التوجيه الاسلامي. ولكن معنى التسامح الديني التشبث بمباديء الاسلام التى توجب على المسلم ان يخلص لتعاليم دينه . ويسامح اهل الكتاب ليؤدون دينهم رغم تحريفه وضيق تفكيرهم دون ان يلزمهم باتباع دين الاسلام وانما يبلغ اليهم الدعوة ويجادل بالتي هي احسن حتى لا يغرق الانسانية فى بحر من دماء وكما قال تعالى (انك لا تهدي من احببت . ولكن الله يهدي من يشاء) .

ذلك لان الرسول عليه السلام جاء مصدقا لما بين يديه فعلى المؤمنين بتصديق ما جاء به الرسل من قبل . وقد بين القرءان ما جاءوا به حتى لا يضل المسلم عن الطريق ويتأثر بالانحرافات والاضافات التى ارتكبها الاحبار والرهبان عن قصد وسبق اصرار خدمة لمآرب شخصية وابتعادا عن اهداف دينية حقة . يرفضها الدين اذا قيست بمحك التعاليم الفطرية . ولهذا فنحن نسلم ونصدق بالتعاليم الدينية الاولى من ملة ابراهيم عليه السلام الى رسالة عيسى عليه السلام (لا نكذب باحد من رسله) والاسلام فى دعوته يعي مبدا حرية العقيدة . وتبعا لذلك فهو دين مسامح . اذ ان تحمل الامانة يجب ان يكون عن اقتناع لا عن قسر . وهذا ما يوجب عدم الضغط على غير المسلمين باتباع الاسلام . وانما يجب ان يبلغهم الدعوة . كما يجب ان يحافظوا على حرية العقيدة ذاتها . فلا يحاربون الاسلام والا ضيعوا على انفسهم حرية العقيدة واستحقوا الحرب. وفى القرءان ءايات كثيرة تنادي بهذه الحرية كقوله تعالى :

(ولو شاء ربك لآمن من فى الارض كلهم جميعا، افانت تكره الناس حتى يكونوا مومنين) وقال تعالى: (لا اكراه فى الدين . قد تبين الرشد من الغي) وقال تعالى (فان تولوا فانما عليك البلاغ. والله بصير بالعباد)

والاسلام حين يدعو الناس كافة الى الدين الاسلامي يراه جماع الاديان ومحتواها فهو ءاخرها: وهو مصدرها ؛ وعندما بلغت الدعوة الاسلامية بلاد المغرب كان ميدانا للتجربة الاسلامية فى اشد حيويتها ؛ وملتقى الفاتحين الاولين حيث اخذ عنهم الدين سليما . وظل يتابع طريقة السلف الصالح دون تعثر او انحراف وبذلك ظل المغرب مسلما حنيفا صادق الايمان ؛ ومن اجل ذلك كان ادرك واوعى لفكرة التسامح فى الاسلام فلم يشهد طيلة تاريخه حربا تسيل فيها الدماء ليرغم النصارى على اعتناق دينه او اوجب على اليهود ترك يهوديتهم . وانما يذكر التاريخ بعض مشاحنات وخلافات اساسها انحراف هؤلاء . وهؤلاء عن الخط السليم فى دينهم او عن الاسلام ؛ ويشهد تاريخ المغرب انه عرف اعظم كنائس المسيحية بل تولدت فى احضانه مذاهبها الكبرى ككنيسة ترتوليان . وكنيسة سابريان ،

وكنيسة اوجستان ، ورغم ذلك فان الاسلام لم يحطم كنيسة ولا ايقونة ، وانما ظلت دعواه تسري في هدوء واقناع حتى انهزمت المسيحية وكنائسها امام حجته القوية ، بعد ان ذاقت الامرين على يد الرومان والوندال . ويزعم المؤرخين ان عبد المومن لما فتح تونس سنة 1159 ميلادية ارغم الناس على الدخول في الاسلام وهو زعم خاطيء لا يقوم على اي اساس تاريخي منهجي اذ هو يخالف طبيعة التفكير المؤمني ، وطبيعة الاسلام معا . ولا يعدو ان يكون دعوة مسيحية تستحث حربا صليبية في ذلك العصر المتفتح .

ولم يكن التسامح الديني في المغرب قوقعة على التعاليم الاسلامية دون حوار ووعي ، وانما كان التسامح تعايشا مستمرا ، ودعوة دائبة للاسلام وتفهمه . ومواجهة البدع والمستحدثات ، ويذكر المؤرخون في ثنايا التاريخ عدة مواقف فكرية دالة على التسامح والحيوية فقد جمع المؤرخ المنوني منهم ما جاء في الاحاطة ان عالما كبيرا قام بمناظرة ناجحة ضد بعض القسيسين بمدينة مرسية وهذا العالم هو ابو علي الحسين بن عتيق المرسي السبتي الذى انتقل الى مدينة فاس لما استكتبه السلطان المريني ابو يعقوب ، وكانت المناظرة المشار اليها وقعت في موضوع اعجاز القرءان ، وكذلك تخصص المغاربة والاندلسيون في الجدل الديني ، ووضع اكثرهم رسائل في المناقشات الدينية ومن هؤلاء ابو جعفر بن ابي عبيدة القرطبي المتوفى سنة 582 هـ الذى الف مطامع هامات الصلبان وقد امتحن هذا الكاتب بالاسر سنة اربعين وخمسمائة وحمل الى طليطلة ، وبها الف كتابه ليرد به على القسيسين بطليطلة وتركه بايدي جماعة من المسلمين الذين كانوا مأسورين هناك ، ومنهم عبد الحق الاسلامي السبتي الذى ترك اليهودية الى الاسلام ، ثم وضع اواخر القرن الثامن رسالة « السيف المدود في الرد على احبار اليهود » ومنهم محمد الانصاري الف كتاب رسالة السائل والمجيب وروضة الاديب لابي زكرياء يحيى بن زياد وزير عبد الحق المريني ومنهم سيدي رضوان ابن عبد الله الجنوي دفين فاس من علماء القرن العاشر وكان يقول خرجت من بيت فرث ودم يعني اصل والده من مسيحيي جنوة وامه كانت يهودية اسلمت وقد ولدت بفاس سنة 912 وتوفي بها سنة 963 وترجم له الرهوني في مقدمة كتابه ومؤلف السلوة ومنهم شهاب الدين احمد الشهير بافوغاي ، مستوطن مدينة مراكش من اواخر عام 1007 هـ وقد كانت له مناقشات دينية في كل من فرنسا وهولندا ، مع القسيسين من النصارى والاحبار واليهود ، ومع الذين اجتمع بهم خلال سفارته الى فرنسا وكان في الرد عليهم جميعا يحتج بالانجيل والتوراة ، بعد ما درس ترجمتها لهذه الغاية ، ويذكر انه وفق فيها مرارا عديدة ، وقد الف كتابه « ناصر الدين على القوم الكافرين » باقتراح من علي الاجهوري لما اتصل به في القاهرة

ومنهم يوسف بن عبد الله الاسلامي الذى ترك اليهودية وكان من احبار اليهود وذلك بعد عام 1020 والف « النور الباهر في نصرة الدين الكافر » وساق فيه عن التوراة نصوصا بصحة الدين الاسلامي، وبما انه لم يكن حسن العربية فقد هذب لفته عبد الرحمن التامانارتي .

ومنهم حم بن عبد الوهاب الوزير الغساني الاندلسي المتوفى عام 1119 هـ — 1703 م فقد ناظر الرهبان الاسبان في مدريد اثناء سفارته لاسبانيا عام 1102 هـ — 1690 .

ومن علماء الاسلام وملوكهم المولى اسماعيل المتوفى عام 1139 هـ الذى كان حسب المؤرخ سان اولون — يدعو الرهبان الموجودين بآيالته لحضرته ويناظرهم في الدين ويأمرهم باحضار ما لديهم من المستندات على معتقداتهم ، ويتناول ذلك بالنقد والبحث ، معتمدا على التآليف الاسلامية التى كان يحضرها من مجالسه .

وفى نطاق سياسته الخارجية ، كان يحاجج في الديانة النصرانية ويدعو المسيحيين للدخول في دين الاسلام . وكتب بذلك لعدة دول باوروبا ، وتوجد رسالتان كتب احداهما الى جيمس الثاني ملك انجلترا بعد خلعه والتجائه الى فرنسا عام 1109 هـ والثانية الى لويس 14 ملك فرنسا . وكان يرى ان البروتستانتية اخف من الكاثوليكية ، ويذكر المؤرخ ابن زيدان في (الاتحاف) انه بنى قلعة خاصة لمن اسلم من النصارى ، كما نشر مؤلف الاتحاف عدة من رسائله في الموضوع .

وجاء في كتاب الزياني الترجمانة الكبرى ذكر لعدد في الذين اسلموا ودافعوا عن الاسلام وكذلك كان المولى الحسن الاول يهتم بالرعايا المسيحيين وفق التعاليم الاسلامية وامام علاقة مع الفاتيكان ،

حيث وجه اليه سفيره القائد عبد الصادق الريفي (للبابا ليون الثالث عشر) .

ولم يكن المغرب متعصبا ضد اي دين او علم ولا ادل على تسامحه وسلامة اتجاهه ان يعترف بالفضل لذويه فقد كان من رد العجز على الصدر ان يأخذ عن اوروبا من جديد بعد ان اخذت عنه دون شعور بعقدة النقص ، ولذلك استدعى السعديون (كيوم بيرار) و (هوبير) استاذ العربية بباريس كما استدعى الطبيب الانجليزي (لمبريير) والطبيب (براون) والطبيب الاسباني كرسطوف داكوسطا . وارسل العلويون بعثات الى مختلف العواصم الاوروبية فى عصر محمد الرابع والحسن الاول لدراسة الهندسة والمدفعية والرياضيات والبصريات والكهرباء والسكك الحديدية وشاهدت (فرساي) وفدا من الطلاب المغاربة كما شاهدت معاهدة ايطاليا واسبانيا والمانيا طلابا مغاربة كذلك .

ان هذا التسامح الديني الدال على وعي المغربي بالانسان وحقيقته ، وبالاسلام ودعوته ، كما هو دال على ادراك متين ورغبة ملحة لتحقيق السلام فى العالم .. ولا بدع ان يكون هذا التسامح الديني اتاح للمغرب ان يتصل بعدم امم وينفتح لعدة ثقافات دون ان تنال من عقيدته بقدر ما تزيد فى منطقه وصلابة ايمانه .

ولعل عصرنا الحديث يبلور صفاء هذا التسامح الذي يبدو فى اقتناع الجميع بعظمة دين الاسلام ومنطقيته وسعة افقه مما يكسب المغربي رحابة فى الثقافة وسعة فى العلم وبسطة فى الفكر .. واذا كان بعض المارقين يستنكرو لدينهم فان الشذوذ يدعم القاعدة والتاريخ يشهد على ظهور امثالهم دون ان ينالوا من قوة التيار الحي المتدفق .

الرباط ـ الحسن السائح





كلما اشرقت هذه الذكرى الغالية على قلوبنا. وقلوب المغاربة اجمعين . رجعت بنا الذاكرة الى ايام طافحة ببناء صروح المجد . والاستماتة فى سبيل الدفاع عن حوزة الوطن . بقيادة جلالة المغفور له . سيدي محمد الخامس . تغمده الله برحمته .

كانت الايام حبالى لسنا ندري ما تلد . وكانت الظروف قاسية على الوطن والمواطنين . من لدن السلط الاستعمارية . وكانت الحركة الوطنية النشيطة . تغلي كالمرجل . وكانت الاعناق مشرئبة الى الهدف السامي : هدف فك الرقاب من ربقة الاستعمار . وكانت الهمم القوية تامل استرداد ما ضاع من خيرات . وتقوية ما ماع من عزمات . وكان اخواننا علماء القرويين — الطلبة فيها بالامس — يعقدون الجلسات السرية . لتنظيم حفلات عيد العرش . واظهارها بالمظهر اللائق بها . بما يعدون لها من كلمات رائعة . وقصائد شيقة . واناشيد وطنية حماسية . وتمثيليات مستقاة من مواقف ابطال الاسلام . وغير ذلك . مما يلهب الشعور بالعزة والكرامة . ويضفي على الذكرى ما هي جديرة به من حفاوة وتقدير . فاذا اعدت العدة . وتم الملف . وذللت جميع الصعوبات المادية والادبية . جاء دور طلب الاذن من الحكومة . لتسمح بهذا التجمع الذى من شانه ان يعدد مناقب الدولة العلوية. ومناقب الجالس على العرش آنذاك : جلالة سيدي محمد الخامس. فلا تكاد اللجنة المشرفة على التحضير تحصل على الاذن . الا بعد جهد جهيد. واخذ ورد . ومماكسة ومشاكسة . بل وتهديد احيانا .

وما زلت اذكر امسية قضاها طلبة القرويين بالمنتزه العمومي . والذ لهم ان ينشدوا بصوت عال . نشيد الاستاذ المرحوم . السيد محمد القري . الذى يقول فى مطلعه :

عيد التتويج هو العيد
ما مثل التاج لنا عيد

فاذا بالسلطة تهجم عليهم وتشتتهم . امعانا منها فى القضاء على شيوع فكرة التغني بالامجاد المغربية. التى تتجسد فى العرش العلوي الشريف. وتبدو فى تاجه المنيف . ولكن ذلك لم يزد المومنين الا ايمانا بعقيدتهم الوطنية . واستماتة فى ميادين الدفاع عنها. والذود عن حياضها . بما اوتوه من حيوية وعزيمة وصمود . يستمدون ذلك من ابي النهضة المغربية . الذى كانت مواقفه وتصريحاته وخطبه فى كل المناسبات . مدرسة تذكي العزائم . وتذكر بالعظائم. فيتربى المغاربة . وبالخصوص ناشئة المثقفين منهم . على السير الجاد . فى الطرق المؤدية الى اعلاء كلمة الله . ولن يكون ذلك بغير استقلال البلاد .

ولو قدر للتراث الفكري والادبي . الذى قيل فى اعياد العرش . ان يجمع فى مؤلف خاص . لضم من نتائج القرائح . ما يعرب بروائعه وبدائعه . عن الاتصال المتين . فى كل وقت وحين . بين العرش والشعب .

سطرنا هذه النتف من مضايقات الماضي. لنحمد الله اليوم . على ما نحن فيه من نعمة الحرية والاستقلال . لذلك نرى . والمغرب يحتفل بذكرى مرور تسع سنوات . على جلوس صاحب الجلالة الحسن الثاني — حماه الله — على عرش اسلافه الميامين . ان نبرز جانبا من عبقرية جلالته وخاصة فى مؤتمري القمة الاسلامي والعربي . المنعقدين بعاصمة مملكته . تحت قيادته الحكيمة . وحنكته الطائرة الصيت . فقد افتتح جلالته كلا منهما بخطاب ارتجالي نثر فيه درره الغالية على المستمعين والنظارة — وختمه كذلك بخطاب ارتجالي . فكان فى خطابيه معا . مثال العالم المسلم — والسياسي الخبير . المتمكن من ناصية البلاغة . والمدرك بعمق

لعناصر الموضوع ، والقابض بقوة ، على ازمة الاداة ، التى يصرف بها معانيه ، فى شجاعة جنان ، وفصاحة لسان ، وسلاسة بيان ، رابطا بذلك بين مجد غابر ، ومجد حاضر ، ومجد منتظر ، وحاملا مشعل التوعية والتوجيه فى الداخل ، ومشعل الاتحاد والتآزر فى الخارج ، امام رجال الفكر والسياسة ، من الملوك والرؤساء المشبعين روح الاسلام ، والبعيدين عن كل تعصب ديني ، او مذهبي ، او اقليمي ، والساعين بغير عنصرية ، فى رد الحق الى نصابه ، بعودة الفلسطينيين المظلومين الى اراضيهم المغصوبة ، واماكنهم السليبة ، وبهذا الموقف التاريخي العظيم، الذى سمع دويه فى انحاء المعمور ، فتح بابا جديدا لمجد ، لم يسبق اليه ، تجاوز به النطاق المحدود ، الى عالم خارجي ممتد الاطراف . وما ظنك بعاهل تربى فى حضن والده الحكيم سيدي محمد الخامس ، وعاشره فى منفاه ، فنشأ مدافعا عن الوطن ، وسعى فى تحقيق ما آمن به ، واتخذه هدفا له فى الحياة ، وضحى من اجله ، وهام بادراك فلسفته ، التى تغلغل بذهنه الوقاد فى اعماقها ، فعاد ظافرا بمكنونها ، وعاملا على اشاعتها ، بما القى من بيانات ، معززة بما يضفي عليها طابع الجدة العصرية ، ويغمرها فى الوقت ذاته بحرارة الايمان ، وصفاء العقيدة ، وعدم المبالاة بالصعوبات ، التى يجعلها دائما دبر اذنه ، ويمضي ناهضا باعباء الملكة ، متنقلا بها من حسن الى احسن ، وما يتمتع به جلالته من اسلوب جذاب فى الحديث ، ولغة متينة فى تصوير الافكار ، وايمان بالنصر في كل موقف ، كل ذلك يجعل المسافة بينه وبين تحقيق آماله — التى هي آمال الامة — قاب قوسين او ادنى .

فمن فلسفة المليون هكتار وفلسفة التعليم والعدل واقامة السدود الى فلسفة شؤون التصنيع وتكوين الاطارات والازدهار الاقتصادي والفلاحي والانعاش الوطني وبناء المساجد واصلاحها — وطبع المصحف وفتح الكتاتيب الى غير ذلك من المبرات والعظائم التى تسجل لجلالته فى جبين الزمن باحرف من نور .

وهكذا يأبى جلالته وهو يضع الخطط لمشاريع المستقبل، الا ان تكون تلك الخطط محبوكة الحواشي، مدروسة الخطوات ، صادرة عن حكمة وتبصر واناة، معروفة الاهداف والغايات ، يحدوه لذلك كله ، روح الاخلاص ، والسعي الحثيث لبناء غد افضل مبني على اسس من الثقة والتوعية ، والتجرد ونكران الذات ، وفى ذلك يقول جلالته فى نطق ملكي كريم :

« .. واننا على يقين ، من ان رعايانا يتوفرون على هذه الروح : روح الاخلاص والعمل والتجرد والثقة بالنفس ، ونكران الذات ، وتلك هي القيم التى تعين على البناء والتشييد، ولو مع قلة الوسائل »

وما زال جلالته فى كل مناسبة يدعو للقضاء على الشحناء والكراهية ، والقطيعة بين الناس ، ويؤكد ان سماحة الاسلام لا تسمح بذلك ، ويحفز الهمم الى اعتبار المكاسب الروحية ، واحلالها المحل الارفع ، من بين المكاسب التى يسعى الناس بجد للحصول عليها ، ويعقد مقارنة بين قلة ما يحصل عليه الفرد والمجتمع من المكاسب المحدودة ، وبين النفع العميم الذى يحصل من المكاسب التى لا يحدها زمان ولا مكان ، فيدل بذلك على سعة افق تفكيره المتجه لما يجب ان تبنى عليه صروح الاعمال والاصلاحات وفى ذلك يقول جلالته فى نطق ملكي كريم :

« ففى اطار ديننا الاسلامي السمح ، سنصوغ كل عمل وكل اصلاح ، لان المكاسب الدنيوية ، ليست غاية فى حد ذاتها ، لانها مكاسب محدودة ، اما المكاسب الروحية ، فليست لها حدود ، لانها هي الوجود ، ولانها هي التى تمكن الفرد من حسن التصرف فى مكاسبه الدنيوية ، وتكيف تصرفه بالخصال الحميدة ، حتى لا تكون فى المجتمع شحناء ولا بغضاء ولا تفرقة » .

وما زال جلالته كذلك يصور الهدف الذى يقصد اليه، من وراء سياسته الرشيدة التى تتبلور فى اسعاد الامة ، ونشر اردية العدل على جميع افرادها، حتى يعيش الجميع فى راحة بال ، وهناءة ضمير — فى وطن مزدهر ، وخير منهمر ، وفى ذلك يقول جلالته فى نطق ملكي كريم :

« هدفنا هو رفع شان هذا الوطن ، وبناء صرح نهوضه وازدهاره ، وتوفير السعادة والرخاء لابنائه، وسدل اردية العدالة السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، عليهم بدو تمييز » .

هذه فقرات من كلام جلالته تنم عما اكرمه الله به من عبقرية ابان بها فى كل مواقفه عن نضج فكري فذ ، وسمو روحي ممتاز .

فاس — الحاج احمد بن شقرون



للأستاذ محمد المنتصر الريسوني

شخصية المولى محمد بن عبد الله من الشخصيات السياسية والعلمية المهمة فى تاريخ الاسلام عامة وتاريخ المغرب خاصة ، واسمه دوما يقترن بالاعمال الجليلة التى اضطلع بها فى الميدانين السياسي والعلمي .

ابصر المولى محمد بن عبد الله نور الحياة بمدينة مكناس عام 1134 هـ ودرج فى بيت جده المولى اسماعيل محاطا بالرعاية والعناية، وتربى تربية علمية سامية ، وقصد الديار المقدسة مع جدته خناثة بنت بكار وهو لا يزال فى سنته التاسعة ، وعندما رجع الى بلاده اكب على التحصيل والدراسة فتلمذ على ابي محمد عبد الله بن ادريس المنجرة والسرادي، واظهر نبوغا فائقا وعبقرية نادرة ، ورغم انشغاله بتدبير الحكم ــ وهذا امر عظيم لا يظفر بالنجاح فيه الا من كان ذا مقدرة ــ لم يغفل المشاركة بنصيبه فى الميدان العلمي ، فصنف الكتب فى الفقه والحديث اثنى عليها كثير من العلماء ، من بينها : « مواهب المنان بما يتاكد على المعلمين تعليمه للصبيان » و « الجامع الصحيح الاسانيد المستخرج من ستة مسانيد » و « الفتوحات الالهية الكبرى » .

وتولى المولى محمد بن عبد الله الخلافة بمراكش فسار فى مهمته الجديدة سيرة حسنة ، اذ استطاع القيام بادارة الحكم قياما جعله يوفر للرعية كل اسباب الاطمئنان ، وصمم العزم على نشر العلم فاستدعى العلماء من فاس وكلفهم بالقاء الدروس المختلفة فى المساجد ، وهكذا سار المولى محمد بن عبد الله يعتني بكل ما يعود على الرعية بالخير العميم حتى اجتمعت على محبته القلوب ، واحبه الناس وطار ذكره كل مطار ، وما ان توفي ابوه المولى عبد الله حتى بويع ملكا على المغرب بعد ان صادق علماء الامة على بيعته ، من بينهم ابو القاسم العمري والشيخ التاودي وابو مدين الفاسي الذى كتب بنفسه البيعة يوم الاثنين 25 صفر 1171 هـ .

ولما تم له الامر وجه عنايته لاصلاح الجيش وتزويده بالعتاد الجيد وقام بفرض ضريبة مالية ــ بعد استفتائه علماء العصر ــ حتى يتسنى له تنظيم شؤون البلاد كما يجب ان تنظم ، والحقيقة ان هذه السياسة المالية كانت من اهم الموارد التى ساعدت على تقدم البلاد فى عهده ، كما انه وجه عنايته لاصلاح التعليم لجامعة القرويين ، فاصدر مرسوما فى هذا الشأن .

ومن اهم العوامل التى اعانته على تسيير دفة الحكم محاربته البؤس والحض على الاحسان والتحلي بالاخلاق الاسلامية السامية (1) ، الامر الذى جعله يؤسس ادارة خاصة بالشرفاء وادارة للارامل والايتام والمساكين .

ومعروف لدى كل دارس لتاريخ هذه الشخصية الفذة انه كان شغوفا بمجالسة العلماء وكبار رجال الفكر فى عصره ، يعقد معهم مسامرات علمية تتخللها مناقشات وفى قضايا العلم والثقافة ، ومن بين هؤلاء المفكرين ابو عبد الله محمد بن احمد الغربي الرباطي وعبد الرحمن بوخريص (2)، واضف

---

(1) انظر مرسوما فى هذا الشأن فى الاتحاف ج 3 ص 216 لابن زيدان .

(2) انظر الاتحاف ج 3 ص 184 ط الاولى .

الى هذه المناقب جوده وكرمه الذى كان يدفعه الى صرف الاموال فيما يراه يعود على الامة بالرخاء ، ورفقه بكل من يتشبث به سائلا عطفه وشفقته من العلماء والاشراف وغيرهم (3) .

واما آثاره العمرانية فكثيرة منها تأسيسه الصويرة والجديدة وفضالة ، وتشييد الحصون والمساجد والحمامات .

هذه الاعمال الجليلة التى غمرت ربوع المملكة كان لها اثر ظاهر فى الحركة الفكرية فى المغرب تتمثل فى اقطاب الثقافة وما انتجوا من اعمال فكرية وادبية ، كالشيخ التاودي وابي حفص عمر الفاسي وابي القاسم الزياني وابي مدين الفاسي وابي عبد الله محمد بن المير السلوي وابي عبد الله محمد الكامل الراشدي ، وكالشاعر ابي العباس احمد بن عثمان وابي عبد الله بن الطيب السكيرج وأبي العباس احمد بن المهدي الغزال وابن الونان ، اولئك الشعراء الذين اداروا كلماتهم الشعرية الرقيقة العذبة فى شخصية المولى محمد بن عبد الله ، وابرزوا ما فيها من مميزات نادرة ، وبطولات شيقة، واستقامة فى الدين ، وولع بالعلم متزايد وبرجاله، وبكل من ينتسب اليه من قريب او بعيد .

وغني عن البيان ان العلوم والفنون لا تتفتح اكمامها ، وتورق غصونها فتعطي احلى الثمرات الا اذا وجدت تربة طيبة صالحة تمدها الايدي بالري المستمر والعناية الكافية اللازمة ، وفى عهد الدولة العلوية الشريفة شاهدنا هذا بالفعل ، وكان من جملة هذه الفنون التى ازدهرت ، الشعر ، هذا الفن من القول الذى وجد تشجيعا من طرف ملوك هذه الدولة امثال مولاي محمد بن عبد الله الذى اثاب ابن الونان الشاعر على قصيدته « الشمقمقية » والمولى سليمان الذى وصل شاعره حمدون ابن الحاج بصلات متعددة .

والحركة الادبية والشعرية فى العصر العلوي يمثلها الوزير اليحمدي وعلي مصباح وابن زاكور وابن الطيب العلمي وابن الونان المذكور والوزير ابن ادريس واكنسوس باستثناء الشعراء الآخرين ممن يحتلون درجة ثانية بعد اولئك الاعلام .

وبجانب هذا يجدر ان نشير الى ان الزاوية الدلائية كان لها أياد بيضاء على النهضة الادبية فى هذا العصر ، وقد ظهر منها اقطاب أمثال المسناوي والشرقي ، وظل طابع هذه المدرسة متبلورا فى شعر اليوسي ، ومن بعده فى شعر ابن زاكور تلميذه .

والحركة الشعرية فى العصر العلوي او قبله لم تطرا عليها تيارات جديدة تجعلها متميزة ذات شخصية مستقلة عن الشخصية الشعرية المشرقية ، ذلك ان الشعر المغربي ظل يستمد قوته من معين الشعر المشرقي ، وبرهان هذا ان الشعراء المغاربة ما تركوا غرضا من الاغراض الشعرية المعروفة الا وعالجوه مترسمين خطة المشرقي فى المعاني وطرق التعبير وسحرية الاسلوب ، والهيكل الهندسي العام للقصيدة العربية ، وفى بعض اعمالهم الشعرية ما نهجوا فيه طريقة الاندلسيين ، ومنه ما البسوه لباسهم كعروض البلد ، بيد ان هذا الفن يدخل فى الاتجاه الشعبي ، وليس من الفصيح القح فى العير ولا فى النفير .

وان موضوع المدح فى الادب المغربي عموما لا يكاد يختلف عن ضده الشرقي بحال ، وآية ذلك ان الاماديح المغربية نهجت الطريقة المدحية الشرقية التى تحتفل بالغزل فى صدور القصائد ، او ترتبط بوصف الخمرة او الطبيعة ، وقد عمل على نشأة هذا الفن الغنائي بعض العوامل التى اعانت على ظهوره فى الشرق كالفتوحات والاحزاب ومناقب الملوك والقواد .

وليس من ريب فى ان المدح قسمان : قسم يرمي الى التكسب والاستجداء والتزلف ، وطرق الابواب سائلا مستعطفا رحمة الممدوح ، وذاك هو التكلف الذى يخلو من العاطفة المشبوبة الصادقة المعبرة عن الرعشة الداخلية للانسان ، وقسم ثان يتميز بالصدق العاطفي والخفقة الوجدانية الفوارة، وذاك يقع بالفعل ان استهوت خصال الممدوح المادح ، واسرته طيبة اخلاقه ودماثة سيرته ، ورقة جانبه ، كما تلمسه واضحا فى شعر الشعراء الذين نوهوا بالملك الصالح المولى محمد بن عبد الله ، ومعبرا عن مكنون انفسهم التى شغفت بصفاته المثالية واصلاحاته المتعددة التى باركها التمسك بالسنة والتشبث بمبادىء الحنفية السمحاء .

---

(3) انظر ترجمة المولى محمد بن عبد الله بقلم الفقيه المحدث المدني بن الحسني بكتاب الفتوحات الالهية للسلطان المذكور .

فلا بدع اذن ان ينطلق الشعر يسجل ما قام به هذا السلطان ، ويرسم بطولته فى شتى الميادين ، ولا بدع ثانية ان ينطلق هذا الفن من القول يشيد ـ وهو ما هو بين الفنون القولية الاخرى يمتلك الطاقة القوية القادرة على التعبير عن امجاد الحياة وما تزخر به من جميل رائع ـ لانه دوما يكون السابق الى تسجيل المكرمات ، وتاريخ الادب العربي والاجنبي طافحان بالذين خلدوا ممدوحيهم ، لما عاينوا فيهم من محامد تدق عن الوصف ، ولكنها لا تدق عن الفن الشعري الذى يمتلكونه ، والذى يشفي ما فى نفوسهم من انفعال وتأثر واختلاج .

واول شاعر نلتقي به هو ابو العباس احمد بن المهدي بن محمد الغزال (4) (ت سنة 1191) ، عاش هذا الشاعر على مقربة من السلطان، واحتك به فلمس فيه من شفافية الخلق وميول للصدق ، وشغف بالعلم ، وتعلق بالاصلاح ما جعله يترجم كل ذلك الى اعماله الشعرية ، فقال مفتتحا قصيدته على الطريقة التقليدية فى المدح من ذكر الطبيعة وما حوت من بديع الزهر ، ثم تشبيهه اخلاق الممدوح بما فى الروض من نضير الادواح ، وما يجمع بين جوانبه من روائع البهاء ، وما يهب فيه من روائح طيبة ، وذلك عندما يصوغ الشعر فيه ويشيد بذكره :

سلابانة الجرعاء هل جادها قطر
وهل امرعت اجزاع ساحتها الغر
وهل نسجت ايدي الحياء بروضها
برودا لها من كف راقمها نشر
فيالك روضا من بكاء غمامه
تبسم من اثغار اكمامه الزهر
كأن به الاكمام تهتز نضرة
عرائس تزهو فوقها حلل خضر
كأن بها ورق الحمائم سجعا
قيان لها فى صوغ الحانها جهر
كأن ثغور الاقحوان مباسم
تسلسل من ظلم الرضاب بها خمر
كأن الشفاه اللعس منها شقائق
تناسق فيها تحت قانئها در
كأن احمرار الورد فى ريق الحيا
خدود غواني الغيد لاح بها بشر

كأن ذبول النرجس الغض عادة
لواحظ من اهواه ماج بها سحر
كأن غصون البان والرندميسا
خرائد دب فى معاطفها سكر
كأن شذا الازهار ينفحها الصبا
فيملأ ارجاء المتان لها نشر
خلال امير المؤمنين محمد
اذا صيغ فيه المدح او نظم الشعر

وبتمل غير طويل نلاحظ ان الشاعر قفز قفزة لطيفة من حديثه عن الطبيعة الى الحديث عن امير المؤمنين ، وهو تخلص بديع ، وانتقالة لطيفة عذبة تبدأ بالبيت المذكور :

خلال امير المؤمنين محمد
اذا صيغ فيه المدح او نظم الشعر

ثم يعدد الشاعر صفات امير المؤمنين وعلو مرتبته ونباهة شأنه وهيبته التى تهابها الاسود فى عرائنها والسيوف فى قربها ، وهذه المكانة والهيبة جعلت اهل الشرك يذعنون ويستسلمون صاغرين . وامير المؤمنين بالاضافة الى هذا حالفه الظفر فى فتوحاته ، من بين ذلك انه اجلى البرتغال عن ثغر البريجة وهدمها وامر بتسميتها بـ « المهدومة » ثم عمرها بسكان دكالة المجاورين لها :

امام له فى باذخ العز رتبة
تقاصر عنها الوهم والوصف والحصر
تسامى على سامي السماك مكانها
وصار الى عليائها يخضع الدهر
وما دلها شم الشوامخ هيبة
وامسى يراها فوق هامته البدر
تذل لها الآساد فى اجماتها
وترتاع فى اغمادها القضب البتر
تزلزل اهل الشرك منها واذعنوا
وعم على ءافاق اجناسهم قهر
وصاروا عبيدا من مهابه بأسها
ولم ينجهم فى الارض بر ولا بحر
يؤدون بالاذلال والهون جزية
يقون بها الانفاس فهي لهم عمر
ومن لم يرم اعطاءها متكبرا
يحيق به فى الحين من بأسه مكر

(4) وهو حميري اندلسي مالقي فاسي كان سفيرا لمولاي محمد بن عبد الله .

كما حاق «بالمهدومة» الخير جهرة
وحل بها من سوء افعالها خسر
تصدى لها فخر الملوك بغزوة
تزعزع منها الجو والبر والبحر
وصب عليها من بوارق بطشه
صواعق حتف لا يطاق لها اسر –
فافسدها قهرا وخرب دورها
وشرد اهل الكفر عنها لهم ذعر
ومن ذا يلاقي صولة هاشمية
اذا انتهضت للامر يسبقها النصر
فيا لك من عز تكامل سعده
ويا لك من فتح به سمح الدهر
تقاصر عن ادراكه شاو سابق
وحاول ان يلقاه فانعكس الامر
فاخره الرحمن للعادل الرضى
ليعظم في الاعمال منه له الاجر
بك اختتم الاحسان والعدل والندا
كما ختم الاشفاع في فضلها الوتر

ولا ينسى الشاعر ان يذكرنا بان تفوق الملك على الناس في السماحة والمجد ليس امرا عجبا فهو سليل المصطفى عليه الصلاة والسلام ، وعنه ورث ارفع السجايا ، اذا اصبح حصنا حصينا للدعوة الاسلامية الخالدة وحاميا بيضتها ، وموردا خيرا لمن انتجع كرمه وعطفه ، فما من كريم اصيل في الجود يحاكيه او يقاربه ، والايام بعد ان كانت قد خرفت وشابت ، به اصبحت عروسا مشرقة بهية يقدر الناس قدرها ، ومن اعمال امير المؤمنين انه شجع على العلم فامست رياضه عبقة الشذا تصدح في غصون ادواحها الشحارير ، كما انه مهد للآداب السبل ، وبذل مجهوده لنشرها ، واعلاء مكانتها حتى غدا اهلها مكرمين معززين ينعمون بالحياة اللينة الطيبة :

وكيف تدانيك الملوك سماحة
وعزا وفخرا او يكون لها خطر
ولم (5) لا تفوق الناس مجدا وسؤددا
وتعزو الى اوصافك الانجم الزهر

وانت سليل المصطفى سيد الورى
ومن نداه الجم يغترف البحر
ورثت نداه والسجايا وعدله
وسيرته في الخلق فاكتمل الفخر
فاصبحت للاسلام طود حماية
وغيثا لاهل الارض ان نالهم فقر
تود البحور الزاخرات لو انها
يكون لها من جود راحتك العشر
تناسى الرشيد والامين وصنوه
وجعفر والمهدي والواثق الصدر
نسخت حديث القوم في الجود والندى
فاصبح وهو اليوم ليس له ذكر
اتتنا بك الايام عند مشيبها
فعادت عروسا بالبهاء لها قدر
وعادت رياض العلم عابقة الشذا
تغرد في افنان ادواحها الطير
وشدت ذرى الآداب فاعتز اهله (6)
وصار لهم في كل شاسعة فخر

وهكذا ينهي قصيدته الرائية بالثناء عليه والفخر بشعره الذي جنده لابراز ما ينطوي عليه نفس امير المؤمنين من محاسن :

فخذها من العبد المحب قلادة
تناسق من غالي المديح بها در
يؤد جرير والفرزدق حقها
وتخجل من الفاظها الانجم الزهر
تطرز عذب النظم منها بمجدكم
ونادى جهارا هكذا ينظم الشعر
فقابل ثناها بالقبول فانه
عرائس مدح والقبول لها مهر
وجزمي كل الجزم انك فاعل
واني بها لا شك يفضحني البخر
وان قصرت في حضر مجدك انها
ستنشد ما قد قاله العالم الحبر :
اذا نحن اثنينا عليك بمدحة
فهيهات يحصى الرمل او يحصر القطر
ولكننا ناتي بما نستطيعه
ومن بذل المجهود حق له العذر

---

(5) لم تقرا بالسكون ليتزن البيت .
(6) الضمير في اهل يرجع الى الآداب وكان من اللائق ان يكون الضمير مؤنثا والوزن لا يختل ابدا

ويختم الشاعر القصيدة بالدعاء له قائلا :

ادام لنا الرحمن ملكك عزة
وفخرا الى الاسلام ما بعده فخر
وخلد رب العرش امرك فى الورى
به تسعد الدنيا ويبتهج الدهر
ودمت قرير العين للدين والهدى
ودام مدى الايام يخدمك النصر

وللغزال قصائد مدحية اخرى كقوله :

رحيب البذل بادي العدل مسدي
جزيل الفضل عن كرم وجود
فضائله العزيزة ليس (7) تحصى
ومن يحصي الجواهر بالعقود

وكقولـه :

يحمي دمار المسلمين بعدلـه
ويسيف حتى كف كف المعتـدي
دامت صنائعه الجميلة فى الورى
امد المدى امدادها لم ينفد

ومهما يكن من حال فقد استطاع شعر الغزال ان يواكب حياة السلطان المولى محمد ويسجل ما زخرت به من اعمال ، وما كان له من بطولة فى شتى الميادين السياسية والعلمية والخلقية .

ونلتقي بعد الغزال بشاعر ءاخر هو ابو العباس احمد بن الرضى بن عثمان المكناسي (8) ليعزف على الوتر الرنان اغنية التقدير مفتتحا بالطريقة الغزلية مخالفا فى ذلك الغزال الذى استهل قصيدته بالحديث عن الطبيعة، يقول وقد اسكره حب الممدوح، واستبد به الشوق ، ثم انعطف متخلصا الى الحديث عن الملك المؤيد :

غرام لا يحيط به بيان
وشوق ليس يشرحه لسان
وقلب لا يزايله اضطراب
عظيم كيف يمسكه العنان

الى ان يقول واصفا امير المؤمنين بما حواه من مجد وعُلو ، وما فى طاعته من رشد وهداية ، وسعادة وصفاء ، وكيف لا والشمس فى افقها تعنو له ، وتقبل موطيء قدميه وقت اشراقها وغروبها :

ولكن لو لناظرهم تبدى
سنا الملك المؤيد ما استكانوا
بطاعته مضوا لما راوها
سبيلا فيه رشدهم استبانوا
وقبلهم رأينا الشمس تعنو
له وبذا لعمرك ما تهان
تقبل اخمصيه لدا شروق
وان غربت كما شهد العيان

ويختم قصيدته بقوله وقد ابدع ايما ابداع :

ولو اهل الصليب راوه يوما
على قدر بدين هواه دانوا

وهذا الشاعر ابو العباس احمد المعروف بابن الونان (9) يضع ارجوزة على روي القاف انشدها بين يدي المولى محمد بن عبد الله بعد ان اغتنم فرصة خروجه فى موكبه فارتقى نشزا من الارض ورفع صوته قائلا :

يا سيدي سبط النبي
ابو الشمقمق ابي (10)

---

(7) حذفت تاء التأنيث لضرورة الوزن .
(8) عالم مشارك بليغ ناثر محاضر ، استكتبه مولاي محمد بن عبد الله ، وهو من العلماء الذين نقلهم السلطان الى مراكش للتدريس فى مساجدها ، من شيوخه ابو حفص الفاسي والشيخ التاودي .
(9) هو تواتي الاصل ، فاسي الدار ، شاعر فحل ذو فكر وقاد كان والده من المجالسين لمولاي محمد ابن عبد الله ، وكان اديبا ذا ملح ونوادر لقبه السلطان ابا الشمقمق تشبيها بالشاعر الكوفي أبي الشمقمق ، ومن شيوخ ابن الونان محمد بن قاسم جسوس وعمر الفاسي .
(10) انظر زهر الافنان من حديقة ابن الونان ص 325 ج 1 ط فاس للناصري ، ومشاهير رجال المغرب حلقة 15 ص 9 للاستاذ كنون ـ ط تطوان

عند ذلك عرفه واثابه عليها فعلت مكانته لديه ، وارجوزته هذه استهلها بالنسيب فذكر فيها الاحبة والابل ، وضمنها الحماسة والفخر ، والحكم والامثال ، ثم تخلص لمدح الملك مشيرا الى الكنية التى اطلقها على ابيه – واليها نسبت الارجوزة فاشتهرت بالشمقمقية – ثم مضى يعدد ما تتوفر عليه شخصية امير المؤمنين من مزايا اخلاقية ، كجوده الفياض الذى تغار منه سيول المطر ، وحلمه وعلمه الذى بز فيهما هارون الرشيد ، ثم عاد مرة اخرى ليؤكد ان جود امير المؤمنين فاق من اشتهر بالكرم كحاتم وغيره ، بل انه تحلى بكل صفات الكرم ، لذلك شملت عطاياه الخلق قاطبة ، ولا شك ان ابن الونان نظر الى بيت الاخطل عندما قال مادحا عبد الملك بن مروان :

بنو امية نعماك مجللة
تمت فلا منة فيها ولا كدر

اذن فامير المؤمنين قد جمع من الفضائل ما لم يجتمع لدى الآخرين من العلماء والملوك :

وان اردت ان تكون شاعرا
فحلا فكن مثل ابي الشمقمق
ما خلت له فى العصر من مثل
غير ابي فى مغرب او مشرق –
لذاك كناه به سيدنا السـ
ـلطان عز الدين تاج المفرق
«محمد» سبط الرسول خير من
ساد بحسن خلقه والخلق
اعني أمير المؤمنين بن امي
ـر المؤمنين بن الامير المتقي
خير ملوك الغرب من أسرته
فى وقته على العموم المطلق
له محيا ضاء فى اوج الدجا
سناه مثل القمر المتسق
وراحة تغار من سيولها
سيول ودق وركام مطبق
ودوحة المجد التى اغصانها
بها الارامل ذوو تعلق
فاق الرشيد وابنه فى حلمه
وعلمه ورأيه الموفق
وساد كعبا وابن جدعان وطا
هرا وحاتما ببذل الورق

ولم يدع معنى لمعن فى الندى
ولم يكن كمثله فى الخلق

وامير المؤمنين منذ ان كان فى نعومة اظفاره، وشنشنته السماح والرأفة ولين الجانب وشب فى حضن الخلافة رافلا ، لذا بايعه الناس جميعا فلم يتخلف منهم احد ، وهو عندما اعتلى عرش اسلافه اقام ميزان الحق فغمر العدل ربوع المملكة كما يغمر ضوء الشمس السهول والنجود ، كما انه شيد للدين قواعده ، ومد اروقته ، وحاز رضى رعيته بتقواه وصلاحه .

وامير المؤمنين بلغ فى ملكه شأوا قصر الملوك الآخرون عن اللحاق به بما حث عليه من المكارم واحيا من السنن ، من اجل هذه الاعمال العملاقة اطمأن اليه السعد فرحا مستبشرا ، وصاحبه اليمن جذلا راقصا .

وفى امير المؤمنين يطيب المدح ، ويستعذب الحديث ، ويلذ التنويه ، ولولاه ما اهتزت مشاعره للقول ، ولا تفتحت نفسه للتعبير ، ولا تفتقت قريحته بالقريض . ان امير المؤمنين هو الباعث الحقيقي لرصف هذه الكلمات المعبرة عن الاعجاب الداخلي والتقدير المتناهي ، هذا الاعجاب والتقدير حملتهما هذه القوافي فى طياتها منسابين رقراقين :

مذ كان طفلا والسماح دابه
وغير ماخذ الثنا لم يعشق
نشا فى حجر الخلافة ومذ
شب فتى بغيرها لم يعلق
فبايعته الناس طرا دفعة
لم يكن فيها احد بالاسبق
واعطيت قوس الفلا من قد برا
اعوادها رعاية للاليق
فصار فيء العدل فى زمانه
منتشرا مثل انتشار الشرق
وشاد ركن الدين بالسيف وقد
حاز بتقواه رضى الموفق
وقد رقى فى ملكه معارجا
لم يك غيره اليها يرتقى
ورد ارواح المكارم الى
اجسادها بعد ذهاب الرمق
والسعد قد القى عصا تسياره
بقصره وخصه بمعشق

يا ملكا الويـة النصـر علـى
نظيـره بقـربنـا لم تخـفـق
طاب المديح فيكـم وازدان لـي
فالفكر في بحر الثنـا ذو عـرق
لـولاك كنـت للقريـض تاركـا
لمـدم البـاعث والمشـوق

ولما شق جماعة من اهل الريف عصا الطاعة ، واوقع بهم المولى محمد بن عبد الله تحركت عاطفة ابن الونان فنظم قصيدة ينوه فيها بما قام به امير المؤمنين من الضرب على ايدي الخائنين ، ويعتبر اولئك بعملهم ذاك متنكرين للامانة والشريعة ، غالين الطريق السـوي ، الامـر الذى دفـع الامام الى ان سلط عليهم صواعقه التى طهرت منهم البلاد :

سعد الذى آوى لظلـك طائعـا
وسعى لخدمتك السعيدة وابتدر
لم يشـق الا خائـن متمـرد
نبذ الامانة والشريعة قد ختر
كبغاة اهل الريف لا قـرت بهـم
عين ولا اسقي بلادهـم المطـر
شقت عصا الاسلام منهم فرقـة
سلك الغرور برايها نهج الفـرد
ضلوا عن النهج السوي ببغيهـم
فطابهم سيف الامام وما انتمـر
القى عليهم من صواعـق نبلـه
ما كاد يمحو العين منهم والاثـر
ظنوا صياصيهم لهـم وزنـا واذ
خابت ظنونهـم تنـادوا لا وزر
طهرت بقتلهم البلاد مـن الاذى
ولكم بهم قد كان فيها من قذر

ويقول ابن الونان على لسان الباب المقابل لقبة المولى ادريس بفاس والمحـاذي لسوق «المجادليـيـن» والذى بناه السلطان — وهو منقوش عليه — ذاكـرا هذا العمل الخير :

بديـع محاسنـي زان العيونـا
وحسن شمائلي سحر الجفونـا
وموطني السعيد يفـوح عطـرا
بـذكـر الالـه رب العالميـنـا
ومجدي ثابـت لا ريـب فيـه
بقطب المغرب كهف العابدينـا
وردت مجـادة لمـا كسانـي
وطرزنـي اميـر المؤمنيـنـا
محمـد الامـام اخـو المزايـا
وباني المجد بنيانـا مكينـا
اجاد امينه والصفـار اصنعـى
واحسـن اذ تخيـره امينـا
وتاريخـي بشعبـان جلـي
يـدوم بـه هنـاء المسلمينـا

تلك كانت جولتنا مع شعراء المولى محمـد بن عبد الله ، ارجو ان يكون فيها غناء واي غناء ، لابراز الاطار التفسيري للجيشان الوجداني الذى احتضنته الاعمال الشعرية فى شخصية المولى محمد بن عبد الله .

واحب ان اذكر ان ما رصدناه من نماذج شعرية ليس هو كل ما قيل فى هذه الشخصية ، بل هنـاك نصوص اخرى ضربنا صفحا عن ذكرهـا لضيـق المجال ، واميل الى الاعتقاد بأن مثل هذه الشخصية لا بد انها شغلت شعراء العصر — من عرفناهم ومن لم نعرف — فرسموا رسما بيانيا ابعادها السياسيـة والعامية والخلقية ، معبرين عن ذلـك عن قيمهـم التقديرية نحوها .

تطوان — محمد المنتصر الريسوني

أبو القاسم الزياني

مؤرخ الدولة العلوية في كتاب: "الترجمانة الكبرى"

للأستاذ محمد بن عبد العزيز الدباغ

من اهم المصادر التى تعين على تتبع الحضارة المغربية كتب الرحلات التى كان يعتني بها المغاربة كثيرا فتمثل اتجاهاتهم الثقافية وآراءهم العامة فى مختلف المشاكل وتدل على ما لهم من مشاركة عملية فى تسجيل كثير من الملاحظات حول التاريخ العالمي وحول التطور الفكري والعقائدي فى المغرب وغيره .

وقد سبق لي ان قدمت بعض الابحاث عن رحلات مغربية سياسية وشخصية ولكني الآن اردت ان انظر فى كتاب نشرته لجنة احياء التراث القومي وحققه وعلق عليه الاستاذ عبد الكريم الفلالي وصدره ببحث قيم عن ابي القاسم الزياني فى ظل الملك الامام سيدي محمد بن عبد الله وعن عصره وقيمته التاريخية واكثر فيه من الفهارس التى تعين الباحثين على الاستفادة منه فمن فهرس للاعلام والمدن الى فهرس للكتب الواردة فيه الى جدول يتعلق بالموافقات بين التاريخ الميلادي والهجري الى غير ذلك من التعاليق المفيدة (1)

هذا الكتاب هو الترجمانة الكبرى فى اخبار المعمور برا وبحرا لابي القاسم ابن احمد الزياني المولود بفاس سنة 1147 هـ والمتوفى سنة 1249 هـ وقد جمع فيه بين رحلات ثلاث احداها رحلة سفارية والاخريات رحلتان شخصيتان .

اما الرحلة الاولى فكانت فى ايام السلطان مولاي عبد الله (2) سنة 1169 هـ حيث توجه فيها الى حج بيت الله الحرام مع والده وقضى فيها ما ينيف على سنتين قبل رجوعه الى بلاده .

ولم يكن لهذه الرحلة اثر فيما سجله فى كتابه من حيث دراسة المسالك والممالك ولا من حيث الاهتمامات العلمية العامة .

ولم نستفد منها الا امرين :

الامر الاول كون ابي القاسم اطلع قبل سفره على اوراق لجده علي بن ابراهيم تتعلق بتاريخ الزيانيين فاحدثت فى نفسه فضولا علميا دفعه الى البحث التاريخي والى العناية بالتراجم والسير .

---

(1) لقد بذل السيد الفلالي فى تصحيح هذا الكتاب مجهودا يشكر عليه ولكنه رغم ذلك وقع فى اخطاء كثيرة نبه عن بعضها الاستاذ عبد السلام ابن سودة فى نقده المنشور بمجلة البحث العلمي العدد الثالث عشر من السنة الخامسة الممثل للاشهر الثلاثة الاولى من سنة 1968 م .

(2) هو المولى عبد الله بن اسماعيل ولد فى منتصف ذي الحجة بتافيلالت عام 1121 هـ وبويع بفاس عام 1141 هـ وتوفي فى صفر سنة 1171 هـ .

الامر الثاني ابرز تطلعه الى المعرفة وعنايته بالتثقيف الذاتي ولذلك نراه فى مصر يعمل على تعلم علم الرمل وعلم السيميا ليضيف ذلك الى ثقافته العامة وليستغل الظروف التى جمعته بالمصري العالم بهذين المادتين وقال عنه : « وافادني فى امد قريب واوقفني على ما فى علمه من خواص المعادن وما ينشأ عنها من الاسرار والعجائب التى يبلغ بها اعلى المراتب واطلعني على ما يلحق بها من الحيل التى يستعملها المشعوذون ومن بحرها يستمدون فعدت بذلك مسرورا (3)

ولم يهمل الزياني فى مدخل رحلته الحديث عن مصدر ثقافته الدينية واللغوية فقد صورها بدقة كعادته فى الوصف .

وهنا تحدث عن اساتذته الذين تلقى عنهم دروسه وذكر منهم سيدي الطيب (4) القادري وسيدي عبد القادر بوخريص والشيخ التاودي ابن سودة وسيدي عمر الفاسي الذى كان يحضر مجلسه عدد من مشاهير طلبة اهل فاس كالسيد عبد القادر ابن شقرون وسيدي يحيى الشفشاوني والسيدمحمد سكيرج وغيرهم من الذين كان لهم شأن فيما بعد .

وحينما كان راجعا الى المغرب سنة 1171 هـ بلغه وهو بمصر خبر وفاة المولى عبد الله وبيعة ابنه محمد .

ان بيعة المولى محمد بن عبد الله (5) حدث عظيم يستحق ان يشاهد عن قرب لذلك اسرع الزياني فى عودته ولما بلغ الى مدينة فاس علم ان عددا من اصدقائه ومؤنسيه التحقوا بخدمة السلطان الجديد ونعموا بالولاء له والسعي فى رضاه فتشوف الى الالتحاق بهم وراى انه ليس بعاجز عن ذلك وقد اصبح ذا اطلاع تاريخي وجغرافي وذا خبرة بشؤون الدين وشؤون الدنيا فى آن واحد .

واي شيء يمنعه من ان يصبح قريبا من المولى محمد الملك الصالح الذى اشتهر بفضله وعلمه ، وحزمه وتطلعه الى نشر السلام بربوع المغرب وتحقيق الاخوة الاسلامية بين افراده .

ان المولى محمد اصبح يهتم الاهتمام الاكبر بشأن الدين واحياء تراثه ونشر ثقافته واذاعة الحديث النبوي ودراسته . ودفعه التقدير الى جلب عدد كبير من علماء الدين الى عاصمته مراكش، جلبهم اليها من مدينة فاس ومن مكناس ليعمروا مساجد الله بالعلم وليرشدوا الناس الى ما تحتوي عليه الاحاديث النبوية من احكام وحكم والى ما تتضمنه الآيات القرآنية من نصوص تشريعية ودروس اخلاقية والى ما تشتمل عليه كتب الفقه من فوائد للبلاد والعباد . ولقد ذكر الزياني عددا من هؤلاء العلماء الذين قاموا بهذه المهمة الشريفة كالفقيه مولاي عبد الله المنجرة والسيد احمد بن عثمان والسيد محمد ابن الشاهد .

واذا كان المولى محمد يحتاج الى هؤلاء لتقويم الاخلاق ونشر الفضيلة وتدريس الكتاب والسنة فانه ايضا يحتاج الى مؤرخين وجغرافيين وعارفين بشؤون الولاية ومرونة السياسة فلماذا لا يكون الزياني من هؤلاء ؟

تطلعت نفسه الى التقرب من خدمة السلطان ولكنه كان يلقى معارضة من والده الذى كان يخشى على ابنه من هذا التقرب .

ان خدمة السلطان صعبة وغالبا ما تؤدي الى اهلاك كثير من الناس اذا لم يحسنوا التصرف او اذا اساؤوا التدبير او اذا كثرت بهم الوشايات . كذلك كان يفكر والده ولهذا كان يخشى عليه ان يصبح يوما ما فى قبضة القدر فيفقده وهو العزيز لديه الذى ليس له سواه .

ولكن ابا القاسم شاب فى مقتبل العمر يريد المغامرات ويحاول ان يشق طريقه الى المجد وليس امامه الا ان يتقرب الى الملك الجديد بما له من دراية ومعرفة . انه قد يصبح كاتبا شهيرا او وزيرا مؤازرا

---

(3) الترجمانة الكبرى صفحة 59

(4) يبدو ان هذا خطأ من الناسخ اذ المراد محمد بن الطيب القادري صاحب نشر المثاني .

(5) ولد المولى محمد بمكناس سنة 1134 هـ وبويع بفاس اثر الفراغ من دفن والده سنة 1171 هـ وهو يومئذ بمراكش وتوفي عام 1204 هـ

او سفيرا ماهرا .. ولكن ماذا العمل ؟ الوالد يمنعه والنفس تدفعه وان النفس لامارة بالسوء . وسجل لنا الزياني هذا الموقف تسجيلا رقيقا باسلوب تعمد فيه السجع وتكلف فيه التوازن اللفظي ولو ادى الى تغيير بعض الكلمات اللغوية وتحريفها عن اصولها . قال بعد حديثه عن تشوفه الى الخدمة السلطانية (6) : « فلما بلغ ذلك والدي رحمه الله نهاني عنها وشرح لي حالها ومآلها وقال لي يا بني اتق الله واشتغل بما يعنيك ولا تقدم على ما يضنيك فمالي سواك ولا استريح حتى اراك وبك اتعلل وازيل وحشتي ويحصل انسي فساعدني الى ان تجعلني في رمسي فقلت ان رفقائي ومن كنت آنس بهم ذهبوا وحصلوا على ما طلبوا وبلغوا الغاية في العز والجاه وعلى من اقيم واترجاه ؟ واية معصية في هذا المجال ؟ ولابد لي من ان اقتدي بمن قال :

لباب الملوك فكن لازما
ولا تخش ممن بغى او حسد
فان الذئاب تهاب بها
تمرغ يوما بدار الاسد (7)

فقال لي رحمه الله ما لي اسعى في نعيمك وتسعى في بؤسي واحطب في حبلك وتقصد عكوسي (8) وانشدني قول ابي علي اليوسي :

لا تقربن مالكا ولا تلوذ به
ولو تنل عنده عزا وتمكينا (9)
يستخدمونك في لذات انفسهم
فيذهب العمر لا دنيا ولا دينا

ولم تمر الا ايام حتى التحق بالخدمة وشارك فيها بمختلف الاعمال فكان يقرب حينا ويبعد حينا وارتقت وظيفته حتى صار متقلدا لديوان الكتابة واصبح قريبا من مجالس السلطان فظهرت نجابته وتجلى نبوغه فاختاره الملك ليكون سفيرا له عند السلطان العثماني عبد الحميد باسطنبول (10) .

وعلاقة المولى محمد بالعثمانيين كانت ودية وكان يعينهم بالمال والعتاد للقيام بالجهاد ويسعى في تحرير كثير من اسراهم الواقعين في قبضة بعض الدول الاوربية .

وقد ذاع بسبب ذلك صيته وانتشر بين المسلمين عدله وحزمه واصبح ملتجا المظلومين ومعتصم الخائفين واستنجد به آنذاك كثير من سكان الجزائر لما يلقون من عيث ولاتهم وظلم حكامهم ولكن ما هو الموقف الذي يجب ان يتخذه مع هؤلاء وهم في حكمهم تابعون للنظام العثماني ؟

انه راى ان اسلم الطرق واقربها الى حرمة العلاقات الودية التي كانت بينه وبين السلطان العثماني ان يرسل وفدا الى اسطنبول يبين موقف سلطان المغرب من هذا الاضطراب الذي يحدثه ولاة الجزائر ومن هذا الجور الذي اشتهروا به وان يرسل مع هذا الوفد هدية مالية كعادته يستعين بها العثمانيون على الجهاد وفك الاسرى . وتركب الوفد فعلا من القائد علال الدراوي ومن القائد قدور البرنوصي ومن الكاتب محمد الحافي .

هؤلاء الثلاثة كان الخزي ينتظرهم فقد خانوا الامانة واختلسوا من مال الجهاد والفداء قدرا معلوما ادى بهم حين افتضاح امرهم الى ان يفروا الى الشرق هاربين قبل ان يعودوا الى المغرب فيلاقوا الجزاء الاوفى بما قدمت ايديهم فاضطر المولى محمد ان يرسل رسالة اخرى مع السيد عبد الكريم العوني التطواني وجعل لهجتها اقوى من الاولى وقال فيها للملك العثماني حين حديثه عن ولاة الجزائر : « ان لم ترفع ضررهم عن المسلمين فدعني واياهم (11) »

(6) الترجمانة الكبرى صفحة 61
(7) كذا يوجد هذا البيت بالاصل ولكن المصحح بدل فيه كلمة بها في الشطر الاول باذا وقال قد ابدلناها باذا ليكون المعنى اسلم . وأنا ارى ان المعنى لا يسلم الا اذا بقي البيت على اصله اذ المراد ان الذئاب وان كانت تهاب بها فهي قد تتمرغ بباب الاسد ومعنى ذلك ان الشخص وان كان ذا جاه فلا يضره ان يكون خاضعا لسطوة السلطان وهذا هو الموافق لراي الزياني فهو وان كان يعترف بفضله وجاهه فلا يضيره ان يخضع للملك في خدمته .
(8) يريد معاكستي وبدل الكلمة عن وضعها اللغوي من اجل السجع
(9) قال المصحح قد اوردنا هذا البيت رغم ما فيه من العلل النحوية .
(10) هو عبد الحميد الاول تولى الحكم بعد اخيه مصطفى الثالث سنة 1188 هـ وتوفي سنة 1204 هـ .
(11) الترجمانة الكبرى صفحة 84 .

ومن هنا نلاحظ ان المولى محمد كان يملك القدرة على تأديب هؤلاء الذين يعبثون بالحقوق ويجورون فى الاحكام ولكنه كان يريد الموافقة من العثمانيين .

ولما تكرر الطلب ارسل ملك العثمانيين الى ملك المغرب كتابا يوصيه فيه بهؤلاء ويلتمس منه ان يعفو عنهم لانهم يعيشون فى ارض جهاد .

ولم يكن المولى محمد ينتظر جوابا فاترا كهذا الجواب بل كان يظن انه سيسمح له بالنفوذ الى تلك الاراضي لينشر فيها العدل كما نشره فى ارضه .

وكان السفير التركي اسماعيل افندي الذى حمل الرسالة يعلم ما يتطلع اليه المغاربة فخدعهم ليحسنوا ضيافته وقال للكاتب العوني اني احمل فى رسالتي امرا بتولية السلطان محمد بن عبد الله امر هؤلاء . وابلغ العوني ذلك الى الملك قبل ان تفض الرسالة فانشرح بذلك صدره وجمع عددا من موظفيه ليستمعوا الى ما تضمنته فاذا بها — كما ذكرنا من قبل — لا تدعو الا الى حسن المجاورة والى المجاوزة عن هؤلاء .

وهنا احس الملك المولى محمد بفشل الوفدين السابقين وغضب على السفير التركي الذي اختلق الاكاذيب وزيف الاقوال فاذاع ما ليس بموجود . واراد ان يخبر العثمانيين بذلك فأرسل اليهم كاتبه محمد بن عثمان ليحتج على موقف السفير الذى لم يكن لبقا. ثم راى نفسه مضطرا الى ان يوجه الى اسطنبول شخصا ءاخر يكون ذا حزم وقوة وخبرة ليقوم بتجديد الرغبة المولوية الملحة فى الحد من سطوة الولاة الجزائريين وليعمل على شرح الواقع المغربي مع مجاوريه شرحا وافيا وليظهر ان الرسالة التى ارسلت لم تكن كافية لسد الحاجيات ولحل المشاكل. ووقع الاختيار للقيام بهذه المهمة على ابي القاسم الزياني الذى دون سفارته هاته فى رحلته الثانية . وهي احدى الرحلات التى تضمنها كتابه الترجمانة الكبرى .

وهي رحلة سفارية تدخل فى اطار الرحلات الدبلوماسية ، ولقد ذكرنا من قبل الاسباب الدافعة اليها وان كنا نلاحظ ان هاته الاسباب لم تفصح الدبلوماسية المغربية ءانذاك عن اكثرها ولكنها تفهم من سياق الاحداث فقد صدر امر مولوي يمنع السفير التركي من الدخول الى الجزائر وتونس رغم كونه يحمل الى ولاتهما رسائل من السلطان التركي ولا يمكن ان يفسر هذا الحظر الا بالاحتجاج على ما تتضمنه هذه الرسائل من الاوامر التافهة التى لا تنسجم مع رغبات المغرب الذى يأمل ان تعاد الى السلطان العثماني عساه ان يعدل لهجتها قبل ان يطلع عليها الولاة الجزائريون والتونسيون .

واذا لم يفصح الزياني عن هذه الاسباب التى ذكرناها فانه كان من الضروري ان يبرر رحلته بأسباب اخرى تكون معقولة ايضا .

وهذه الاسباب هي :

اولا — رغبة الملك فى القاء القبض على الخونة الذين اختلسوا من مال الدولة الموجه الى الجهاد .

ثانيا — رغبته فى اشعار العثمانيين بعدم صلاحية امثال اسماعيل افندي للسفارة لان السفير يجب عليه ان يكون امينا صدوقا مرنا لا يتسرع فى الاقوال ولا يختلق الاكاذيب .

ثالثا — الرغبة فى شراء الكتب الدينية وقد خص له السلطان بالذكر الكتب الآتية :

1 — مسند ابي حنيفة النعمان
2 — مسند الشافعي
3 — مسند الامام احمد
4 — الطريقة الاحمدية المختصرة من الاحياء.

وبالفعل فقد اشترى الزياني هذه الكتب وحملها معه عند عودته معتزا بها بل حمل معه ايضا بعض الكتب الاخرى التى اهداها اليه الوزير الاعظم فى المملكة العثمانية وهذه الكتب هي :

اولا — اختصار المذاهب الاربعة (12)

ثانيا — الدرر وهو كتاب متداول عندهم فى الفقه الحنفي كخليل عند المالكية (13)

---

(12) عند الطبع سمي هذا الكتاب باختصار المواهب الاربع بالواو لا بالذال المعجمة وهذا الخطأ المطبعي تكرر ايضا فى فهرست الكتب .

(13) المراد به درر البحار فى الفروع للشيخ شمس الدين ابي عبد الله محمد بن يوسف بن الياس القونوي الدمشقي الحنفي المتوفى سنة 788 هـ وهو متن مشهور مختصر (عن كشف الظنون الجزء الاول صفحة 746) وقد نسي المصحح وضعه فى فهرست الكتب

ثالثا — الفرر على الدرر وهو شرح لهذا الكتاب بمثابة الزرقاني عند المالكيين (14)

ومن هنا نرى ان اهتمام المولى محمد بن عبد الله بشؤون الدولة لم يلهه عن الدين لانه يراهما متكاملين متصلا بعضهما ببعض فليس هناك في انظمتنا الاسلامية فصل بينهما .

ومن المعلوم ان المولى محمد بن عبد الله عزف عن الثقافة الادبية بعد توليته امر المسلمين فهو قبل التولية كان يهتم بالكتب الادبية والتاريخية وكان مولعا بكتاب الاغاني لابي الفرج الاصبهاني يكاد يحفظ اشعاره ويهيم في غزله ويعتني برواياته ولكنه حينما تحمل الامانة علم ان الكتب الدينية احق بالعناية لانها تتصل بنظام الدولة وبالسلوك الاخلاقي الهادف الى الحق والخير وذلك ما يحتاج اليه الملك العادل بل اصبح يعتني بهذه الكتب في تربية ابنائه وتربية ابناء رعيته ولذلك يذكر المؤرخون انه حينما سمع ان ابنه عليا خليفته بفاس يعتني بكتب الادب نهاه عن ذلك .

وعنايته بالكتب الدينية هي التي جعلته يطلب من الزياني شراء عدد منها حين قيامه برحلته .

ولما كان الزياني متوجها لسفارته هاته ركب طريق البحر ليمكن له تنفيذ الامر السلطاني بمنع السفير التركي من الدخول الى بلاد الجزائر وتونس والزامه بالبقاء في بعض المراسي اذا اضطروا الى محاذاة هذه البلاد .

وخرج من مدينة الصويرة سنة 1200 هـ ولما بلغ الى مرسى مالقة تذكر مجد المسلمين بالاندلس وصار يسجل تاريخ هذه الارض التي كان يحكمها المسلمون والتي كان للمغاربة في فتحها اليد الطولى فذكر تاريخ فتحها وتحدث عن حروبها ومدنها وكان بذلك مؤرخا اكثر منه مدونا وعرج عن الجزائر فلم يدخل اليها تنفيذا لامر السلطان ولكنه حينما قرب من تونس تكسرت احدى سواري المركب فكان مضطرا الى اصلاحه بمدينة تونس وقضى بها نحوا من عشرة ايام رغم الامر المولوي السابق بعدم الدخول ولا شك انه رغم هذا الاضطرار كان حريصا على مراقبة السفير التركي وتتبع جميع تصرفاته . ومن ثم انتقل الى بلاد الترك التي اعجب بمفاتنها وعجائبها ومظاهر حضارتها فصار يدون مشاهداته ويسجل ملاحظاته القيمة التي لم تقف عند حد العمران بل توجهت الى الحديث عن الثقافة والصناعة والفنون .

وكان على ما يبدو قوي الشخصية غزير المعرفة يألف ويؤلف بسرعة ويقبل الناس على احاديثه المشوقة خصوصا فيما يتعلق بالدراسات التاريخية ولذلك يمكن ان نقول : « ان الزياني كان يعتبر مدة اقامته ببلاد الترك مصدرا حيا للتاريخ المغربي يمليه على المعجبين به فيدونونه ويسجلونه ويثقون فيما يمليه عليهم بل انه كان يهدف الى اذاعة التاريخ المغربي لتكملة مهمته السياسية والوطنية فهو كان معجبا بتاريخ العلويين الذين حققوا باعمالهم البطولية وحدة المغرب ونشروا العلم في مختلف بقاعه واحيوا الجهاد واعانوا عليه والفوا بين مختلف السكان وابطلوا العنصرية التي كادت تفرق بين المسلمين في هذه الديار ..

واعجابه كان عن صدق وايمان خصوصا بعد ان تولى عرش المغرب الملك المصلح مولاي محمد بن عبد الله .

ولم يكن الزياني يكتفي باملاء تاريخ المغرب بل كان حريصا كعادته على الاستفادة من تاريخ البلدان التي يزورها ولقد امتن عليه الوزير الاعظم بالاطلاع على كتاب « تاليف الروح » الذي الفه كمال الدين باشا في دولة آل عثمان وقدمه الى السلطان عبد الحميد قبل موته .

فلما رآه اعجب به وعمل على تلخيصه وحرص على البحث عن مؤلفه حتى اذا اجتمع به قدم اليه التلخيص ليشاهده وليحقق ما فيه وليجيز له

(14) المراد به غرر الافكار للشيخ شمس الدين محمد بن محمد بن محمود البخاري المتوفى قريب سنة 850 هـ . وقد ساعدني على الاطلاع على ترجمته الاستاذ المقتدر العالم الشريف سيدي ادريس بن الماحي الادريسي . (توجد ترجمته عند السخاوي بالضوء اللامع الجزء العاشر وفي كشف الظنون ج 1 صفحة 746 ووقع هناك خطأ في اسم الكتاب وفي معجم المؤلفين لكحالة ج 11 ص 299 .

الاخبار به وهذه نزاهة علمية لا نجدها الا عند المخلصين من العلماء . وسر المؤلف بذلك وبارك هذا العمل وقال فى الزياني بعد سماع التلخيص (15) : « وقد املاه علي فى مجالس ترجمة بعد اخرى ودولة اثر دولة جهرا فرايت انه به حري واحرى وعجبت من حسن ملكته وترتيبه ونباهته وتنقيحه وتهذيبه وغوصه (16) على ملتقطات دره وجمع غريبه وعلمت انه من فحول الرجال ومن اهل النباهة والكمال » ثم قال « وقد افادني بخبر مملكة المغرب القديمة والجديدة الدانية منها والبعيدة وحقق لي ما كان عندي من دول المغرب متروك (17) وازاح عنى الاوهام والشكوك فلله دره من قادم .. »

ولقد سجل لنا المؤرخ فى هذه الرحلة ملاحظة دقيقة عن مراتب العلماء وعن نظام التدريس ببلاد الترك وعن كيفية الالتحاق بسلك المدرسين عن طريق امتحان يسمونه التمييز لانهم يميزون بواسطته من هو كفء للقيام بهذه المهمة ومن هو غير كفء لها

ولما عاد الزياني من رحلته رحب به الملك المغربي وقدر مواقفه وقلده كثيرا من الوظائف التى يستحقها عن جدارة .

ولقد كان فى الحقيقة مخلصا للمولى محمد بن عبد الله اشد الاخلاص متفانيا فى حبه وتقديره ومؤازرا له عند الملمات معينا له ايام الشدائد فكان بجانبه ايام ثورة المولى اليزيد (18) حيث كان يدعو كثيرا من القبائل المغربية الى عدم الانسياق مع الفتن والاضطرابات ولكن شاءت الاقدار ان يمرض المولى محمد بن عبد الله وان يلتحق بالرفيق الاعلى قبل ان يتمكن من استمالة ابنه اليزيد وشاءت الاقدار ان يصبح هذا الابن ملكا على المغرب بعد موت والده .

ولما اصبح له الامر فكر فى الانتقام من الذين كانوا يفسدون عليه خطته ايام رغبته فى الحكم كالوزير ابي عبد الله محمد العربي قادوس (19) وكأبي قاسم الزياني الذى كان متوليا على سجلماسة حين التجاء المولى اليزيد بضريح مولاي عبد السلام بن مشيش .

وصار الزياني متنقلا بين سجون المغرب مدة ولاية اليزيد ولم ينقذه من ذلك الا اعتلاء المولى سليمان على عرش البلاد (20)

ان المولى سليمان كان يعترف بفضل الزياني ويعرف ما له من اياد بيضاء فى تأييد هاته الدولة وفى الدعوة لها فرشحه لبكون عاملا على وجدة وناحيتها فلما توجه لعمالته قامت ثورة القبائل هناك فلم يستطع ان يكبح جماحها او يقمع زحفها ففر هاربا الى الجزائر تاركا الولاية والعمل .

وهذا موقف لا ندري كيف نعلله ولا نعرف كيف توجهه وتبرره ، عامل سلطاني يفر من المعركة منهزما ويغادر وطنه ويظل بعيدا عن بلاده نحوا من خمس سنوات الى ان يستدعيه المولى سليمان ويكتب له عهد الامان (21).

عمل كهذا لا ادري كيف ابرره ؟ فما عهدي بالزياني جبانا ، وما عهدي به خائنا .

الغالب انه قد اصيب بارهاق عصبي افسد عليه مزاجه ونغص عليه سعادته وجعله يتذكر نهي والده عن الخدمة ويتصور ما جرت عليه مخالفته من نكبات فايكفر عن عصيان والده بالفرار من العمل والالتجاء الى الحرم الشريف عساه ان يجد فى عبادة الله ملجأ يغنيه عن متاعب الحياة ومصائبها .

---

(15) الترجمانة الكبرى صفحة 110
(16) وقع خطأ مطبعي فى الكتاب حيث كتبت هذه الكلمة على الشكل الآتي وعوضه
(17) قال المصحح : وقع خطأ نحوي لضرورة السجع »
(18) هو المولى اليزيد بن محمد بن عبد الله ولد بجبل العلم
(19) الاستقصاء للناصري طبعة دار الكتاب الجزء الثامن صفحة 72
(20) هو المولى سليمان بن محمد بن عبد الله ولد عام 1180 هـ وبويع له بفاس بالضريح الادريسي فى رجب عام 1206 هـ وتوفي فى ربيع الاول عام 1238 هـ .
(21) توجد الرسالة التى وجهها المولى سليمان للزياني يحضه فيها على الرجوع ويمنحه فيها عهد الامان بالترجمانة الكبرى صفحة 380 .

ومن فراره هذا تبدأ الرحلة الثالثة التى يختم بها الرحلات فى كتابه الترجمانة الكبرى

وفيها تحدث عن الجزائر وتاريخها وتـــداول دولها كما تحدث عن تونس والشام والعراق والحجاز ومصر . وقدم عرضا جغرافيا تحدث فيه عن الاقاليم السبعة بمدنها وجزرها وانهارها وآبارهـا وجبالهـا واحجارها .

وهو فى هذه الرحلة كان عالما جغرافيا ومؤرخا اعتمد على كثير من الكتب المشهورة فى المسالـك والممالك وعلى عدد من الرحلات التى سبق للمغاربة تدوينها وتسجيلها ولم يستثن منها الا رحلـة ابـن بطوطة التى زعم انها لم تكن صادقة (22) .

والقارىء لكتاب الزياني يجد به استطرادات كثيرة ولكنها مفيدة جدا لا تنبو عن مواضعها ولا تخرج عن اطارها .

ومن ذلك استطراده للحديث عن موقف العالم الفقيه سيدي محمد بن عبد الرحمن بن زكري (23) من بعض سكان مدينة فاس الذين كانوا يحتقـرون جماعة من المسلمين البلديين لا لشيء الا لكون اصلهم ليس بعربي او بربري وانما هو اصل يهـودي . ولا شك ان الفقيه ابن زكري كان يرى المشكلة من وجهتها الدينية والاجتماعية فالدين لا يفرق بين الاجناس اذ لا فضل لعربي على غيره الا بالتقوى .

والاسلام حين دعا الناس للايمان كانت دعوتـه عامة فأي معنى لان يحتقر بعض الافراد لا لشيء الا لكون اصلهم كان من بني اسرائيـل ؟ الم يشرح الله صدورهـم للايـمـان ؟ الم يهدهـم الى الصـراط المستقيم فكانت نهايتهم خيرا وسعادة ؟ .

وموقف ابن زكري هذا موقـف ديني مرغـوب فيه يزيل الضغائن ويؤلف بين المسلمين ولكن اعداءه ارادوا أن يحرفوا كلامه عن موضعه وأن يظهروه بصورة الشعوبي المتعصب الذي يلمز العرب ويفضل عنهـم غيرهم .

وبلغ خبر ابن زكري الى الزياني وهو فى سفره، فلما عاد الى المغرب اراد ان يتحقق من دعوته هاتـه فاذا به يجدها طاهرة مخلصة ، وزاد بذلـك يقينـا حينما قدم له الفقيه سيدي احمد بن عبد السـلام بناني الذى كان متهما ايضا بنفـس الآراء الحجـج الكافية على اخلاصهما وسلامة طويتهما .

ومن ذلك استطـراده للحـديث عن الحركـة الوهابية التى كان يدعو اليها محمد بن عبد الوهاب بالحجاز وعن رسالتـه التـي ارسلهـا الى علمـاء تونس (24) وعلماء المغرب وعن موقف ابي الفضـل حمدون بن الحاج من هذه الدعوة التى ناصرها ومدح رجالها بشعره ونثره ولكن الزياني ابدى عداوته لها وتصدى للهجوم على ابن الحاج بكلمات نابية وتعابير مجرحة ما كان اخلقه ان يتجنبها وان يبتعد عنها .

ولا ادري متى وقع التواصل بين المؤلف وبين ابن الحاج لاننا سنراه فى ءاخر الكتاب يتبادل معه الرسائل الودية ويستعير منه كتبه ويثني عليه بأحسن الالقاب وهل هذا التواصل كان نتيجة لتعديل بعض الآراء من قبل الزيانـي او لتعديلـها من قبـل ابـن حمدون .

الغالب ان هذا التعديل كان نتيجة لما شـاع من ان الدعوة الوهابية فى جوهرها سنية هادفة لتطهير الدين ولكن الـذى يفسدهـا هـو استغـلال بعـض الانتفاعيين لها فاذا شاع هذا الـراي امكـن ايجـاد التقارب بين المتخالفين فيكون المادح ناظرا للاهداف والقادح ناظرا للاستغلال .

ومن ذلك ذمه لبعض الطرق التى كانت منتشرة فى عهده وسلط لسانه الحاد على الفرقة التيجانيـة ونسب اليها كثيرا من المساوىء (25) .

---

(22) انظر نقد المؤلف لابن بطوطة بالترجمانة صفحة 581

(23) توفي رحمه الله فى يوم الاربعاء الثامن والعشـرين من صفر سنة 1144 هـ وقد تحدث المؤلف عـن هذه النقطة فى مكانين وذلك بصفحة 357 وبصفحة 425.

(24) فى صفحة 394 من الترجمانة توجد الرسالة القيمة التى ارسلها محمد بن عبد الوهـاب الى علماء تونس والمغرب .

(25) تحدث عن هذه الفرقة فى الصفحة 460

ومن ذلك اهتمامه بالدعوة السنية الاصلاحية التى قام بها المولى سليمان ضد المواسم وما يقع فيها من شطحات خارجة عن اطار الدين وقد كان الزياني متحمسا ضد الطوائف وضد المواسم مما يبرهن على انه كان على وفاق مع الخطة الرشيدة التى كان يهدف اليها المولى سليمان رحمه الله (26)

ولعله كان يرى ان خطة المولى سليمان اقل غلوا من خطة الوهابيين ولذلك كان يذم تلك ويبارك هاته .

ونحن حين قراءتنا لكتاب الترجمانة الكبرى باركنا خطة الزياني فى اتجاهه البحثي فى اغلب الاحيان ولكننا لم نكن نتصور كيف كان يقدم على قول الشعر وهو فاقد للمواهب الفنية التى هي شرط اساسي لكل من يميل الى هذا الفن الجميل .

فبضاعة الزياني فى الشعر كانت ضعيفة جدا وهو يعترف بذلك ولكن هذا الاعتراف لم يحل بينه وبين ان يرهق السامعين بشعره الفاقد لروح التأثير، المضطرب الاوزان الذى نجده بعيدا من شعر الادباء وشعر الفقهاء فى آن واحد .

وقد كان الفقيه ابو الفضل حمدون بن الحاج ايام تواصله مع الزياني يظهر له ضعف قريحته وانعدام الجمال فى شعره الوجداني ونظمه التعليمي باسلوب جميل لا يثير انفعال الزياني ولا يظهر حدته .

فلنستمع الى الفقيه الاديب ابن الحاج فى رسالة كتبها الى الزياني بعد ان اطلع على كتابه الترجمان المعرب وعلى منظومته المعروفة بالفية السلوك : « .. واما الفية السلوك فى حياة الملوك فقد قرات منها ما قرات واعجبني ما نظمت ونثرت ولا يعيبها ان تبدل كلمة باخرى . الجمال والكمال فذلك من تمام (27) والله لو وجدت فى دهري من على يشير بتبديل كلمة من منظومتي التي تأنقت فيها لكدت من السرور اطير فقلت عن رسالتك مجيبا وفى مدح هذا التاليف الفريب مصيبا .

هذي ابا قاسم عقودك انتظمت
وجوهر الحسن فيها غير منقسم (28)

الى ان يقول :

ما ضر سيفا تخلى عن حلى وله
قطع ولا الشمس تحت خندس الركم

وفى هذا البيت ايضا اشعار بأن الزياني كان لا يحسن طريقة التعبير رغم احسانه لمضمونه .

والحقيقة ان طراوة الادب يفقدها سواء فى شعره الوجداني او فى منظوماته التاريخية بل يكاد يفقدها احيانا فى التعبير النثري ايضا .

ولا يقتصر هذا الضعف على انشائه بل قد يبلغ الى ثقافته الادبية عامة فهو فى بعض الاستدلالات يخطيء حين نسبتها لذويها ومن ذلك مثلا نسبته مطلع قصيدة ابي تمام فى فتح عمورية الى المتنبي .

ورغم تتبع المصحح لبعض هذه السقطات فقد غفل عن بعضها ومن ذلك عدم انتباهه الى الاختلاف الزمني بين الحريري صاحب المقامات وابي العلاء المعري رغم كونه ترجم لهما معا فى حاشيته فقد قال الزياني : « ولولا ان الله تدارك اهل الاسلام بوجود هذا الامام (29) العادل الكامل لاكل القوي الضعيف ودعا الدين داعي التبديل والتحريف . فالحذر الحذر

---

(26) توجد فى كتاب الترجمانة الخطبة التى انشأها المولى سليمان والتى الزم الخطباء بالقائها على الناس يوم الجمعة يحضهم فيها على اجتناب طريق البدع وينكر عليهم الاجتماع فى المواسم بالانشاد والآلة والرقص ويهدد المخالفين بالعقاب وذلك بصفحة 466 .

(27) اي ان الكمال موجود من حيث المادة ولكن الجمال مفقود من حيث التعبير فلو اضيف الجمال الى الكمال لكان ذلك هو التمام . وهذا يدل على حسن ذوق ابن الحاج فى النقد الذى لا يحرج

(28) اسقط حين الطبع الكاف من عقودك وبدونه يبقى البيت مكسورا .

(29) يقصد المولى سليمان رحمه الله

من خلطة الناس واقطع من نفعهم اليأس فلقد قال الحريري : « اختبرت ابناء هذا الزمان فوجدت اكثرهم سقطا .. وقال ابو العلاء المعري : لو انصف الحريري لقال كلهم سقط » .

ونسبة هذا القول لابي العلاء خطأ واضح لم ينتبه اليه مصحح الكتاب ايضا وان ضعف الزياني فى الجانب الادبي لا يفقده القوة التى اشتهر بها فى تعليل الاحكام التاريخية وتدوين دقائقها ولا يفوت علينا الاستفادة من تجاربه ومغامراته وطرافة احاديثه وتنسيق افكاره ولا يمنعنا من تتبع كتبه بشوق واعجاب ، وان القاريء للترجمانة الكبرى سيشعر بقوة التصميم ودقة الملاحظة وقوة المغامرة وبراعة الترتيب ويظهر ذلك عند حديثه عن تكباته وعند جمعه للمدن والقلاع والقرى بأقطارها واقاليمها على ترتيب معجمي يقرب البعيد ويؤلف المفترق فى صفحات سماها الجامعة وهي مفيدة جدا تدل على ابداعه فى التأليف والتنسيق .

هذه نظرة عاجلة قدمناها حول كتاب الترجمانة الكبرى الذى ما زال الى الآن يحتاج الى دراسات كثيرة يقوم بها عدد من الادباء والعلماء حسب اختصاصاتهم وقدراتهم وبذلك ينيرون الطريق لمن يريد ان يتزود من ثقافتنا ويطلع على حضارتنا الخالدة .

فاس : محمد بن عبد العزيز الدباغ





ان عبقرية الاشخاص تولد معهم وتترعرع وتصلب اصولها وفروعها تبعا للاطوار والاحوال والاحتكاكات الخاصة والعامة مع البيئة والمحيط .

وهكذا يحدثنا التاريخ عن عدد من الاشخاص كانوا عباقرة ، وكانوا عظماء بكل ما تحمل كلمة العظمة من معنى . وليس المراد من العظمة التعالي والجبروت والتكبر على البشر ، بل المراد منها الترفع عن كل دنيء ومستهجن من الاشياء وعمل كل ما من شأنه ان يحيي البلاد والعباد ويخلد المآثر والمزايا للامم وللاشخاص .

واننا قد قرانا وسمعنا ورأينا من جوانب عظمة محمد الخامس طيب الله ثراه ما لا نعرفه ونشاهده الا في افذاذ مرموقين في العالم .

وقد حدا ذلك ببعض الكتاب المشهورين ان يطلق عليه لقب **محمد الثاني** ، كأنه اعتبر الثاني بعد تلكم الشخصية العالمية المقدسة عند المسلمين في مشارق الارض ومغاربها ، والتي يعتبرها حتى بعض العلماء والكتاب المتحررين في العالم الغربي اعظم رجل ظهر في العالم ، وقد دونوا ذلك في كثير من المؤلفات والكتب. ان جوانب عظمة محمد الخامس طيب الله ثراه اكبر من ان ياتي عليها الحصر ، واعلى من ان تتناولها اقلام متواضعة. وسأحاول في هاته العجالة ان اتناول جانبا واحدا منها ، وهو جانب التحرير . ولا غرابة في هذا العنوان الذي اصدر به هذا المقال فمحمد الخامس يعتبر المحرر الاكبر حقا وصدقا ، لا على الصعيد الاقليمي والوطني فحسب ، بل على الصعيد العالمي ايضا ، وذلك ما هياه لان يحرز مع الاربعة الكبار وسام المحرر العالمي ، ويحلى به صدره في حفل رهيب بباريز تحضره الدبلوماسية الدولية، وتنوه به الصحافة العالمية على اختلاف مذاهبها ومشاربها وتعدد ءاراء رجالها .

لنقلب صفحات التاريخ ، ولنرجع بذاكرتنا بعض الشيء لنرى ماذا انجزه محمد الخامس ؟ وماذا حققه في ميدان التحرير تحرير الفكر والعقيدة والارض والشخصية ؟ فقد ظهرت آثار تحرره الفكري والشخصي وهو لا يزال تحت الحجر ، وقبل ان تسند اليه مقاليد البلاد بكيفية رسمية ودولية ، فأعلنها حربا صادقة قوية على الظلم والطغيان والعبودية في جميع مظاهرها واشكالها ، وكان يربي وينصح كل من يضمهم جمعه الكريم وفي طليعتهم صاحب الجلالة خلفه الصادق الحسن الثاني نصره الله على تحرير الفكر من ءاثار العبودية والاخلاص لله تعالى والعمل له في السراء والضراء والمنشط والمكره . وبذلك التف حوله الناس جميعا ، وضحوا في سبيل اتباعه والعمل على ارضائه بكل غال ونفيس ومحبب من الاشياء .

اولا ـ تحرير الفكر

لقد علم طيب الله ثراه ان التعليم هو الاساس الاول لبناء الشخصية المومنة القوية التى يتوقف عليها سير البلاد وتقدمها وفقا لسنن الطبيعة واتباعا لما يفرضه النظام الحضاري العالمي من حيوية وفعالية وعمل دائم مستمر .. ولذلك توجهت عنايته الى تنظيم التعليم في جميع مراحله واسلاكه وانواعه على أسس حديثة راقية . ولكنه رأى بثاقب فكره النير ان هذا التنظيم لا يمكن ان يثمر ويفيد مع الاستعمار الذى يعاكس ارادة الشعوب ويسعى لابقائها جاهلة خاملة خائرة القوى معتمدة على غيرها فى كل وقت وحين . فقرر ان يترك ثلاثة انواع مهمة من التعليم الى اشرافه المباشر ورقابته الشخصية، وهي التعليم الديني والتعليم الحر وتعليم الفتاة المغربية . لان هاته الانواع الثلاثة هي روح التكوين والتهذيب والتربية الحية التي يجب ان تنشأ عليها الاجيال الصاعدة لتسير فى طريق الخير والصلاح والعمل المفيد المنتج . ورغم المحاولات العديدة لاخماد جذوة التعليم الحر من طرف المستعمرين واذنابهم ، ورغم المضايقات العديدة لرجال التعليم الديني المتبصرين والعمل على التقليل من اهميتهم لدى الخاصة والعامة وخاصة الشباب الفتي . ورغم خلو البرامج التى اعدها الاستعمار من مقومات روحية ووطنية وعدم اشتمالها على مواد من شانها ان تضمن للفتاة المغربية تكوينا صحيحا مناسبا يساعدها على القيام بدورها فى الحياة المغربية كزوجة وكأم وكربة بيت عليها يتوقف صلاح الاسرة المغربية وتقدمها ونهوضها ورفع مستواها حتى تتكون منها امة قوية ورشيدة تتعاون مع اخواتها فى العالم كله على اسس من الواقعية والعبقرية والمحافظة على المقومات الانسانية. فقد كان محمد الخامس طيب الله ثراه يعمل بحصيف فكره وصادق عزيمته ووطنيته الصادقة على تلافي كل ذلك واضفاء روح الفعالية والصلاح على البرامج التعليمية بوجه عام ، وتولى شؤون التعليم الحر والتعليم الديني وتعليم البنت بصفة خاصة ، نظرا لسوء نية المستعمر ، ولما يلعبه هذا التعليم من ادوار بعيدة المدى في بث روح الوطنية وتحقيق الشخصية المغربية والاخلاص لله والوطن والملك الذى كان ولا يزال يعتبر رمز سيادة البلاد وعنوان وجودها امة موحدة الذات والعقيدة والمطامح والتقاليد . وقد كان يبعد عن هاته الانواع من التعليم جميع العناصر المشبوه فيها . او التى لا يمكن لها ان تقوم بدور فعال على الصعيد الوطني . وكان فى صراع دائم مع الاقامة العامة ومع اذناب الاستعمار فى هذا الحقل . ولكن النتيجة النهائية والفوز والظفر كان دائما الى جانبه . وكان مآل جميع الخطط الاستعمارية الفشل الذريع . وانى للاستعمار ان يفلح مع همة تلين دونها الصخور وعزيمة لا يمكن ان يثنيها اي شيء .

ثانيا ـ تحرير العقيدة

لقد ادرك منذ نعومة اظفاره بما لقي من تعاليم اسلامية ومبادىء وطنية صالحة ان السلفية الطاهرة هي اصح واعظم عقيدة يجب أن يتربى عليها النشء المغربي ، بل والنشء المسلم فى كل الامم والشعوب. ولذلك بدأ حياته السياسية بتشجيعها ومساعدة رجالها الذين يعملون بكل قواهم على محاربة كل دخيل اجنبي من العقائد والتقاليد . ولو اتى على يد قوم يتسمون بسمة الصلاح فى الظاهر ، ويرى فيهم العامة قدوة لهم فى الدين والدنيا . فكان طيب الله ثراه من اكبر المؤيدين لعلماء السلفية فى الشرق والغرب، امثال جمال الدين الافغاني ومحمد عبده ورشيد رضى وابي شعيب الدكالي ومحمد بن العربي العلوي وغيرهم من المرموقين فى هذا المجال .

وقد كان محمد بن العربي رحمه الله يجد فيه اكبر حصن واعظم محتمى يلجأ اليه يوم كان الاستعمار فى قوته وصرامته وعظمته المتجسمة فى الحديد والنار وتعقب المصلحين والمخلصين وتشجيع جميع انواع الارهاق والظلم والطغيان .

تعندما طالب علماء البلاد بتحرير الفكر من الزيغ والقضاء على الطوائف الضالة وارجاع الامة المغربية الى سالف مجدها وعظيم قدرها لبى نداءهم واصدر اوامره الشريفة بتعقب جميع المشعوذين والمضلين والمفسدين الذين يعيشون فى الارض فسادا متسترين بستار الدين والتقوى وعبادة الله تعالى . وكان فى ذلك مؤيدا لجده المولى سليمان الذى اصدر اوامره وخطب خطبا كثيرة فى هذا المضمار ، وقد جمع بعض علماء الامة المغربية فى كتاب قام بنشره بعض المواطنين المخلصين .

وتعتبر الحركة السلفية نواة للحركة الوطنية وحركة التحرير نظرا لما كان يجمع هاته الحركات من

روابط وغايات ترجع كلها الى محاربة الاستعمار والقضاء عليه فى جميع الميادين وتخليص الافكار والاجسام والارض من ويلاته وءاثاره .

وكان يعتبر دائما ان العزة لله ولرسوله وللمومنين ، وان المومن القوي اعظم واحب الى الله من المومن الضعيف ، وبذلك كان متصلبا فى مقاومة الاستعمار ومثبطا لجميع مناوراته التى كانت ظاهرة او التى كان يعملها فى الخفاء ، او التى كان يقوم بها اشخاص مدفوعون من جانبه من ضعفاء الارادة الذين يبتغون العزة عند اعداء البلاد والعباد .

وهكذا اجتمعت الافكار بعد تشتتها ، واجتمعت كلمة المغاربة على محاربة الاستعمار ودسائسه ، ولم يشذ اي واحد من الطوائف التى كانت متعددة متقاتلة « وكل حزب بما لديهم فرحون » وامكن للمغاربة ان يخططوا للمستقبل وينقذوا شخصيتهم المهددة ويضمنوا لانفسهم حياة حرة كريمة

ثالثا ـ تحرير الارض

لقد كان هدفه يوم تولى شؤون هاته الامة ان يسير بالبلاد وفق ما تفرضه القوانين الانسانية وما تستدعيه حالتها ووضعيتها كامة موحدة الكيان موحدة التقاليد والاهداف مومنة بالله وحده . وهكذا لم يترك فرصة تمر دون ان يصرخ مناديا بتوحيد الصفوف وتثبيت الخطى حتى تسترجع الامة المغربية مكانتها ومنزلتها وترابها المغتصب الذى اغتصبه الاعداء ووزعوه بينهم توزيع العرائس والغنائم ، مع ان وضعية المغرب الحقيقية والدولية لا تسمح لهم بادخال اية تغييرات الا بموافقة وتسليم الرئيس الشرعي ملك البلاد المفدى بالارواح والمهج .

ولذلك كان يضع فى مقدمه مطالبه تحرير البلاد المغربية بجميع اجزائها وتحرير رجالها من جميع انواع السيطرة والاستغلال . وقد تفنن الاستعمار فى السيطرة والاستيلاء على جميع منابع الثروة ومصادرها عدة افانين ، وكان يدرب رجاله على ذلك بجميع انواع التدريب ، ولكن محمد الخامس طيب الله ثراه كان متيقظا وحازما ومترقبا لكل التدخلات من جانب الادارة الاجنبية التى كانت تحاول دائما اخضاعه الى ارادتها دون قيد او شرط حتى تخنق جميع انفاس الوطنيين والمومنين وتضمن لها تبعية الشعب المغربي فى الجانب الاقتصادي ايضا ، هذا الجانب الذى يعتبر اهم جانب فى الحياة . وقد قام المقيم « اريك لابون » الدبلوماسي الشهير سنة 1946 م بفتح باب الحرية السياسية من جديد . وتصالح مع الوطنيين ، ولكنه كان يهدف من وراء ذلك الى اخضاع الاقتصاد المغربي كله الى مشيئته وارادته ثم الحاقه بفرنسا « ام الوطن » حتى تنسلخ البلاد المغربية من جميع مقوماتها وتسقط امتيازاتها الدولية وتصبح تابعة لفرنسا فى كل شيء . وقد تلطف محمد الخامس فى الرد عليه واستدراجه حتى ربح الشعب من ذلك ربحا عظيما ، وحصل على مغانم كثيرة سمحت له بتنظيم صفوف المقاومة الشعبية من جديد ، ومن اعظم تلك المغانم الرحلة الملكية الى طنجة سنة 1947 م ، وقد كانت تعتبر آنذاك منطقة دولية واشراف الملك عليها انما هو اشراق للدين والشرك فقط . ولكن الخطبة التاريخية التى القاها هناك والتى اصطبغت بالصبغة الدولية قلبت وضعية المستعمر راسا على عقب وايقظت وعي الضمير العالمي وخلقت مقاومة دبلوماسية جديدة تحالفت مع جميع المقاومات حتى النصر الاخير رغم الدسائس والمكائد والمناورات العديدة .

رابعا ـ تحرير الشخصية المغربية

لقد كان من نتائج استعمار البلاد المغربية من طرف رجال ماتت فيهم الحاسة الانسانية ، وصاروا اقرب الى الحيوانات العجم ان نشا فى بعض المغاربة روح جديدة شريرة جعلتهم يتسابقون الى المستعمر وينفذون اوامره على علاتها دون اية معارضة او ابداء راي حتى انسلخ بعض الافراد من جنسيتهم ، وصاروا يكيدون للمواطنين ويتعاونون مع الاستعمار على تمزيق كيان البلاد ووحدتها والاساءة بكل ما يمكن الى رمز السيادة ، ولكن محمد الخامس كان يعمل فى كل لحظة وفى جميع المناسبات على تفهيم المغاربة اجمعين انهم مغاربة مسلمون يجب ان يدافعوا عن حقوقهم ويتظاهروا بشخصيتهم فى جميع الميادين وان لا يتركوا الفراغ لغيرهم من الاجانب فى اي ميدان حتى تتحرر الشخصية المغربية من جديد . وكان يعتبر ان المغربي عنوان من عناوين فخر هاته البلاد وان الظروف ان لم تسمح له الآن بابراز شخصيته على حقيقتها فانها ستنجلي له بالرغم

عنها قريبا ليميط عن نفسه اللثام وليظهرها فى المجال الخارجي مثلما اظهرها فى الداخل بشتى انواع الاعراب والبيان .

وقد كان يعجبه ان يزاحم المغاربة الاجانب فى كل ميدان وحتى فى المسابح والمصطافات ولا ادل على ذلك من تهلله وسروره ذات يوم عندما راى زمرة يسيرة من المغاربة يصطافون بايفران ، وقد كان محرما على المغاربة ، وقد استطاع هؤلاء ان يتخذوا الاسباب والوسائل حتى يخرقوا قرار الاستعمار الجائر فى ذلك ، حيث قال طيب الله ثراه لهؤلاء المغاربة هكذا احب ان يكون المغاربة لايسمحون لغيرهم فى حقوقهم ولا يتركون الفراغ لهم حتى يزدادوا فى الامعان فى السيطرة عليهم والتضييق عليهم فى جميع منافذ الحياة .

خامسا ـ تحرير الانسانية المعذبة

لقد هاله مثلما هال غيره من احرار العالم ان يرى احد الاجناس يستعبد الجنس الآخر ويهينه باي نوع من انواع الاهانة ، وقد تربى فى احضان الحنيفية السمحاء التى قال نبيها « لا فضل لعربي على عجمي ولا لابيض على اسود الا بالتقوى ، ان اكرمكم عند الله اتقاكم » وضج مثلما ضج اقطاب العالم ومفكروهم من ارادة الجنس الاري التغلب والسيطرة على صنوه السامي ، حيث برزت الهتليرية مبيدة الامم والشعوب ومخلفة وراءها ملايين الضحايا من الذين يستنكرون هاته المباديء الخائرة الجائرة ويعتبرونها تقهقرا ورجوعا بالانسانية الى الوراء الى شريعة الكهف والغاب .

واعلنها معهم حربا ضروسا على هؤلاء المتنطعين دفاعا على الحرية واسترجاعا للمكاسب التى حصلت عليها الانسانية بدفاع كبير وعمل متواصل طوال قرون عديدة ، وخاض المغاربة المعارك بقيادته المظفرة لتخليص العالم اجمع ولضمان الحرية والكرامة لجميع البشر ، ولقد استفاد اليهود المغاربة من دفاعه استفادة كثيرة واستطاعوا ان ينجوا من انواع التنكيل والتعذيب والتقتيل التى سلطها النازيون على مثالهم فى الدول الاخرى. وقد كان محمد الخامس يعتبرهم رعايا مغاربة لهم ما للمغاربة من حقوق ، وعليهم ما عليهم من واجبات . وبذلك اجاب النازيين يوم ان تغلبوا على الفرنسيين ونزلوا بالارض المغربية ، فلم يستطيعوا ان يصلوا الى اليهود باي نوع من الاذى . وقد ضرب بهذا اروع مثل للمومن المتشبع بالروح الديمقراطية الحقة . فهل اعتبر هؤلاء هاته الحماية فى الوقت الذى كانوا فيه احوج ما يكون اليها ؟ ولقد ظهر فى بعضهم طيش وزيغ ، ولكن كان مآله الخسران المبين ولبئس المصير .

وان فى قيام محمد الخامس رحمة الله لنصرة المباديء الديمقراطية ومحاربة النازية والفاشية وكل قوى الشر والطغيان لاعظم دليل على تشبعه بروح التحرر الديني والفكري وحبه للبشر اينما كانوا وحيثما حلوا دون تحيز الى فريق او فريق الا بدافع الحق والاخلاص للمباديء الانسانية ، وقد استحق عن جدارة ان يصفق له العالم اجمع ، ويحصل على لقب المحرر العالمي . وقد عاشت معه الحرية وعاش معها طوال عهده المليء بالمآثر والمزايا . وهي التى كانت تميزه عن كثير من رؤساء الدول والشعوب الذين كانوا متحيزين ومتعصبين الى جهة معينة ومبدا خاص وغاية محدودة ليكونوا سادة حاكمين . فما على الامم والشعوب العالمية ، وما على اليهودية بوجه خاص الا ان يرعوا هذا الجميل ويعتبروه فى جميع معاملاتهم مع رعايا محمد الخامس ، ومع امة محمد الخامس ودولته الحية الخالدة .

البيضاء : محمد بن ادريس العلمي

مواقف وحوادث ...

للأستاذ محمد العربي الشاوش

كلما اظلتنا الذكرى المباركة الخالدة ، ذكرى تربع جلالة الملك الحسن الثاني نصره الله على عرش اسلافه الكرام . عادت بنا الذاكرة الى الماضي القريب ، مستعيدة المواقف والاحداث التى شهدناها او قرانا عنها ، فاثارت فى انفسنا مشاعر الاعجاب والاجلال والتقدير . الا وان من اعظم هذه المواقف التاريخية المؤثرة ، موقف تتويج جلالة الملك الحسن الثاني ، بعد التحاق جلالة والده المنعم محمد الخامس بالرفيق الاعلى .

كان الموقف يوحي بالعظمة والجلال ، ويثير كل الاحساسات الانسانية السامية ، وكل عواطف المحبة والاخلاص والولاء لملك شاب ناهض ، علق عليه الشعب المغربي كل آماله فى النهوض والتقدم والازدهار ، لما عرفه فيه من روح عربية اسلامية متاججة ، واخلاص للمثل العليا التى كافح من اجلها الى جانب الشعب المغربي الباسل ، تحت قيادة جلالة والده قدس الله روحه .

وافتتح جلالة الحسن الثاني حفظه الله نشاطه الملكي بخطاب تاريخي قيم ومؤثر يوم ثالث مارس سنة احدى وستين وتسعمائة والف ، وهو اول خطاب لجلالته بمناسبة تتويجه الميمون ، ذلك الخطاب الذى كان بمثابة دستور خاص لجلالته ، اعلن فيه سياسته الرشيدة ، ومبادئه الحكيمة ، وعبر فيه عن مشاعره الكريمة نحو دينه وبلاده وامته . ويحسن بنا – للذكرى والتاريخ – ان نقتطف من ذلك الخطاب ما يلي :

« اعلن لك شعبي العزيز ، انني امسكت – معتمدا على الله – مقاليد الملك ، وتربعت على عرش اسلافي المنعمين ، تلبية للارادة الاجماعية التى تمثلت فى بيعتك لي ، وتنفيذا لعهد جلالة ملكنا المرحوم ، وارضاء للواجب الوطني المقدس ، وانني اعاهد الله واعاهدكم ، على ان اضطلع بمسؤولياتي ، واؤدي واجبي طبق مباديء الاسلام وقيمه السامية ، وتقاليدنا القومية العريقة ، ومقتضيات مصلحة الوطن العليا . كما اعاهد الله واعاهدكم ، على ان ادافع عن حوزة الوطن واستقلاله وسيادته ، واحرص على وحدته واعلاء شانه بين الدول . وانه لعبء ثقيل اقدره حق قدره، ولكنني عازم على النهوض به بما يجب من الجد والحزم ، والحكمة والتبصر ، مستوحيا من روح والدي المنعم ، مقتبسا من اشعة رسالته الخالدة ، متخلقا بالاخلاق التى رباني عليها، ملتزما وصاياه وتعاليمه ، سالكا مسلكه فى الحلم والعدل ، ومحبتكم ، والحنو عليكم ، وجلب كل خير لكم ، ودفع كل اذى عنكم ، واعتباره اياكم ابناء قبل اعتباركم رعايا . مستقويا الضعيف حتى آخذ الحق له ، مستضعفا القوي حتى آخذ الحق منه . معتنيا بشؤونكم ، مدافعا عن مصالحكم وانا ملككم ، مثل عنايتي بها ودفاعي عنها وانا امير بل فرد منكم ، نشأ وترعرع بينكم ، وقاسمكم مشاعركم وعواطفكم ، وشاطركم السراء والضراء . » (1)

(1) « انبعاث امة » ج 6 طبعة 1960 – 1961

هذا الخطاب الصادق الحكيم ، والنطق العاطفي الكريم ، الصادر عن الملك الشاب الصالح، ذكرني بكلمات نورانية صادقة ، صادرة من ملك فتي نابغ، الا وهو ادريس الثاني نور الله ضريحه ، الذى وقف خطيبا يوم مبايعته فقال :

« ايها الناس ، انا قد ولينا هذا الامر ، الذى يضاعف للمحسن فيه الاجر ، وللمسيء الوزر ، ونحن والحمد لله على قصد جميل ، فلا تمدوا الاعناق الى غيرنا، فان ما تطلبونه من اقامة الحق انما تجدونه عندنا . »

وكما كبر الناس زمنئذ لنبوغ الفتى ادريس ، ورباطة جأشه ، وطلاقة لسانه ، وعلموا ان الشبل ادريس الثاني هو ابن الاسد ادريس الاول رضي الله عنه الذى وحد المغرب ، واسس اول دولة اسلامية مغربية مستقلة فى القرن الثامن ، حافظت على استقلالها واسلامها وعروبتها قرونا واجيالا . كذلك كبر الناس لنبوغ الحسن الثاني ، وحصافة فكره ، وثبات موقفه ، واثنوا على ذكائه ونباهته ، وعلمه وثقافته ، وفصاحته وصراحته ، وتواضعه واستقامته ، ونبله وشهامته ، وتأكدوا ان الهزبر الحسن الثاني هو ولد الضرغام محمد الخامس محرر المغرب وموحده ، وباعث شخصيته التاريخية ومكانته الدولية فى القرن العشرين .

وتعاقبت الشهور والاعوام ، بر اثناءها الرجل الحر بما وعد ، واوفى بما عاهد ، وبرهن على مقدرة نادرة في تسيير الشؤون وتصريفها ، وتفهم الاوضاع الداخلية والخارجية وتقديرها ، فاشرأبت اليه الاعناق فى كل مكان ، وسارت بذكر مفاخره ومآثره الركبان ، وتعلقت به القلوب والانظار داخل المغرب وخارجه ، كمنقذ كبير ، وزعيم خطير ، وسياسي ماهر ، وقائد محنك ساهر ، ولا تغمز قناته ، ولا تقرع صفاته . وبهذه المواهب الالهية ، والروح العربية الاسلامية العالية ، والارادة الحديدية التى لا تصهر ، والعزيمة الصادقة التى تقهر ولا تقهر ، استطاع الملك المفدى ان ينتصر فى كافة الميادين ، وان يرفع راس المغرب عاليا بين الشرقيين والغربيين، كما استطاع ايده الله ان يحتل مكانة الزعامة الاسلامية ، والريادة العربية ، بما بذله من جهود مشكورة لنصرة العرب والمسلمين فى مشارق الارض ومغاربها .

واصبح المغرب فى عهده الزاهر مركزا للقاءات سياسية وثقافية واجتماعية هامة ، بفضل ما يتمتع به من استقرار وجمال وموقع جغرافي ممتاز . كما شهد عدة احداث تاريخية خطيرة جعلته يحتل مقام الصدارة بين الاقطار العربية والاسلامية . ولا نذهب بعيدا وامامنا « مؤتمر القمة الاسلامي » المنعقد فى الرباط فى شهر شتنبر 1969 بدعوة من جلالته لتوحيد كلمة المسلمين وجمع شتاتهم وتنظيم صفوفهم، حتى يصبحوا كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا . ثم « مؤتمر القمة العربي الخامس » الذى انعقد بالرباط ايضا فى شهر دجنبر سنة 1969 من اجل توحيد كلمة العرب وموقفهم ازاء المشاكل الخطيرة التى تواجههم ، وفى طليعتها المشكلة الفلسطينية التى تزداد خطورة يوما بعد يوم . وقد كان جلالة الملك فى المؤتمرين الكبيرين المذكورين محل اعجاب وتقدير من كافة الرؤساء العرب والمسلمين ، لما ابداه نصره الله من يقظة ودراية ومهارة فى التسيير والتوجيه ، مستلهما مواقفه الرزينة من نخوته الاسلامية ، وشهامته العربية .

ولسنا بصدد الكلام عن نتائج المؤتمرين المذكورين التى لم تكن سلبية بالنسبة للظروف النفسية والدولية المعقدة التى تسود المحافل السياسية فى الوقت الحاضر. وانما المعنا اليهما كحادثين هامين من حوادث القرن العشرين التى شهدها المغرب وخرج منها معززا مكرما بفضل جلالة الملك الحسن الثاني الرجل الذى له اسلوب ، وله فلسفة ، وله مثل عليا يسعى الى تحقيقها ، وله اهداف سامية يجتهد للوصول اليها . حفظه الله وكلل جهوده وجهاده بالفوز والنجاح ، وبارك فيه وفى ولي عهده الامير المحبوب سيدي محمد . ان ربي سميع الدعاء .

تطوان ـ محمد العربي الشاوش

التجاوب الروحي بين العرش والشعب

للأستاذ عثمان بن خضراء

ان التاريخ الذى يسجل حياة الامم والدول واعمال رجالاتها ، لا نراه الا فخورا بما يضمه اليه من صفحات لامعة ووقفات مشرفة لمليكنا الذى تعتز به العروبة وينتظم به الاسلام جلالة الحسن الثاني .

وانه ليتعين علينا بمناسبة عيد العرش السعيد ان نعبر عن شعورنا الفياض.. بل شعور شعب بأكمله نحو راعي نهضة المغرب وباني صرح مجده .. ونسجل اعماله المجيدة فى سبيل رفاهيته وعزته وكرامته .

فقد عمل جلالته على تشجيع العلم والادب واتاحة الفرصة لذوي المواهب لانطلاق قرائحهم حرة كريمة تنتج كل ما تستطيع انتاجه فى ظل الرعاية الكريمة .. ولا غرابة فى ذلك فان اهتمام ملوك الدولة العلوية بالحركة العلمية شيمة من شيم عصورهم الذهبية الزاهرة .. لقد كانوا يعفون العلماء من الاداءات المفروضة تكريما لهم وتشجيعا ، وكانت المنح تنهال على المؤلفين كالجوائز التى توزع اليوم فى مختلف الاقطار الاوربية على العلماء والباحثين والكتاب . وكانت الخزائن تقام فى كل مدينة . وكان السلطان سيدي محمد بن عبد الله من اشهر مؤلفي عصره ، كما كان المولى عبد الرحمن مصرا اشد الاصرار على تعميم التعليم الابتدائي فى الحواضر والبوادي واستخدم للوصول الى هذه الغاية جميع الوسائل التى رءاها كفيلة بتحقيق برامجه . واسس المولى محمد بن عبد الله مدرسة حرة لتلقين ضباط الجيش المغربي القراءة والكتابة واصول الفنون العسكرية .. وتخرج من هذه المدرسة قواد مهرة ادخلوا اصلاحات كثيرة على الاساليب العسكرية واستفاد المغرب من مواهبهم افادة كبرى ، وكانت الدراسات تسير على مقتضى اساليب المدارس العصرية فى ذلك الوقت . ثم توالى الملوك العلويون على اريكة العرش وتمموا الحلقة التى بداها اسلافهم منيرين بذلك لرعاياهم طريق الهداية والرشاد .

ان لعيد العرش مقاما ممتازا بين أعيادنا .. وقد كان الاحتفال به يرمز دائما الى تحقيق الرغبة الاساسية التى تولدت عنها جميع الرغبات الوطنية .. وهو الوازع العميق الذى دفع الامة المغربية منذ عدة سنوات قدما الى الامام فخاضت المعارك ، وجابهت القوات الغاشمة وضحت وصمدت وكان رائدها تخليص الوطن من الحكم الاجنبي واقامة صرح شامخ للرابطة بينها وبين العرش هذه الرابطة المقدسة التى تشد اواصرها الذكريات المجيدة والتجاوب العميق المشترك .

ان العصر الذى فرضت فيه الحماية على المغرب كان استمرارا للحملة الاستعمارية التى شنتها اوربا على بلدان ءاسيا وافريقيا .. وتسابقت فيها الى الفتح والاستيلاء قصد السيطرة على موارد الثروة

الطبيعية فى تلك الاصقاع وفتحها اسواقا للمنتجات الصناعية لاعتصار اموالها واستلاب ارزاقها وامتصاص خيراتها ، واستأثر المستعمر فى المغرب بأفضل منابع الثروة والانتاج وبشؤون البلاد يسيرها كيف يشاء . لقد اصبحت مظاهر الكبت يتسع نطاقها وتضيق حلقاتها .. وكانت مراجل الثورة تفيض بالقوة وتنبض بالحياة ، شأنها فى ذلك شأن كل قوة طبيعية تعترضها قوة غير طبيعية .. ولما اندفعت الثورة من محيطها الضيق الى افقها الكبير كانت الايدي تهتز مع القلوب وكان الاخلاص ينفعل مع طبع الخير العام ، وتخطى محمد الخامس والحسن الثاني الصفوف ليكونا فى قيادة الحركة الثورية الرائعة واذا بالثورة تجتاح كل شيء ولا تبقي من عناصر الفساد على شيء ... وكان دهاقنة الاستعمار يعلمون ان الحسن الثاني هو المخطط الرئيسي للمقاومة الشعبية والبطل الثائر فى وجه فراعنة الاستعمار الذى عرف كيف يهز اقدامهم على ارض المغرب ليحررها من الدخلاء ..

وهنا ترجع بنا الذاكرة الى فذلكة تاريخية مماثلة ... حينما قاوم المولى اسماعيل الاستعمار البرتغالي والانجليزي مقاومة سجلت اسمه فى صفوف الابطال وحرر الشواطيء المغربية من استعباد طال امده وعظم خطره وامتد أثره .. ثم كان بالمرصاد للاقطاعيين الذين كانوا يستغلون سلطتهم لارهاق الشعب المغربي واثقال كاهله .

وان المولى اسماعيل — فخر الدولة العلوية — لم يفارق هذا العالم كمحمد الخامس — طيب الله ثراه — حتى ترك المغرب حرا مستقلا .. وترك تراثا تاريخيا نغتبط كلما قرأناه او درسناه ! فنشعر بعز وقوة ماضينا المجيد .. الم يتجاوز بجيوشه الجرارة حدود المغرب الى مجاهل السودان مبشرا بمباديء الحق والعدل والاخاء ؟ الم تخاطب وده ملوك اوربا وترغب فى محالفة دولته ؟ الحق ان المولى اسماعيل بنى لهذه الدولة بناء شامخا ما تزال اسواره ماثلة للعيان تشهد بخلود هذا العرش المغربي التليد !

ان ملوك هذه الدولة العلوية من المولى اسماعيل الى الحسن الثاني كانوا رقباء لكل بادرة من البوادر عاملين على أن يجنبوا هذا المغرب حوادث الدهر وعاديات الزمن .. لقد كانت حرية المغرب وتحصينه وحفظه من عبث العابثين هدف اولئك الملوك العظام .. وان هذا الموقف الصارم هو لذى اكسب للمغرب هيبة وجلالا فى عين غيره من الدول .. فكانت تلك المحادثات والسفارات التى كونت للمغرب تاريخا دبلوماسيا حافلا .. يشهد للمغاربة بموهبة سياسية وبنصح دبلوماسي وبسمعة محترمة وبكلمة مسموعة وبنفوذ معتبر !!!

فهذا الرصيد الضخم من الحنكة السياسية والموهبة الخارقة التى يتمتع بها ملك المغرب جلالة الحسن الثاني هو الذى خص بلادنا باحتضان اول واخطر مؤتمر اسلامي تشترك فيه اربعة وعشرون دولة من مختلف قارات كرتنا الارضية تختلف السنتها والوانها وجنسياتها ومصالحها .. ولكن تخفق قلوب شعوبها بالايمان والتوحيد والسلام ..

لقد استطاع الحسن الثاني بدبلوماسيته الخارقة وسياسته اللبقة وبعد نظره السليم ان يجمع قلوبا كانت متفرقة .. ودولا كانت متباعدة .. فأصبح الجميع بنعمة الله اخوانا ثم اشرف على تسيير المؤتمر بمقدرة وعبقرية اوضحتا ما يتوفر عليه فكره من علم واسع وما يختلج به قلبه من ايمان متدفق وحب عميق للاسلام والمسلمين .

وقد ابدى الرؤساء المسلمون اعجابهم الكبير للملك الحسن الثاني لما بذله من جهود مشكورة كانت العامل الاول لنجاح مؤتمر القمة الاسلامي الذى يعتبر الخطوة الاولى نحو تضامن اسلامي شامل وتمتين علاقات الصداقة والتفاهم بين البلدان الاسلامية .

ان ذلك الاجتماع التاريخي وما تمخض عنه من قرارات حكيمة يعتبر اللبنة الاولى فى صرح التعاون الاسلامي فى مختلف الميادين ، وسيكون بحول الله وقوته ، نقطة التحول فى علاقات الدول الاسلامية مع بعضها ومع جميع دول العالم .

وبقيت ذكرى هذا المؤتمر ماثلة امام العالم الاسلامي وشخصية الحسن الثاني لا تغيب فى نفوس الملايين من المسلمين والعرب على السواء .

وقد قرر المؤرخون انه من الوسائل التى اعانت الدولة العلوية على تثبيت دعائم المملكة المغربية والسمو بمكانتها ان نظمت عدة سفارات مع غيرها من الدول ليكونوا دائما على اتصال وثيق فيما بينهم ولتبتعد عنهم سحب الحروب والمهالك ..

ويلعب المغرب دورا بارزا في تسيير السياسة الافريقية والدولية في الظروف الراهنة بفضل سياسة ملكه القائمة على التعايش السلمي والاحترام المتبادل وهي السياسة التي ورثها عن اجداده الملوك العلويين مثل المولى اسماعيل الكبير وسيدي محمد ابن عبد الله وقد أسس الاول اسطولا تجاريا يكون همزة الوصل بين المغرب والاسفار الى الخارج واسطولا حربيا يساعد على قتال كل من اعتدى على البلاد ويضفي على المغرب هيبة واحتراما .. ونفس هذه الغاية يستهدفها الحسن الثاني من تجديد اسطولنا البحري وبنائه على اسس متينة وتثبيت دعائمه بسلاح جوي منيع تتكون اطره في مدارس حربية ذائعة الصيت تفتخر بالعديد من متخرجيها !!!

ويمكننا ان نحدد فلسفة الحسن الثاني كما تتجلى في مختلف الميادين بما يلي :

العمل الجدي والتضحية الحقة في الداخل .. والسياسة المتزنة في الخارج فلسفة تستمد جذورها من طعم الثقافة والعلم والاخلاق والفطنة والذكاء وحب الصالح العام وهي العوامل الفلسفية التي جعلت الحسن الثاني يحيا بحياة امته ويسعد بسعادتها وهذا هو سر الصلة الوثيقة الثابتة المتمكنة بينه وبين شعبه .. لم تضعف هذه الصلة ولم تزدها الايام الا قوة ومتانة ..

نعم .. فلا عجب اذا كان اسعد ايام العاهل واسعد ايام الشعب هي تلك التي يتصل فيها الملك بشعبه وهي افراح العرش والشعب .

ان العرش والشعب مرتبطان ارتباط الروح بالجسد .. ولقد اعطى الشعب الدليل العملي على هذا التفاني وهذا الاخلاص في كل مناسبة خصوصا اثناء الاحداث المؤلمة التي تسببت في اضطراب حبل السلامة العامة بالبلاد سنة 1953

نعم .. لقد كان الحسن الثاني حفظه الله ينظر الى الوطنية والكفاح والتحرر من منظار يعكس بصدق اماني الشعب .. فخاض بذلك بجانب والده المنعم اعظم واشرف معارك التاريخ في سبيل الاستقلال وحرية ووحدة الشعب . وان هذا الكفاح لهو رد فعل محتم للاوضاع الاستعمارية المستمرة .. وهو تأكيد ايجابي لكرامة الانسان وحقوقه الاساسية .

ان احد الدوافع الكبرى لهذه الحركة الثورية التي خاضها الحسن الثاني هو التحرق للخروج بهذا الشعب من العزلة المادية والفكرية التي فرضها الحكم الاستعماري وتحقيق رخاء الشعب وتوجيه طاقاته الخلاقة ومهارته الفنية من اجل بناء الاستقلال .

وان الشعب ليلتف اليوم وقلبه يجيش حبا وولاء ليواصل بقيادة ملكه الحكيمة ورعايته السامية معركة بناء الاستقلال في الحقول والمصانع والادارات بكل ثقة وحيوية وايمان والوطن يدين لشعبية هذا الملك المتفتحة وحدبه المتواصل وابوته المتعالية .. ويمتن لجهاده الصامت وكفاحه المستمر والطافح بأسمى بطولة وامثل تفدية !

وهذه افراح العرش والشعب تطلق فيها الجماهير الشعبية لعواطفها العنان كعادتها ، وتعبر بمظاهر الحفاوة عن مدى تعلقها بالعرش المجيد وتفانيها في حب الحسن الثاني الذى اخلص لها الحب ووفى بما عاهد الله عليه : حدب على مصالح المواطنين وبذل في سبيل المحافظة على سيادة الوطن وعزته وكرامته .. فاخلصت له الحب ووفت بعهدها في السير وراءه نحو قمة المجد والعلاء والرخاء وارساء دعائم الحرية والعزة والاستقرار .

سلا : عثمان بن خضراء

بمناسبة الذكرى التاسعة لتربع الحسن الثاني على عرش أسلافه المنعمين

أبدا... لم يرَ الزمان لك الندَّ..

للشاعر : عبد الكريم التواتي

هام شعري بعرشكم فتتالى | وجرى نثره شهيا زلالا
حسن ، انت فى المحاسن آيـ | ـات . سبتنا روائعا وجلالا
منطق صائب . وعقل حكيم | وهدى ملهم يبيد الضلالا
اى شيء فى عيد عرشك لا يبـ | ـدو افتتانا ولا يغني ارتجالا
الربيع انتشى ، وغازل اغصـ | ـان الدوالي . فبادلته الوصالا
وزهور النسرين تضحك نشوى | والاقاحي وورودها تتلالا
والحساسين والجداول والانـ | ـسام ماست . ورجعت ازجالا

* * *

كل شيء فى عيد عرشك يختـ | ـال ازدهاء ونشوة ودلالا
عيد عرش مواكب النصر تزهو | فيه صبحا ، وتزدهي آصالا
فيه عمت بشائر الانس ، بالـ | ـلذة انس يدغدغ الاوصالا
ويهز القلوب شوقا وتهيـ | ـاما ، ويضفي على الوجود جمالا
انه عيد أمة الحسن الثانـ | ـي ، وذكرى عرش تناهى اكتمالا

* * *

عرش أبناء هاشم من بهم شعـ | ـري اشاق الازمان والاجيالا
هو عرش اقام للدين آطا | ما تسامت ، وللدنى آمالا

اغدق العالمين من فيضه صيـ   ـبا ، واضفى من هديه سربالا
عز ان يدرك الورى شأوه الاسـ   ـمى، فباتوا يستروحون الثمالا
يتمنون من جداه التفاتا   ويودون فى حماه ظلالا

* * *

وانا شاعر يرسم في صدق   عطاكم . فاستنطق الاعمالا
رام امجادكم فأعياه مارا   م : فأغضى مهابة وجلالا
ومضى يرسل الاهازيج والشعـ   ـر ، وبشدو تخشعا وابتهالا
صاغ آلاءكم عقود جمان   اكسبته محاسنا وجمالا
ود لو صاغ قلبه زهرات   عطرات الولاء معنى وقالا

* * *

يا ابن من شيدوا الحياة وهاموا   بالمعالي . فاسترخصوا الآجالا
عشقتكم أرض الامازيغ واستهـ   ـوت بنيها مناقب تتلالا
همة حرة وخلق قويـ   ـم ونفوس أبية تتعالى
واصول عريقها ليل انجـ   ـاد . اتادوا للمكرمات الجبالا
صفوة الخلق انتم والامازيـ   ـغ اباة . يستقطبون الكمالا

* * *

الامازيغ يا طلاوة شعـ   ـب كان دوما على العدا اهوالا
يتحدى الاحداث فى شمم حـ   ـر ، ويابى من القضاء المطالا
انهم فى الوغى مساعر حرب   الفوا حربها . ولدوا القتالا
ارضعتهم ارض البطولات ارض المغـ   ـرب الاقصى ، درها اطفالا
فاستهانوا الخطوب واستسهلوا الصعـ   ـب ، وعاشوا حياتهم اقيالا

* * *

وجرت ريحهم رخاء ليالـ   ـي ترضاهم القضا اقبالا

* * *

واستدار الزمان وانتثر العقـ   ـد ، وباتت احوالهم اوحالا
وشؤون الايام نعمى وبؤسى   قد تسر الورى وتفجع حالا
غالهم دهرهم فامسوا حيارى   فى الدياجير اوغلوا ايغالا

ودهتهم عواصف هـوج ، فاجتثـ ـت ذراهم ، وصبحـوا زلـزالا
وهـوى نجمهـم تقاذفـه المـ ـوج سحيقا ، يغالـب الاهـوالا
ولقد اصبحـوا كـأن لا مطايـا قـد اناخـت بساحهـم ارتـالا
وكأن لم تـك العظائـم يومـا تتملـى بنودهـم اجـلالا
قد غدوا للاهواء طعمـا ، ولـلاعـ ـداء مرمـى ، وللرزايـا منـالا
حسرتا حسرتا ، عليهـم وتعسـا لزمـان جـرى عليهـم محـالا

❊ ❊ ❊

أوشك اليـأس يعتريهـم فانجدتـ ـم بفتـح امدهـم آمـالا
وتناديتـم من اقاصـي البـراري انجـدوا اخـوة كرامـا وآلا
والامازيـغ والعروبـة ـ مذكـ ـانوا ـ اشقاء يفتـدون الرجـالا
وحدتهـم منـابـت واصـول ودمـاء تلاحمـت انسـالا

❊ ❊ ❊

ووفدتـم ارض الامازيـغ يا نعـ ـم مقامـا وفدتـم وحـلالا (1)
فاذا الارض والمرابـع نشـوى زغردت فرحـة وبشـرى وفـالا
وحللتـم فكنتـم الفجـر وضـ ـاح المحيا ، والنور هـل هـلالا
وبنو هاشـم متـى ما اقامـوا بمفـازات فجـروهـا زلالا
شاد آباؤكـم على العـدل والديـ ـن وجودا رسـا بنـى وتعالـى
شهـد اللـه والامازيـغ ان كنـ ـتم لنا حصنـا قـاوم الاهـوالا
رئب الصـدع ، والتمـرد أمسـى بهداكـم تآخيـا وامتثـالا
وحد العرش رأينـا ، فاذا الشمـ ـل جميع ، والخلف ولـى وزالا
فتخذناكـم للعقائـد نهجـا ولدنيانـا قـدوة ومثـالا

❊ ❊ ❊

حسن ، شاء رب عرشـك نصـرا للامازيـغ ، فاجتبـوا لـك ~~آلا~~
وأتى عهدك الربيـع افـاض الـ ـخصب ثرا ، وارهـق الامحـالا
فالسعـادات فى حمـاك اناخـت والرخاء ازدهـى بها واستطـالا
وتجمـت للامازيـغ غايـ ـات ، رأوا فضلها عليهم تتالـى
ورأوا درب رأيكـم خيـر درب سلكـوه فنكبـوا الاخطـالا
فأتوا مهطعيـن يزجـون حمـدا غمـر السهـل نـوؤه والجبـالا

---

1) الحـلال بكسر الحاء جمع حلة وهي المجلس والمجتمـع .

وتواصوا ان سوف يرسون للعـــ ـــرش صروحا ، بوئت منها الكمالا
انه الحب صادقا والتحايا زكيات تستمطر الاقبالا

* * *

ارجف القائلون انك ثان واتاهوا التاريخ والاجيالا
انما انت في المحامد فرد عز شانا ومرتقى ومنالا
ابدا لم يرى الزمان لك النـــ ـــد ، ولم تخلق الحياة المثالا
رمت من دهرك المآثر فاستهـــ ـــدف ما تبتغي ، فعاني المحالا
ولقد رام عجم عودك فاستعـــ ـــصى ، مضاء وهمة ونضالا
لم تهن منك شدة الصعب عزما انما الهمتك عزما تعالى

* * *

قدت في حنكة مقاليد شعب لك القى الزمام والآجالا
فتعهدت شانه غير وان .... وتحملت امنيات ثقالا
وبلوت السراء من امره آنا ، وآنا ضراءه اشكالا

* * *

ورايت العرفان خير نجاء ورايت النجا بلاه محالا
فسننت التعليم جبرا ، وكرمـــ ـــت رجالاته سنا وجلالا
شدت للعلم سامقات المباني عذبت مجتنى وطابت منالا
معهد اثر معهد وصروح الـــ ـــجهل تهوي وتمحي اضمحالا

* * *

ورايت التصنيع أس الحضارا ت فخصصت للمصانع مالا
وبثثت البلاد طولا وعرضا تقنيات حبوتها اجلالا
اي ركن في المغرب الحر لم تســـ ـــعد اياديك ، سهله والجبالا ؟
وتصديت للفلاحة توليها اعتنـــ ـــاء ، وتصطفيها مجالا
ورايت السدود شريانها الحيـــ ـــى ، فاغدقت شانها افضالا
شدت منها مفاخرا تتحدى الدهـــ ـــر خلدا ، وتبهر الاجيالا

* * *

حـــــن ، ما ارى مفاخـــرك الجـــ ـــلى لها منتهى . ســنــا وكمـــالا

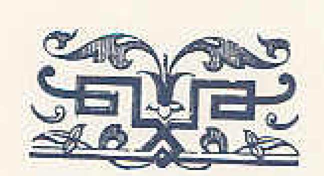
عجز الشعر ان يفي حقهـــا وصفـــ ـــا فأمســـى ينمـــق الاقـــوالا

ذاك شـــأوى مـــن قـــدره فتقبلـــ ـــه جميلا . تضـفي عليـــه جمـــالا

واقل عثرتي ، فقـــد كـــل اعجـــ ـــازي ، ونـــاءت كواهلـــي اثقـــالا

وانـــا ما بلغـــت سؤلـــي ولكـــن ذاك حبـــي ارسلتـــه امثـــالا

فاس : عبد الكريم التواتي



فهرس العدد الخاص بمناسبة عيد العرش